تجريد الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -

قام بتجريده

د/ أحمد بن عبدالله العمّاري الزهراني

عميد كلية القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً




بسم الله الرحمن الرحيم
حقوق الطبع محفوظة
دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به
0125562986 | yyy.01@hotmail.com



الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام علىٰ خير رسول، وخير مخلوق، محمد بن عبدالله -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن عداوة أهل الكتاب لدين الإسلام ونبيه الذي أُرسِلَ به قديمة، وقد سطرها الله تعالىٰ في كتابه العزيز فقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وشأنهم وديدنهم ودأبهم السعي في تضليل المسلمين، والحرص علىٰ كفرهم وإخراجهم من دينهم حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والنصارىٰ قد أقام النبي عليه السلام عليهم الحجة عندما قدم إليه وفد نجران، وصار بينه وبينهم حوار، بعدما تلا عليهم أول سورة آل عمران، وكتبه التي كتبها إلىٰ ملوك النصارىٰ كهرقل والمقوقس وغيرهم، فأقام عليهم الحجة، إلا أنهم لم يؤمنوا، بل تكبروا وأراد عليه السلام مباهلتهم فخافوا وامتنعوا وطلبوا منه عليه السلام أن يمهلهم حتىٰ يشتوروا.

يقول ابن تيمية: (وأما النصارىٰ: فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارىٰ، فقدم عليه وفدهم ستون راكبًا، وناظرهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران.

ولما ظهرت حجته عليهم، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، كما ذكر ذلك في سورة آل عمران ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٦١].

فلما دعاهم إلىٰ المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتىٰ يشتوروا، فاشتوروا، فقال بعضهم لبعضٍ: تعلمون أنه نبيٌّ، وأنه ما باهل قومٌ نبيًّا إلا نزل بهم العذاب، فاستعفوا من المباهلة، فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يدٍ وهم صاغرون، لما خافوا من دعائه عليهم؛ لعلمهم أنه نبيٌّ، فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهم أول من أدىٰ الجزية من النصارىٰ، واستعمل عليهم وعلىٰ من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابًا مشهورًا، يذكر فيه شرائع الدين، فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله، ونائب رسوله: عمرو بن حزم الأنصاري.

وقصتهم مشهورةٌ متواترةٌ، نقلها أهل السير وأهل الحديث وأهل الفقه، وأصل حديثهم معروفٌ في الصحاح والسنن، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ)(١).

وقد كتب الله عليهم الضلال، كما كتب علىٰ اليهود الغضب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧].

والنصارىٰ أهل تحريف وتأويل فاسد، وقد أُلفت في بيان ضلالهم وتحريفهم وتأويلهم وتناقضاتهم كتب كثيرة، لكن من أعظمها قدرا كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالىٰ - الموسوم بـ «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**» وكان لتأليفه سبب بيِّن يقول ابن تيمية رحمه الله:

[وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتابًا ورد من قبرص، فيه الاحتجاج لدين النصارىٰ بما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء ملتهم قديمًا وحديثًا، من الحجج السمعية والعقلية، فاقتضىٰ ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأتبع كل فصلٍ بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلًا، وعقدًا وحلًّا، وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم علىٰ بعض بحسب الأحوال، فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم والنسخ بها موجودةٌ قديمةٌ، وهي مضافةٌ إلىٰ بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلىٰ بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية.

---

(١) انظر: ص ٢٤.

وذكر أنه لما سافر إلىٰ بلاد الروم والقسطنطينية، وبلاد الملافطة(١)، وبعض أعمال الإفرنج وورومية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم، وقد عظم هذه الرسالة وسماها «الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم»](٢).

ويقول الشيخ سفر الحوالي: (إن سبب تأليف شيخ الإسلام لكتابه: هو أن أحد بطارقتهم وعلماء دينهم اجتاز بعض أنحاء العالم الإسلامي في تركيا وغيرها، وعاد إليهم وأخذ يخطب ويقول:

«إن المسلمين علىٰ دين باطل محرّف، وإني قد قابلت علماءهم وناظرتهم فأفحمتهم وأبطلت دينهم، وحطمت شبهاتهم» إلىٰ آخر ما افترىٰ وكذب به هذا المفتري، فلما بلغ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أخذته الغيرة الإيمانية، فجرد سيف الحق علىٰ هذا الباطل، وسيف الحجة الإيمانية علىٰ تلك الشبهات المفتراة الداحضة، ففندها واحدة واحدة، وأبطل كلامهم، وجاءنا بهذا الكتاب الفذ الذي لم يكتب قبله مثله ولا بعده)(٣).اهـ.

وقد اطَّلعت علىٰ هذا السفر العظيم من خلال تحقيق الشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي له فرأيت فيه ما يحيّر العقول ويدهشها، من المسائل والفوائد والأدلة النقلية والعقلية، ولذا كثر فيه التكرار والاستطراد، التي تخرج القارئ عن الموضوع الذي هو فيه، مع فوائد ذلك التكرار والاستطراد، وقد قام

---

(١) وربما تسمىٰ بلاد «المَلْفَجُوْط» قال في تقويم البلدان: بفتح الميم، وسكون اللام، وفتح الفاء، وضم الجيم، وسكون الواو، وطاء مهملة في الآخر «هم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به، وبلادهم من أعمال قسطنطينية علىٰ ساحل بحر الروم».

(٢) انظر ص١٠.

(٣) انظر مقدمة الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ص٢٠.

الشيخ سفر الحوالي بذكر ما تضمنه الكتاب، وبيان جهود شيخ الإسلام في دحضه لشبهات النصارىٰ الفاسدة وغيرهم(١).

قلتُ: وكان لشيخ الإسلام حوار ومخاطبات مع بعض رجال النصارىٰ في عصره وإلزامهم بكلامهم، فيقول في ص١٣٣].

[وقد خاطبتُ بهذا بعض النصارىٰ، فقال لي: الروح بسيطة، أي لا يلحقها ألمٌ.

فقلت له: فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت: أمنعمةٌ، أو معذبةٌ؟.

فقال: هي في العذاب.

فقلت: فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب، فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن، لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت، كما تتألم الروح إذا تألم البدن، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك. انتهىٰ.

كما وجدت له ردودًا علىٰ بعض من كتب تاريخ النصارىٰ ومقالاتهم، مثل سعيد البطريق وغيره.

ولما تصفَّحتُ الكتاب من أوله إلىٰ آخره، عنّ لي تجريده مما ليس له تعلق بالنصارىٰ ودينهم، فعقدت العزم علىٰ تجريده من التكرار والاستطراد، والمسائل التي ليس لها علاقة بموضوع النصارىٰ، واقتصرت علىٰ ما هو متعلق بالنصارىٰ وأحوالهم، واعتمدت في ذلك علىٰ النسخة المحققة، من قبل الشيخ سفر الحوالي- جزاه الله خيرًا - خاصة فيما يحيله إلىٰ كتب الأناجيل، وتخريج الأحاديث، وترجمت لعدد من الأعلام والمواقع.

---

(١) انظر مقدمة الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ص٢٤-٦٥.

كما ذكر شيخ الإسلام رسالة للحسن بن أيوب أحد كبار علماء النصارىٰ كاملة في الرد علىٰ النصارىٰ، وبيان بطلان مقالتهم، وأثنىٰ عليها وزكاها، وقد عثرت عليها مطبوعة محققة كاملة بعنوان «لماذا أسلمت» في ستة وثلاثين ومائة صفحة قام بتحقيقها الأستاذ/ محمود النيجيري، كرسالة ماجستير في مقارنة الأديان، نشر مكتبة النافذة بمصر، عام ٢٠٠٦م، وقد استفدت منها في تراجم بعض الأعلام، والإحالة إلىٰ بعض كتب الأناجيل، وذكر بعض العناوين والشبه والرد عليها، وهي مذكورة في ص١٣٣-٢٢٠.

كما ذكر تاريخ سعيد بن البطريك في تاريخ النصارىٰ والرد علىٰ مقالاتهم، ورد عليه ابن تيمية في مواطن متعددة. انظر ص٢٢٠ وما بعدها.

والحمد لله رب العالمين كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

كتبه وحرره

الدكتور/ أحمد بن عبدالله العماري الزهراني - أبو عاصم

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين الأحياء منهم والأموات.

آمين يا رب العالمين.

وكان الفراغ منه في أول شهر رمضان المبارك لعام ١٤٣٧هـ.

*****

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالىٰ–

لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، الحي القيوم، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، له الأسماء الحسنىٰ، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله، وكفىٰ بالله شهيدًا، أرسله بالحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله إلىٰ جميع الثقلين: الجن والإنس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنزل عليه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم، ويهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢].

وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وهو دين الله الذي بعث به الرسل قبله، كما قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣].

فدين الأنبياء والمرسلين دينٌ واحدٌ، وإن كان لكلٍ من التوراة والإنجيل والقرآن شرعةٌ ومنهاجٌ، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**» (١).

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كما ذكر ذلك في سورة الزمر آية (٣٠-٣٢).

وقد خص الله تبارك وتعالىٰ محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بخصائص ميَّزه بها علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعةً ومنهاجًا، أفضل شرعةٍ، وأكمل منهاجٍ، كما جعل أمته خير أمةٍ أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمةٍ، هم خيرها وأكرمها علىٰ الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطًا عدولًا خيارًا، فهم وسطٌ في توحيد الله، وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله، وكتبه، وشرائع دينه: من الأمر والنهي، والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، لم يحرم عليهم شيئًا من الطيبات، كما حرم علىٰ اليهود، ولم يحل لهم شيئًا من الخبائث، كما استحلتها النصارىٰ.

ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة، كما ضيق علىٰ اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث، كما رفعته النصارىٰ، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عُبَّادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتىٰ يقال في فضائل

(١) أخرجه البخاري برقم [٣٤٤٢]، ومسلم برقم [٢٣٦٥].

الراهب: له أربعين سنة ما مس الماء.

ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل؛ وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيتٍ واحدٍ، والنصارىٰ لا يحرمون وطء الحائض، وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض، والنصارىٰ ليس عندهم شيءٌ نجسٌ يحرم أكله، أو تحرم الصلاة معه.

وكذلك المسلمون وسطٌ في الشريعة، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئًا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعًا لم يأذن به الله كما فعلت النصارىٰ، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارىٰ، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود.

ولا جعلوا الخالق سبحانه متصفًا بخصائص المخلوق، ونقائصه، ومعايبه: من الفقر، والبخل، والعجز كفعل اليهود، ولا المخلوق متصفًا بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيءٌ كفعل النصارىٰ، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارىٰ.

وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل، فهم وسطٌ في باب صفات الله ﷻ بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله، من غير تعطيل ولا تمثيل، إثباتًا لصفات الكمال، وتنزيهًا له عن أن يكون له فيها أندادًا وأمثالًا، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

– فجمع الله لأمته بخاتم المرسلين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم أجمعين، ما فرقه في غيرهم من الفضائل، وزادهم من فضله أنواع الفواضل، بل آتاهم

كفلين من رحمته، كما ذكر ذلك في سورة [الحديد ٢٨-٢٩].

وفي الصحيحين عن ابن عمر وأبي موسىٰ عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «**إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ، مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَىٰ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَأَنْتُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ أَلَا لَكُمُ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، فَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا، وَأَقَلُّ عَطَاءً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: فَهَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا، قَالُوا: لَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ فَضْلِي أُعْطِيهِ مَنْ شِئْتُ**» (١).

أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالىٰ جعل محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ خاتم النبيين، وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه علىٰ حين فترةٍ من الرسل، وظهور الكفر، وانطماس السبل، فأحيا به ما دُرِسَ من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك: من عباد الأوثان، والنيران، والصلبان، وأذل به كفار أهل الكتاب: أهل الشك والارتياب، وأقام به منار دينه الذي ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده، واصطفاه، وأظهر به ما كان مخفيًّا عند أهل الكتاب، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب، وحقق به صدق التوراة، والزبور، والإنجيل، وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٧) عن ابن عمر، وأخرجه البخاري برقم (٥٥٨) عن أبي موسىٰ، وبين لفظي الحديثين اختلاف يسير، ولم يخرج مسلم الحديثين، انظر البخاري الحديث رقم (٢٢٦٨، ٢٢٦٩، ٣٤٥٩، ٥٠٢١، ٧٤٦٧، ٧٥٣٣).

التحريف والتبديل.

وكان من سنة الله تبارك وتعالىٰ مُواتَرَة الرسل، وتعميم الخلق بهم، بحيث يبعث في كل أمةٍ رسولًا؛ ليعم هداه وحجته، وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام، الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحدٍ دينًا غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين، وهو دين الأنبياء وأتباعهم، كما أخبر الله تعالىٰ بذلك عن نوح، ومن بعده إلىٰ الحواريين.

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالىٰ في كل زمانٍ ومكانٍ بطاعة رسله، فلا يكون عابدًا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله، فلا يكون مؤمنًا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنًا به، ولا عابدًا له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه، فيطاع كل رسولٍ إلىٰ أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعة للرسول الثاني.

ومن فرق بين رسله، فآمن ببعض، وكفر ببعض كان كافرًا، فلما كان محمدٌ عليه السلام خاتم النبيين، ولم يكن بعده رسولٌ، ولا من يجدد الدين لم يزل الله سبحانه وتعالىٰ يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضيًا لظهوره كما وعد به في الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان، ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده.

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهورُ المعارضين لهم من أهل الإفك المبين.

وذلك أن الحق إذا جُحد وعُورض بالشبهات، أقام الله تعالىٰ له ما يحق به الحق، ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من أدلة الحق، وبراهينه

الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة.

فالقرآن لما كذب به المشركون، واجتهدوا علىٰ إبطاله بكل طريقٍ مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله، ثم بالإتيان بعشر سورٍ، ثم بالإتيان بسورةٍ واحدةٍ، كان ذلك مما دلّ ذوي الألباب علىٰ عجزهم عن المعارضة، مع شدة الاجتهاد، وقوة الأسباب، ولو اتبعوه من غير معارضةٍ وإصرارٍ علىٰ التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته، التي بها يتم الدليل.

وكذلك السحرة لما عارضوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبطل الله ما جاءوا به كان ذلك، مما بيَّن الله تبارك وتعالىٰ به صدق ما جاء به موسىٰ.

وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمىٰ بالمعجزات، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة، وما للشيطان من التصرفات، فإن بين هذين فروقًا متعددةً.

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن - الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورًا - إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به علىٰ دينهم المخالف لدين الرسول، ويموهون في ذلك بما يلفقونه من منقولٍ ومعقولٍ، كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد بظهوره علىٰ الدين كله بالبيان والحجة والبرهان، ثم بالسيف واليد والسنان.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالىٰ من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل، والخالي من العاطل، والهدىٰ من الضلال، والصدق من المحال،

والغي من الرشاد، والصلاح من الفساد، والخطأ من السداد، وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب.

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عوده المائل، أقام الله تبارك وتعالىٰ من يقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال أن أهله من أضل الضلال، حتىٰ يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سنة الرقاد من كان لا يميز الغي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين.

فإن ما ذمَّ الله به اليهود والنصارىٰ في كتابه - مثل تكذيب الحق المخالف للهوىٰ، والاستكبار عن قبوله، وحسد أهله، والبغي عليهم، واتباع سبيل الغي والبخل والجبن وقسوة القلوب، ووصف الله سبحانه وتعالىٰ بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم، وجحد ما وصف به نفسه من صفات الكمال المختصة به، التي لا يماثله فيها مخلوق، وبمثل الغلو في الأنبياء والصالحين، والإشراك في العبادة لرب العالمين والقول بالحلول والاتحاد الذي يجعل العبد المخلوق

هو رب العباد، والخروج في أعمال الدين عن شرائع الأنبياء والمرسلين، والعمل بمجرد هوىٰ القلب وَذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ في الدين، من غير اتباع العلم الذي أنزله الله في كتابه المبين، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أربابًا يتبعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء، كما ذكر الله ذلك في سورة [التوبة:٣١].

ومخالفة صريح المعقول، وصحيح المنقول بما يظن أنه من التنزلات الإلهية، والفتوحات القدسية، مع كونه من وساوس اللعين، حتىٰ يكون صاحبها ممن قال الله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠].

إلىٰ غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التي ذم الله بها أهل الكتابين - فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار، وجعل ما حلّ بها عبرةً لأولي الأبصار.

وقد أخبر النبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لا بد من وقوعها في بعض هذه الأمة، وإن كان قد أخبر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لا يزال في أمته أمةٌ قائمةٌ علىٰ الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة، وأن أمته لا تجتمع علىٰ ضلالةٍ، ولا يغلبها من سواها من الأمم، بل لا تزال منصورةً متبعةً لنبيها المهدي المنصور.

لكن لا بد أن يكون فيها من يتتبع سنن اليهود والنصارىٰ، والروم والمجوس، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه **قال**: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، قَالَ: «**فَمَنْ؟**» (١).

وفي «الصحيحين» أيضًا عن أبي سعيد عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه **قال**: «**لَتَأْخُذُ أُمَّتِي مَأْخَذَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَارِسَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٥٦) عن أبي هريرة، ومسلم برقم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد.

وَالرُّومَ، قَالَ: «فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ» (١).

وفي المظهرين للإسلام منافقون، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار تحت اليهود والنصارىٰ، فلهذا كان ما ذمّ الله به اليهود والنصارىٰ، قد يوجد في المنافقين المنتسبين للإسلام الذين يظهرون الإيمان بجميع ما جاء به الرسول، ويبطنون خلاف ذلك كالملاحدة الباطنية، فضلًا عمّن يظهر الإلحاد منهم.

ويوجد بعض ذلك في أهل البدع ممن هو مقر بعموم رسالة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ باطنًا وظاهرًا؛ لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه علىٰ هؤلاء، فاتبع المتشابه وترك المحكم، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء.

وللنصارىٰ في صفات الله سبحانه وتعالىٰ، واتحاده بالمخلوقات ضلالٌ، شاركهم فيه كثير من هؤلاء، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالًا من النصارىٰ.

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتابًا ورد من قبرص، فيه الاحتجاج لدين النصارىٰ بما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء مِلّتهم قديمًا وحديثًا، من الحجج السمعية والعقلية، فاقتضىٰ ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأتبع كل فصلٍ بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلًا، وعقدًا وحلًّا.

وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم علىٰ بعض بحسب

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣١٩)، ومسلم برقم (٢٦٦٩)

الأحوال.

فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم والنسخ بها موجودةٌ قديمةٌ، وهي مضافةٌ إلىٰ بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلىٰ بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية.

وذكر أنه لما سافر إلىٰ بلاد الروم والقسطنطينية، وبلاد الملافطة، وبعض أعمال الإفرنج ورومية، واجتمع بأجلَّاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم، وقد عظم هذه الرسالة وسماها «الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم».

ومضمون ذلك ستة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمدًا ﷺ لم يبعث إليهم، بل إلىٰ أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدل علىٰ ذلك، والعقل يدل علىٰ ذلك.

الفصل الثاني: دعواهم أن محمدًا ﷺ أثنىٰ في القرآن علىٰ دينهم الذي هم عليه، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

الفصل الثالث: دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين، كالتوراة، والزبور، والإنجيل، وغير ذلك من النبوات، تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد، وغير ذلك بأنه حقٌّ وصوابٌ، فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه إذ لم يعارضه شرعٌ يرفعه، ولا عقلٌ يدفعه.

والفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابتٌ بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافقٌ للأصول.

والفصل الخامس: دعواهم أنهم موحدون، والاعتذار عما يقولونه من

ألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة كألفاظ الأقانيم، فإن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

والفصل السادس: أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسىٰ عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلىٰ شرعٍ يزيد علىٰ الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعًا غير مقبولٍ.

ونحن ولله الحمد والمنة نبين أن كلّ ما احتجوا به من حجةٍ سمعيةٍ من القرآن، أو من الكتب المتقدمة علىٰ القرآن، أو عقليةٍ فلا حجة لهم في شيءٍ منها، بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حجةٌ عليهم، لا لهم.

بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسه حجةٌ عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازين التي هي مقاييس عقلية، وإنما عامة ما عند القوم ألفاظٌ متشابهةٌ تمسكوا بها ظنوها تدل عليه، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة، مع ما يقترن بذلك من الأهواء، وهذه حال أهل الباطل، كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣].

*****

[دين النصارى دين مبتدع]

- وذلك أن دين النصارىٰ الباطل إنما هو دينٌ مبتدعٌ، ابتدعوه بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيّروا به دين المسيح، فضلّ منهم من عدل عن شريعة المسيح إلىٰ ما ابتدعوه.

- ثم لما بعث الله محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني، كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ .

- ونبين إن شاء الله أن ما عليه النصارىٰ من التثليث والاتحاد لم يدل عليه شيءٌ من كتب الله، لا الإنجيل ولا غيره، بل دلت علىٰ نقيض ذلك، ولا دلّ علىٰ ذلك عقلٌ، بل العقل الصريح مع نصوص الأنبياء تدل علىٰ نقيض ذلك، بل وكذلك عامة شرائع دينهم محدثةٌ مبتدعةٌ لم يشرعها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ثم التكذيب لمحمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو كفرهم المعلوم لكل مسلمٍ، مثل كفر اليهود بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبلغ، وهم يبالغون في تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير؛ إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحرٌ كذابٌ، بل يقولون: إنه ولد غية.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

والنصارىٰ يدّعون أنه الله خلق الأولين والآخرين، وأنه ديان يوم الدين.

فكانت الأمتان فيه علىٰ غاية التناقض والتعادي والتقابل، ولهذا كلّ أمةٍ تذم

الأخرىٰ بأكثر مما تستحقه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

ذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولىٰ زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ عليه السلام أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ عليه السلام، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمِلَةَ: مَا أَنْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَكَفَرَ بِعِيسَىٰ وَالْإِنْجِيلِ جَمِيعًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَىٰ لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسَىٰ، وَكَفَرَ بِالتَّوْرَاةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِمَا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

قال: كلٌّ يتلو في كتابه تصديق ما كفر: أي تكفر اليهود بعيسىٰ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم علىٰ لسان موسىٰ بالتصديق بعيسىٰ عليه السلام، وفي الإنجيل بإجابة عيسىٰ بتصديق موسىٰ، وبما جاء به من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يدي صاحبه».

فاليهود كذَّبوا بدين النصارىٰ وقالوا: ليسوا علىٰ شيء.

والنصارىٰ كذَّبوا بجميع ما تميز به اليهود عنهم حتىٰ في شرائع التوراة التي لم ينسخها المسيح، بل أمرهم بالعمل بها، وكذبوا بكثيرٍ من الذين تميزوا به عنهم، حتىٰ كذبوا بما جاء به عيسىٰ عليه السلام من الحق.

لكن النصارىٰ وإن بالغوا في تكفير اليهود ومعاداتهم علىٰ الحد الواجب عما

ابتدعوه من الغلو والضلال، فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفارًا.

وكفر النصارىٰ بتكذيب محمدٍ عليه السلام، وبمخالفة المسلمين أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلًا، وسائر شرعه إحالة علىٰ التوراة، ولكن عامة دين النصارىٰ أحدثوه بعد المسيح، فلم يكن في مجرد تكذيب اليهود له من مخالفة شرع الله الذي جاء بكتابٍ مستقلٍّ من عند الله لم يحل شيئًا من شرعه علىٰ شرع غيره.

وهؤلاء النصارىٰ ذكر كاتب كتابهم في كتابه: «أنه لما سأله سائلٌ: أن يفحص له فحصًا بَيِّنًا عما يعتقده النصارىٰ المسيحيون المختلفة ألسنتهم، المتفرقة في أربع زوايا العالم، من المشرق إلىٰ المغرب، ومن الجنوب إلىٰ الشمال، والقاطنون بجزائر البحر، والمقيمون بالبر المتصل إلىٰ مغيب الشمس.

وأن الأسقف دميان الملكي(١) الرومي اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم فيما علمه من رأي القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلىٰ قبرص، وخاطبهم في دينهم، وما يعتقدونه، ويحتجون به عن أنفسهم.

قال الكاتب علىٰ لسان الأسقف: «إنهم يقولون إنا سمعنا أن قد ظهر إنسانٌ من العرب، اسمه محمدٌ، يقول: إنه رسول الله. وأتىٰ بكتابٍ، فذكر أنه منزّلٌ عليه من الله، فلم نزل إلىٰ أن حصل الكتاب عندنا.

قال: فقلت لهم: إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان، واجتهدتم

---

(١) دميان: يدل السياق أنه امبراطور، كان بطريركهم الأكبر، أما مذهبه الملكي ودورهم فقد ناقشه الشيخ، وذكر في ص٢٦٦ أنه قُتل مع أخيه قزمان، والقاتل لهما هو قيصر فاروس، وكان شديدًا علىٰ النصارىٰ. [وتكرر هذا ص٢٨١ فيلاحظ].

علىٰ تحصيل هذا الكتاب الذي أتىٰ به عندكم، فلأي حالٍ لم تتبعوه، ولا سيما وفي الكتاب يقول:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

أجابوا قائلين: لأحوالٍ شتَّىٰ.

قال: فقلت: وما هي؟.

قالوا: منها أن الكتاب عربي، وليس بلساننا حسب ما جاء فيه يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢].

و**قال**: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المتعددة، والتي تدل علىٰ أن هذا القرآن نزل بلسان العرب، فهو لهم وليس لنا.

قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلىٰ جاهلية العرب الذين قال: إنه لم يأتهم رسولٌ ولا نذيرٌ من قبله، وإنه لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا، علىٰ ما يشهد لهم أن هذا الكتاب الذي أتىٰ به هذا الرجل، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل:٣٦].

وقال في سورة الروم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾

[الروم: ٤٧].

فقد صح في هذا الكتاب أنه لم يأت إلا في الجاهلية من العرب.

وأما قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فيريد بحسب مقتضىٰ العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه، ونعلم أن الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمةً باتباع إنسانٍ لم يأت إليهم، ولا وقفوا له علىٰ كتابٍ بلسانهم، ولا من جهة داعٍ من قبله.

هذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول، وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، بل زعموا أن في نفس هذا الكتاب أنه لم يقل: إنه مرسلٌ إليهم، بل إلىٰ جاهلية العرب، وإن العقل أيضًا يمنع أن يرسل إليهم.

فنحن نبدأ بالجواب عن هذا، ونبين أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أنه مرسلٌ إليهم، وإلىٰ جميع الإنس والجن، وأنه لم يقل قط: إنه لم يرسل إليهم.

ولا في كتابه ما يدل علىٰ ذلك، وأن ما احتجوا به من الآيات التي غلطوا في معرفة معناها - فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة في كتابه، التي تبين أنه مرسلٌ إليهم - من جنس ما فعلوه في التوراة والإنجيل والزبور وكلام الأنبياء، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسكوا بقليلٍ من المتشابه الذي لم يفهموا معناه.

ومعلومٌ أن الكلام في صدق مدعي الرسالة وكذبه متقدمٌ علىٰ الكلام في عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر، لكن هؤلاء القوم ادَّعوا خصوص رسالته، وذكروا أن القرآن يدل علىٰ ذلك، فنجيب عما

ذكروه علىٰ حسب ترتيبهم فصلًا فصلًا.

فنقول وبالله التوفيق: الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم ــ كما فعل محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيره ممن قال: إنه رسول الله؛ كإبراهيم وموسىٰ، ونحوهما من الرسل الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وَآلِ كلٍ من الصالحين، وكمسيلمة الكذاب [١]، والأسود العنسي [٢]، ونحوهما من المتنبئين الكذابين ــ **ينبني علىٰ أصلين**:

أحدهما: أن نعرف ما يقوله في خبره وأمره، فنعرف ما يخبر به ويأمر به، وهل قال: إنه رسول الله إلىٰ جميع الناس.

أو قال: إنه لم يرسل إلا إلىٰ طائفةٍ معينةٍ، لا إلىٰ غيرها.

والثانِي: أن يعرف هل هو صادقٌ، أو كاذبٌ.

وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل، وهو معرفة صدق الرسول، ومعرفة ما جاء به.

وأما الإيمان المجمل فيحصل بالأول، وهو معرفة صدقه فيما جاء به، كإيماننا بالرسل المتقدمة.

وقد نعلم صدقه أو كذبه قبل أن يعلم ما يذكره، وقد يعلم ما يذكره قبل أن

---

(١) اشتهر بين الناس بدعوىٰ النبوة ووصف بالكذاب حتىٰ قيل « أكذب من مسيلمة»، وُلد ونشأ في وادي اليمامة قرب بلدة العيينة، وفد علىٰ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يسلم، وكان أكبر سنا من النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلب منه المشاركة في النبوة، ورفض النبي طلبه.

(٢) ادَّعىٰ النبوة علىٰ بلاد اليمن، وكان رأسًا في بلاد مذحج، وعنس بطن من بطون مذحج فيقال في نسبته العنسي المذحجي، قاتل عامل النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وطرد الفرس من اليمن، واشتغل بالسحر والشعوذة، وأمر النبي بقتله، وتولىٰ قتله رجل فاضل يُدعىٰ فيروز.

يعلم صدقه أو كذبه.

وهؤلاء بدأوا في كتابهم هذا بما ذكره الرسول مما زعموا أنه حجةً لهم علىٰ عدم وجوب اتباعه، وعلىٰ مدح دينهم الذي هم اليوم عليه بعد النسخ والتبديل، ثم ذكروا حججًا مستقلةً علىٰ صحة دينهم، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفي دينه.

فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن، كما قدموه في كتابهم.

إذا عُرف هذا، فهؤلاء القوم في هذا المقام ادَّعوا أن محمدًا عليه السلام لم يُرْسَل إليهم، بل إلىٰ أهل الجاهلية من العرب، **فهذه الدعوىٰ علىٰ وجهين:**

إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدَّع أنه أرسل إليهم، ولكن أمته ادَّعوا له ذلك.

وإما أن يقولوا: إنه ادَّعىٰ أنه أُرسل إليهم، وهو كاذب في هذه الدعوىٰ.

وكلامهم في صدر هذا الكتاب يقتضي الوجه الأول، وفي آخره قد يقال: إنهم أشاروا إلىٰ الوجه الثاني.

لكنهم في الحقيقة لم ينكروا رسالته إلىٰ العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم، وأما رسالته إلىٰ العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضي الإقرار برسالته إلىٰ العرب، بل صدقوا بما وافق قولهم، وكذبوا بما خالف قولهم.

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشيءٍ مما جاء به النبي عليه السلام، ثم نتكلم علىٰ الوجهين جميعًا، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشيءٍ من القرآن علىٰ صحة دينهم بوجهٍ من الوجوه، ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم، ولا فيه تناقضٌ، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التي يحتجون بها هي حجةٌ عليهم، ليس في شيءٍ منها حجةٌ لهم ولو لم يبعث محمدٌ عليه السلام.

فكيف والكتاب الذي جاء به محمدٌ عليه السلام موافقٌ لسائر كلام الأنبياء في إبطال دينهم، وقولهم في التثليث والاتحاد، وغير ذلك، مع العقل الصريح.

فهم احتجوا في كتابهم هذا بالقرآن، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمدٍ عليه السلام، مع العقل.

ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمدٌ عليه السلام، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله، ولا في العقل، بل ما جاء به محمدٌ عليه السلام، وما جاءت به الأنبياء قبله، مع صريح العقل، كلها براهينٌ قطعيةٌ علىٰ فساد دينهم.

ولكن نذكر قبل ذلك أن احتجاجهم بما جاء عن النبي عليه السلام لا يصح بوجه من الوجوه، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمدٍ عليه السلام من يكذبه في كلمةٍ واحدةٍ مما جاء به، وكذلك سائر الأنبياء، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض.

وأما ما أخبرت به الأنبياء، أو من قال: إنه نبيٌّ، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض، سواءٌ قُدّر صدقهم أو كذبهم.

فيقال لهم – علىٰ كل تقديرٍ، سواء أقروا بنبوته إلىٰ العرب أو غيرهم، أو كذبوه في قوله: إنه رسول الله، أو سكتوا عن هذا وهذا، أو صدقوه في البعض دون البعض –: إن احتجاجكم علىٰ صحة ما تخالفون فيه المسلمين مما جاء به محمدٌ عليه السلام لا يصح بوجهٍ من الوجوه، فاحتجاجكم علىٰ أنه لم يرسل إليكم، أو علىٰ صحة دينكم بشيءٍ من القرآن حجةٌ داحضةٌ علىٰ كل تقديرٍ.

مع أنا سنبين إن شاء الله تعالىٰ أن الكتب الإلهية كلها، مع المعقول لا حجة لكم في شيءٍ منها، بل كلها حجةٌ عليكم.

وإنما المقصود هنا أن احتجاجهم بكلمةٍ واحدةٍ مما جاء به محمدٌ عليه السلام

لا يصح بوجهٍ من الوجوه؛ فإنه إن كان رسولًا صادقًا في كل ما يخبر به عن الله ﷻ، فقد علم كلُّ واحدٍ أنه جاء بما يخالف دين النصارىٰ، فيلزم إذا كان رسولًا صادقًا أن يكون دين النصارىٰ باطلًا.

وإن قالوا في كلمةٍ واحدةٍ مما جاء به: إنها باطلةٌ، لزم أن لا يكون عندهم رسولًا صادقًا مبلغًا عن الله، وحينئذٍ.. فسواءٌ قالوا: هو ملكٌ عادلٌ، أو هو عالمٌ من العلماء، أو هو رجلٌ صالحٌ من الصالحين، أو جعلوه قديسًا عظيمًا من أعظم القديسين، فمهما عظموه به، ومدحوه به؛ لما رأوه من محاسنه الباهرة، وفضائله الظاهرة، وشريعته الطاهرة، متىٰ كذبوه في كلمةٍ واحدةٍ مما جاء به، أو شكوا فيها، كانوا مكذبين له في قوله: إنه رسول الله، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله.

ومن كان مكذبًا في قوله: إنه رسول الله، لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجةً البتة، لكن له أسوة أمثاله.

فإن عرف صحة ما يقوله بدليلٍ منفصلٍ قُبل القول؛ لأنه عرف صدقه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل.

فتبين أنه إن لم يقر المقر لمن ذكر: أنه رسول الله، بأنه صادقٌ في كل ما يبلغه عن الله، معصومٌ عن استقرار الكذب خطأً أو عمدًا، لم يصح احتجاجهم بقوله.

وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب، وهو لقول جهالهم أعظم إبطالًا، فإن كثيرًا من عقلاء أهل الكتاب وأكثرهم يعظمون محمدًا عليه السلام؛ لما دعا إليه من توحيد الله تعالىٰ، ولما نهىٰ عنه من عبادة الأوثان، ولما صدق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله، ولما ظهر من عظمة القرآن الذي جاء به، ومحاسن الشريعة التي جاء بها، وفضائل أمته التي آمنت به، ولما ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات، لكن يقولون مع ذلك:

إنه بعث لغيرنا، وإنه ملكٌ عادلٌ له سياسةٌ عادلةٌ، وإنه مع ذلك حصل علومًا من علوم أهل الكتاب وغيرهم، ووضع لهم ناموسًا بعلمه، ورتّبه، كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التي بأيديهم.

ومهما قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشيءٍ مما قاله؛ لأنه قد عرف بالنقل المتواتر الذي يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال: إنه رسول الله إلىٰ جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن.

فإن كان صادقًا في ذلك فمن كذبه في كلمةٍ واحدةٍ فقد كذّب رسول الله، ومن كذب رسول الله فهو كافرٌ، وإن لم يكن صادقًا في ذلك لم يكن رسولًا لله، بل كان كاذبًا، ومن كان كاذبًا علىٰ الله يقول: الله أرسلني بذلك، ولم يرسله به لا يجوز أن يحتج بشيءٍ من أقواله.

وأما من كان من جهلاء أهل الكتاب - الذين يقولون: إنه كان ملكًا مسلطًا عليهم، وأنه رسول غضبٍ، أرسله الله إرسالًا كونيًّا؛ لينتقم به منهم، كما أرسل بختنصر وسنحاريب[١] علىٰ بني إسرائيل، وكما أرسل جنكس خان[٢] وغيره من الملوك الكافرين والظالمين مما ينتقم به ممن عصاه - فهؤلاء أعظم تكذيبًا له، وكفرًا به من أولئك، فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحدٌ منهم إن الله أنزل عليه

(١) هو جد بختنصر ملك بابل، كان مجوسيًّا، ولد عام ٧٠٥ ق م. وتوفي عام ٦٨١ ق م ويقال: إن الله سلطه علىٰ بني إسرائيل في المرة الأولىٰ.

(٢) هو جنكيز خان ملك التتار، لا يُعرف له نسب، كان رجلًا سَفَّاكًا للدماء، توسعت مملكة المغول في عهده، وأحدث قوانين كافرة وظالمة لدولته. ولد عام ١١٥٥م تقريبًا، وتوفي عام ١٢٢٧م. عن عمر قارب السبعين عاما، ودفن في مكان مجهول. انظر البداية والنهاية ١٣/ ١٠٠.

كتابًا، ولا أن هذا الكلام الذي أبلغه إليكم هو كلام الله، ولا أن الله أمركم أن تصدقوني فيما أخبرتكم به، وتطيعوني فيما أمرتكم به، ومن لم يصدقني باطنًا وظاهرًا، فإن الله يعذبه في الدنيا والآخرة، بل هؤلاء أرسلهم إرسالًا كونيًّا قدّره وقضاه، كما يرسل الريح بالعذاب، وكما يرسل الشياطين.

فإذا عُلم هذا فنقول - بعد ذلك لمن قال: إنه رسولٌ أرسل إلىٰ العرب الجاهلية دون أهل الكتاب -: إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسنته المتواترة عنه، وسنة خلفائه الراشدين من بعده: أنه عليه السلام ذكر أنه أُرسل إلىٰ أهل الكتاب: اليهود والنصارىٰ، كما ذكر أنه أُرسل إلىٰ الأميين، بل ذكر أنه أرسل إلىٰ جميع بني آدم، عربهم وعجمهم، من الروم والفرس والترك والهند والبربر والحبشة، وسائر الأمم، بل أنه أرسل إلىٰ الثقلين الجن والإنس جميعًا.

وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التي اتفق علىٰ نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم، وتفرق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشرات ألوف، لا يحصي عددهم علىٰ الحقيقة إلا الله تعالىٰ، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عددًا، ثم ذلك منقولٌ قرنًا بعد قرنٍ إلىٰ زمننا، مع كثرة المسلمين وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال في الحديث الصحيح: «**زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»(١).

والمقصود أن محمدًا عليه السلام هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود

---

(١) أخرجه أحمد برقم [٥/ ٢٧٨]، ومسلم برقم (٢٨٨٩) عن ثوبان رضي الله عنه .

والنصارىٰ إلىٰ الإيمان به وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم.

وهو الذي أخبر عن الله تبارك وتعالىٰ بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يصلون جهنم وساءت مصيرًا، وهو الذي أمر بجهادهم، ودعاهم بنفسه ونوابه.

وحينئذٍ.. فقولهم في الكتاب: «لم يأت إلينا، بل إلىٰ الجاهلية من العرب» سواءٌ أرادوا أن الله بعثه إلىٰ العرب ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادَّعىٰ أنه أُرسل إلىٰ العرب لا إلينا، فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمدًا دعا اليهود والنصارىٰ إلىٰ الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليهم، وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم، فإذا قيل مع هذا: إنه قال: لم أُبعث إلا إلىٰ العرب، كان كاذبًا كذبًا ظاهرًا عليه، سواءٌ صدّقه الإنسان أو كذبه، فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلىٰ الإيمان به، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميّين.

أما اليهود: فإنهم كانوا جيرانه في الحجاز بالمدينة وما حولها وخيبر، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيفٍ ولا قتالٍ، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته، ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصل من الأذىٰ في الله لمن آمن بالله ما هو معروفٌ في السيرة، وقد آمن به في حياته كثير من اليهود والنصارىٰ، بعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، وكثيرٌ منهم كانوا بغير مكة والمدينة.

فلما قدم المدينة عاهد من لم يؤمن به من اليهود، ثم نقضوا العهد فأجلىٰ بعضهم، وقتل بعضهم؛ لمحاربتهم لله ورسوله، وقد قاتلهم مرةً بعد مرةٍ، قاتل بني النضير، وأنزل الله تعالىٰ فيهم سورة الحشر، وقاتل قريظة عام الأحزاب، وذكرهم الله في سورة الأحزاب، وقاتل قبلهم بني قينقاع، وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائةٍ، ففتح

الله عليهم خيبر، وأقر اليهود فيها فلاحين، وأنزل الله تعالىٰ سورة الفتح يذكر فيها ذلك.

فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أُرسل إلا إلىٰ مشركي العرب، وهذه حال اليهود معه؟.

وأما النصارىٰ: فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارىٰ، فقدم عليه وفدهم ستون راكبًا، وناظرهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران.

ولما ظهرت حجته عليهم، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، كما ذكر ذلك في سورة [آل عمران:٦١].

فلما دعاهم إلىٰ المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتىٰ يَشْتَوِرُوا، فَاشْتَوَرُوا، فقال بعضهم لبعضٍ: تعلمون أنه نبيٌّ، وأنه ما باهل قومٌ نبيًّا إلا نزل بهم العذاب، فاستعفوا من المباهلة، فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يدٍ وهم صاغرون، لما خافوا من دعائه عليهم؛ لعلمهم أنه نبيٌّ، فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهم أول من أدّىٰ الجزية من النصارىٰ، واستعمل عليهم وعلىٰ من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابًا مشهورًا، يذكر فيه شرائع الدين، فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله، ونائب رسوله: عمرو ابن حزم الأنصاري.

وقصتهم مشهورةٌ متواترةٌ، نقلها أهل السير وأهل الحديث وأهل الفقه، وأصل حديثهم معروفٌ في الصحاح والسنن، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ.

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارىٰ: السيد والعاقب ومن معهما.

قال أبو الفرج بن الجوزي: ثم دخلت سنة عشر من الهجرة، فمن الحوادث

فيها أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلىٰ بني الحارث بن كعب، فروىٰ ابن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ خالدًا في ربيع الآخر، أو جمادىٰ الأول في سنة عشر إلىٰ بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلىٰ الإسلام قبل أن يقاتلهم، وذكر القصة.

ثم قال: وفيها قدم وفد الأزد، وفيها قدم وفد غسان، وفيها قدم وفد زبيد، وفيها قدم وفد عبد القيس.

قال ابن إسحاق: قدم علىٰ رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانيًّا فأسلموا، وفيها قدم وفد كندة فأسلموا، وفيها قدم وفد بني حنيفة، وفيها قدم وفد بجيلة.

قال: وفيها قدم العاقب والسيد من نجران، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاب صلح.

وذكر محمد بن سعد في «الطبقات» قدومهم في الوفود فقال: ذكر بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشر إلىٰ بني الحارث بن كعب، ذكره بإسناده، أنبأنا محمد بن عمر حدثني إبراهيم بن موسىٰ المخزومي عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه.

ثم ذكر قدوم نصارىٰ نجران من طريق علي بن محمد، فقال أنا علي بن محمد وهو المدائني عن أبي معشر عن يزيد بن رومان ومحمد بن كعب قال: وأنا علي بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهري وعكرمة بن خالد، وعاصم بن عمر بن قتادة أنا يزيد بن عايض بن جعدبة عن عبد الله بن أبي بكر ابن حزم وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم علىٰ بعض قالوا: ووفد فلان وفلان في رجال من خثعم إلىٰ رسول الله ﷺ بعدما هدم جرير بن عبد الله ذا

الخلصة، وقتل من قتل من خثعم، فقالوا: آمنا بالله ورسوله، فاكتب لنا كتابًا، وذكروا القصة، وقدوم وفود متعددة [١].

قالوا: «وقدم وفد نجران، وكتب رسول الله ﷺ إلىٰ أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارىٰ، وفيهم ثلاثة نفرٍ يتولون أمورهم: العاقب واسمه عبد المسيح رجلٌ من كندة، وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم، والذي يصدرون عن رأيه، وأبو الحارث أسقفهم وإمامهم وصاحب مِدْرَاسهم [٢]، والسيد وهو صاحب رحلتهم، فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**»، ثم أتوا النبي ﷺ، فأعرض عنهم فلم يكلمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا. فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلموا عليه، فرد عليهم، ودعاهم إلىٰ الإسلام، فأبوا، وكثر الكلام والحجاج بينهم، وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم**»، فانصرفوا علىٰ ذلك، فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوي رأيهم علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت، نعطك ونصالحك، فصالحهم علىٰ ألفي حلة: ألفٍ في رجب، وألفٍ في صفر، أو قيمة كل حلةٍ من الأواقي، وعلىٰ عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا، إن كان باليمن كيدٌ، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمدٍ رسول الله ﷺ علىٰ أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، لا يغير أسقفٌ من سقيفاه، ولا راهبٌ من رهبانيته، ولا واقفٌ من وقفانيته.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٤٨.

(٢) المِدْرَاس: هو المكان الذي يدرس فيه.

وأشهد علىٰ ذلك شهودًا، منهم أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة، فرجعوا إلىٰ بلادهم.

فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيرًا حتىٰ رجعا إلىٰ النبي عليه السلام فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري.

وأقام أهل نجران علىٰ ما كتب لهم به النبي عليه السلام حتىٰ قبضه الله صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه، ثم ولي أبو بكر الصديق، فكتب بالوصاة بهم عند وفاته، ثم أصابوا ربًا، فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم: هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران: أنه من سار منهم أنه آمنٌ بأمان الله، لا يضرهم أحدٌ من المسلمين، ووفىٰ لهم بما كتب لهم رسول الله عليه السلام وأبو بكر، أما بعد: فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقةٌ، وعقبةٌ لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحدٍ ولا مغرمٍ، أما بعد: فمن حضرهم من رجلٍ مسلمٍ، فلينصرهم علىٰ من ظلمهم، فإنهم أقوامٌ لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكةٌ أربعةً وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتملوا غير مظلومين، ولا معنوفٍ عليهم.

شهد عثمان بن عفان، ومعيقيب بن أبي فاطمة(١)، فوقع ناسٌ منهم العراق، فنزلوا النجرانية التي بناحية الكوفة» (٢).

وما ذكره ابن سعد عن علي بن محمد المدائني عن أشياخه في حديث وفد

---

(١) هو معيقب بن أبي فاطمة الدوسي، حليف بني أمية، أسلم قديمًا، وشهد المشاهد، وكان علىٰ بيت المال لعمر. انظر الإصابة ٦/ ١٥٣.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٥٧.

نجران فهو يوافق ما ذكره ابن إسحاق، فإن قوله: «أربعة عشر من أشرافهم» يوافق قول ابن إسحاق عن محمد بن جعفر قال: «قدم علىٰ رسول الله عليه السلام وفد نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح، والسيد ثَمَّالُهُمْ، وصاحب رَحْلِهِمْ وَنَجْعَتِهِمْ، وَاسْمُهُ الْأَيْهَمُ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتىٰ حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات؛ لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلىٰ رسول الله عليه السلام من نجران، جلس أبو حارثة علىٰ بغلة له موجهًا، وإلىٰ جنبه أخٌ له يقال له: كرز بن علقمة(١)، فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كرز: تعس الأبعد - يريد رسول الله عليه السلام - فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: لِمَ يا أخي؟! قال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره. فقال له كرز: فما منعك منه، وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترىٰ. فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتىٰ أسلم بعد ذلك، وهو كان يُحدِّث عنه هذا الحديث فيما بلغني» (٢).

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتابًا عندهم، فكلما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرياسة إلىٰ غيره ختم علىٰ تلك الكتب خاتمًا مع

---

(١) ويقال: كوز بن علقمة البكري النجراني، قدم قبل وفد نجران وأسلم. انظر الإصابة ٥/ ٤٣٧.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣/ ١٦٢ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ٥٧٣.

الخواتم التي قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ يمشي، فعثر، فقال ابنه: تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال له أبوه: لا تفعل، فإنه نبيٌّ، واسمه في الوضائع يعني الكتب، فلما مات لم تكن لابنه همةٌ إلا أن شدَّ فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلم فحسن إسلامه وحج، وهو يقول:

إليك تغدو قلقًا وضينها ... معترضًا في بطنها جنينها

مخالفًا لدين النصارىٰ دينها

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير **قال:** «قدموا علىٰ رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلىٰ العصر عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ فقال: «**دعوهم**». فصلوا إلىٰ المشرق.

قال ابن إسحاق: «وكان تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرهم: العاقب وهو عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر ابن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، ونبيه، وخويلد، وعمر، وخالد، وعبد الله، ويحنس، في ستين راكبًا، فكلم رسول الله ﷺ منهم: أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيد، وهم من النصرانية علىٰ دين الملك مع اختلافٍ من أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية.

فهم يحتجون في قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيي الموتىٰ، ويبرئ الأسقام،

ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، وذلك كله بأمر الله، وليجعله آيةً للناس.

ويحتجون في قولهم: «إنه ولد الله» فإنهم يقولون: لم يكن له أبٌ يعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا شيءٌ لم يصنعه أحدٌ من ولد آدم، ويحتجون في قولهم: «ثالث ثلاثة» بقول الله: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحدًا ما قال إلا: فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، ولكنه هو عيسىٰ ومريم، ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن.

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله عليه السلام: «**أسلما**». قالا: قد أسلمنا، قال: «**إنكما لم تسلما، فأسلما**». قالا: بلىٰ قد أسلمنا قبلك. قال: «**كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولدًا، وعبادتكما للصليب، وأكلكما للخنزير**» قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله عليه السلام عنهما، فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم كله صدرًا من سورة آل عمران إلىٰ بضعٍ وثمانين آية» (١).

ومما ينبغي أن يعلم أن أهل نجران كان منهم نصارىٰ أهل ذمة، وكان منهم مسلمون وهم الأكثرون، والنبي عليه السلام بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم علىٰ هؤلاء وهؤلاء، كما أخرجا في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عليه السلام: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ**».

وَعَنْ أَنَسٍ أَيْضًا: أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ عليه السلام، فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، يُعَلِّمُنَا السُّنَّةَ وَالْإِسْلَامَ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣/ ١٦٢ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ٥٧٤-٥٧٦.

«**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» (١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا، فَقَالَ: «**لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ**» قَالَ: فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ.

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: جَاءَ السَّيِّدُ وَالْعَاقِبُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَّا لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، فَقَالَ: «**لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ**»، فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**».

وكذلك استعمل النبي ﷺ عليهم عمرو بن حزم، وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن، وقد رواه النسائي بطوله، وروىٰ الناس بعضه مفرقًا.

وكان قبل قصة نجران قد آمن به كثيرٌ من اليهود والنصارىٰ، رؤساؤهم وغير رؤسائهم، لما تبين لهم أنه رسولُ الله إليهم، كما آمن به النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانيًّا هو وقومه.

وكان إيمانه به في أول أمر النبي ﷺ لما كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم علىٰ الإيمان بالله ورسوله، فهاجر منهم طائفةٌ مثل عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام،

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٣٤)، ومسلم برقم (٢٤١٩).

وعبد الله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم من الرجال والنساء إليه، وكان ملكًا عادلًا.

فأرسل الكفار خلفهم رسلًا بهدايا ليردهم إليهم، فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتىٰ يسمع كلامهم، فلما سمع كلامهم، وما أخبروه به من أمر النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ آمن بالنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وآواهم، ولما سمع القرآن قال: «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ».

ولما سألهم عن قولهم في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول التي لم يمسها رجلٌ.

فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: «والله ما زاد عيسىٰ ابن مريم علىٰ ما قلت هذا العود» فنخرت أصحابه فقال: «وإن نخرتم، وإن نخرتم».

وبعث ابنه وطائفةٌ من أصحابه إلىٰ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ مع جعفر بن أبي طالب، وقدم جعفر علىٰ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ عام خيبر.

وقد ذكر قصتهم جماعةٌ من العلماء والحفاظ، كأحمد بن حنبل في «المسند»، وابن سعد في «الطبقات»، وأبي نعيم في «الحلية»، وغيرهم، وذكرها أهل التفسير والحديث والفقه، وهي متواترةٌ عند العلماء.

وكان أول ما أنزل الله تعالىٰ عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ الوحي عرضت خديجة امرأته أمره علىٰ عالمٍ كبيرٍ من علماء النصارىٰ يقال له: ورقة بن نوفل، وكان من العرب المتنصرة، فقال: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسىٰ بن عمران، يا ليتني أكون فيها جذعًا حين يخرجك قومك» يعني ليتني أكون شابًّا، فإنه كان شيخًا كبيرًا قد كف بصره، فقال له النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!**» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا

مُؤَزَّرًا. رواه أصحاب الصحيح (١).

وقدم إليه بمكة طائفةٌ من أهل الكتاب من النصارىٰ، فآمنوا به، فآذاهم المشركون، فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٢-٥٥].

وروىٰ البيهقي - بسنده- عن ابن إسحاق قال: «ثم قدم علىٰ رسول الله ﷺ عشرون رجلًا وهو بمكة، أو قريبٌ من ذلك من النصارىٰ حين ظهر خبره في الحبشة، فوجدوه في المجلس، فكلموه وسألوه، ورجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله عما أردوا، دعاهم رسول الله إلىٰ الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفرٍ من قريش، فقالوا: خيبكم الله من ركبٍ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتىٰ فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قال لهم، فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيرًا (٢).

ويقال – والله أعلم- أن فيهم نزلت آيات سورة القصص السابقة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوحي برقم (٣)، ومسلم برقم (١٦٠) عن عائشة.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/ ٣٠٦.

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجن ما لا يحصىٰ إلا بكلفةٍ، وهذا كله معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام.

فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلىٰ العرب خاصة، وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارىٰ والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرته ﷺ فيهم؟.

وأيضًا فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلىٰ الإيمان به في مواضع كثيرةٍ جدًّا، بل يذكر الله تبارك وتعالىٰ فيه كفر من كفر من اليهود والنصارىٰ، ويأمر فيه بقتالهم.

انظر آيات سورة النساء (١٧١-١٧٣) وآيات سورة المائدة (١٧) (٧٢-٧٧) وآيات سورة التوبة (٢٩- ٣٢).

فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلىٰ النصارىٰ وغيرهم من أهل الكتاب، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعةً ابتدعوها، كما فعلت النصارىٰ بعد المسيح.

*****

[شرائع النصارى وعقائدهم يضعها أكابرهم]

فالنصارىٰ تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاث مائة وثمانية عشر - الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك[(١)] - الأمانة التي اتفقوا عليها، ولعنوا من خالفها من الأريوسية[(٢)] وغيرهم، وفيها أمورٌ لم ينزل الله بها كتابًا، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب، مع مخالفتها للعقل الصريح.

قالوا فيها:

«نؤمن بآلهٍ واحدٍ، آبٍ ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يرىٰ وما لا يرىٰ، وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، مولودٌ غير مخلوقٍ، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيءٍ، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء وَتَأَنَّسَ، وصلب علىٰ عهد بيلاطس البنطي[(٣)]، وتألم، وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في

---

(١) هو قسطنطين بن قسطنطين الملك، باني القسطنطينية، كان بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة، تحاكمت إليه النصارىٰ عندما اختلفوا، فصار الملك عليهم. انظر البداية والنهاية ٢/ ٥٧-٧٥-٨٠.

(٢) هي مذهب مسيحي تنسب إلىٰ أريوس أحد كهنة الإسكندرية. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٣) كان حاكمًا لمقاطعة أيوديا أو اليهودية، في عهد طيباريوس قيصر الإمبراطور الروماني، وتزعم كتب الأناجيل الأربعة المعتمدة أنه تولىٰ محاكمة المسيح، وأصدر الحكم بصلبه، وكان سفَّاكًا للدماء، وكثرت الثورات اليهودية في عهده. انظر موسوعة =

الكتب، وصعد إلىٰ السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضًا فسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجودٌ له، وبمجد الناطق في الأنبياء، وبكنيسةٍ واحدةٍ جامعةٍ مقدسةٍ رسوليةٍ، واعترف بمعموديةٍ واحدةٍ لمغفرة الخطايا، ونترجىٰ قيامة الموتىٰ، وحياة الدهر الآتي، آمين» (١).

ووضعوا لهم من القوانين والناموس ما لم يوجد في كتب الأنبياء، ولا تدل عليه، بل يوجد بعضه في كتب الأنبياء، وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد في كتب الأنبياء، وغيروا كثيرًا مما شرعه الأنبياء، فما عند النصارىٰ من القوانين والنواميس التي هي شرائع دينهم، وبعضه عن الحواريين، وكثير منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء، فدينهم من جنس دين اليهود، قد لبسوا الحق بالباطل.

وكان المسيح بعث بدين الله الذي بعث به الأنبياء قبله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة كل ما سواه، وأحل لهم بعض ما حرم الله في التوراة، فنسخ بعض شرع التوراة.

فالذي تفعله النصارىٰ أصل عبادة الأوثان، وهكذا قال عالمهم الكبير الذي يسمونه فم الذهب(٢) – وهو من أكبر علمائهم – لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار، قال: وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس

=

ويكيبيديا.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٨٠.

(٢) (فم الذهب) اسمه يوحنا، يدعىٰ في اليونانية بـ (فم الذهب) لفصاحته، وهو إيطالي الأصل، يعتبر من القديسين الكبار لدىٰ جميع الطوائف المسيحية، ومن ملافنة الكنيسة الكاثوليكية، وكان عالمًا مشهورًا عندهم. انظر موسوعة ويكيبيديا.

أشخاصًا يعظم بعضهم بعضًا فوق المقدار الذي ينبغي، الأحياء منهم والأموات.

وكذلك تعظيمهم للصليب، واستحلالهم لحم الخنزير، وتعبدهم بالرهبانية، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غسل جنابةٍ، ولا وضوءًا، ولا يوجبون اجتناب شيءٍ من الخبائث في صلاتهم، لا عذرةً، ولا بولًا، ولا غير ذلك من الخبائث، إلىٰ غير ذلك...

كلها شرائع أحدثوها، وابتدعوها بعد المسيح، ودان بها أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتىٰ صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوبًا مقموعًا قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصًا عن المسيح.

وأما النصارىٰ فليست الصلوات التي يصلونها منقولةً عن المسيح، ولا الصوم الذي يصومونه منقولًا عن المسيح، بل جعل أولهم الصوم أربعين يومًا، ثم زادوا فيه عشرة أيام، ونقلوه إلىٰ الربيع، وليس هذا منقولًا عندهم عن المسيح.

وكذلك حجهم للقمامة(١)، وبيت لحم، وكنيسة صيدنايا(٢)، ليس شيءٌ من ذلك منقولًا عن المسيح.

بل وكذلك عامة أعيادهم: مثل عيد القلندس(٣)، وعيد الميلاد(٤)، وعيد

---

(١) هي كنيسة ببيت المقدس.

(٢) هي بلدة تابعة لدمشق.

(٣) هو عيد الختان.

(٤) أي: اليوم الذي ولد فيه المسيح ﵇. انظر خطط المقريزي (١/ ٤٩٤).

الغطاس وهو القُداس[(١)]، وعيد الخميس[(٢)]، وعيد الصليب الذي جعلوه في وقت ظهور الصليب لما أظهرته هيلانة[(٣)] الحرانية الفندقانية أم قسطنطين بعد المسيح بمائتين من السنين، وعيد الخميس، والجمعة، والسبت التي في آخر صومهم، وغير ذلك من أعيادهم التي رتبوها علىٰ أحوال المسيح، والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم، فإن ذلك كله من بدعهم التي ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالىٰ.

بل هم يبنون الكنائس علىٰ اسم بعض من يعظمونه، كما في «السنن» عن النبي: «**أَنَّهُمْ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٤)].

والنصارىٰ كأشباههم من المشركين يخشون غير الله، ويدعون غير الله.

والمقصود هنا أن الذي يدين به المسلمون من أن محمدًا عليه السلام رسولٌ إلىٰ الثقلين: الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافرٌ، مستحقٌّ لعذاب الله، مستحقٌّ للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه؛ لأن الرسول عليه السلام هو الذي جاء بذلك، وذكره الله في كتابه،

---

(١) نسبة إلىٰ الغطس في الماء، أمانًا من المرض، وهي ليلة معظمة عند النصارىٰ. انظر: المقريزي (١/ ٤٩٤).

(٢) هو ما يعرف عند المصريين بـ (خميس العدس) وتكثر فيه الهدايا. انظر المقريزي (١/ ٤٩٥).

(٣) هي هيلانة الحرانية أم قسطنطين، تزوجت من قسطس في مدينة الرها وانجبت قسطنطين، وتنصرت علىٰ يد أسقف الرها، وتعلمت قراءة الكتب. انظر ص٢٨٣، ٤٣٦، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٤) رواه البخاري في بدء الوحي برقم (٤٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

وبيّنه الرسول أيضًا في الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب، فإنه تعالىٰ أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولم يبتدع المسلمون شيئًا من ذلك من تلقاء أنفسهم، كما ابتدعت النصارىٰ كثيرًا من دينهم، بل أكثر دينهم، وبدلوا دين المسيح وغيروه، ولهذا كان كُفر النصارىٰ لما بُعث محمدٌ ﷺ مثل كُفر اليهود لما بُعث المسيح؛ فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجيء المسيح، فكفروا بذلك، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه، فصاروا كفارًا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وبتكذيب الكتاب الثاني.

وكذلك النصارىٰ كانوا بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمدٌ ﷺ، فابتدعوا من التثليث، والاتحاد، وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح، بل تخالف ما بُعث به، وافترقوا في ذلك فرقًا متعددةً، وكفر فيها بعضهم بعضًا.

فلما بعث محمد ﷺ كذبوه، فصاروا كفارًا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وتكذيب الكتاب الثاني، كما يقول علماء المسلمين: إن دينهم مبدلٌ منسوخٌ، وإن كان قليل من النصارىٰ كانوا عند مبعث محمدٍ ﷺ متمسكين بدين المسيح، كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله علىٰ الحق، فهذا كما أن من كان متبعًا شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكًا بالحق كسائر من اتبع موسىٰ، فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافرًا، وكذلك لما بعث محمدٌ ﷺ صار كل من لم يؤمن به كافرًا.

والمقصود في هذا المقام بيان ما بُعث به محمدٌ ﷺ من عموم رسالته، وأنه نفسه الذي أخبر أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، وأنه نفسه ﷺ دعا أهل الكتاب، وجاهدهم، وأمر بجهادهم.

فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ: إنه لم يبعث إلينا.

بمعنىٰ أنه لم يقل: إنه مبعوثٌ إلينا، كان مكابرًا جاحدًا للضرورة مفتريًا علىٰ الرسول فريةً ظاهرةً تعرفها الخاصة والعامة، وكان جحده لهذا كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وجَحْدُ محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما تواتر عنه أعظم من جَحْدِ أتباع الحواريين المسيح، وإرساله لهم إلىٰ الأمم، ومجيئه بالإنجيل، وجَحْدِ مجيء موسىٰ بالتوراة، وجَحْدِ أنه كان يَسْبِتُ، فإن النقل عن محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مدته قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فإن أمة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما زالوا كثيرين منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم من هو ظاهرٌ بالدين، منصورٌ علىٰ الأعداء، بخلاف بني إسرائيل، فإنهم زال ملكهم في أثناء الأمر لما خرب بيت المقدس الخراب الأول بعد داود، ونقص عدد من نقل دينهم حتىٰ قد قيل: إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحدٌ.

والمسيح لم ينقل دينه عنه إلا عددٌ قليلٌ، لكن النصارىٰ يزعمون أنهم رسل الله معصمون، مثل إبراهيم وموسىٰ، وسيأتي الكلام علىٰ هذا إن شاء الله تعالىٰ إذا وصلنا إليه؛ إذ المقصود هنا بيان من زعم أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول: إنه لم يبعث إلا إلىٰ مشركي العرب، فإنه في غاية الجهل والضلال، أو غاية المكابرة والمعاندة، فإن هذا أعظم جهلًا وعنادًا ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة، والغسل من الجنابة، ويحرم الخمر والخنزير، وأعظم جهلًا وعنادًا ممن ينكر ما تواتر من أمر المسيح وموسىٰ، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم: «علمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلىٰ جاهلية العرب».

فإذا عُرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التي ظنوا دلالتها علىٰ أن نبوته خاصة بالعرب تدل علىٰ أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحدٍ علىٰ

مقصوده ومراده، وأنهم ممن قيل فيه: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨].

فليسوا أهلًا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور علىٰ مراد الأنبياء، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء علىٰ مراد الأنبياء، بل ولا يحتجون بكلام الأطباء، والفلاسفة، والنحاة، وعلم أهل الحساب والهيئة علىٰ مقاصدهم؛ فإن الناس كلهم متفقون علىٰ أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأوضحها، ومتفقون علىٰ أن القرآن في أعلىٰ درجات البيان، والبلاغة، والفصاحة.

وفي القرآن من الدلالات الكثيرة علىٰ مقصود الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ التي يذكر فيها أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم ما لا يحصىٰ إلا بكلفةٍ، ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه لأهل الكتاب، وأمره لهم بالإيمان به، وجهاده لهم إذا كفروا به ما لا يخفىٰ علىٰ من له أدنىٰ خبرةٍ بسيرته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به، وسمعه القاصي والداني.

فإذا كان الناس المؤمن به وغير المؤمن به يعلمون أنه كان يقول: إنه رسول الله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول: إني لم أبعث إلا إلىٰ العرب، واستمر علىٰ ذلك حتىٰ مات، دل علىٰ فساد نظرتهم وعقلهم، أو علىٰ عنادهم ومكابرتهم.

وكان الواجب إذ لم يكن له معرفة معاني هذه الآيات التي استدلوا بها علىٰ خصوص رسالته أن يعتقدوا أحد أمرين: إما أن لها معاني توافق ما كان يقوله، أو أنها من المنسوخ، فقد علمت الخاصة والعامة أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يصلي بعد هجرته إلىٰ بيت المقدس نحو سنةٍ ونصفٍ، ثم أُمر بالصلاة إلىٰ الكعبة البيت

الحرام، والنصارىٰ يوافقون علىٰ أن شرائع الأنبياء فيها ناسخٌ ومنسوخٌ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخًا.

ولكن المقصود أن المعلوم من حال الرسول عليه السلام علمًا ضروريًّا يقينيًّا متواترًا لا يجوز دفعه، فإن العلم بأنه كان يقول: إنه رسول الله عليه السلام إلىٰ جميع الخلق معلومٌ لكل من عرف أخباره عليه السلام، سواءٌ صدقه أو كذبه، والعلم بأنه كان يقول: إنه رسول الله إلىٰ جميع الناس ممكنٌ قبل أن يعلم أنه نبيٌّ، أو ليس بنبيٍّ، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكنٌ قبل أن يعلم عموم رسالته، فليس العلم بأحدهما موقوفًا علىٰ الآخر، ولهذا كان كثيرٌ ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول: إنه رسول الله إلىٰ جميع الخلق، وطائفةٌ ممن تقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلىٰ جميع الخلق.

والمقصود هنا الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق ـ أهل الكتاب وغيرهم ـ هو متواترٌ معلومٌ بالاضطرار، كالعلم بنفس مبعثه، ودعائه الخلق إلىٰ الإيمان به وطاعته، وكالعلم بهجرته من مكة إلىٰ المدينة، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الظلم والفواحش، وغير ذلك مما جاء به محمدٌ عليه السلام.

وإن قيل: بل في القرآن ما يقتضي أن رسالته خاصةٌ، وفيه ما يقتضي أن رسالته عامةٌ، وهذا تناقض!!.

قيل: هذا باطلٌ، ويعلم بطلانه قبل العلم بنبوته، فإنه من المعلوم لكل أحدٍ آمن به، أو كذبه أنه كان من أعظم الناس عقلًا، وسياسةً، وخبرةً، وكان مقصوده دعوة الخلق إلىٰ طاعته واتباعه، وكان يقرأ القرآن علىٰ جميع الناس، ويأمر بتبليغه إلىٰ جميع الأمم، وكان من طلب منه أن يؤمنه حتىٰ يقرأ عليه القرآن من

الكفار وجب عليه أن يجيبه، ولو كان مشركًا، فكيف إذا كان كتابيًّا.

وكان قد أظهر أنه مبعوثٌ إلىٰ أهل الكتاب، وسائر الخلق، وأنه رسولٌ إلىٰ الثقلين: الجن والإنس، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل علىٰ أنه لم يُبعث إليهم، فإن هذا لا يفعله من له أدنىٰ عقلٌ؛ لمناقضته لمراده، فكيف يفعله من اتفقت عقلاء الأمم علىٰ أنه أعقل الخلق، وأحسنهم سياسةً، وشريعةً.

ثم بعد هذا فلو قدر أن في القرآن ما يدل علىٰ أنه لم يُبعث إلا إلىٰ العرب، وفيه ما يدل علىٰ أنه بُعث إلىٰ سائر الخلق، كان هذا دليلًا علىٰ أنه أرسل إلىٰ غيرهم بعد أن لم يرسل إلا إليهم، وأن الله عمّ بدعوته بعد أن كانت خاصةً، فلا مناقضة بين هذا وهذا.

فكيف وليس في القرآن آيةٌ واحدةٌ تدل علىٰ اختصاص رسالته بالعرب؟.

وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلىٰ قريش، وليس هذا مناقضًا لهذا، وفيه إثبات رسالته إلىٰ أهل الكتاب.

كما فيه إثبات رسالته إلىٰ بني إسرائيل.

وليس هذا التخصص لليهود منافيًا لذلك التعميم، وفي رسالته خطاب لليهود تارةً، وللنصارىٰ تارةً، وليس خطابه لإحدىٰ الطائفتين، ودعوته لها مناقضًا لخطابه للأخرىٰ، ودعوته لها.

وفي كتابه خطابٌ للذين آمنوا من أمته في دعوته لهم إلىٰ شرائع دينه، وليس في ذلك مناقضةٌ بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم.

وفي كتابه أمرٌ بقتال أهل الكتاب: النصارىٰ حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، كما في آية [التوبة:٢٩].

ثم لم يكن هذا مانعًا أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابتٌ في المجوس بسنته، واتفاق أمته، وإن قيل: إنهم ليسوا من أهل الكتاب.

فهذا كله مما يعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوته، فكيف ونحن نتكلم علىٰ تقدير نبوته، والنبي لا يتناقض قوله؟!.

وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلومًا بالاضطرار قبل العلم بنبوته، وبعد العلم بنبوته، فالعلم الضروري اليقيني لا يعارضه شيءٌ.

ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم زيغٌ من أهل البدع النصارىٰ وغيرهم، يتبعون المتشابه، ويدعون المحكم.

وهذا الذي سلكوه في القرآن هو نظير ما سلكوه في الكتب المتقدمة، وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله، وعبودية المسيح ما لا يُحصىٰ إلا بكلفةٍ، وفيها كلماتٌ قليلةٌ فيها اشتباهٌ، فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفي المشكل من الكتب المتقدمة، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح، فهم سلكوا في القرآن ما سلكوه في الكتب المتقدمة؛ لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها، ومحمدٌ عليه السلام هم فيه مضطربون متناقضون، فأي قولٍ قالوه فيه ظهر فساده وكذبهم فيه، إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه.

وإن قالوا: كلامه متناقضٌ، ونحن نحتج بما يوافق قولنا، إذ مقصودنا بيان تناقضه.

قيل لهم عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه في الكتب المتقدمة مما يظن أنه متعارضٌ أضعاف ما في القرآن،

وأقرب إلىٰ التناقض، فإذا كانت تلك الكتب متفقةٌ لا تناقض فيها، وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها، ومراد الرسل، فيكون كما قيل:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهمِ السقيمِ(١)

فكيف القرآن الذي هو أفضل الكتب.

الثانِي: أنهم متمسكون بالمتشابه في تلك الكتب، ومخالفون المحكم منها، كما فعلوه بالقرآن، وأبلغ.

الثالث: أنه إذا كان ما جاء به متناقضًا لم يكن رسول الله، فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفًا متناقضًا، وإنما يتناقض ما جاء من عند غير الله، فكل كتابٍ ليس من عند الله لا بد أن يكون فيه تناقضٌ، وما كان من عند الله لا يتناقض، وحينئذٍ.. فإن كان متناقضًا لم يجز لهم الاحتجاج بشيءٍ منه، فإنه ليس من عند الله، وإن لم يكن متناقضًا ثبت أن ما فيه من عموم رسالته، وأنه رسول إليهم، فليس فيه شيءٌ يناقضه، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض.

الرابع: أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافي ما فيه من أنه أرسل إلىٰ العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين، وأمر قريش لا ينافي ما فيه من دعوة سائر العرب، فإن تخصيص بعض العام بالذكر - إذا كان له سببٌ يقتضي التخصيص - لم يدل علىٰ أن ما سوىٰ المذكور مخالفه، وهذا الذي يسمىٰ مفهوم المخالفة، ودليل الخطاب.

والناس كلهم متفقون علىٰ أن التخصيص بالذكر متىٰ كان له سببٌ يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن لاسم اللقب مفهومٌ، بل ولا للصفة، فإنه نهاهم عن ذلك؛ لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرم في موضع آخر قتل

(١) انظر ديوان المتنبي ٤/ ٢٤٦.

النفس بغير الحق، سواء كان ولدًا أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضًا لتخصيص الولد بالذكر.

الخامس: أنه في ذلك أسوةٌ بالمسيح، فإن المسيح خصَّ أولًا بالدعوة، ثم عمّ، كما قيل في الإنجيل: «ما بعثت وأرسلت إلا لبني إسرائيل» (١).

وقال أيضًا في الإنجيل: «ما بعثت إلا لهذا الشعب الخبيث».

ثم عمّ فقال لتلامذته حين أرسلهم -كما في الإنجيل-: «كما بعثني أبي أبعث بكم، فمن قبلكم فقد قبلني».

وقال: «أرسلني أبي، وأنا أرسلكم».

وقال: «كما أفعل أنا بكم كذلك افعلوا أنتم بعباد الله، فسيروا في البلاد، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ولا يكون لأحدكم ثوبان، ولا يحمل معه فضةً، ولا ذهبًا، ولا عصًا، ولا حرابةً».

ونحو ذلك مما هو في الأناجيل التي بين أيديهم من تخصيص الدعوة ثم تعميمها، وهو صادقٌ في ذلك كله، فكيف يسوغ لهم إنكار ما في الإنجيل عن المسيح نظيره.

ثم يقال في بيان الحال: إن الله تعالىٰ بعث محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل، كما نذكر في موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلىٰ طائفةٍ بعد طائفةٍ، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكانًا ونسبًا، ثم بتبليغ طائفةٍ بعد طائفةٍ حتىٰ تبلغ النذارة إلىٰ جميع أهل الأرض، ونبين هنا أن النذارة ليست مختصةً بمن شافههم بالخطاب؛ بل ينذرهم به،

---

(١) انظر إنجيل متىٰ ١٥: ٢٤.

وينذر من بلغهم القرآن.

والمقصود هنا أنهم سواء صدقوا محمدًا، أو كذبوه فإنه يلزم بطلان دينهم علىٰ التقديرين، فإنه إنْ كان نبيًّا صادقًا فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كفر النصارىٰ في غير موضع، ودعاهم إلىٰ الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمن علم أنه نبي - ولو إلىٰ طائفةٍ معينةٍ - يجب تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر بكفر النصارىٰ وضلالهم.

وإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشيءٍ من الكتب والمعقول، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به علىٰ صحة دينهم فهو باطلٌ، وإن لم يبين فساد حججهم علىٰ التفصيل؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقًّا، كما أن المسيح لما حكم بكفر من كذبه من اليهود كان كل ما يحتج به اليهود علىٰ خلاف ذلك باطلًا، فكل ما عارض قول النبي المعصوم فهو باطل.

وإن كذبوا محمدًا تكذيبًا عامًّا مطلقًا، وقالوا: ليس هو نبيٌّ أصلًا، ولا أُرسل إلىٰ أحدٍ: لا إلىٰ العرب، ولا إلىٰ غيرهم، بل كان كذَّابًا امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره.

فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسىٰ وعيسىٰ يعلم به نبوة محمد بطريق الأولىٰ، فإذا قالوا: علمت نبوة موسىٰ والمسيح بالمعجزات، وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا.

قيل لهم: معجزات محمدٍ أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمد أكمل، وأمته أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسىٰ جاء بالعدل، وعيسىٰ جاء بتكميلها بالفضل، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جمع في شريعته بين العدل والفضل.

فإن ساغ لقائل أن يقول: هو مع هذا كاذبٌ مفترٍ كان - علىٰ هذا التقدير

الباطل - غيره أولىٰ أن يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ جميع ما معهم من النبوات، إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله، فكيف بما هو أولىٰ منه.

فلو قال قائل: إن هارون، ويوشع، وداوود، وسليمان كانوا أنبياء، وموسىٰ لم يكن نبيًّا.

أو أن داوود، وسليمان، ويوشع كانوا أنبياء، والمسيح لم يكن نبيًّا.

أو قال ما تقوله السامرة(١): إن يوشع كان نبيًّا، ومن بعده كداوود، وسليمان، والمسيح لم يكونوا أنبياء.

أو قال ما يقوله اليهود: إن داوود، وسليمان، وأشعيا، وحبقوق، ومليخا، وعاموص، ودانيال(٢) كانوا أنبياء، والمسيح ابن مريم لم يكن نبيًّا، كان هذا قولًا متناقضًا معلوم البطلان، فإن الذين نفىٰ هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة، وأكمل نبوةً ممن أثبتوها له، ودلائل نبوة الأكمل أفضل، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل.

وصار هذا كما لو قال قائل: إن زفر، وابن القاسم، والمزني، والأثرم كانوا فقهاء، وأبا حنيفة، ومالكًا، والشافعي، وأحمد لم يكونوا فقهاء.

أو قال: إن الأخفش، وابن الأنباري، والمبرد كانوا نحاة، والخليل، وسيبويه، والفراء لم يكونوا نحاة.

---

(١) هي إحدىٰ فرق اليهود التي بدَّلت وحرَّفت، واليهود يعرفون ذلك عنهم.
قال ابن القيم: (واليهود تقر أيضًا أن السامرة حرفوا مواضع من التوراة وبدلوها تبديلًا ظاهرًا وزادوا ونقصوا، والسامرة تدَّعي ذلك عليهم). هداية الحيارىٰ ص١٩٤.

(٢) انظر الموسوعة الكتابية، والعهد القديم، فكل له سفر فيها.

أو قال: إن صاحب «الملكي» [١]، و «المسيحي» [٢]، ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء، وبقراط، وجالينوس، ونحوهما لم يكونوا أطباء.

أو قال: إن كوشيار، والخرقي، ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة، وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علمٌ بالهيئة.

ومن قال: إن داوود، وسليمان، ومليخا، وعاموص، ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبيًّا.

فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبين من هذا جميعه.

بل وكذلك من قال: إن موسىٰ وعيسىٰ رسولان، والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمد ليس برسول، والقرآن لم ينزل من الله.

فبطلان قوله في غاية الظهور، والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء به من قبله، وتدبر كتابه، والكتب التي قبله، وآيات نبوته، وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه، وشرائع دين هؤلاء.

وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع، لكن المقصود هنا التنبيه علىٰ مجامع جوابهم.

وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليلٍ واحدٍ يدل علىٰ صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضًا علىٰ المسلمين، الذين يقرُّون بنبوة هؤلاء، فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا

---

(١) هو أبو بكر الرازي.

(٢) هو ابن سينا.

صدقهم.

وأيضًا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم، فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولىٰ، فيمتنع أن يصدق أحدٌ من المسلمين بنبوة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمحمدٍ في كلمة مما جاء به.

ومما ينبغي أن يعلم أن كثيرًا من النصارىٰ إنما يعتمدون في النبوات علىٰ بشارة الأنبياء بمن يأتي بعدهم، فيقولون المسيح بشرت به الأنبياء قبله، بخلاف محمد ﷺ فإنه لم يبشر به نبي.

وجواب هؤلاء من وجهين:

أحدهما: أن يقال: بل البشارة بمحمدٍ ﷺ في الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح علىٰ أنه ليس هو عيسىٰ ابن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال، فإنه الذي يتبعه اليهود، ويخرج معه سبعون ألف مُطَيْلَسٍ من يهود أصبهان(١)، ويقتلهم المسلمون معه حتىٰ يقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله. كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ (٢).

وثبت أيضًا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَقْتُلُ مَسِيحُ الْهُدَىٰ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ الْأَعْوَرَ**

(١) انظر: مسلم برقم (٢٩٤٤) من حديث أنس.

(٢) انظر: صحيح البخاري برقم (٢٩٢٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٢)، ومسند أحمد [٢/ ٣٩٨] من حديث أبي هريرة.

الدَّجَّالَ عَلَىٰ بِضْعِ عَشْرَةَ خُطْوَةً مِنْ بَابِ لُدٍّ» (١).

ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلهًا، فيقتل من ادعىٰ فيه أنه الله ـ وهو بريءٌ مما ادُّعي فيه ـ لمن ادعىٰ في نفسه أنه الله وهو دجال كذاب.

فهكذا البشارات بمحمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكتب المتقدمة، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب علىٰ غير تأويلها، كما قد بسط في موضعٍ آخر، فإن بسط الكلام في ذكر محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب له موضعٌ آخر.

الجواب الثاني: أن يقال: ليس من شرط النبي أن يبشر به من تقدمه، كما أن موسىٰ كان رسولًا إلىٰ فرعون، ولم يتقدم لفرعون به بشارةٌ، وكذلك الخليل أرسل إلىٰ نمرود، ولم يتقدم به بشارة نبيٍّ إليه، وكذلك نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، لم يتقدم هؤلاء بشارةٌ إلىٰ قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين.

فإن دلائل نبوة النبي لا تنحصر في إخبار من تقدمه، بل دلائل النبوة منها المعجزات، ومنها غير المعجزات، كما قد بسط في موضع آخر.

وهؤلاء النصارىٰ إنما مستند دينهم ــ في التثليث، والاتحاد، وغير ذلك ــ هو السمع، وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، ليس مستندهم فيه العقل، فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات.

وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة،

---

(١) هذا اللفظ عبارة عن حديثين:

الأول: أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٠، والبخاري برقم (٢٢٢٢)، ومسلم برقم (١٥٥) من حديث أبي هريرة.

والثاني: أخرجه أحمد ٤/ ١٨١، ومسلم برقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

وأنها علىٰ نقيض مذهبهم أدل منها علىٰ مذهبهم.

وسنبين إن شاء الله تعالىٰ أن لا حجة لهم في سمعٍ ولا عقلٍ، بل ذلك كله حجة عليهم.

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التي كتب الوفاء في ظهرها فتمثيلٌ باطلٌ غير مطابق؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين، ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولًا وسقوطه آخرًا بالوفاء، بل أمكن مع هذا دعواه.

وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقرّ بأنه رسول الله في بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذي ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض، فإنه إن كان صادقًا في قوله: «إنه رسول الله» كان معصومًا في ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكذب في شيءٍ منه، لا عمدًا ولا خطأً، ووجب اتباع الكتاب الذي جاء به من عند الله، ولم يمكن رد شيءٍ مما ذكر أنه جاء به من الله.

وإن كان كاذبًا في كلمةٍ واحدةٍ مما أخبر به عن الله فهو من الكاذبين المفترين، فلا يجوز أن يحتج بشيءٍ من دينهم، ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله، بل ولا بمجرد خبره وقوله، وإن لم يذكر أنه خبر عن الله.

كما لا يجوز مثل ذلك في سائر من عرف أنه كاذب في قوله: «إني رسول الله» كمسيلمة الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي(١)، والحارث

---

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي أحد قادة حروب الردة بعد وفاة النبي عليه السلام وادَّعىٰ النبوة في قومه بني أسد وغيرهم، لكن هزمه الله تعالىٰ وأتباعه علىٰ يد خالد بن الوليد رضي الله عنه في معركة بزاخة، ثم دخل الإسلام علىٰ إثر ذلك، وحسن إسلامه، وشارك في الفتوحات الإسلامية، واستُشهد في معركة نهاوند سنة ٢١هـ. انظر موسوعة ويكيبيديا.

الدمشقي[١]، وبابا الرومي[٢]، وأمثالهم من الكذابين.

ثم يقال لهم ثانيًا في الجواب عن التمثيل بالوثيقة: إنّ الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق، وأما القرآن الذي جاء به محمدٌ عليه السلام فليس في إخباره بأنه أرسل إلىٰ قريش، ثم إلىٰ العرب ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلىٰ جميع الناس: أهل الكتاب وغيرهم، كما أنه ليس في إخباره أنه أرسل إلىٰ بني إسرائيل، ومخاطبة الله لهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ما يمنعه أن يكون مرسلًا إلىٰ اليهود من غير بني إسرائيل، وإلىٰ النصارىٰ والمشركين، وهو لم يقل قطُّ: إني لم أرسل إلا إلىٰ العرب، ولا قال ما يدل علىٰ هذا، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال: إنه مرسل إلىٰ جميع الجن والإنس، إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، ولو قُدِّر أنه قال: إنه لم يرسل إلا إلىٰ العرب.

ثم قال: إني أرسلت إلىٰ أهل الكتاب.

لكان قد أرسل إلىٰ أهل الكتاب بعد إرساله إلىٰ العرب.

ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء، فلم يكن بين نفي تحريمها في الزمن الأول وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاةٌ، ولكن يظهر الدين إذا أوجب شيئًا ثم نسخ إيجابه، كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدي النجوىٰ[٣]، ففي مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ

---

(١) هو الحارث بن سعيد الدمشقي المتنبئ، قتله عبد الملك بن مروان. انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٧-٢٩. وموسوعة ويكيبيديا.

(٢) لم أقف له علىٰ ترجمة.

(٣) انظر: سنن الترمذي ٥/ ٣٧٩ (٣٣٠٠)، والنسائي في الكبرىٰ ٥/ ١٥٢ (٨٥٣٧) ومسند أبي يعلىٰ (١/ ٣٢٢) (٤٠٠) عن علي. وتفسير الطبري ٢٨/ ٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٢، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٧.

للإقرار بالدين.

وقد ذكرنا أنه لا يجوز أن يحتجوا بشيءٍ من القرآن، وما نقل عن محمدٍ عليه السلام إلا مع التصديق برسالته، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره، ولا الاحتجاج بشيءٍ من كلام الأنبياء.

فتكذيبهم [به] يستلزم تكذيبهم بغيره، فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته، وذلك يستلزم بطلان دينهم، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول، وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل؛ فإن الدليل ملزومٌ للمدلول عليه، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم، وإذا انتفىٰ اللازم انتفىٰ الملزوم، فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل؛ فإن الباطل لا يقوم عليه دليلٌ صحيحٌ.

فإن كان محمدٌ عليه السلام رسول الله لزم بطلان دينهم، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح علىٰ صحته، وإن لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله، فثبت أن استدلالهم بقوله باطلٌ علىٰ التقديرين.

ونحن نذكر هنا أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحدٍ من الأنبياء أو الرسل علىٰ صحة دينهم.

وأيضًا فإن الذين احتجوا بقولهم مثل موسىٰ، وداود، والمسيح، وغيرهم، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل علىٰ نبوتهم، كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمىٰ بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علمٍ ولا دليلٍ، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك علىٰ المسلمين؛ لأنهم يسلمون نبوة هؤلاء.

وعلىٰ كل تقديرٍ لا يصح استدلالهم بقولهم:

أما علىٰ الأول: فلأنه أي طريقٍ ثبتت بها نبوة واحدٍ من هؤلاء الأنبياء **فإنه**

تثبت نبوة محمدٍ ﷺ بمثلها، وأعظم منها، وحينئذ... فإن لم يقروا بنبوة محمدٍ ﷺ - مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى، وداود، وعيسى، وغيرهم يدل على نبوة محمدٍ ﷺ - لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم، فجعلوه قائمًا مع انتفاء مدلوله، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزمًا للمدلول، فإذا كان تارةً يوجد مع المدلول، وتارةً لا يوجد لم يكن مستلزمًا له، فلا يكون دليلًا.

فإن من جعل المعجزات دليلًا على نبوة نبيٍّ، وقال: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة.

ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام، وجعلوا ذلك دليلًا على نبوة موسى، وعيسى، وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليلًا فهو دليلٌ على نبوة محمدٍ ﷺ، وإن لم يكن دليلًا لم يكن دليلًا على نبوة موسى، وعيسى؛ فإنه قد ثبت عن محمدٍ ﷺ من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره، ونقل معجزاته متواترٌ أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمدٍ ﷺ.

وإن قالوا: معجزات محمدٍ ﷺ لم تتواتر عندنا.

قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفةٍ معينةٍ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم: لم يتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح، وإنما تتواتر أخبار كل إنسانٍ عند من رأى المشاهدين له، أو رأى من رآهم، وهلم جرًّا..

ومعلومٌ أن أصحاب محمدٍ ﷺ الذين رأوه، ونقلوا معجزاته أضعاف

أصحاب المسيح، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك، فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح التصديق بمعجزات محمدٍ عليه السلام، ومن التكذيب بمعجزات محمدٍ عليه السلام التكذيب بمعجزات المسيح.

وإن قالوا: عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله.

قيل: وفي الكتب المتقدمة من البشارات بمحمدٍ عليه السلام مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر، كما سيأتي بعضها إن شاء الله تعالىٰ.

وإن تأولوا تلك البشارات بمحمدٍ عليه السلام بما يمنع دلالتها.

قيل لهم: واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها علىٰ المسيح.

فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلةٌ من وجوهٍ معروفةٍ.

بُيِّنَ لهم أن هذه باطلةٌ أيضًا بمثل تلك الوجوه وأقوىٰ، فما من جنس من الأدلة يدل علىٰ نبوة موسىٰ والمسيح إلا ودلالته علىٰ نبوة محمدٍ عليه السلام أقوىٰ وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوة موسىٰ والمسيح ثبوت نبوة محمدٍ عليه السلام، ومن الطعن في نبوة محمد الطعن في نبوة موسىٰ والمسيح.

*****

[الرد على دعواهم أن القرآن أُنزل باللسان العربي وحده]

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربي وحده، فعنه أجوبة:

أحدها: أن يقال: والتوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده، وموسىٰ لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية، وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسانٍ واحدٍ: بلسان الذي أنزلت عليه، ولسان قومه الذين يخاطبهم أولًا، ثم بعد ذلك تبلّغ الكتب، وكلام الأنبياء لسائر الأمم، إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه، وإما بأن يبين للمرسل إليه معاني ما أرسل به الرسول إليه بلسانه، وإن لم يعرف سائر ما أرسل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرسل لقومهم، وما قالوا لهم، وأكثرهم لم يكونوا عربًا، وأنزله الله باللسان العربي.

وحينئذٍ.. فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده، ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان، أو يعرفوا معنىٰ الكتاب بترجمة من يترجم معناه، وهذا مقدورٌ للعباد.

ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها وجب عليه ذلك، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ، **بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به فإنه ليس بواجبٍ**، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، لا في الأصل، ولا في التمام، فلا نحتاج أن نقول: ما لا يتم الواجب إلا به - وكان مقدورًا للمكلف - فهو واجبٌ؛ فإن ما ليس مقدورًا عليه لا يكلف به العباد، بل وقد يكون مقدورًا عليه،

ولا يكلفون به.

فلما كانت الاستطاعة شرطًا في وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة، بخلاف قطع المسافات فإنه ليس شرطًا في الوجوب، فلهذا يجب الحج علىٰ الإنسان من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعًا.

وجمهور الناس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية: التوراة، والإنجيل، والقرآن إلا بمن يبينها ويفسرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به، ونهاهم عنه، وهذا هو طلب العلم المفروض علىٰ الخلق.

الوجه الثانِي: أن المسيح كان لسانه عبريًّا، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولًا، ثم إنه أرسلهم إلىٰ الأمم يخاطبونهم، ويترجمون لهم ما قاله المسيح.

فإن قالوا: إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلىٰ ألسنة من أرسل إليهم.

قيل: هذا منقولٌ في رسل المسيح، وفي رسل محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين أرسلهم إلىٰ الأمم، ولا ريب أن رُسُلَ رُسُلِ الله، كرسل محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمسيح إلىٰ الأمم لا بد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية، فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم، وكذلك رسل النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين أرسلهم إلىٰ الأمم، فإن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلىٰ أهل الأرض، فبعث إلىٰ ملوك العرب باليمن، والحجاز، والشام، والعراق، وأرسل إلىٰ ملوك النصارىٰ بالشام، ومصر: قبطهم، ورومهم، وعربهم، وغيرهم، وأرسل إلىٰ الفرس المجوس ملوك العراق

وخراسان.

الوجه الثالث: أن النصارىٰ فيهم عربٌ كثيرٌ من زمن النبي ﷺ، وكل من يفهم اللسان العربي فإنه يمكن فهمه للقرآن، وإن كان أصل لسانه فارسيًّا، أو روميًّا، أو تركيًّا، أو هنديًّا، أو قبطيًّا، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارىٰ قد قرأوا المصحف، وفهموا منه ما فهموا، وهم يفهمونه بالعربية، واحتجوا بآيات من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه.

الوجه الرابع: أن حكم أهل الكتاب في ذلك حكم المشركين، ومعلومٌ أن المشركين فيهم عربٌ، وفيهم عجمٌ: تركٌ، وهندٌ، وغيره، فكما أن جميع المشركين كمشركي العرب، كذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب، وفي اليهود والنصارىٰ ممن يعرف لسان العرب من لا يحصيه إلا الله عز وجل.

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كل آيةٍ من القرآن فرضًا علىٰ كل مسلم، وإنما يجب علىٰ المسلم أن يعلم ما أمره الله به، وما نهاه عنه بأي عبارةٍ كانت، وهذا ممكنٌ لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم: من الفرس، والترك، والهند، والصقالبة، والبربر.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

وقوله: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ [الزخرف: ٣].

فهذا يتضمن إنعام الله علىٰ عباده؛ لأن اللسان العربي أكمل الألسنة، وأحسنها بيانًا للمعاني، فنُزول الكتاب به أعظم نعمةٍ علىٰ الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به أولًا العرب ليفهموه، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحجة به علىٰ العرب أولًا، والإنعام به عليهم أولًا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.

فإن قالوا: إن الكتب التي عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون، وهم عندنا رسلٌ معصومون، وترجموها لجميع الأمم، بخلاف القرآن؛ فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم.

فعن هذا أجوبةٌ:

أحدها: أن هذا كذبٌ بَيّنٌ؛ فإن من العرب من النصارىٰ من لا يحصي عدده إلا الله تعالىٰ، وكان فيهم نصارىٰ كثيرون، تنصروا قبل مبعث محمدٍ عليه السلام، وكان فيهم قومٌ علىٰ دين المسيح الذي لم يبدل، وهم مؤمنون من أهل الجنة كسائر من كان علىٰ دين المسيح، فإنّ كل من كان علىٰ دين المسيح الذي لم يبدل قبل مبعث محمدٍ عليه السلام فإنه مؤمنٌ مسلمٌ من أهل الجنة، ومع هذا فليس علىٰ وجه الأرض توراةٌ ولا إنجيلٌ معربٌ من عهد الحواريين، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبري أو غيره إلىٰ العربية، وكذلك الإنجيل ينقل من اللسان الرومي، أو السرياني، أو اليوناني، أو غيرها إلىٰ اللغة العربية، فلو كان عند كل أمةٍ من الأمم توراةٌ، وإنجيلٌ، ونبواتٌ بلسانهم لكان نصارىٰ العرب أحق بهذا من نصارىٰ الحبشة، والصقالبة، والهند؛ فإنهم جيران البيت المقدس، وهم بنو إسماعيل.

والأناجيل عندهم أربعةٌ، وهم يدّعون أن كل واحدٍ كتبها بلسان، كتبت باللسان العبري، والرومي، واليوناني، مع أن في بعض الأناجيل ما ليس في بعض،

مثل قولهم: «عمدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس» الذي جعلوه أصل دينهم، وهذا إنما هو قوله في إنجيل متَّىٰ.

وإذا كان كل واحدٍ من الأربعة كتب إنجيلًا بلسانه لم يكن هناك إنجيلٌ واحدٌ أصليٌّ ترجع إليه الأناجيل كلها، ثم هم مع هذا يدّعون أنها ترجمت باثنين وسبعين لسانًا، وهذا فيه من الكذب والتناقض أمورٌ سننبه إن شاء الله علىٰ بعضها.

لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانًا، ومعلومٌ أن الألسنة الموجودة في بني آدم في جميع المعمورة، في زماننا، وقبل زماننا أكثر من هذا، كما يعرفه من عرف أحوال العالم، بل اللسان الواحد، كالعربي، والفارسي، والتركي جنسٌ تحته أنواعٌ مختلفةٌ، لا يفهم بعضهم لسان بعض، إلا أن يتعلمه منهم، والعرب أقرب الأمم إلىٰ بني إسحاق: بني إسرائيل والعيص؛ فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشام، ومكة لم تزل تحج إليها العرب، ولم يكن قطّ عند العرب توراةٌ ولا إنجيلٌ عربيان من عهد المسيح، بل ولا كان بمكة لا توراةٌ ولا إنجيلٌ، لا معربٌ ولا غير معربٍ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

فكيف يُدّعىٰ أن التوراة والإنجيل ترجمها الحواريون لكل قومٍ من جميع بني آدم، شرقًا وغربًا، وجنوبًا وشمالًا، بلسان يفهمونه به؟ وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم؟!.

الوجه الثاني: أن يقال: ترجمة الكلام من لغةٍ إلىٰ لغةٍ لا تحتاج إلىٰ معصوم، بل هذا أمرٌ تعلمه الأمم، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة، ويحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين، لا يتواطؤون علىٰ الكذب، وبقرائن

تقترن بخبر أحدهم وبغير ذلك، وهذا موجودٌ معلومٌ.

بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله الآخر، ولم يتواطؤوا حصل بذلك المقصود في الغالب، وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبراً من اليهود (١)، ولم يكونوا معصومين، وأن الملك فرقهم لئلا يتواطؤوا علىٰ الكذب، واتفقوا علىٰ ترجمةٍ واحدةٍ، وهذا كان بعد الخراب الأول، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة.

وهذه التوراة في زماننا، والإنجيل، والزبور يترجم باللغة العربية، ويعرف المقصود به بلا ريب، فكيف بالقرآن الذي يفهم أهله معناه، ويفسرونه، ويترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل التوراة والإنجيل.

الوجه الثالث: أن دعوىٰ العصمة في كلِ واحدٍ من الحواريين، وأنهم رسلُ الله بمنزلة إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام دعوىٰ ممنوعةٌ، وهي باطلةٌ، وإنما هم رسل المسيح بمنزلة رسل موسىٰ، ورسل إبراهيم، ورسل محمدٍ عليه السلام.

وأكثر النصارىٰ ــ أو كثير منهم، أو كلهم ــ يقولون: هم رسل الله، وليسوا بأنبياء، وكل من ليس بنبيٍّ فليس برسول الله، وليس بمعصوم، وإن كانت له خوارق عادات، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم؛ فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ.

والخوارق التي تجري علىٰ يدي غير الأنبياء لا تدل علىٰ أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء، فضلًا عن كونهم معصومين، فإن ولي الله من يموت علىٰ الإيمان، ومجرد الخارق لا يدل علىٰ أنه يموت علىٰ الإيمان، بل قد يتغير عن ذلك الحال، وإذا قطعنا بأن الرجل ولي الله - كمن أخبر النبي عليه السلام بأنه من

---

(١) انظر الموسوعة العربية (ص٩٥٩).

أهل الجنة - فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء، بخلاف الأنبياء؛ فإنهم معصومون، لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأً، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم، ومن كفر بواحدٍ منهم فهو كافرٌ، ومن يسبّ واحدًا منهم وجب قتله في شرع الإسلام.

وأما قولهم: «لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا، علىٰ ما يشهد لهما الكتاب الذي أتىٰ به هذا الرجل، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا ﴾[النحل: ٣٦]».

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثانٍ، فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسىٰ، وكانوا علىٰ شريعة التوراة، ثم بعث الله تبارك وتعالىٰ إليهم المسيح، ووجب عليهم الإيمان به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا، وإن قال: إني متمسك بالكتاب الذي أنزل إلي.

فكذلك إذا أرسل الله رسولًا بعد المسيح وجب الإيمان به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافرًا.

وبنو إسرائيل أكثر اختصاصًا بموسىٰ والتوراة، من الروم وغيرهم بالمسيح والإنجيل، فإنهم كانوا عبرانيين، والتوراة عبرانية.

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله الحواريون عن المسيح كذبٌ ظاهرٌ، بل هم عامة ما هم عليه من الدين: عقائده وشرائعه، كالأمانة، والصلاة إلىٰ المشرق، واتخاذ الصور، والتماثيل في

الكنائس، واتخاذها وسائط، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس علىٰ أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان، والرهبانية، وجعل الصيام في الربيع، وجعله خمسين يومًا، والصلوات والقرابين، والناموس، لم ينقله الحواريون عن المسيح، ولا هو موجودٌ لا في التوراة، ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسكون بقليلٍ مما جاءت به الأنبياء.

وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرةٌ جدًّا، لم ينقل أحدٌ عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السحرية: «تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا».

وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله مريم العذراء! افتحي لنا أبواب الرحمة».

الوجه الثالث: قولهم: «إنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم» إنما يستقيم إن كان صحيحًا في بعض النصارىٰ، لا في جميعهم؛ فإن العرب من النصارىٰ - وغير العرب - لم يسلم أحدٌ إليهم توراةً ولا إنجيلًا بلسانهم، وهذا أمرٌ معروفٌ، ولا توجد قطُّ توراةٌ، ولا إنجيلٌ معربٌ من زمن الحواريين، وإنما عربت في الأزمان المتأخرة، فإذا كانت النصارىٰ من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد عليه السلام بكتاب نزل بغير لسانهم، ثم عُرِّبَ لهم، فكيف لا تقوم علىٰ الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم، ثم ترجم بلسانهم.

الوجه الرابع: أن يقال: الأمة إذا غيرت دين رسولها الذي أرسل إليها وبدلته، أرسل الله إليها من يدعوها إلىٰ الدين الذي يحبه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لما غيَّروا دين موسىٰ وبدلوه بعث الله إليهم - وإلىٰ غيرهم - المسيح بالدين الذي يحبه ويرضاه، وكذلك النصارىٰ لما بدلوا دين المسيح وغَيَّرُوه بعث الله إليهم - وإلىٰ غيرهم - محمدًا بالدين الذي يحبه ويرضاه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» (١).

وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا علىٰ دين الله عَزَّ وَجَلَّ، وأما من حين بعث محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار، كما قال في الحديث الصحيح: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» (٢).

الوجه الخامس: أن يقال: دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل، وسائر النبوات باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقيةٌ إلىٰ اليوم علىٰ لفظٍ واحدٍ دعوىٰ يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم، بل مفترٍ كذَّابٌ، وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا، كلها منقولةٌ عن الحواريين، وكلها متفقةٌ غير مختلفةٍ البتة.

فهذا أربع دعاوي: أنها موجودةٌ باثنين وسبعين لسانًا، وأنها متفقةٌ، وأنها كلها منقولةٌ عن الحواريين، الرابعة: أنهم معصومون.

فيقال: من الذي منكم لو قدر أن هذه الكتب التي باثنين وسبعين لسانًا هي عن الحواريين، وهي موجودةٌ اليوم، فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضًا، وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لسانًا، ويكون ما عنده من الكتب يعلم أنها مأخوذةٌ عن الحواريين، ويعلم أن كل نسخة في العالم بهذا

(١) هذه قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد ٤/ ١٦٢، ومسلم برقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار المجاشعي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢/ ٣١٧، ومسلم برقم (١٥٢) عن أبي هريرة.

اللسان توافق النسخة التي عنده، وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين لسانًا لم يعلم أن كل نسخة من هذه هي المأخوذة عن الحواريين، إنْ قدر أنه أخذ عنهم اثنان وسبعون لسانًا، ولا يعلم أن كل نسخةٍ في العالم توافق تلك النسخة؛ فإنه من المعلوم أنه في زماننا ــ وقبل زماننا ــ لم تزل هذه الكتب تنقل من لسانٍ إلىٰ لسانٍ، كما يترجم من العبرانية إلىٰ العربية، ومن السريانية، والرومية، واليونانية إلىٰ العربية وغيرها.

وحينئذ.. فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين، أو هي من المأخوذ عن الحواريين، إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية، ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة، ويقابل بينها، **بل وقد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضًا في الترجمة مخالفةً شديدةً تمنع الثقة ببعضها.**

وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخٍ معربةٍ بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط، وما يشهد بأنها مبدلةٌ مغيرةٌ لا يوثق بها، **ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب**، فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التي بالاثنين وسبعين لسانًا، ويقابل بين نسخ كل لسان حتىٰ يكون فيها النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين، ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة، ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفًا بالاثنين وسبعين لسانًا معرفةً تامةً، وليس في بني آدم من يقدر علىٰ ذلك، ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر علىٰ ذلك فعل ذلك، وأخبرنا باتفاقها، ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحدٍ، أو أن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتىٰ تنتهي الترجمة إلىٰ لسانٍ واحدٍ كالعربي مثلًا، ويعلم حينئذ اتفاقها، وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر، وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنىٰ بهذا اللسان هو

المعنىٰ بهذا اللسان، هذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين، أو من يترجم له اللسانان باللسان الذي يعرفه، ومعلومٌ أن أحدًا لم يترجم له الاثنان وسبعون لسانًا بلسانٍ واحدٍ، أو ألسنةٍ يعرفها، ولا يُعرف أحدٌ باثنين وسبعين لسانًا.

وحينئذ.. فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزمٌ بما لا يعلم صحته، لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لسانًا منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدي الناس هو مما ترجم بعد ذلك بالعربي وغيره.

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقيةٌ إلىٰ اليوم، وهذا أمر لا يمكن أحدًا معرفته، فليس اليوم توراةٌ، وإنجيلٌ، ونبواتٌ يشهد لها أحدٌ أنها مترجمة باللسان العربي من عهد الحواريين، بل ولا بأكثر الألسنة، وإلا.. فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانًا مع حصول الترجمة بعد ذلك، وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير في بعض المترجمات، وحينئذ.. فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تغيير فيها لا يمنع وقوع التغيير في بعض ما ترجم بعدها، أو في بعض ما نسخ منها، ولا سبيل إلىٰ العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لسانًا، بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب، وخط العرب؛ فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخة ممكن، وهو محفوظٌ في الصدور، ولا يحتاج إلىٰ حفظ في الكتب، فهو منقولٌ بالتواتر لفظًا وخطًّا.

الوجه السادس: قولهم: «وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا علىٰ ما يشهد لهما الكتاب الذي أتىٰ به هذا الرجل».

فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم، فاستشهادكم بالقرآن علىٰ هذه الدعوىٰ من جنس استشهادكم به علىٰ أن دينكم حقّ، ومن جنس استشهادكم بالنبوات علىٰ ما أحدثتموه وغيرتم به

دين المسيح من التثليث، والاتحاد، وغير ذلك.

الوجه السابع: أن يقال: عمدتهم في هذه الحجة أنهم يقولون: الحواريون هم عندنا رسل الله، كإبراهيم وموسىٰ، والمسيح عندنا هو الله، وهو أرسل إلينا هؤلاء، فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم: هَبْ أنّكم تدّعون هذا، وتعتقدونه، ونحن سنبين - إن شاء الله تعالىٰ - أن هذه دعاوىٰ باطلةٌ، لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الذي جاء به محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يشهد لكم بذلك، وهذا كذبٌ ظاهرٌ علىٰ محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلىٰ كتابه، وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم، ونحن نُبَيِّنُ كذبكم وافتراءكم عليه، سواءٌ أقررتم بنبوته، أو لم تقرّوا بها.

فإنه من المعلوم يقينًا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفّر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا: إنا مؤمنون مسلمون.

وأنهم قالوا: نحن أنصار الله. كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريين؛ لكون أمته خير الأمم.

وسيأتي الكلام علىٰ هذا مبسوطًا، ونُبَيِّنُ أن الرسل المذكورين في سورة يس ليس هم الحواريين، ولا كانوا رسلًا للمسيح، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح، وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٨-٢٩].

والرسل المذكورون في سورة يس هم ثلاثةٌ، وكان في القرية رجلٌ آمن بهم،

وهذه وإن كانت أنطاكية[١]، فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح ذهب إلىٰ أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلىٰ السماء، ولم يعززوا بثالثٍ، ولا كان حبيب النجار[٢] موجودًا إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح، وهي أول مدينة آمنت به، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن محمدًا لم يشهد للمسيح بالإلهية، ولا للحواريين بأنهم رسل الله، ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم، ولا بأنهم معصومون، وما ذكروه من قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤] إنما يتناول رسل الله، لَا رُسُلَ رُسُلِ اللهِ بَلْ رُسُلُ رُسُلِ اللهِ يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل، إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم؛ لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم، بل يكفي أن يقرأوها بلسان الأنبياء، ثم يترجموها بلسان أولئك، ولم يقل: وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلىٰ قومه.

بل محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل بلسان قومه، وهم قريش، وأرسل إلىٰ قومه وغير قومه، كما يذكرون ذلك عن المسيح.

ومعلومٌ أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياءً، بُعث إليهم موسىٰ، وبُعث إليهم بعده أنبياء كثيرون، حتىٰ قيل: إنهم ألف نبي، وكلهم يأمرون بشريعة

---

(١) أنطاكية: من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، وسعة الخير. انظر معجم البلدان ١/ ٢٦٦.

(٢) رجل صالح كان يسكن في بلاد الشام، وقيل إنه هو المذكور في سورة يس. انظر موسوعة ويكيبيديا.

التوراة، ولا يغيرون منها شيئًا، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعةٍ أخرىٰ، غيَّرَ فيها بعض شرع التوراة بأمر الله ﷻ

فإذا كان إرسال موسىٰ والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم، فكيف يمتنع إرسال محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ولهم من حين المسيح لم يأتهم رسولٌ من الله،

وهذه الفترة التي كانت بين المسيح ومحمد ـ صلوات الله عليهما وسلامه ـ وهي فيما ذكره غير واحدٍ من العلماء ـ كسلمان الفارسي[1] وغيره ـ كانت ستمائة سنة.

وقد قيل: ستمائة سنة شمسية، وهي ستمائة وعشرون، أو ثمانية عشر هلالية[2]، وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية.

وأما قولهم: «نعلم أن الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب أمةً يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم، ولا وقفوا له علىٰ كتابٍ بلسانهم، ولا من جهة داعٍ من قبله».

فيقال: الجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب، ولا أحدٌ

---

(١) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير. أصله من رامهرمز، وقيل: من أصبهان. وكان قد سمع بأن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ سيُبعث، فخرج في طلبه، فأُسر، وبِيعَ بالمدينة، فاشتغل بالرق، حتىٰ كان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، رُويت قصته من عدة طرق، وقيل: إنه عمَّر ٢٥٠ سنة، وقيل: أكثر. انظر الإصابة ٣/ ١١٨.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٤٩٥.

يفهم بالعربية؛ فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية، وقد قرءوه، وناظروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ في قيام الحجة عليهم، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية، وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني: كما أنهم يفهمون ما في كتبهم الرومية، والسريانية، والقبطية، وغيرها، ويترجمونها للعرب من النصارىٰ بالعربية، فإذا قامت الحجة علىٰ عرب النصارىٰ باللسان الرومي، فلأن تقوم علىٰ الروم باللسان العربي أولىٰ، فإن اللسان العربي أكثر انتشارًا في العالم من اللسان الرومي، **والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره،** وهو أكمل بيانًا، وأتم تفهمًا.

وحينئذٍ.. فيكون وصول المعاني به إلىٰ غير أهل لسانه أيسر؛ لكمال معناه، ولكثرة العارفين به، **وهؤلاء علماء النصارىٰ يقرؤون كتب الطب، والحساب، والفلسفة، وغير ذلك باللسان العربي، مع أن مصنفيها كانوا عجمًا: من رومي، ويوناني، وغير ذلك،** فما المانع أن يقرأ القرآن العربي، وتفسيره، وحديث النبي ﷺ باللسان العبري، مع أنه أخذ عن الرسول بالعربي، فهو أولىٰ بأن يعرف به مراد المتكلم به.

الوجه الثالث: أن يقال: الناس لهم في عدل الله ثلاثة أقوال:

قيل: كل ما يكون مقدورًا، فهو عدلٌ.

وقيل: العدل منه نظير العدل من عباده.

وهما قولان ضعيفان.

وقيل: من عدله أن يجزي المحسن بحسناته، لا ينقصه شيئًا منها، ولا يعاقبه بلا ذنبٍ.

ومعلومٌ أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزًا باتفاق طوائف أهل الملل:

من المسلمين، واليهود، والنصارىٰ، وإن كان الفعل مكروهًا للإنسان؛ فإن الجنة حُفَّتْ بالمكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات، وقد كُلفت بنو إسرائيل، والنصارىٰ من الأعمال ما هو مكروهٌ لهم، وشاقٌّ عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم، والعرب الذي نزل القرآن بلسانهم طَبَّقُوا الأرض، ومنهم نصارىٰ لا يحصون، فكل من عرف بالعربية من النصارىٰ أمكنه فهم ما يقال بالعربي، ومن كان منهم روميًّا كان له أسوةٌ من أسلم من سائر طوائف الأعاجم، كالفرس، والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وغيرهم، وهو متمكن من معرفة ما أمره الله، والعمل به، كما يمكن هؤلاء كلهم، بل الروم أقدر علىٰ ذلك من غيرهم، فلأي وجهٍ يمتنع أن يأمرهم الله بذلك.

الوجه الرابع: أنه من العجب أن تعد النصارىٰ مثل هذا ظلمًا خارجًا عن العدل، وهم قد نسبوا إلىٰ الله من الظلم العظيم علىٰ هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحدٌ من الأمم، كما سبُّوه، وشتمُوه مسبةً ما سبَّه إياها أحدٌ من الأمم، فهم من أبعد الأمم عن توحيده، وتمجيده، وحمده، والثناء عليه.

وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلىٰ أن جاء المسيح، وصلب، وأنه كانت الذرية في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهبت روحه إلىٰ جهنم في حبس إبليس، حتىٰ قالوا ذلك في الأنبياء: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وداود، وسليمان، وغيرهم.

ومعلومٌ أن إبراهيم كان أبوه كافرًا، ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه، فكيف يؤاخذه بذنب آدم، وهو أبوه الأبعد؟ هذا لو قدر أن آدم لم يتب، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟.

ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم، وبه عاقب إبليس، مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله

مستحقًا للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم، ووسوس لآدم إلىٰ حين مبعث المسيح، والرب قادرٌ علىٰ عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم.

فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التي هي مضاحك العقلاء، والتي لا تصلح أن تضاف إلىٰ أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدَّعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر علىٰ تعلمه، وفيه صلاح معاشه ومعاده، ويجعلون مثل هذا موجبًا لتكذيب كتابه ورسله، والإصرار علىٰ تبديل الكتاب الأول، وتكذيب الكتاب الآخر، وعلىٰ أنه يتضمن مخالفة موسىٰ وعيسىٰ، وسائر الأنبياء والرسل.

والنصارىٰ يقولون: إن المسيح ــ الذي هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعًا ــ إنما مكّن الكفار من صلبه ليحتال بذلك علىٰ عقوبة إبليس.

قالوا: فأخفىٰ نفسه عن إبليس لئلا يعلم، ومكَّن أعداءه من أخذه، وضربه، والبصاق في وجهه، ووضع الشوك علىٰ رأسه، وصلبه، وأظهر الجزع من الموت، وصار يقول: يا إلهي! لِمَ سلَّطت أعدائي علي.

ليختفي بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله، أو ابن الله، ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلىٰ الجحيم، كما أخذ أرواح نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، فيحتج عليه الرب حينئذٍ، ويقول: بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك.

فيقول ناسوتي: لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء؛ فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ أرواحهم إلىٰ جهنم، وأنا لا خطيئة لي.

وقالوا: فلما أقام الله الحجة علىٰ إبليس جاز للرب حينئذٍ أن يأخذ إبليس

ويعاقبه، ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلىٰ الجحيم.

وهذا الكلام فيه من الباطل، ونسبة الظلم إلىٰ الله ما يطول وصفه، فمَنْ هذا قولُه فقد قدح في علم الرب، وحكمته، وعدله قدحًا ما قدحه فيه أحدٌ، **وذلك من وجوه:**

أحدها: أن يقال: إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنب آدم.

الثانِي: أن يقال: من خُلق بعد المسيح من الذرية كمن خُلق قبله، فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين، وكلهم بالنسبة إلىٰ آدم سواء، وهم أيضًا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين، فكيف جاز تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين، ولم يُمَكّن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟!.

الوجه الثالث: أن يقال: أخذ إبليس لذرية آدم، وإدخالهم جهنم، إما أن يكون ظلمًا من إبليس، وإما أن يكون عدلًا، فإن كان عدلًا فلا لوم علىٰ إبليس، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقه، بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين.

وإن كان ظلمًا فَلِمَ لا يمنعه الربّ منه قبل المسيح؟!.

فإن قيل: لم يقدر. فقد نسبوه إلىٰ العجز.

وإن قيل: قدر علىٰ دفع ظلم إبليس، ولم يفعله.

فلا فرق بين دفعه في زمانٍ دون زمانٍ، إن جاز ذلك جاز في كل زمانٍ، وإن امتنع امتنع في كل زمانٍ.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذورًا قبل المسيح فلا حاجة إلىٰ عقوبته، ولا ملام عليه، وإن لم يكن معذورًا استحق العقوبة، ولا حاجة إلىٰ أن يحتال عليه بحيلةٍ تقام بها الحجة عليه.

الوجه الخامس: أنه بتقدير أنه لم يقم عليه الحجة قبل الصلب، فَلَمْ يُقَمْ عليه حجةٌ بالصلب، فإنه يمكنه أن يقول: أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الربّ، وأنت يا ربّ قد أذنت لي أن آخذ جميع ذرية آدم، فأوديهم إلىٰ الجحيم، فهذا واحدٌ منهم، وما علمت أنك، أو ابنك اتحد به، ولو علمت ذلك لعظمته، فأنا معذورٌ في ذلك، فلا يجوز أن تظلمني.

الوجه السادس: أن نقول: إن إبليس يقول حينئذٍ: يا رب! فهذا الناسوت الواحد أخطأت في أخذ روحه، لكن سائر بني آدم الذين بعده لي أن أحبس أرواحهم في جهنم، كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح، إما بذنب أبيهم، وإما بخطاياهم أنفسهم.

وحينئذٍ.. فإن كان ما يقوله النصارىٰ حقًّا فلا حجة لله علىٰ إبليس.

الوجه السابع: أن يقال: هَبْ أن آدم أذنب، وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان، فعقوبة بني آدم علىٰ ذنوبهم هي إلىٰ الله، أو إلىٰ إبليس؟!.

فهل يقول عاقل: إن إبليس له أن يغوي بني آدم بتزيينه لهم، ثم له أن يعاقبهم جميعًا بغير إذن من الله في ذلك؟!.

وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون: إن كل ما في العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس، لم يفعل الله شيئًا من ذلك، ولا عاقب الله أحدًا علىٰ ذنب؟!.

ولا ريب أن هذا القول سرىٰ إلىٰ النصارىٰ من المجوس، لهذا لا ينقلون

هذا القول في كتاب مُنَزَّل، ولا عن أحدٍ من الحواريين، ولهذا كان المانوية دينهم مركبًا من دين النصارىٰ والمجوس، وكان رأسهم ماني[١] نصرانيًّا مجوسيًّا، فالنسب بين النصارىٰ والمجوس، بل وسائر المشركين نسبٌ معروفٌ [٢].

الوجه الثامن: أن يقال: إبليس عاقب بني آدم، وأدخلهم جهنم بإذن الله، أو بغير إذنه؟.

إن قالوا: بإذنه. فلا ذنب له، ولا يستحق أن يحتال عليه؛ ليعاقب ويمتنع.

وإن كان بغير إذنه، فهل جاز في عدل الله أن يمكنه من ذلك، أم لم يَجُزْ، فإن جاز ذلك في زمانٍ جاز في جميع الأزمنة، وإن لم يجز في زمانٍ لم يجز في جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح، وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال: هل كان الله قادرًا علىٰ منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة، وكان ذلك عدلًا منه لو فعله، أم لا؟!.

فإن كان ذلك مقدورًا له، وهو عدلٌ منه، لم يحتج أن يحتال علىٰ إبليس، ولا يصلب نفسه، أو ابنه، ثم إن كان هذا العدل واجبًا عليه، وجب منع إبليس، وإن لم يكن واجبًا جاز تمكينه في كل زمان، فلا فرق بين زمانٍ وزمانٍ.

---

(١) ماني مؤسس الديانة المانوية، التي كانت خليطًا من البوذية والمسيحية والزرادتشية، ولد سنة ٢١٦م في العراق، وكان فارسيًّا، نشأ في أسرة مسيحية وكانت له رؤىٰ دينية، ومن ذلك أنه لا يوجد إله واحد، إنما هو صراع مستمر بين اثنين من الآلهة، أحدهما هو الشر، والآخر هو الخير، ورحل إلىٰ الهند ومصر، وعاد إلىٰ بلاد فارس عام ٢٤٢م وظل يدعو إلىٰ ديانته قرابة ثلاثين عامًا، حتىٰ ثار عليه كهنة الزرادشتية التي كانت الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية، وأُعدم عام ٢٧٦م علىٰ يد الملك الفارسي بهرام. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٢) انظر العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تأليف محمد طاهر تنير.

وإن قيل: لم يكن قادرًا علىٰ منع إبليس، فهو تعجيز للربّ عن منع إبليس، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل، من جنس قول الثنوية[١]، الذين يقولون: لم يكن يقدر النور أن يمنع الظلمة من الشر.

ومن جنس قول ديمقراطيس[٢]، والحانين، الذين يقولون: لم يمكن واجب الوجود أن يمنع النفس من ملابسة الهيولىٰ[٣]، بل تعلقت النفس بها بغير اختياره.

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه طاعةً لله، أو معصية، فإن كان طاعةً لله استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم، ويكرمهم علىٰ طاعته، كما يثيب سائر المطيعين له.

والنصارىٰ متفقون علىٰ أن أولئك من أعظم الناس إثمًا، وهم من شر

---

(١) هي عقيدة تبين أن هناك إلهين أحدهما: النور والخير. والآخر: الظلمة والشر، وهي اندماج وثني قائم علىٰ تعدد الآلهة. وأن ماني بن فاتك التي تنسب إليه المانوية من فرق الثنوية الذين يقولون بأصلين للوجود مختلفين تمام الاختلاف، **وهم أربع فرق**:

الأولىٰ: المانوية أتباع ماني.

والثانية: الريصانية الذين يقولون: النور حي، والظلمة ميتة.

الثالثة: المرتونية.

الرابعة: المزدكية. أتباع مزدك الإباحي الذي ادَّعىٰ النبوة، وقتله أنوشروان بعد مناظرة تمت بينهما. انظر موسوعة ويكيبيديا. والموسوعة العربية.

(٢) هو فيلسوف يوناني، ولد سنة ٤٦٠ ق. م في أبديرا بشمالي اليونان، وكتب في علم الأخلاق والفيزياء والرياضيات والأدب واللغة، صاحب نظرية الذرة. انظر الموسوعة العربية العالمية ١٠/ ٥٨٢.

(٣) أو الهيولا. كلمة يونانية تعني الأصل أو المادة، وهي واحدة في جميع الأشياء في الجمادات، والنباتات، والحيوان. انظر موسوعة ويكيبيديا.

الخلق، وهم يستحلّون من ذمّهم ولعنتهم ما لا يستحلونه من غيرهم، بل يبالغون في طلب اليهود وعقوبتهم في آخر صومهم الأيام التي تشبه أيام الصليب.

وإن كان أولئك اليهود عصاة لله، فهل كان قادرًا علىٰ منعهم من هذه المعصية، أم لا؟!

فإن لم يكن قادرًا لم يكن قادرًا علىٰ منع إبليس من ظلم الذرية في الزمن المستقبل، وإن كان قادرًا علىٰ منعهم من المعاصي، ولم يمنعهم كان قادرًا علىٰ منع إبليس بدون هذه الحيلة.

وإذا كان حسنًا منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنًا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية في الماضي والمستقبل، فلا حاجة إلىٰ الحيلة عليه.

*****

[الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جدًّا]

واعلم أن الوجوه الدالة علىٰ فساد دين النصارىٰ كثيرةٌ جدًّا، وكلما تصور العاقل مذهبهم، وتصور لوازمه تبين له فساده، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم في أنهم يقيمون عذر أنفسهم في ترك الإيمان بكتابه، ورسوله، ودينه ــ لكونه سبحانه عدلًا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه، وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرون عليه ــ وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحدٌ من بني آدم.

وأما تفسيرهم لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] بأن مراده قومه، كما قالوا.

«وأما قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] يريد ــ بحسب مقتضىٰ العدل ــ قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه».

فيقال لهم: من فسر مراد متكلمٍ ــ أي متكلمٍ كان ــ بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذبٌ مفترٍ عليه، وإن كان المتكلم من آحاد العامة، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه، فيقال: أراد كذا وكذا.

فإن الكذب حرامٌ قبيحٌ علىٰ كل أحدٍ، سواءٌ كان صادقًا أو كاذبًا، فكيف بِمَنْ يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علمًا ضروريًّا أنه لم يُرِدْ ذلك.

بل يعلم علمًا ضروريًّا أنه أراد العموم؛ فإن قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ [آل عمران: ٨٥] صيغةٌ عامةٌ، وصيغة «مَنْ» الشرطية من أبلغ صيغ

العموم.

ثم إن سياق الكلام يدل علىٰ أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم؛ فإنَّ هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب، ومناظرته للنصارىٰ؛ فإنها نزلت لما قدم علىٰ النبي ﷺ وفد نجران النصارىٰ، وروي أنهم كانوا ستين راكبًا، وفيهم السيد، والأيهم، والعاقب، وقصتهم مشهورةٌ معروفةٌ، كما تقدم ذكرها.

وقد قال قبل هذا الكلام بذمّ دين النصارىٰ الذي ابتدعوه، وغَيَّرُوا به دين المسيح، ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه، حتىٰ صار دينهم مركبًا من حقٍّ وباطلٍ، واختلط أحدهما بالآخر، فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح منْ شريعة التوراة مما أقره، والمسيح قرّر أكثر شرع التوراة، وغيَّر المعنىٰ، وعامة النصارىٰ لا يُميزون ما قرَّره مما غَيَّره، فلا يعرف دين المسيح.

انتهىٰ الجزء الأول.

*****

قولهم: ثم وجدنا في هذا الكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول في سورة الأنبياء ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وقال في سورة آل عمران: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢]، مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجل لبشارة ملائكة الله لأمه، وأنه تكلم في المهد، وأحيا الميت، وأبرأ الأكمه، ونقى الأبرص، وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طائرًا بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، ووجدنا أيضًا في الكتاب أن الله رفعه إليه.

وقال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء:١٥٨].

وفي سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥].

وقال في سورة البقرة: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧].

وقال في سورة الحديد: ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ [الحديد:٢٧].

وقال في سورة آل عمران: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا.

الجواب: أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق وكذلك مدح من كان علىٰ دينه الذي لم يبدل قبل أن يبعث أو بقي علىٰ ذلك إلىٰ أن بعث محمد فآمن به فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وكذلك من كان علىٰ دين موسىٰ الذي لم يبدل إلىٰ أن بعث المسيح فآمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون.

وأما اليهود والنصارىٰ فهم علىٰ طرفي نقيض، هؤلاء ينحرفون إلىٰ جهة وهؤلاء إلىٰ الجهة التي تقابلها كما ذكرنا تقابلهم في النسخ، وكذلك تقابلهم في التحريم والتحليل والطهارة والنجاسة، فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات، وهم يبالغون في اجتناب النجاسات حتىٰ أن الحائض لا يؤاكلونها ولا يساكنونها ولا يجامعونها، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها، ويستخرجون الدم من العروق، إلىٰ غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النصارىٰ ففي مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئًا حرامًا ولا نجسًا إلا ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلُّون مع الجنابة والحدث وحمل النجاسات، ويأكلون الخبائث كالدم والميتة ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئًا فتركه.

فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق وهو صفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها والنصارىٰ شبهوا المخلوق بالخالق فيما

يختص بالخالق وهو صفات الكمال التي لا يستحقها إلا الله تبارك تعالىٰ فقال من قال من اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وهو بخيل، وقالوا: إنه خلق العالم فتعب فاستراح، وحكي عن بعضهم أنه قال: بكىٰ علىٰ الطوفان حتىٰ رمد وعادته الملائكة، وأنه ناح علىٰ بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب علىٰ ميته، وأمثال ذلك مما يتعالىٰ الله عنه ويتقدس سبحانه وتعالىٰ، وأيضًا فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله ويعصون أمره ويتعدون حدوده ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه.

والنصارىٰ يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق، فيجعلونه رب العالمين خالق كل شيء ومليكه الذي هو بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، واتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعل عباد الأوثان، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٨].

وكذلك هم في المسيح فالنصارىٰ يقولون: هو الله، ويقولون أيضًا: هو ابن الله، وهو إله تام، وإنسان تام.

واليهود يقولون: هو ولد زنا، وهو ابن يوسف النجار، ويقولون عن مريم: إنها بغي بعيسىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]. ويقولون: هو ساحر كذاب.

وأما المسلمون فيقولون: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول وروح منه، وهو وجيه في الدنيا والآخرة، ومن المقربين ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه، لا يغلون فيه غلو النصارىٰ، ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود، وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين، وفي أولياء الله.

فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس، والنصارىٰ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا لعبدوا إلهًا واحدًا، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، ومع هذا فقد شارك النصارىٰ اليهود في نقص حق كثير من الأنبياء، فيقولون: إن سليمان لم يكن نبيًّا، ويقولون: إن الحواريين مثل موسىٰ وإبراهيم، ويقولون: إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء، وكان له أن يشرع شريعة.

وبعض اليهود غلوا في العزيّر حتىٰ قالوا: إنه ابن الله، ولهذا قال نبينا في الحديث الصحيح: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١).

والله تعالىٰ ذكر في القرآن في سورة «كهيعص» قصة ابني الخالة: يحيىٰ وعيسىٰ، ويحيىٰ يسمونه النصارىٰ «يوحنا المعمداني» عندهم.

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين إحداهما: مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين وهي سورة (كهيعص) والثانية: مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم، كما نزلت في براءة مجاهدتهم، فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشرًا سويًّا فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣) عن عمر رضي الله عنه.

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم:١٨].

قال أبو وائل[١]: عَلِمَتْ أن المتقي ذو نُهْيَةٍ[٢].

أي: تقواه تنهاه عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾.

أي: تتقي الله وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ثم قال: ﴿ **إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلامًا زكيًّا**[٣] وفي القراءة الأخرىٰ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ [مريم:١٩].

فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشرًا سويًّا أنه رسول ربها، فدل الكلام علىٰ أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الله سماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وسماه جبريل، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله، وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد، وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمىٰ صفته القائمة به روح القدس، ولا سمىٰ

(١) هو شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، توفي سنة ٨٢هـ.

(٢) ورد معلقًا عند البخاري. وقال ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٥٢، قوله: «نهية» بضم النون، وسكون الهاء، أي ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح. اهـ. وانظر تفسير ابن جرير ١٦/ ٤٧.

(٣) هذه قراءة ورش، وأبي عمرو « ليهب لك» بالياء. وقرأ الباقون بالهمزة «لأهب لك». انظر التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص١٢٠. والوافي في شرح الشاطبية ص٣١٧.

كلامه ولا شيئًا من صفاته ابنًا، وهذا أحد ما يثبت به ضلال النصارىٰ وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه علىٰ غير ما أرادت الأنبياء، فإن أصل تثليثهم مبني علىٰ ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس(١).

فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء أنهم يسمون صفة الله القائمة به ولا كلمته ولا حياته لا ابنا ولا روح قدس ولا يسمون كلمته ابنا ولا يسمونه نفسه ابنا ولا روح قدس، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون المصطفىٰ المكرم ابنًا، وهذا موجود في حق المسيح وغيره، كما يذكرون أنه قال تعالىٰ لإسرائيل أنت ابني بكري، أي بني إسرائيل.

وروح القدس يراد به الروح التي تنزل علىٰ الأنبياء كما نزلت علىٰ داود وغيره، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»(٢)، فسماه أبًا للجميع، لم يكن المسيح مخصوصًا عندهم باسم الابن، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسما للمصطفىٰ المكرم لا اسمًا لشيء من صفات الله ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية، التي يقولون أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية، ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوت المسيح، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي، والملك الذي نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله وبما أنزله علىٰ رسوله والملك الذي نزل به وبهذا أمرت الأنبياء كلهم، وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت لكن ظهر فيه نور الله

---

(١) انظر إنجيل متىٰ ٢٨: ١٩.

(٢) في متىٰ ص١١. « يغفر لكم».

وكلام الله وروح الله، كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل فإن غيره أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمىٰ ابنا وروح القدس حلت فيه وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه علىٰ أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضًا، وأنه ليس مع النصارىٰ لا حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعوه، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه، وعندهم في الإنجيل أنه قال: «إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده»(١).

فبين أن الابن لا يعلم الساعة فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني.

والنصارىٰ من أعظم الناس اضطرابًا في هذا الأصل، فتارة يجعلون كلامه الذي تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقًا منفصلًا عنه، وينفون عنه الصفات، وتارة يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال.

ثم يقولون: هذه الكلمة هي ابنه ويجعلون هذه الكلمة علمه أو حكمته.

ويقولون: إن هذه الكلمة هي إله خالق وهو الذي خلق السموات والأرض، وأن هذه الكلمة هي المسيح، والمسيح إله خالق العالم.

ويقولون مع هذا أن هذه الكلمة ليست هي الأب الذي خلق السموات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية ويجعلونها ابنًا له ويجعلون الصفة إلهًا خالقًا ويجعلون المسيح هو الإله الخالق ويقولون مع هذا هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

ولهم في كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب ومخالفة كلام الأنبياء

---

(١) انظر متىٰ آخر ص١٣. من الترجمة السبعينية بعنوان «والسهر الدائم».

وتفسيره بغير ما أرادوه، ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ما سنذكر إن شاء الله منه ما ييسره الله سبحانه وتعالىٰ، إذ بيان فساد أقوال النصارىٰ بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب.

ولما قص تعالىٰ قصة المسيح قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤]، أي يشكون ويتمارون كتماري اليهود والنصارىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم ٣٧].

فاختلف اليهود والنصارىٰ فيه، ثم اختلفت النصارىٰ فيه وصاروا أحزابًا كثيرة جدًّا، كالنسطورية(١)، واليعقوبية(٢)، والملكية(٣)، والباروبية(٤)، والمريمانية(٥)، والسمياطية(٦)، وأمثال هذه الطوائف كما سنذكر إن شاء الله

---

(١) إحدىٰ فرق النصارىٰ القائلة بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة.
ويقولون: إن مريم والدة المسيح، وزوجة الإله، ويدعونها بأن تكون لهم سندًا وسورًا وذخرًا وركنًا. انظر هداية الحيارىٰ ص٢٥٥و٣٠١.

(٢) يقول ابن القيم« هم أتباع يعقوب البرادعي، ولقب بذلك لأن لباسه كان من خرق برادع الدواب يرقع بعضها ببعض ويلبسها». وهم يؤلهون مريم وابنها، ويدعونها بأن تكون لهم سندًا وسورًا وذخرًا وركنًا. انظر: هداية الحيارىٰ ص٢٥٥و٣٠١.

(٣) قال ابن القيم: «وهم الروم نسبة إلىٰ دين الملك لا إلىٰ رجب يدعىٰ ملكاينا هو صاحب مقالتهم كما يقوله بعض من لا علم له بذلك». وهي إحدىٰ فرق النصارىٰ. انظر هداية الحيارىٰ ص٣٠١و٣٣١.

(٤) ذكر ابن البطريق في تاريخه أن من فرق النصارىٰ «البربرانية» ويسمون «المريميين» وذكر ابن حزم أنها فرقة انقرضت. ٤/ ٨٦.

(٥) إحدىٰ فرق النصارىٰ القائلة بأن عيسىٰ وأمه عليهما السلام إلهان من دون الله تعالىٰ. انظر هداية الحيارىٰ. ص٣١٥.

(٦) ذكر صاحب القاموس المحيط مادة «سمط» قال: (وبنو السِّمط بالكسر، قوم من =

كثيرا من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكىٰ ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق(١)، وغيره فإنه ليس في الأمم أكثر اختلافًا في رب العالمين منهم.

وقد وصف اللهُ النصارىٰ بالضلال في مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف ٤-٥]؛ لأن الغالب عليهم الجهل بالدين وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه، ليس منقولًا عن الأنبياء حتىٰ يسلم لقائله بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلامًا يعرفون بأنهم لا يعقلونه وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره، ولهذا لا تجدهم يتفقون علىٰ قول واحد في معبودهم حتىٰ قال بعض الناس لو اجتمع عشرة نصارىٰ افترقوا علىٰ أحد عشر قولًا.

=

النصارىٰ، وأبو السمط من كناهم). وذكر ابن تيمية أعلاه إنها إحدىٰ فرق النصارىٰ.

(١) هو أحد المؤرخين المنتصرين لدين النصرانية، ومن أئمتهم الناقلين لمذاهبهم، يقول ابن تيمية: (فإنه صنف كتابه الذي سماه «نظم الجوهر» وذكر فيه أخبار النصارىٰ ومجامعهم واختلافهم وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصاره لقول الملكية والرد علىٰ من خالفهم، وذكر فيه مبدأ الخلق وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم وأخبار ملوك الروم وأصحاب الكراسي برومية وقسطنطينية وغيرهما، ووصف دين النصرانية وفرق أهلها، وهو ملكي رد علىٰ سائر طوائف النصارىٰ لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه. انظر الجواب الصحيح. وهداية الحيارىٰ.

وقال الربعي[(١)]: النصارىٰ أشد الناس اختلافًا في مذاهبهم، وأقلهم تحصيلًا لها لا يمكن أن يعرف لهم مذهب، ولو سألت قسًّا من أقِسَّائهم عن مذهبهم في المسيح وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة، ولقال كل واحد منهم قولا لا يشبه قول الآخر، وقال بعض النظار وما من قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته تصورت منه معنىٰ معقولًا وإن كان باطلًا إلا قول النصارىٰ، فإنك كلما تأملته لم تتصور له حقيقة تعقل لكن غايتهم أن يحفظوا الأمانة أو غيرها، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر، كما يكفر اليعقوبية والملكانية والنسطورية بعضهم بعضًا لاختلافهم في أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم في التوحيد والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضًا كما بين في موضع آخر.

وأما قولهم: فكان طيرًا بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، فهذا إذا قالوه علىٰ أنه مذهبهم من غير أن يقولوا أن محمدًا أراده تكلمنا معهم في ذلك وبينا فساد ذلك عقلًا ونقلًا.

وأما قولهم أن محمدا كان يقول أن المراد إذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت فهذا من البهتان الظاهر علىٰ محمد وهو من جنس قولهم أن قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة:٧]. أراد به النصارىٰ.

ومن جنس قولهم أن قوله: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا ﴾ [آل عمران:٨٥] أراد به العرب.

---

(١) هو علي بن محمد الربعي المالكي المتوفىٰ (٤٤٤هـ) انظر معجم المؤرخين الدمشقيين ص٢٤. المنجد.

ومن جنس قولهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد ٢٥]. أراد بهم الحواريين.

ومن جنس قولهم: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢]. أراد به الإنجيل.

فهذه المواضع التي فسروا بها القرآن وزعموا أن محمدًا الذي بين للناس ما أنزل إليهم كان يريد بما يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكروها هي من الكذب الظاهر الذي يدل علىٰ غاية جهل قائلها أو غاية معاندته، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارىٰ، فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات بنحو هذه التفاسير التي حرفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفًا ظاهرًا فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل، وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما نشأ به منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، لكن في هذه المواضع حرفوا المحكم الذي معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنىٰ واحد فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنىٰ المتشابه، وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد أنه كان يقول أن المسيح عبد الله مخلوق كسائر المرسلين، وأنه يكفر النصارىٰ الذين يقولون هو الله أو ابن الله.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد وبالنقل المتواتر عنه وبإجماع أمته إجماعًا يستندون فيه إلىٰ النقل عنه وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول وأنه يكفر النصارىٰ الذين يقولون هو الله وهو ابن الله والذين يقولون ثالث ثلاثة وأمثال ذلك، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذي بلغه نبيه محمد فيكون طيرًا بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذبًا ظاهرًا علىٰ محمد، وهذا مما يعرف كذبهم فيه علىٰ محمد جميع أهل الأرض العالم بحال محمد سواء أقروا بنبوته أو أنكروها.

فالمقصود في هذا المقام أن هؤلاء كذبوا علىٰ محمد كذبًا ظاهرًا معلومًا للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذبًا خفيًّا، وإن قدر أن ما قالوه يكون معقولًا فكيف إذا كان ممتنعًا في صرائح العقول بل هو قول غير معقول أي غير معقول ثبوته في الخارج وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوتها في الخارج، وذلك كما قد بسط في موضع آخر فإن قولهم بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت باطل من وجوه:

منها: أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله أو صفة لذاته أو لا هي ذاته ولا صفة له أو الذات والصفة جميعًا، فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له ولم يكن لاهوتًا بل ولا خالقه، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت بل إن لم يتحد به إنه كان اتحد به إلا مخلوق، وإن كانت

الكلمة هي الذات أو الذات والصفة فهي رب العالمين وهي الآب عندهم وهم متفقون علىٰ أن المسيح ليس هو الآب ولم يتحد به الآب بل الابن، وإن كانت الكلمة صفة لله ﷻ فصفة الله ليست هي الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق.

وأيضًا فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول طائفة من المسلمين إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل في القراء أو اتحد بهم وأن القديم حل في المخلوق أو اتحد به ونحو ذلك.

قيل: لو كان قول هؤلاء صوابًا لم يكن لهم فيه حجة فإنه علىٰ هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصًا بذلك دون غيره، وأيضًا فهؤلاء وجميع الأمم متفقون علىٰ أن قراء القرآن وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ولا هو ابن الله ولا أنه خالق للعالم، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ولا ابن الله ولا ربًّا للعالم، وأيضًا فلم نعلم أحدًا من هؤلاء قال أن اللاهوت اتحد بالناسوت ولا أن القديم اتحد بالمحدث ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئًا واحدًا فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول وطائفة أنكرت لفظ الحلول وقالوا إنما نقول ظهر القديم في المحدث لا حل فيه لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

والنصارىٰ تدعي اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئًا واحدًا ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة

خارج عن الآخر والنصارىٰ يدعون الاتحاد ثم يتناقضون، فمنهم من يقول جوهر واحد، ومنهم من يقول جوهران، ومنهم من يقول مشيئة واحدة، ومنهم من يقول مشيئتان، كما سيأتي الكلام إن شاء الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥].

فهذا حق كما أخبر الله به فمن اتبع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ جعله الله فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة وكان الذين اتبعوه علىٰ دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود.

وأيضًا فالنصارىٰ فوق اليهود الذين كفروا به إلىٰ يوم القيامة، وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به بل لما بدل النصارىٰ دينه وبعث الله محمدًا بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمدًا وأمته فوق النصارىٰ إلىٰ يوم القيامة كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**» (١).

وقال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

واليهود كذبوا المسيح ومحمدًا كما قال الله فيهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٢٥٨/ ٣٢٥٩) بلفظ: «**أنا أولىٰ الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي**». ورواه مسلم برقم (١٤٣) (٢٣٦٥) عن أبي هريرة. مثله.

أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة:٩٠].

فالغضب الأول بتكذيبهم المسيح، والثاني بتكذيبهم لمحمد، والنصارىٰ لم يكذبوا المسيح فكانوا منصورين علىٰ اليهود، والمسلمون منصورون علىٰ اليهود والنصارىٰ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحدًا من رسله، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث **قال:** ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ [البقرة ٢٥٣].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧]. فهو حق كما أخبر الله به وقد ذكر تعالىٰ تأييد عيسىٰ ابن مريم بروح القدس في عدة مواضع فقال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة:١١٠].

فروح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين، وهو جبريل، وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبي عليه السلام يقول لحسان بن ثابت: «**أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**» (١).

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ النَّبِيَّ عليه السلام يَقُولُ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ**»(٢).

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ عليه السلام يَقُولُ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: «**اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»(٣).

فهذا حسان بن ثابت واحدٌ من المؤمنين، لما نافح عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس، وهو جبريل، وأهل الأرض يعلمون أن محمدًا لم يكن يجعل اللاهوت متَّحدًا بناسوت حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يُقِرُّونَ بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدًا بروح القدس، كداود وغيره، بل يقولون: إن الحواريين كانت فيهم روح القدس.

وقد ثبت باتفاق المسلمين، واليهود، والنصارىٰ أن روح القدس يكون في

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٩، والبخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٧٢، ومسلم (٢٤٩٠).

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٩، والبخاري (٣٢١٣)، ومسلم رقم (٢٤٨٦).

غير المسيح، بل في غير الأنبياء، كما سيأتي إن شاء الله، وإنما المقصود في هذا المقام بَيَانُ كَذِبِهِم علىٰ محمدٍ.

وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عامٌّ في كل من نصرهم علىٰ من خالفهم من المشركين، وأهل الكتاب كما تقدم.

وليس في القرآن، ولا في الإنجيل ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذي أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به، وهي حياته، ولا أن روح القدس ربٌّ يخلق ويرزق، فليس روح القدس هي الله، ولا صفة من صفات الله، بل ليس في شيءٍ من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمىٰ ابنًا، ولا روح القدس.

فإذا تأوّل النصارىٰ قول المسيح: «عمّدوا الناس باسم الآب، والابن، وروح القدس» علىٰ أن الابن صفته التي هي العلم، وروح القدس صفته التي هي الحياة، كان هذا كذبًا بيِّنًا علىٰ المسيح، فلا يوجد قط في كلامه، ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله، ولا شيئًا من صفاته ابنًا، ولا حياته روح القدس.

وأيضًا فهم يذكرون في الأمانة أن المسيح تجسد من مريم، ومن روح القدس.

وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذي هو جبريل، وهو روح القدس، فنفخ في مريم، فحملت بالمسيح، فكان المسيح متجسدًا مخلوقًا من أمه ومن ذلك الروح، وهذا الروح ليس صفةً لله، لا حياته، ولا غيرها.

بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيرًا في كلام الأنبياء، ويراد بِها: إما المَلَك، وإما ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدىٰ، والتأييد، ونحو ذلك،

قالوا: «ثم وجدناه يعظم إنجيلنا، ويقدم صوامعنا، ويشرف مساجدنا،

ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا، وذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]».

والجواب: أن فيها ذكر الصوامع والبِيَع، وأما قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فإنَّما ذكره عقب ذكره المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بِها كنائس النصارىٰ؛ فإنَّها هي البِيَع.

ثم قوله تعالىٰ: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ إما أن يكون مختصًّا بالمساجد، فلا يكون في ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرًا في البيع والصوامع، وإما أن يكون ذكر اسم الله في الجميع، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدًا كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يُبَدَّلْ، ويذكر فيها اسم الله كثيرًا، وقد قيل: إنَّها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرًا، وإن الله يحب أن يذكر اسمه.

قال الضحاك: إن الله يحب أن يذكر اسمه، وإن كان يشرك به.

يعني أن المشرك به خيرٌ من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحال.

وأهل الكتاب خيرٌ من المشركين، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ساء ذلك أصحاب رسول الله عليه السلام، وكرهوا انتصار الفرس علىٰ النصارىٰ، لأن النصارىٰ أقرب إلىٰ دين الله من المجوس، والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرين علىٰ أدناهما حسب الإمكان، ودفع شر الشرين بخيرهما.

فهدم صوامع النصارىٰ وبِيَعِهم فسادٌ إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما

إذا هدمها المسلمون، وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، فهذا خيرٌ وصلاحٌ.

قالوا: «وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا، وأن لا نُهمل ما معنا، ولا نرفض مذهبنا، ولا نتبع غير السيد المسيح: كلمة الله وروحه، وحوارييه الذين أرسلهم إلينا».

والجواب: أنهم احتجوا بحجتين باطلتين:

إحداهما: أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرسل إليهم، بل إلىٰ العرب.

وقد تبين أن الاحتجاج بِها من أعظم الكذب، والافتراء علىٰ محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فإنه لم يقل قط: إني لم أرسل إلىٰ أهل الكتاب، ولا قال قط: إني لم أرسل إلا إلىٰ العرب، بل نصوصه المتواترة عنه، وأفعاله تبين أنه مرسلٌ إلىٰ جَميع أهل الأرض: أميهم وكتابيهم.

والحجة الثانية: قولهم: إن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أثنىٰ علىٰ دين النصارىٰ بعد التبديل، والنسخ.

وهي أيضًا أعظم كذبًا عليه من التي قبلها، كيف يثني عليهم، وهو يكفرهم في غير موضعٍ من كتابه، ويأمر بجهادهم وقتالهم، ويذمّ المتخلفين عن جهادهم غاية الذمّ، ويصف من لم ير طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر، ويذكر أنَّه يدخل جهنم، وهذا كله يخبر به عن الله، ويذكره تبليغًا لرسالة ربه، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه، لا لأنه أنشأه وابتدأه.

وأما ثناء الله ورسوله علىٰ المسيح وأمه، وعلىٰ من اتبعه، وكان علىٰ دينه الذي لم يبدل، فهذا حقٌّ، وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ من بعث إليه، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل، وأن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أثنىٰ علىٰ

كل من اتبعها، وقال مع ذلك: إن الله أرسلني إليكم.

لم يكن ذلك متناقضًا، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه.

فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينًا لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم، بل ذمّهم، كما **قال:** ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

وقد قدمنا أن النصارىٰ كفروا كما كفرت اليهود كفروا بتبديلهم ما في الكتاب الأول، وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثاني.

وأما من لم يبدل الكتاب، أو أدرك محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فآمن به، فهؤلاء مؤمنون، ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة، واتباعه لها، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مُسقطًا عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيم محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ للإنجيل مُسقطًا عن النصارىٰ وجوب اتباعه؟.

وأما قولهم: «وحواريِّيه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغتنا، وسلموا لنا ديننا، الذين قد عُظِّمُوا في هذا الكتاب بقوله في سورة الحديد: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأعني بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله، ينحو بذلك الحواريّين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشّروا بالكتاب الواحد الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو عني إبراهيم، وداود، وموسىٰ، ومحمد، لكان قال: معهم الكتب؛ لأن كل واحدٍ منهم جاء بكتابٍ دون غيره، ولم يقل: إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتىٰ جماعةٌ مبشرين بكتابٍ واحدٍ غير الحواريّين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر.

وجاء أيضًا في الكتاب: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠] يعني الحواريّين، لم يقل: رسول. إنما قال: المرسلين».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنه ليس فيما ذكر ولا في غيره ما يوجب تكذيب الرسول الذي أرسل إليكم وإلىٰ غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ، كما أنه ليس فيما يعظم به موسىٰ والتوراة، ومن اتبع موسىٰ ما يوجب لليهود تكذيب الرسول الذي أرسل إليهم، وتمسكهم بدين مبدل منسوخ

الثاني: إن قولهم: «ولا نتبع غير المسيح وحوارييه» قول باطل، فإنهم ليسوا متبعين لا للمسيح، ولا لحوارييه لوجهين:

أحدهما: إن دينهم مبدل، ليس كله عن المسيح والحواريين، بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين.

الثاني: أن المسيح بَشَّرَ بأحمد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

فإذا لم يتبعوا أحمد كانوا مكذبين للمسيح، وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر، كما سيأتي إن شاء الله.

وإنَّما المقصود هنا منع احتجاجهم بشيءٍ مما جاء به محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيان أنه حجةٌ عليهم، لا لهم، إذ زعموا أن في بعضه حجةً لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريين: «إنهم الرسل الذين عُظِّمُوا في هذا الكتاب» قولٌ باطلٌ، فسروا به القرآن تفسيرًا باطلًا من جنس تفسيرهم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بالنصارىٰ.

وتفسيرهم: ﴿بِإِذْنِي﴾ أي: ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللاهوت، الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت.

وتفسيرهم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١-٢] بالإنجيل.

وتفسيرهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣-٤] هم النصارىٰ.

وتفسيرهم: قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هم النصارىٰ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] هم اليهود.

وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن مثل ما يفسرون به التوراة، والإنجيل، والزبور، من التفاسير التي هي من تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، والكذب علىٰ أنبيائه بِما يظهر أنه كذب علىٰ الأنبياء لكل من تدبّر ذلك.

وبطلان ذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله **قال**: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ اسم جمعٍ مضافٍ، يعمّ جميع من أرسله الله تعالىٰ.

الثاني: أن أحقّ الرسل بِهذا الحكم الذين سمَّاهم في القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلًا كثيرين إلىٰ جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدعي أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هم الحواريون فقط الذين أرسلهم المسيح، مع أن الحواريِّين رسل المسيح بِمَنْزِلَةِ رسل موسىٰ، وإبراهيم، ورسل محمدٍ.

فالحواريون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم.

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يتناول الرسل الذين أرسلهم الله تعالىٰ كلهم، ومن أحقهم بذلك

الرسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلىٰ عباده، فظهر بطلان قولهم: إنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

فذكر أنه أنزل الحديد أيضًا؛ ليتبين من يجاهد في سبيل الله بالحديد.

والنصارىٰ يزعمون أن الحواريين والنصارىٰ لم يؤمروا بقتال أحدٍ بالحديد.

الوجه الرابع: أنه قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٦-٢٧].

فأخبر أنه قَفَّىٰ علىٰ آثارهم برسله، وقَفَّىٰ بعيسىٰ ابن مريم، وآتاه الإنجيل، وهؤلاء رسل قبل المسيح، وآخرهم المسيح، ولم يذكر أنه أرسل أحدًا من أتباع المسيح، بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً.

فكيف يجوز أن يقال: إن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، والميزان هم الحواريون، دون الرسل الذين ذكرهم، وأرسلهم قبل المسيح.

الوجه الخامس: أنه ليس في القرآن آيةٌ تنطق بأن الحواريِّين رسل الله، بل ولا صرّح في القرآن بأنه أرسلهم.

والحواريُّون ليسوا من النبيِّين، وإن كان المسيح أرسلهم، ولا يلزم من

إرساله لهم أن يكونوا أنبياء، كمن أرسلهم موسىٰ ومحمدٌ عليهما السلام وغيرهما، ولهذا تُسَمِّيهِم عامة النصارىٰ رسلًا، ولا يُسَمُّونَهم أنبياء.

ثم قالوا عن القرآن: «إنه يشهد لهم أنَّهم أنصار الله، حيث يقول كما قال عيسىٰ ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

فيقال: هذا حَقٌّ، والحواريُّون مؤمنون مسلمون، وهم أنصار الله؛ لكن ليس في هذا أنَّهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذٌ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريِّين معصومٌ من الغلط، بل أمر الله المؤمنين من أمة محمدٍ عليه السلام أن يكونوا أنصار الله، كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وعلىٰ هذا.. فإذا قيل: إن الحواريِّين، أو بعضهم، أو كثيرًا من أهل الكتاب، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب، كانوا مخطئين في ذلك، ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح في إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به، ولا يوجب لهم النار، فإن الأناجيل التي بأيدي أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح، وعندهم أنَّها مأخوذة عن الأربعة: مرقس(١)، ولوقا(٢)، ويوحنا(١)، ومَتَّىٰ(٢)،

(١) «إنجيل» ألفه «مرقس الهاروني» تلميذ شمعون بعد ثلاث وعشرين سنة من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في بلاد أنطاكية من بلاد الروم، ويقولون أن شمعون المذكور هو ألفه ثم محىٰ اسمه من أوله ونسب إلىٰ تلميذه مرقس.
(وخرج مرقس إلىٰ برقة يدعو الناس إلىٰ دين المسيح).
(وأقام مرقس بالإسكندرية وبرقة سبع سنين يدعو الناس إلىٰ الإيمان بالمسيح، ثم قُتل بالإسكندرية وأحرق جسده بالنار). [هداية الحيارىٰ].
(٢) «إنجيل» ألفه «لوقا» الطبيب الأنطاكي تلميذ شمعون بعد تأليف مرقس. [المصدر =

ولم يكن في الأربعة من شهد صلب المسيح، ولا من الحواريِّين، بل ولا في أتباعه من شهد صلبه، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفةٌ من اليهود، فمن الناس من يقول: إنَّهم علموا أن المصلوب غيره، وتعمدوا الكذب في أنَّهم صلبوه، وشبه صلبه علىٰ من أخبروهم.

وهذا قول طائفةٍ من أهل الكلام: المعتزلة وغيرهم، وهو قول ابن حزم(٣)، وغيره.

ومنهم من يقول: بل اشتبه علىٰ الذين صلبوه. وهذا قول أكثر الناس.

والأولون يقولون أن قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٧] أي شُبِّهَ للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه.

الجمهور يقولون: بل شُبِّه للذين يقولون: صلبوه، كما قد ذكرت القصة في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن الناس في هذا المقام علىٰ طرفين ووسط:

أما الطرف الواحد: فهم الغلاة من النصارىٰ الذين يدّعون أن الحواريِّين كانوا معصومين فيما يقولونه، ويروونه، ويرونه، وكذلك يقولون بتصويب

= نفسه].

(١) «إنجيل» ألفه «يوحنا» تلميذ المسيح بعدما رفع المسيح ببضع وستين سنة، كتبه باليونانية.

(٢) «إنجيل» ألفه «متَّىٰ» تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح وكتب بالعبرانية في بلد يهود بالشام.[المصدر نفسه].

(٣) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، ولد بقرطبة في سنة (٣٨٤) وتوفي سنة (٤٥٦ هـ). انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤، ونفح الطيب ٢/ ٧٧.

علماء النصارىٰ فيما يقولونه من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر: يقول: بل كل من غلط وأخطأ في شيءٍ من ذلك، فإنه مستحقٌ للوعيد، بل كافرٌ.

والثالث الوسط: أنَّهم لا يعصمون، ولا يؤثمون، بل قد يكونون مخطئين خطأً مغفورًا لهم، إذا كانوا مجتهدين في معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم.

وعلىٰ هذا تدل الأدلة الصحيحة، وكتب الله تدل علىٰ ذم الضال والجاحد ومقته، مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حِمَار عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**».

فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا، والمقت هو البغض، بل أشد البغض، ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبَهم حَتَّىٰ يبعث إليهم رسولًا، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

*****

[أسباب ضلال النصارى وأمثالهم من الغلاة]

ومما ينبغي أن يُعلم أن سبب ضلال النصارىٰ، وأمثالهم من الغالية ــ كغالية العباد والشيعة وغيرهم ــ **ثلاثة أشياء**:

أحدها: ألفاظٌ متشابِهَةٌ مُجْمَلَةٌ مُشْكِلَةٌ منقولةٌ عن الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة، وتَمَسَّكُوا بِها، وهُمْ كُلَّما سمعوا لفظًا لهم فيه شبهةٌ تمسكوا به، وحَمَلُوه علىٰ مذهبهم، وإن لم يكن دليلًا علىٰ ذلك.

الألفاظ الصريحة المخالفة لذلك: إمَّا أن يفوضوها، وإمَّا أن يتأولوها، كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارقُ ظَنُّوهَا آياتٍ، وهي من أحوال الشياطين، وهذا مِمَّا ضَلَّ به كثيرٌ من الضلال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمها للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمورٍ غائبةٍ، ولابُدَّ لهم مع ذلك من كذبٍ، ومثل تصرفاتٍ تقع من الشياطين.

والثالث: أخبارٌ منقولةٌ إليهم ظنوها صدقًا، وهي كذبٌ، وإلا فليس مع النصارىٰ، ولا غيرهم من أهل الضلال علىٰ باطلهم لا معقولٌ صريحٌ، ولا منقولٌ صحيحٌ، ولا آيةٌ من آيات الأنبياء، بل إن تكلموا بمعقولٍ تكلموا بألفاظٍ متشابِهةٍ مجملةٍ، فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفُرِّقَ بَيْنَ حَقِّهَا وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه.

وإن تكلموا بِمنقولٍ: فإمَّا أن يكون صحيحًا، لكن لا يدل علىٰ باطلهم، وإما أن يكون غيرَ صحيحٍ ثابتٍ، بل مكذوبٍ.

وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات: إمَّا أن يكون صحيحًا، قد ظهر علىٰ يد نَبِيٍّ، كمعجزات المسيح، ومن قبله كإلياس، واليسع، وغيرهما من الأنبياء وكمعجزات موسىٰ، فهذه حَقٌّ.

وإمَّا أن تكون قد ظهرت علىٰ يد بعض الصالحين كالحواريِّين، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء، فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه، لا يتصوّر أن يقولوا علىٰ الله إلا الحق، ولا يستقر في كلامهم باطلٌ، لا عمدًا، ولا خطأً.

وأما الصالحون فقد يغلط أحدهم، ويُخطئ مع ظهور الخوارق علىٰ يديه، وذلك لا يُخرجه عن كونه رجلًا صالِحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا إذا كان هو لم يدعِ العصمة، ولم يأتِ بالآيات الدالة علىٰ ذلك.

والنصارىٰ عندهم منقولٌ في الأناجيل: أن الذي صُلِبَ، ودُفِنَ في القبر رآه بعض الحواريِّين وغيرهم بعد أن دفن قام من قبره، رأوه مرتين، أو ثلاثًا، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أني شيطانٌ(١).

وهذا إذا كان صحيحًا فذاك شيطانٌ ادّعىٰ أنه المسيح، والتبس علىٰ أولئك، ومثل هذا قد جرىٰ لخلقٍ عظيمٍ في زماننا، وقبل زماننا، كناس كانوا بـ«تدمر» فرأوا شخصًا عظيمًا طائرًا في الهواء، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس، وقال لهم: أنا المسيح ابن مريم.

وأمرهم بأمورٍ يمتنع أن يأمر بِها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحضروا إلىٰ عند الناس، وبيّنوا لهم أن ذلك هو شيطانٌ أراد أن يضلهم.

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذي رآه من نجوم، والصليب الذي

(١) انظر «إنجيل لوقا» ص٨.

رآه مرة أخرىٰ هو مِمَّا مثله الشياطين، وأراهم ذلك؛ ليضلَّهم به، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك بعباد الأوثان.

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه في اليقظة، وخاطبه بأمورٍ، كما يذكر عن بولس، فإنَّه إذا كان صادقًا كان ذلك الذي رآه في اليقظة، وقال: إنه المسيح. شيطانًا من الشياطين، كما جرىٰ مثل ذلك لغير واحدٍ.

والشيطان إنَّما يضل الناس، ويغويهم بِما يظن أنَّهم يطيعونه فيه، فيخاطب النصارىٰ بِما يوافق دينهم، ويخاطب من يخاطب من ضُلاَّل المسلمين بِما يوافق اعتقاده، وينقله إلىٰ ما يستجيب لهم فيه بِحسب اعتقادهم، ولهذا يتمثل لِمَنْ يستغيث من النصارىٰ بِجرجس في صورة جرجس، أو بصورة من يستغيث به النصارىٰ من أكابر دينهم، إمَّا بعض البطاركة، وإمَّا بعض المطارنة، وإمَّا بعض الرهبان.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون علىٰ إثبات مسيحين: مسيح هدىٰ من ولد داود، ومسيح ضلال، يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف، ومتفقون علىٰ أن مسيح الهدىٰ سوف يأتي كما يأتي مسيح الضلالة؛ لكن المسلمون والنصارىٰ يقولون: مسيح الهدىٰ هو عيسىٰ ابن مريم، وإن الله أرسله، ثم يأتي مرةً ثانيةً، لكن المسلمون يقولون: إنه يَنْزِل قبل يوم القيامة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الْخِنْزِير، ولا يبقىٰ دين إلا دين الإسلام، ويؤمن به أهل الكتاب: اليهود والنصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩].

والقول الصحيح الذي عليه الجمهور قبل موت المسيح، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١].

وأمـا النصـارىٰ: فـتظن أنـه الله، وأنـه يـأتي يـوم القيامـة لحسـاب الخلائـق وجزائهم.

هذا مما ضلوا فيه.

واليهود تعترف بِمجيء مسيح هـدىٰ يـأتي؛ لكـن يزعمـون أن عيسـىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مسيح هدىٰ؛ لظنّهم أنه جاء بـدين النصـارىٰ المبـدّل، ومـن جـاء بـه فهـو كاذبٌ، وهم ينتظرون المسيحين.

*****

فصل

قالوا: «فثبت بِهذا ما معنا نعم، ونفىٰ عن إنجيلنا وكتبنا التِي في أيدينا التُّهَمَ، والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها».

فيقال: كلامكم الذي تحتجون به في هذا الموضع وغيره إمَّا أن يكون باطلًا محضًا، وإما أن يكون مِمَّا لبستم فيه الحق بالباطل.

فإنَّ قولكم بتصديقه إياها، إنْ أردتم أنه صدّق التوراة، والإنجيل، والزبور التِي أنزلها الله علىٰ أنبيائه، فهذا لا ريب فيه، فإن هذا مذكورٌ في القرآن في غير موضع، وقد أوجب علىٰ عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله، وكل نَبِيٍّ من الأنبياء، مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن، وأنزل القرآن مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب، ومُهَيْمِنًا عليه.

وقد أوجب علىٰ عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض، وكفر ببعض، فقال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ

ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

فَذَمَّ المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض، وبَيَّنَ أنه فضَّل بعضهم علىٰ بعض فقال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فبين أنه فضَّل بعضهم علىٰ بعض، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقد اتفق المسلمون علىٰ ما هو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بِنَبِيٍّ واحدٍ تُعلم نبوته مثل إبراهيم، ولوط، وموسىٰ، وداود، وسليمان، ويونس، وعيسىٰ، فهو كافرٌ عند جَميع المسلمين، حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتدًّا استتيب، فإن تاب وإلا قُتل.

ومن سبَّ نَبِيًّا واحدًا من الأنبياء قُتِلَ أيضًا باتفاق المسلمين، وما علم المسلمون أن نَبِيًّا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به، كما يصدقون بِما أخبر به محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض، ولا تختلف، وما لم يعلموا أن النَّبِيَّ أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدًا أخبر به صلىٰ الله عليهم أجْمعين، ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب، كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بِما علموا أنه صدق، وما لم يعلموا أنه كذبٌ، ولا صدقٌ، لم يصدقوا به، ولم يكذبوا به، كما أمرهم نبيهم محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبِهذا أمرهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «الأمور ثلاثةٌ: أمرٌ تَبَيَّنَ رُشده فاتبعوه، وأمرٌ تَبَيَّنَ غَيُّهُ فاجتنبوه، وأمرٌ اشتبه

عليكم فَكِلُوهُ إلىٰ عالمه» (١).

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدَّق ما هم عليه من العقائد، والشرائع التِي ابتدعوها بغير إذن من الله، وخالفوا بِها ما تقدمه من شرائع المسلمين، أو خالفوا بِها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث، والأقانيم، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وقولهم: إن المسيح هو الله، وابن الله.

وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به؛ من الإيمان بالله، واليوم الآخر، ومن تحليل ما حرمه الله ورسله، كالخنْزير وغيره.

وبَيَّنَ أنَّهم لا يدينون بدين الحق الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله، بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد بَيَّنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك لعدي بن حاتم(٢)، وكان نصرانيًّا، لما جاءه ليؤمن به، وقد آمن به عدي، وكان من خيار الصحابة، فسمعه يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]. قال عدي: قلت: يا رسول الله! ما عبدوهم. قال: «**إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَأَطَاعُوهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ٣١٨ (١٠٧٧٤) عن ابن عباس مرفوعًا. وانظر الترغيب والترهيب ١/ ٧٩، ومجمع الزوائد ١/ ١٥٧.

(٢) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو طريف، أسلم سنة تسع، وقيل: سنة عشر، وكان نصرانيًّا قبل ذلك، مات بعد الستين، وقد أسن، قيل: بلغ عشرين مائة سنة. انظر الإصابة ٤/ ٣٨٨، والاستيعاب ٣/ ١٦٨.

عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ» (١).

فإن أرادوا بتصديقهم في هذه الأمور، أو أن محمّدًا صدّق ما عندهم مِمَّا لم يأتِ به الأنبياء عن الله، فقد كذبوا على محمدٍ كذبًا ظاهرًا معلومًا بالاضطرار من دينه، وإنَّما صدّق ما جاءت به الأنبياء قبله.

وأما ما أحدثوه، وابتدعوه، فلم يصدقوه، كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول، ولو لم يكن مبدلًا، بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به، وبِما جاء به، واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنْزل عليه، وأوجب مع خلودهم في عذاب الآخرة جهادهم في الدنيا حتَّى يكون الدين كله لله، وحتَّى تكون كلمة الله هي العليا.

وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عمومًا، ثم كُلًّا من الطائفتين خصوصًا في غير موضع، مع دعائه الناس كلهم: أهل الكتاب وغيرهم، فنهاهم عن الغلو في دينهم، وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بِدَعًا غَيَّرُوا بِها شرع المسيح، فضلوا من قبل هؤلاء الأتباع، وأضلوا كثيرًا من هؤلاء الأتباع وغيرهم، وضلوا عن سواء السبيل، وهو وسط السبيل بين الضلال، وقيده بعد أن أطلقه وأجْمله.

*****

(١) أخرجه الترمذي ٥/ ٢٧٨ (٣٠٩٥)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٠٦، والطبري في التفسير ١٠/ ١١٤، وابن أبي حاتم ٦/ ١٧٨٤ (١٠٠٥٧)، والطبراني في الكبير ١٧/ ٩٢ (٢١٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١١٦، وفي المدخل إلى السنن ص٢١٠، ٢٦١.

فصل

فَتَبَيَّنَ أن قولهم: «فَثَبَّتَ بِهذا ما معنا نعم، ونفىٰ عن إنجيلنا، وكتبنا التِي في أيدينا التهم، والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها».

إن أرادوا به أنه ثَبَّتَ ما جاءت الأنبياء قبله عن الله، فهذا حقٌّ.

وإن أرادوا به أنه ثَبَّتَ ما هم عليه بعد مبعثه من الشرع الذي خالف شرعه، أو ما ابتدعوه مِمَّا لم يأتِ به الأنبياء عليهم السلام قبله، فهذا باطلٌ.

وإن أرادوا بذلك أنه صدق ألفاظ الكتب التِي بأيدينا: أي التوراة والإنجيل، فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين، وينازعهم فيه أكثر المسلمين، وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين.

فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير، والتأويل، وتبديل أحكامها، فجميع المسلمين، واليهود، والنصارىٰ يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون علىٰ اليهود بتحريف كثيرٍ من معاني التوراة، وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود يقولون: إن التوراة لم تحرف ألفاظها.

وحينئذٍ.. فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها، إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها، بل جميع النبوات التِي يقرّون بِها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم، والتبديل لألفاظها، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرًا واستحقاقًا لعذاب الله في الدنيا والآخرة، وهم عند النصارىٰ الذين يكفّرون المسلمين أكثر من هؤلاء، وشر منهم؛ فإن النصارىٰ متفقون علىٰ أن المسلمين خيرٌ من اليهود، وكذلك اليهود متفقون علىٰ أن المسلمين خيرٌ من النصارىٰ، بل جَميع الأمم

المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خيرٌ من سائر الأمم والطوائف إلا أنفسهم، وشهادتُهم لأنفسهم لا تقبل، فصار هذا اتفاق أهل الأرض علىٰ تفضيل دين الإسلام.

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابِها، ولا يمنع كفرهم.

وإذا تبين للخاصة والعامة مِمَّن آمن بِمحمدٍ عليه السلام، ومن كفر به أنه كان مصدقًا لما بين يديه من الكتب والأنبياء، مصدقًا للتوراة والإنجيل، شاهدًا بأن موسىٰ عليه السلام، ومن كان مُتبِعًا علىٰ الحق، وأن المسيح عليه السلام، ومن اتبعه علىٰ الحق، وأنه يكفر جَميع اليهود والنصارىٰ، وغيرهم ممن بلغته رسالته ولم يؤمن به، وشهد عليهم بأنَّهم حرفوا كثيرًا من معاني التوراة، والإنجيل قبل نبوته، وأن أهل الكتاب كلهم مع المسلمين يشهدون أيضًا بأن كثيًرا من معاني التوراة والإنجيل حرَّفها كثيرٌ من أهل الكتاب، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمدٍ عليه السلام علىٰ صحة دينهم الذي شهد محمدٌ عليه السلام بأنه باطلٌ مبدَّلٌ منسوخٌ، وأهله من أهل النار، كما تقدم بسطه.

وإذا قالوا: نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدَّقها، وهي تناقض بعض ما أخبر به، أو لنبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره، فيكون ذلك قدحًا فيما جاء به.

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق:

أحدها: أن يقولوا: أما مناقضة بعض خبره لبعض، كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يَمدح أهل الكتاب مرة، ويذمّهم أخرىٰ، وأنه يصدق الكتب الْمُنْزلة تارةً، ويذمّها أخرىٰ، فهذا قد ظهر بطلانه؛ فإنه إنَّما مدح من اتبع موسىٰ والمسيح

علىٰ الدين الذي لم يبدّل، ولم ينسخ.

وأما من اتَّبَعَ الدِّين الْمُبَدَّل المنسوخ فقد كفره.

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره؛ **فيقال:** هو مصدِّقٌ للأنبياء فما أخبروا به، وأما ما بُدِّل من ألفاظهم، أو غُيِّرَ بالترجَمة، أو فسر بغير مرادهم، فلم يصدقه.

ويقال أيضًا: إن نبوة محمدٍ عليه السلام تَثْبُتُ بِمثل ما تثبت به نبوات الأنبياء قبله، وبأعظم من ذلك، كما قد بسط في موضع آخر، وبُيِّنَ أن التكذيب بنبوة محمدٍ عليه السلام مع التصديق بنبوة غيره في غاية التناقض والفساد، وأنه ما من طريق يعلم بِها نبوة غيره إلا ونبوته تعلم بِمثل تلك الطريق، وبأعظم منها، فلو لم تكن نبوته، وطريق ثبوتِها إلا مثل نبوة غيره، وطريق ثبوتِها لوجب التصديق بنبوته، كما وجب التصديق بنبوة غيره، ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم، وموسىٰ، وغيرهما من الرسل، فكيف إذا كان ذلك أعظم من وجوهٍ متعددةٍ.

وحينئذ.. فالأنبياء كلهم صادقون مصدَّقون معصومون فيما يخبرون به عن الله لا يجوز أن يثبت في خبرهم عن الله خبرٌ باطلٌ، لا عمدًا ولا خطأً، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره، بل ولا يفترقون في الدين الجامع، كما قال تعالىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

وإنَّما يقع النسخ في بعض الشرائع، كما يقع النسخ في شريعة الرسول

الواحد، وحينئذٍ.. فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين ممَّا يناقض ما علم من أخبار محمدٍ عليه السلام فهو باطلٌ، سواء كان اللفظ نفسه باطلًا، لم يقله ذلك النَّبِيُّ، أو قد قال لفظًا، وغلط المترجمون له من لغةٍ إلىٰ لغةٍ، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين؛ لكن وقع الغلط في معرفة مراد ذلك النَّبِيِّ بذلك الكلام.

فإن كلّ ما يحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء: أنبياء بَنِي إسرائيل، وغيرهم مِمَّنْ أرسل بغير اللغة العربية، لابُدَّ في الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات: أن يعلم اللفظ الذي قاله، ويعلم ترجمته، ويعلم مراده بذلك اللفظ.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون علىٰ وقوع الغلط في تفسير بعض الألفاظ، وبيان مراد الأنبياء بِها، وفي ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة، وبينها فروق يختلف بِها المعنَىٰ المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره، فهذا الطريق في الجواب طريقٌ عامٌّ لكل من آمن بِمحمدٍ عليه السلام، وشهد أنه رسول الله باطنًا وظاهرًا، يخاطب به كل يهودي ونصراني علىٰ وجه الأرض، وإن لم يكن عارفًا بِما عند أهل الكتاب، فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض يقيم دليلًا صحيحًا علىٰ نبوة موسىٰ، وعيسىٰ، وبطلان نبوة محمدٍ عليه السلام، فإن هذا ممتنع لذاته، بل ولا يمكنه أن يقيم دليلًا صحيحًا علىٰ نبوة أحدهما إلا وإقامة مثل ذلك الدليل، أو أعظم منه علىٰ نبوة محمدٍ عليه السلام أولىٰ.

وحينئذٍ.. فلا يُمكن أحدًا من أهل الكتاب أن يحتج بشيءٍ من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمدٍ عليه السلام، سواءٌ أقرّ بنبوته أو أنكرها، بل إن احتج بشيءٍ مما نقل عن محمدٍ عليه السلام بُين له بطلان احتجاجه به، وأنه حجة عليه، لا له.

وإن احتج بشيءٍ من المنقول عن غيره من الأنبياء، طُولب بتقدير نبوة ذلك النَّبِيِّ مع تكذيب محمدٍ عليه السلام، وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة،

وأتيا بالآيات التِي تثبت بِها النبوات خبران مناقضان، لا يجوز تصديق هذا، وتكذيب ذاك، إن لم يتبين ما يدل علىٰ صدق هذا، وكذب هذا، وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر.

وهذا لا يَرِدَ علىٰ المسلمين إذا ردوا ما يحتج به أهل الكتاب مِمَّا ينقلونه عن الأنبياء مُخالفًا لخبر محمدٍ عليه السلام؛ فإن المسلمين لا يطعنون في نبوة أحد من الأنبياء المعروفين، وإنَّما يطعنون في أنَّهم أخبروا بِما يخالف خبر محمدٍ عليه السلام، فإن ذلك لا يثبت، أي: لم يثبت اللفظ، والترجمة، وتفسير اللفظ.

وهذه المقدمات يمتنع أن تقوم علىٰ شيءٍ يخالف خبر محمدٍ عليه السلام، لا جملةً ولا تفصيلًا.

- **فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات:**

أحدها: تقدير أن أولئك صادقون، ومحمدٌ عليه السلام كاذبٌ.

والثانِي: ثبوت ما أتوا به لفظًا.

والثالث: معرفة المراد باللفظ ترجمةً وتفسيرًا.

وإن قال الكتابي للمسلم: أنت توافقني علىٰ نبوة هؤلاء المتقدمين؟

أجابه المسلم بوجوه:

منها: أن يقول: إني لم أوافقك علىٰ نبوة واحدٍ منهم مع التكذيب بِمحمد عليه السلام، بل دين المسلمين كلهم أنه من آمن ببعض الأنبياء، وكفر ببعض فهو كافرٌ، فكيف بِمن كفر بِمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم، بل قد يقول له أكثر المسلمين: نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمدٍ عليه السلام أنَّهم أنبياء، فلو قدحنا في الأصل الذي قد علمنا به نبوتَهم لزم القدح في نبوتِهم،

والفرع إذا قدح في أصله دل علىٰ فساده في نفسه، سواءٌ قُدِّر أصله صحيحًا أو فاسدًا، فإنَّه إنْ كان أصله فاسدًا فسد هو، وإن كان أصله صحيحًا، وهو يناقضه بطل هو؛ فهو إذا ناقض أصله، باطلٌ علىٰ كل تقدير.

وكذلك إذا قال له الكتابي: قد اتفقنا علىٰ تصديق موسىٰ، والتوراة، والمسيح، والإنجيل.

قال له المسلم: إنَّما وافقتك علىٰ تصديق موسىٰ، وعيسىٰ الذين بشرا بمحمدٍ ﷺ، كما أخبرنا به محمدٌ ﷺ عن الله حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧ الآية

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، إلىٰ أمثال ذلك.

فأما الإيمان بِموسىٰ الذي ذكر أن شريعته مؤبَّدةٌ لا ينسخ منها شيءٌ، أو بِمسيح ادُّعي أنه الله، أو أن الله اتَّحد به، أو حلَّ فيه، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب في الرسولين والكتابين، ويخالفهم فيه المسلمون، فهذا من موارد النِّزاع، لا من مواقع الإجْماع، فليس لأحدٍ من أهل الكتاب أن يحتجَّ علىٰ أحدٍ من المسلمين بِموافقته له علىٰ ذلك.

ومن تمام ذلك أن يقول المسلم: نعم، أنا أقرّ بنبوة موسىٰ، والمسيح، وأن التوراة، والإنجيل كلام الله؛ لكن يَمتنع عقلًا الإقرار بنبوة واحدٍ من هؤلاء دون نبوة محمدٍ ﷺ ؛ فإن البراهين، والآيات، والأدلة الدالة علىٰ صدق موسىٰ

والمسيح تدل علىٰ نبوة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريق الأولىٰ، فلو انتقضت تلك الأدلة لزم فسادها، وأن لا أصدق بأحدٍ من الأنبياء، وإن كانت حقًّا لزم تصديقهم كلهم، فلزم إما أن نصدقهم كلهم، وإما أن نكذبَهم كلهم، ولهذا كان من آمن ببعض، وكذَّب ببعض كافرًا.

ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا: نحن نصدق الأنبياء المتقدمين في كل ما أخبروا به، لكن من نقل عنهم أنَّهم أخبروا بِما يناقض خبر محمدٍ فلابُدَّ له من مقدمتين: ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء، والعلم بمعناه الذي يعلم أنه مناقضٌ للمعنىٰ الذي علم أن محمدًا عناه، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية، سواء كانت عربيةً، أو روميةً، أو سريانيةً، أو قبطية، إلىٰ أن يعرف أن هذا اللفظ الذي ترجم به لفظه مطابق للفظه، ويمتنع ثبوت المقدمتين؛ لأن في ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية، والأدلة العلمية لا تتناقض.

الطريق الثانِي: أن يقول المسلمون: ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء مناقضةً لما أخبر به محمدٌ، أمورٌ لم تعلم صحتها، فلا يجوز اعتقاد ثبوتِها، والجزم بِها، ولو لم يُعلم أن محمدًا أخبر بخلافها، فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها، وذلك أن العلم بثبوتِها مبنِي علىٰ مقدمات:

أحدها: العلم بنبوتِهم، وهذا ممتنعٌ مع تكذيب محمدٍ.

والثانية: أنَّهم قالوا هذه الألفاظ، وهذا يحتاج إلىٰ إثبات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء، ولم يثبت أنَّها تواترت عنهم.

والثالثة: أن معناها هو المعنَىٰ المناقض لخبر محمدٍ، ولم يعلم ذلك.

وكلّ واحدةٍ من هذه المقدمات تمنع العلم بثبوت هذه المعاني المناقضة لخبر محمدٍ، فكيف إذا اجتمعت، وهي تمنع العلم بصحتها، ولو لم تناقض

خبر محمدٍ، فكيف إذا ناقضته.

الطريق الثالث: طريق من يبين أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر، ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة لما خرّب بيت المقدس، وانقطاع تواتر الإنجيل في أول الأمر.

الطريق الرابع: طريق من يبين أن بعض ألفاظ الكتب حرفت، ويقيم الأدلة الشرعية، والعقلية علىٰ تبديل بعض ألفاظها.

الطريق الخامس: أن يبين أن الألفاظ التِي بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمدٌ، بل تدل علىٰ صدق محمدٍ، ويتكلم علىٰ تفسير تلك الألفاظ بأعيانِها.

وهذه الطريق يسلكها من لا ينازع في ثبوت الألفاظ من المسلمين.

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ، فيسلكون هذه الطريق، ويسلكون أيضًا بيان عدم تواتر الألفاظ، بل بيان التبديل في ألفاظها.

ومن حجة الجمهور ــ الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب مُنَزلة من عند الله، لم يقع فيها تبديل، ويقولون: إنه وقع التبديل في بعض ألفاظها، ويقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها مُنَزلة من عند الله، فلا يجوز أن يحتج بِما فيها من الألفاظ في معارضة ما علم ثبوته ــ أنَّهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسىٰ وعيسىٰ.

أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولًا، وأجلىٰ منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخصٌ واحدٌ يقال له:

عزرا[١]، وزعموا أنه نَبِيٌّ.

ومن الناس من يقول: إنه لم يكن نَبِيًّا، وإنَّها قوبلت بنسخة وجدت عتيقة، وقد قيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب[٢]، وهذا كله لا يوجب تواتر جَميع ألفاظها، ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها، كما يجري مثل ذلك في الكتب التِي يلي نسخها، ومقابلتها، وحفظها القليل: الاثنان، والثلاثة.

وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام، ولا أملاه علىٰ من كتبه، وإنَّما أملوه بعد رفع المسيح مَتَّىٰ، ويُوحَنَّا، وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خَلْقٌ كثيرٌ يبلغون عدد التواتر، ومرقس، ولوقا[٣] وهما لم يريا المسيح عليه السلام، وقد ذكر هؤلاء أنَّهم ذكروا بعض ما قاله المسيح، وبعض أخباره، وأنَّهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله.

ونَقْلُ اثنين، وثلاثة، وأربعة يجوز عليه الغلط، لا سيما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتَّىٰ اشتبه عليهم بالمصلوب.

ولكن النصارىٰ يزعمون أن الحواريِّين رسلٌ الله مثل عيسىٰ ابن مريم، وموسىٰ، وأنَّهم معصومون، وأنَّهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل، وأنَّ لهم معجزات، وقالوا لهم: هذه التوراة، وهذا الإنجيل.

ويقرّون مع هذا بأنَّهم ليسوا بأنبياء، فإذا لم يكونوا أنبياء فمن ليس بِنَبِيٍّ ليس بِمعصوم من الخطأ، ولو كان من أعظم أولياء الله، ولو كان له خوارق عاداتٍ،

---

(١) ذكره ابن القيم في هداية الحيارىٰ ص٢٧٧.

(٢) انظر الفصل لابن حزم ١/ ٢٩٨، وإغاثة اللهفان ٢/ ٣٥٩، وفتح الباري ١٣/ ٥٣٣ .

(٣) مقدمة إنجيل «لوقا» تدل علىٰ أنه لم يشاهد المسيح، وعلىٰ أن كلًّا يكتب ما بلغه. انظر: الترجمة السبعينية ص٨٧. بعنوان: تقديم.

فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريِّين، ولا معصوم عندهم إلا من كان نَبِيًّا، ودعوىٰ أنَّهم رسل الله مع كونِهم ليسوا بأنبياء تناقضٌ.

وكونُهم رسل الله هو مبنِيٌّ علىٰ كون المسيح هو الله، فإنَّهم رسل المسيح، وهذا الأصل باطلٌ، ولكن في طريق المناظرة، والمجادلة بالتِي هي أحسن نمنعهم في هذا المقام، ونطالبهم بالدليل علىٰ أنَّهم رسل الله، وليس لهم علىٰ ذلك دليلٌ؛ فإنه لا يثبت أنَّهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله، وإثباتُهم أن المسيح هو الله؛ إما أن يكون بالعقل أو بالسمع، والعقل لا يثبت ذلك، بل يحيله، وهم لا يدَّعون ثبوت ذلك بالعقل، بل غاية ما يدَّعون إثبات إمكانه بالعقل، لا إثبات وجوده، مع أن ذلك أيضًا باطلٌ، وإنَّما يدَّعون ثبوت وجوده بالسمع، وهو ما ينقلونه عن الأنبياء من ألفاظ يدَّعون ثبوتَها عن الأنبياء، ودلالتها علىٰ أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية، فإنَّ غايته بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن، وكلا المقدمتين باطلةٌ.

ولكن يقال لهم في هذا المقام: أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بِهذه الكتب، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريِّين رسل الله معصومون، ولا يمكنكم إثبات أنَّهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا(١)؛ فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنَّهم رسل الله، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله،

---

(١) الدور: هو توقف الشيء علىٰ ما يوقف عليه، ويسمىٰ الدور المصرح، كما يتوقف «أ» علىٰ «ب»، وبالعكس، أو بمراتب، ويسمىٰ الدور المضمر، كما يتوقف «أ» علىٰ «ب»، و «ب» علىٰ «ج»، و «ج» علىٰ «أ». انظر التعريفات للجرجاني ص١٠٥، ومحيط المحيط ص٢٩٨.

فصار ثبوت الإلهية متوقِّفًا علىٰ ثبوت إلهيته، وثبوت كونِهم رسل الله متوقِّفًا علىٰ كونِهم رسل الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا.

*****

[وثيقة الأمانة هي عقيدة النصارى التي لا يصح لهم قربان إلا بها]

قد يدَّعون عصمة الحواريِّين، وعصمة أهل المجامع[١] بعد الحواريين، كأهل المجمع الأول الذي كان بحضرة قسطنطين، الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، ووضعوا لهم الأمانة التِي هي عقيدة النصارىٰ، التِي لا يصح لهم قربانٌ إلا بِها، فيزعمون أن الحواريِّين، أو هؤلاء جرت علىٰ أيديهم خوارق، وقد يذكرون أنَّ منهم من جرىٰ إحياء الموتىٰ علىٰ يديه.

وهذا إذا كان صحيحًا ــ مع أنَّ صاحبه لم يذكر أنه نَبِيٌّ ــ لا يدل علىٰ عصمته؛ فإن أولياء الله من الصحابة، والتابعين بعدهم بإحسان، وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه، وليس فيهم معصومٌ يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط علىٰ كل واحدٍ منهم، وكل أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا أوجب الله الإيمان بِما أوتيه الأنبياء، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولي لله.

- والمقصود هنا أنه ليس مع النصارىٰ نقلٌ متواترٌ عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل، ولا نقلٌ لا متواترٌ ولا آحادٌ بأكثر ما هم عليه من الشرائع، ولا عندهم ولا عند اليهود نقلٌ متواترٌ بألفاظ التوراة، ونبوات الأنبياء، كما عند المسلمين نقلٌ متواترٌ بالقرآن، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة، وهذا مثل الأمانة التِي هي أصل دينهم، وصلاتهم إلىٰ المشرق، وإحلال الخنْزير، وترك

---

(١) ذكر ابن القيم في هداية الحيارىٰ تسعة من المجامع للنصارىٰ، وفي المجمع الثاني ص٣١٧. المعروف بمجمع «نيقية» ذكروا فيه عقيدة الأمانة، حيث اجتمع فيه ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا.

الختان، وتعظيم الصليب، واتخاد الصور في الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم ليست منقولةً عن المسيح، ولا لها ذكر في الأناجيل التِي ينقلونَها عنه.

وهم متفقون علىٰ أن الأمانة التِي جعلوها أصل دينهم، وأساس اعتقادهم، ليست ألفاظها موجودة في الأناجيل، ولا هي مأثورة عن الحواريِّين، وهم متفقون علىٰ أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول، الذين كانوا عند قسطنطين، الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، وخالفوا عبد الله بن أريوس(١) الذي جعل المسيح عبدًا لله، كما يقول المسلمون، ووضعوا هذه الأمانة.

وهذا المجمع كان بعد المسيح بِمدةٍ طويلةٍ تزيد علىٰ ثلاثمائة سنة، وبسط هذا له موضع آخر.

وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم: «إنَّ محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَبَّتَ ما معهم، وأنه نفىٰ عن إنجيلهم وكتبهم التِي بأيديهم التهم، والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها».

وقد تبين أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يصدّق شيئًا من دينهم المبدّل والمنسوخ، ولكن صدّق الأنبياء قبله، وما جاؤوا به، وأثنَىٰ علىٰ من اتبعهم، لا علىٰ من خالفهم، أو كذّب نبيًّا من الأنبياء، وأن كفر النصارىٰ من جنس كفر اليهود، فإن اليهود بدلوا معاني الكتاب الأول، وكذبوا بالكتاب الثاني: وهو الإنجيل، وكذلك النصارىٰ بدلوا معاني الكتاب الأول: التوراة والإنجيل، وكذّبوا بالكتاب

---

(١) هو بطريرك الإسكندرية. قال ابن البطريق: وفي ذلك الوقت أعلنت مقالة أريوس علىٰ قسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية، وفي ثاني سنة من ملك قسطنطين هذا صار علىٰ أنطاكية بترك أريوسي ثم بعده آخر مثله، قال: وأما أهل مصر والإسكندرية وكان أكثرهم أريوسيين ومانيين فغلبوا علىٰ كنائس مصر فأخذوها، ووثبوا علىٰ بترك الإسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفىٰ. انظر هداية الحيارىٰ. ص٣٢٣.

الثاني: وهو القرآن، وأنَّهم ادَّعوا أن محمدًا عليه السلام صدّق بجميع ألفاظ الكتب التِي عندهم.

والنصارىٰ لهم سبع مجامع مشهورة عندهم، وهم في كل مجمعٍ يلعنون طائفةً منهم كبيرةً، ويكفرونَهم، ويقولون عنهم: إنَّهم كذبوا ببعض ما في تلك الكتب ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها، وتلك الطائفة تشهد علىٰ الأخرىٰ بأنَها كذَّبت ببعض ما فيها، ثم فرقهم الثلاثة المشهورة: النسطورية، والملكية، واليعقوبية، كل طائفة تكفر الأخرىٰ، وتلعنها، وتشهد عليها أنَّها مكذّبةٌ ببعض ما في النبوات، غير موجبةٍ لطاعة بعض ما فيها، بل اختلافهم في نفس التوحيد والرسالة، فزعم كل فريقٍ منهم أن المسيح جاء بِما هم عليه.

والمسيح عليه السلام وجَميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وبريئون مِمَّن يقول علىٰ الله غير الحق، أو يقول علىٰ الله ما لا يعلم، وبريئون من كل قولٍ باطلٍ يقال علىٰ الله عز وجل، وإن كان قائله مخطئًا لم يتعمد الكذب.

وفي مقالات النصارىٰ من هذه الأنواع ما يطول وصفه، وقد بُسط في غير هذا الموضع.

وإذا عرفت أن جَميع الطوائف: من المسلمين، واليهود، والنصارىٰ يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريفٌ وتبديلٌ في معانيها، وتفاسيرها، وشرائعها، فهذا القدر كافٍ، وهم من حين بُعثَ محمدٌ عليه السلام صار كل من لم يؤمن به كافرًا، بخلاف حال النصارىٰ قبل مبعث محمدٍ عليه السلام، فإنه كان فيهم من هو متبع لدين المسيح.

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنَّهم بدلوا معاني التوراة، والإنجيل،

والزبور، وغيرهم من نبوات الأنبياء، وابتدعوا شرعًا لم يأتِ به المسيح، ولا غيره، ولا يقوله عاقلٌ، مثل زعمهم أن جَميع بنِي آدم: من الأنبياء، والرسل، وغيرهم كانوا في الجحيم، في حبس الشيطان؛ لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة، وأنَّهم إنَّما تخلصوا من ذلك لما صُلب المسيح.

فإنَّ هذا الكلام لو نقله ناقلٌ عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولًا عندهم عن أحدٍ من الأنبياء، وإنَّما ينقلونه عمَّن ليس قوله حجةٌ لازمةٌ؛ فإنَّ كثيرًا من دينهم مأخوذٌ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء، فكيف إذا لم ينقله عنهم، وذلك أن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بِما تقصر عقولهم عن معرفته، لا بِما يعرفون أنه باطلٌ ممتنعٌ، فيخبرونَهم بِمحيرات العقول، لا محالات العقول.

وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة، فقد تاب الله عليه، واجتباه وهداه، قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبته، وإنَّما قد يقول قائلهم: «إنَّا لا نعلم أنه تاب، أو ليس عندنا توبته»، وعدم العلم بشيءٍ ليس علمًا بعدمه، وعدم وجود الشيء في كتابٍ من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتاب آخر، ففي التوراة ما ليس في الإنجيل، وفيهما ما ليس في الزبور، وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة، وفي سائر النبوات ما لا يوجد في هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة، والإنجيل، والزبور، والنبوات، أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما

ليس فيها، فكيف إذا كان أفضل وأشرف، وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل، وقد بَيَّن اللهُ تعالىٰ فضلَهُ عليهما في غير موضع، وسواءٌ تاب آدم، أو لم يتب، فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين في حبس الشيطان، في جهنم بذنبه، وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافرًا، ولم يؤاخذه الله بذنبه، فكيف يجعله في جهنم في حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصىٰ آدم، مع أنه كان نَبِيًّا.

ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد مكث في قومه ألف سنة إلا خَمسين عامًا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، وجعل ذريته هم الباقين، فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان، لأجل ذنب آدم.

وموسىٰ بن عمران الذي كلَّمه الله تكليمًا، وأظهر علىٰ يديه من البراهين، والآيات ما لم يظهر مثله علىٰ يدي المسيح، وقتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، فغفر الله له ذلك، وله من المنْزلة عند الله والكرامة ما لا يقدر قدره، فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان.

ثم أي مناسبةٍ بَيْنَ الصلب الذي هو من أعظم الذنوب ـــ سواءٌ صلبوا المسيح، أو المشبَّه به ـ وبين تخليص هؤلاء من الشيطان؛ فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالِمًا معتديًا، والله عَجَّلَ قادرٌ علىٰ منعه من ظلمهم، بل وعلىٰ عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم، فلماذا أخّر منعه من ظلمهم إلىٰ زمن المسيح؟!.

وهو سبحانه ولي المؤمنين، وناصرهم، ومؤيدهم، وهم رسله الذين نصرهم علىٰ من عاداهم، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان، فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتِهم أن يظلمهم، ويجعل أرواحهم في جهنم، هذا إنْ قُدِّرَ أن الشيطان كان قادرًا علىٰ ذلك، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه، وأوليائه، وسقوط التكليف عنهم، واستحقاقهم كرامته، وإحسانه، وجنته

بحكم وعده، ومقتضىٰ حكمته، فجعله مسلَّطًا علىٰ حبسهم في جهنم.

وإن قالوا: الرَّبُّ ﷻ ما كان يقدر علىٰ تخليصهم من الشيطان مع علمه بأنه ظالمٌ معتدٍّ عليهم بعد الموت، إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه؛ ليتمكن الشيطان منه، كما يزعمون، فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم، وجعل الرَّبِّ سبحانه عاجزًا ــ كما جعلوه أولًا ظالِمًا ــ فيه من التناقض ما يقتضي عظيم جهلهم الذي جعلوا به الرَّبَّ جاهلًا؛ فإنَّهم يقولون: إنَّه احتال علىٰ الشيطان؛ ليأخذه بعدلٍ، كما احتال الشيطان علىٰ آدم بالحية، فاختفىٰ منه؛ لئلا يعلم أنه ناسوت الإله، وناسوت الإله لم يعمل خطيئةً قط بخلاف غيره.

فلما أراد الشيطان أخذ روحه؛ ليحبسه في جهنم كسائر من مضىٰ، وهو لم يعمل خطيئةً استحق الشيطان أن يأخذه الرَّبُّ، ويخلص الذرية من حبسه، وهذا تجهيلٌ منهم للرَّبِّ ــ سبحانه وتعالىٰ عما يقولون ــ مع تعجيزه، وتظليمه؛ فإنَّه إن كان هو سلَّط الشيطان علىٰ بنِي آدم كما يقولون، فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، إذ الجميع بنِي آدم.

وأيضًا فإذا قُدِّرَ أن الناسوت يدفع الشيطان عن نفسه بحقٍّ؛ فإنَّهم يقولون: إنه دخل الجحيم، وأخرج منه ذرية آدم.

فيقال: إن كان تسلط الشيطان علىٰ حبسهم في الجحيم بحقٍّ؛ لأجل ذنوبِهم مع ذنب أبيهم، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت، ولم يجز تأخير ذلك، فليس في مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره.

وإن قالوا: إنه كان بدون تسلطه علىٰ صلبه عاجزًا عن دفعه، فهو مع تسلطه علىٰ صلبه أعجز وأعجز.

فحينئذ.. فقولهم: «إنا نعجب من هؤلاء القوم علىٰ علمهم، وذكائهم، ومعرفتهم، كيف يحتجون علينا بِمثل هذا القول؟.

وذلك أنا أيضًا إذا قلنا واحتججنا عليهم بِمثل هذا القول: إن الكتاب الذي بأيديهم يومنا هذا قد غيّروه، وبدّلوه، وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا، هل كانوا يجوّزون كلامنا؟.

فقلت لهم: هذا ما لا يجوز، ولا يمكن لأحدٍ أن يقوله، ولا يُمكن تغييره، ولا تبديل حرفٍ واحدٍ منه.

فقالوا: سبحان الله العظيم! إذا كان الكتاب الذي لهم، الذي هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله، ولا تغيير حرفٍ واحدٍ منه، فكيف يمكن تغيير كتبنا التِي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، وفي كل لسان منها كذا وكذا ألف نسخة، وجاز عليها إلىٰ مجيء محمدٍ أكثر من ستمائة سنة، وصارت في أيدي الناس يقرؤونها باختلاف ألسنتهم علىٰ تشاسع بلدانهم.

فمن الذي تكلم باثنين وسبعين لسانًا، ومن هو الذي حكم علىٰ الدنيا جَميعها: ملوكها، وقساوستها، وغالبها، حتَّىٰ حكم علىٰ جَميعها في أقطار الأرض، وجَمعها في أربع زوايا العالم حتَّىٰ يغيّرها، وإن كان غُيِّر بعضها، وترك بعضها فهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن كلها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحدٌ في جَميع الألسن، فهذا ما لا يجوز لقائلٍ أن يقوله أبدًا».

والجواب أن يقال:

أولًا: هذا الكلام منهم يدل علىٰ غاية جهلهم بِما يقوله المسلمون في كتبهم، وتبين أنهم لفرط جهلهم يظنّون أن المسلمين يقولون مقالة لا يخفىٰ فسادها علىٰ من له أدنىٰ عقلٍ ومعرفةٍ، والمسلمون لا يشكّ أحدٌ من الأمم أنهم أعظم

الأمم عقولًا وأفهامًا، وأتَمَّهم معرفةً وبيانًا، وأحسن قصدًا، وديانةً، وتحرِّيًا للصدق والعدل، وأنهم لم يحصل في النوع الإنساني أمةٌ أكمل منهم، ولا ناموسٌ أكمل من الناموس الذي جاء به نبيهم محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وحذاق الفلاسفة معترفون لهم بذلك، وأنه لم يقرع العالم ناموسٌ أكمل من هذا الناموس.

وقد جَمع الله للمسلمين جميع طرق المعارف الإنسانية، وأنواعها؛ فإن الناس نوعان: أهل كتاب، وغير أهل كتاب، كالفلاسفة والهنود.

*****

[بيان الطرق العلمية]

والعلم ينال بالحسّ والعقل، وما يحصل بهما، وبوحي الله إلىٰ أنبيائه، الذي هو خارجٌ عما يشترك فيه الناس من الحسّ والعقل؛ ولهذا قيل: الطرق العلمية: «البصر والنظر والخبر»، «الحسّ والعقل والوحي»، «الحسّ والقياس والنبوة».

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بِما جاءهم من النبوة، مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية والعقلية.

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية، والعقلية ما كان للأمم قبلهم، وامتازوا عنهم بِما لا تعرفه الأمم، وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذبوه لفظًا ومعنًىٰ حتَّىٰ صار أحسن مما كان عندهم، ونفوا عنه من الباطل، وضمُّوا إليه من الحق ما امتازوا به علىٰ من سواهم.

وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله ما لم يعطه أمةً قبلهم، وهذا ظاهرٌ لمن تدبّر القرآن مع تدبّر التوراة والإنجيل، فإنه يجد من فضل علم القرآن ما لا يخفىٰ إلا علىٰ العميان، فكيف يُظَنُّ مع هذا بالمسلمين أن يخفىٰ عليهم فساد هذا الكلام الذي ظنّه بِهم هؤلاء الجهال؟.

ويقال ثانيًا: الجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن المسلمين لم يدَّعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها، وكثرة النسخ بها، ولكن جميعهم متفقون علىٰ وقوع التبديل والتغيير في كثيرٍ من معانيها، وكثيرٍ من أحكامها.

وهذا مما تسلمه النصارىٰ جميعهم في التوراة، والنبوات المتقدمة؛ فإنَّهم يُسَلِّمُونَ أن اليهود بدّلوا كثيرًا من معانيها، وأحكامها، ومما تسلمه النصارىٰ في فِرَقِهم: أن كل فرقة تخالف الأخرىٰ فيما تفسر به الكتب المتقدمة.

ومما تسلّمه اليهود أنهم متفقون علىٰ أن النصارىٰ تُفَسِّر التوراة، والنبوات المتقدمة علىٰ الإنجيل بِما يخالف معانيها، وأنها بدلت أحكام التوراة.

فصار تبديل كثيرٍ من معاني الكتب المتقدمة متفقًا عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارىٰ.

وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاعٌ بين المسلمين، والصواب الذي عليه الجمهور أنه بُدِّلَ بعض ألفاظها، كما ذكر ذلك في مواضعه.

الوجه الثاني: أن قياسهم كتبهم علىٰ القرآن، وأنه كما لا تسمع دعوىٰ التبديل فيه، فكذلك في كتبهم، قياسٌ باطلٌ في معناه ولفظه.

أما معناه: فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعًا ظاهرًا معروفًا عندهم فهو منقولٌ عن الرسول نقلًا متواترًا، بل معلومًا بالاضطرار من دينه؛ فإن الصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ووجوب العدل، والصدق، وتحريم الشرك، والفواحش، والظلم، بل وتحريم الخمر، والميسر، والربا، وغير ذلك منقول عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ نقلًا متواترًا، كنقل ألفاظ القرآن الدالة علىٰ ذلك.

ومن هذا الباب عموم رسالته، وأنه مبعوث إلىٰ جَميع الناس: أهل الكتاب، وغير أهل الكتاب، بل إلىٰ الثقلين: الإنس والجن، وأنه كان يكفّر اليهود والنصارىٰ الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه، كما كان يكفّر غيرهم ممن لم يؤمن

بذلك، وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم.

فالمسلمون عندهم ـ منقولًا عن نبيهم نقلًا متواترًا ـ ثلاثةُ أمور: لفظ القرآن، ومعانيه التِي أجمع المسلمون عليها، والسنة المتواترة، وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن، وأهل الكتاب يقدر الإنسان أن يكتب نسخًا كثيرًا من التوراة والإنجيل، ويغيِّر بعضها، ويعرضها علىٰ كثيرٍ من علمائهم، ولا يعرفون ما غُيِّرَ منها إن لم يعرضوه علىٰ النسخ التِي عندهم، ولهذا لما غُيِّرَ من نسخ التوراة راجَ ذلك علىٰ طوائف منهم، ولم يعلموا التَّغْيير.

وأيضًا فالمسلمون لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين، كما نقل العامة جليله، وليس هذا لأهل الكتاب.

وأيضًا فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبةٌ باثنين وسبعين لسانًا هو أقرب إلىٰ التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة؛ فإن هذا مما يحفظه الخلق الكثير، فلا يقدر أحدٌ أن يغيره، وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا: فإذا قدر أن بعض النسخ الموجودة ببعض الألسنة غُيِّرَ بعض ما فيها لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية، بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرىٰ، فالتغيير فيها ممكنٌ، كما يمكن في نظائر ذلك.

وما ادعوه من تعذر جمع جميع النسخ هو حجة عليهم؛ فإن ذلك إذا كان متعذرًا لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحد، حتَّىٰ يشهد بأنَّها كلها متفقةً لفظًا ومعنًىٰ، بل إمكان التغيير فيها أيسر من إمكان الشهادة باتفاقها.

الوجه الثالث: أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر ـ المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف ـ أن محمدًا كان يقول: إنه كلام الله، لا كلامه، وأنه مبلِّغ له

عن الله، وكان يفرق بَيْنَ القرآن، وبين ما يتكلم به من السنة، وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقًا وعملًا؛ فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلَّم أمته الكتاب والحكمة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

*****

[الأناجيل التي بأيدي النصارى أربعة]

وأما الأناجيل الذي بأيدي النصارىٰ فهي أربعة أناجيل: إنجيل متَّىٰ، ويوحنا، ولوقا، ومرقس، وهم متفقون علىٰ أن لوقا، ومرقس لم يريا المسيح، وإنَّما رآه متَّىٰ، ويوحنَّا، وأن هذه المقالات الأربعة ـ التِي يسمونها الإنجيل، وقد يسمّون كلَّ واحدٍ منها إنجيلًا ــ إنَّما كتبها هؤلاء بعد أن رُفِعَ المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله، ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث، والسير، والمغازي عن النَّبِيِّ ﷺ من أقواله، وأفعاله التِي ليست قرآنًا.

فهذه الأناجيل التِي بأيدي النصارىٰ من هذا الجنس، فيها شيءٌ كثيرٌ من أقوال المسيح، وأفعاله، ومعجزاته، وفيها ما هو غلطٌ عليه بلا شك، والذي كتبها في الأول إذا لم يكن ممن يُتهم بتعمد الكذب، فإن الواحد، والاثنين، والثلاثة، والأربعة لا يَمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم، لا سيما ما سمعه الإنسان ورآه، ثم حدَّث به بعد سنين كثيرةٍ، فإن الغلط في مثل هذا كثيرٌ، ولم يكن هناك أمةٌ معصومةٌ يكون تلقيها لها بالقبول، والتصديق موجبًا للعلم بها؛ لئلا تجتمع الأمة المعصومة علىٰ الخطأ، والحواريّون كلهم اثنا عشر رجلًا.

وقصة الصلب مما وقع فيها الاشتباه، وقد قام الدليل علىٰ أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام بل شبهه، وهم ظنّوا أنه المسيح، والحواريّون لم ير أحدٌ منهم المسيح مصلوبًا، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود، فبعض الناس يقولون: إن أولئك تعمدوا الكذب، وأكثر الناس يقول: اشتبه

عليهم.

والحواريون مصدقون فيما ينقلونه عنه، لا يتهمّون بتعمد الكذب عليه، لكن إذا غلط بعضهم في بعض ما ينقله لم يمنع ذلك أن يكون غيره معلومًا، لا سيما إذا كان الذي غلط فيه مما تبين غلطه فيه في مواضع أُخَر.

وقد اختلف النصارىٰ في عامة ما وقع فيه الغلط حتَّىٰ في الصلب، فمنهم من يقول: المصلوب لم يكن المسيح، بل الشبه، كما يقوله المسلمون، ومنهم من يقرّ بعبوديته لله، وينكر الحلول، والاتحاد، كالأريوسية، ومنهم من ينكر الاتحاد، وإن أقر بالحلول، كالنسطورية.

وأما الشرائع التِي هم عليها: فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالمسيح لم يشرع لهم الصلاة إلىٰ المشرق، ولا صيام الخمسين، ولا جعله في زمن الربيع، ولا عيد الميلاد، والغطاس، وعيد الصليب، وغير ذلك من أعيادهم، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريّين، مثل عيد الصليب، فإنه مما ابتدعته هيلانة الحرانية أم قسطنطين.

وفي زمن قسطنطين غيروا كثيرًا من دين المسيح، والعقائد، والشرائع، فابتدعوا الأمانة التِي هي عقيدة إيمانهم، وهي عقيدةٌ لم ينطق بها شيءٌ من كتب الأنبياء التي هي عندهم، ولا هي منقولةٌ عن أحد الأنبياء، ولا عن أحدٍ من الحواريّين الذين صحبوا المسيح، بل ابتدعها لهم طائفةٌ من أكابرهم، قالوا: كانوا ثلاث مائة وثمانية عشر، واستندوا في ذلك إلىٰ ألفاظٍ متشابهةٍ في الكتب، وفي الكتب ألفاظٌ محكمةٌ تناقض ما ذكروه، كما قد بسط في موضعٍ آخر.

وكذلك عامة شرائعهم التي وضعوها في كتاب القانون، بعضها منقولٌ عن الأنبياء، وبعضها منقولٌ عن الحواريّين، وكثيرٌ منها مما ابتدعوه، ليست منقولةً

عن أحدٍ من الأنبياء، ولا عن الحواريّين، وهم يجوّزون لأكابر أهل العلم والدين أن يغيّروا ما رأوه من الشرائع، ويضعوا شرعًا جديدًا، فلهذا كان أكثر شرعهم مبتدعًا، لم يَنْزِلْ به كتابٌ، ولا شرعه نَبِيٌّ.

وأما قولهم: «كيف يُمكن تغيير كتبنا التِي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، وفي كل لسانٍ منها كذا وكذا ألف مصحف، ومضىٰ عليها إلىٰ مجيء محمدٍ أكثر من ستمائة سنة».

فيقال: أما بعد انتشارها هذا الانتشار فلم يقل المسلمون، بل ولا طائفةٌ معروفةٌ منهم أن ألفاظ جَميع كل نسخة في العالم غُيِّرَت، لكن جُمهور المسلمين ـ الذين يقولون: إن في ألفاظها ما غُيِّرَ ـ إنَّما يدّعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث، لا تغيير جَميع النسخ، فبعض الناس يقول: إن ذلك التغيير وقع في أول الأمر، ويقول بعضهم: إن منها ما غُيِّرَ بعد مبعث محمدٍ ﷺ ولا يقولون: إنه غُيِّرَ كل نسخةٍ في العالم، بل يقولون: غُيِّرَ بعض النسخ دون البعض، وظهر عند كثيرٍ من الناس النسخ المبدّلة دون التي لم تبدّل، والنسخ التي لم تبدّل هي موجودةٌ عند بعض الناس.

ومعلومٌ أن هذا لا يمكن نفيه؛ فإنه لا يمكن أحدًا أن يعلم أن كل نسخة في العالم بكل لسانٍ مطابقٌ لفظها سائر النسخ بسائر الألسنة إلا من أحاط علمًا بذلك، وهم قد سلّموا أن أحدًا لا يمكنه ذلك.

وأما من ذكر أن التغيير وقع في أول الأمر فهم يقولون: إنَّما أخذت الأناجيل عن أربعة، اثنان منهم لم يريا المسيح، بل إنَّما رآه اثنان من نقلة الإنجيل: متَّىٰ ويوحنا، ومعلومٌ إمكان التغيير في ذلك.

وأما قولهم: «إنها مكتوبةٌ باثنين وسبعين لسانًا».

فمعلومٌ باتفاق النصارىٰ أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، كسائر أنبياء بنِي إسرائيل، وأنه كان مختونًا، ختن بعد السابع، كما يُختن بنو إسرائيل، وأنه كان يصلي إلىٰ قبلتهم، لم يكن يصلي إلىٰ الشرق، ولا أمر بالصلاة إلىٰ الشرق.

ومن قال: إن لسانه كان سريانيًّا ـ كما يظنه بعض الناس ـ فهو غالطٌ، فالكلام المنقول عنه في الأناجيل إنَّما تكلم به عِبْرِيًّا، ثم ترجم من تلك اللغة إلىٰ غيرها، والترجَمة يقع فيها الغلط كثيرًا، كما وجدنا في زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلىٰ العربية، ويظهر في الترجَمة من الغلط ما يشهد به الحذّاق الصادقون ممن يعرف اللغتين.

والنصارىٰ يقولون: إنَّما كتبت بأربع لغات: بالعبرية، والرومية، واليونانية، والسريانية.

وأما قولهم: «إنها كتبت باثنين وسبعين لغةً» فهذا إن كان صحيحًا، فإنَّما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة، فإذا كان الغلط وقع في مواضع من تلك الأربعة لم يرفعه بعد ذلك كتابتها باثنين وسبعين لغةً، فإن المسلمين لا يقولون: إنها كتبت باثنين وسبعين لغة غُيِّرَ لفظها في جَميع الألسن الاثنين والسبعين لغة في كل نسخة من ذلك.

وأما التوراة: فمن المعلوم عند المسلمين، واليهود، والنصارىٰ أن بيت المقدس خُرِّبَ الخراب الأول، وخلا أهله منه، وسُبُوا، ولم يكن هناك من التوراة نسخٌ كثيرةٌ ظاهرةٌ، بل إنَّما أخذت عن نفرٍ قليلٍ، كما يقولون: إن عُزَيّرًا أملاها، وأنهم وجدوا نسخةً أخرىٰ، فقابلوها بها، والمقابلة تحصل باثنين، وقد يغلط أحدهما، وهم يذكرون أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبرًا منهم بنقلها، واعتبر بعض تلك النسخ ببعض.

وهذا إذا كان صدقًا لا يمنع أن يكون الغلط وقع في بعض ألفاظها قبل ذلك، إلا أن يثبت أنها مأخوذةٌ عن نَبِيٍّ معصومٍ، أو أقرّ جَميع ألفاظها نَبِيٌّ معصومٌ؛ فما قاله المعصوم فهو حقٌّ، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حقٌّ.

وهؤلاء القائلون: إنه وقع التغيير في بعض ألفاظها في ذلك الزمان، يقولون: لم تؤخذ عن نَبِيٍّ معصومٍ، ولا نُقِلَتْ بالتواتر.

ومن نازع من المسلمين، وأهل الكتاب يقولون: أخذت عن العزير، وهو نَبِيٌّ معصومٌ، وهذا مما يحتاج المثبت فيه، والنافي إلىٰ تحقيقه.

وإذا قالت النصارىٰ: فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أقرَّها.

قيل: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمكن أن يلزمهم بما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وطاعته، فكيف كان يمكنه أن يغيّر نسخ التوراة التِي عندهم مع كثرتها، وهم قد طلبوا قتله وصلبه؛ لعجزه وضعفه، وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون، أو صلبوه نفسه كما يقول النصارىٰ، فكيف كان يمكنه أن يصلح ما غُيِّرَ منها.

وأما من بعد المسيح فليس معصومًا، والمسيح غَيَّرَ بعض أحكامها، وأقرَّ أكثرها، والأحكام إنَّما يدعي المسلمون فيها النسخ، وتبديلها بالاعتقاد بِخلاف موجبها والعمل بذلك، لا يحتاجون إلىٰ دعوىٰ تبديل ألفاظها، كما بدلوا شريعة الرجم بغيرها، وهو مكتوبٌ في التوراة، بِخلاف الخبريات؛ فإنَّ هذه يقول أكثر المسلمين: إن التغيير وقع في بعض ألفاظها.

وأما النبوات المنقولة عن الأربعة وعشرين نبيًّا: فهذه لا تعلم منها نبوةٌ واحدةٌ تواترت جَميع ألفاظها، بل أحسن أحوالها أن تكون بِمنْزلة الإنْجيل، وهو بِمنْزلة ما ينقل من أقوال الأنبياء وسيرهم، كسيرة ابن إسحاق، أو بعض كتب المسانِد والسنن التِي ينقل فيها ما ينقله الناقلون من أقوال النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وأفعاله، وأكثره صدق، وبعضه غلطٌ.

وأما من قال: إنه غُيِّرَ بعض ألفاظها بعد مبعث محمدٍ عليه السلام فهؤلاء يقولون: إنه كان في التوراة، والإنجيل، وغيرهما ألفاظ صريحة بأمور:

منها: اسم محمدٍ عليه السلام وأنه عمد بعض أهل الكتاب، فغيَّروا بعض الألفاظ في النسخ التِي كانت عندهم.

لا يقولون: إن هؤلاء غيَّروا كل نسخة كانت علىٰ وجه الأرض، لكن غيَّروا بعض ألفاظ النسخ، وكتب الناس من تلك النسخ المغيّرة نسخًا كثيرةً انتشرت، فصار أكثر ما يوجد عند كثيرٍ من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيّرة.

وفي العالم نسخٌ أخرىٰ لم تغيَّر، فذكر كثيرٌ من الناس أنه رآها وقرأها، وفي تلك النسخ ما ليس في النسخ الأخرىٰ.

ومما يدّل علىٰ ذلك أنك في هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود، والنصارىٰ، والسامرة، وجدت بينهما اختلافًا في مواضع متعددة، وكذلك نسخ الإنْجيل، وكذلك نسخ الزبور مختلفةٌ اختلافًا متباينًا بِحيث لا يعقل العاقل أن جَميع نسخ التوراة الموجودة متفقةٌ علىٰ لفظٍ واحدٍ، ولا يعلم أن جَميع نسخ الإنْجيل متفقةٌ علىٰ لفظٍ واحدٍ، ولا يعلم أن جَميع نسخ الزبور متفقةٌ علىٰ لفظٍ واحدٍ، فضلًا عن سائر النبوات.

ومعلومٌ أنه لا يُمكن أهل الكتاب إقامة حجةٍ علىٰ أن جَميع النسخ بِجميع اللغات في زوايا الأرض متفقةٌ علىٰ لفظٍ واحدٍ في جَميع ما هو موجودٌ من جَميع النبوات، والحجة التِي احتجّوا بها علىٰ تعذر تغييرها كلِّها تدل علىٰ تعذر العلم بتساويها كلها.

فإذا قالوا: فمن هو الذي تكلم باثنين وسبعين لسانًا؟ ومن هو الذي حكم

علىٰ الدنيا كلها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتَّىٰ حكم علىٰ جَميع من بأقطار الأرض، وجَمعها من أربع زوايا الأرض حتَّىٰ يغيرها؟.

قيل لهم: ومن الذي يعلم اثنين وسبعين لغة؟! ومن هو الذي حكم علىٰ الدنيا: ملوكها، وقساوستها، وعلمائها حتَّىٰ حكم علىٰ جَميع من بأقطار الأرض، وجَمعها من أربع زوايا الأرض، وأحضر كل نسخة موجودة في جَميع الأرض، وقابل كل نسخةٍ موجودةٍ في الأرض بِجميع النسخ، فوجد جَميع ألفاظ جَميع النسخ التِي باثنين وسبعين لسانًا من جَميع أقطار الأرض لفظًا متفقًا لم يختلف ألفاظها؛ فإن دعوىٰ العلم بهذا ممتنع أعظم من امتناع دعوىٰ تغييرها؛ فإنَّه إن أمكن أحدًا أن يجمع جَميع النسخ كانت قدرته علىٰ تغيير بعض ألفاظها كلها أيسر عليه من مقابلة كل ما في نسخة بِجميع ما في سائر النسخ.

فإنا إذا أحضرنا بكتاب من الكتب عشر نسخ، كان تغيير بعض ألفاظ العشرة أيسر علينا من مقابلة كل واحدٍ من العشرة بالتسعة الباقية؛ إذ المقابلة يحتاج فيها إلىٰ معرفة جَميع ألفاظ كل نسخةٍ، ومساواتها للأخرىٰ، وأما التغيير فيكفي فيه أن يغيِّر من كل نسخة ما يغيِّره من الأخرىٰ، فإن كان تغيير جَميع النسخ ممتنعًا في العادة فالعلم باتفاقها أشد امتناعًا، وإن كان العلم باتفاقها ممكنًا فإمكان تغيير بعض ألفاظها أيسر وأيسر.

وأما قولهم: «إن قيل: إنه غيَّر بعضها، وترك بعضها، فهذا لا يُمكن أن يكون؛ لأنها كلها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحدٌ في جَميع الألسن.

*****

[اطلاع ابن تيمية على كتب أهل الكتاب وغيرهم]

فيقال: أما إمكان قول هذا فظاهرٌ، لا ينازع فيه عاقلٌ، وهو واقعٌ، فإنّا قد رأينا التوراة التِي عند السامرة تُخالف توراة اليهود والنصارىٰ حتَّىٰ في العشر الكلمات، فذكر السامرة فيها من أمر استقبال الطور ما لا يوجد في نسخ اليهود والنصارىٰ، وكذلك بين نسخ اليهود والنصارىٰ اختلافٌ معروفٌ، ونسخ الإنْجيل مختلفةٌ، ونسخ الزبور مختلفةٌ اختلافًا أكثر من ذلك.

وبكل حالٍ فلا يقدر عاقلٌ أن يقول: يَمتنع تغيير بعض النسخ، ولكن إذا قالوا: «لم يُغَيَّر شيءٌ منها؛ لأن جَميعها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحدٌ في جَميع الألسن» كانت هذه الدعوىٰ باطلةٌ من وجهين:

أحدهما: أن دعوىٰ العلم بتساوي جَميع النسخ أبلغ من دعوىٰ إمكان تغييرها، فإن كان التغيير ممتنعًا علىٰ جَميعها كان علم الواحد بِما في جَميعها، وأنها متماثلة الألفاظ مع اختلاف الألسن أولىٰ بالامتناع.

الثانِي: أن هذا دعوىٰ خلاف الواقع، فإن الاختلاف في نسخ التوراة، والإنْجيل، والزبور موجودٌ قد رأيناه نَحن بأعيننا، ورآه غيرنا، فرأيت عدة نسخ بالزبور يخالف بعضها بعضًا اختلافًا كثيرًا، ورأينا بعض ألفاظ التوراة التِي ينقلها هذه الطائفة، وهي مكتوبة عندهم يدّعون أنها هي التوراة الصحيحة المنقولة عندهم بالتواتر تخالف بعض ألفاظ توراة الطائفة الأخرىٰ، وكذلك الإنْجيل.

وبالجملة قولهم: «هذا لا يُمكن أن يكون؛ لأنها كلها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحدٌ في جَميع الألسن» تضمن شيئين: تضمن دعوىٰ كاذبةً، وحجةً باطلةً؛ فإن

قولهم: «هذا لا يُمكن» مكابرةٌ ظاهرةٌ، فإن إمكان تغيير بعض النسخ مما لا ينازع عاقلٌ في إمكانه، لكن قد يقول القائل: إذا غُيِّرَ بعض النسخ، وأُظهر ذلك، شاع ذلك، فرأىٰ سائر أهل النسخ تلك النسخة مغايرةً لنسخهم، فأنكروه، فإن الهمم والدواعي متوفرةٌ علىٰ إنكار ذلك، كما يوجد اليوم مثل ذلك لو أراد رجل أن يُغَيِّر كتابًا مشهورًا عند الناس به نسخٌ متعددةٌ، فإذا غيره، فوصلت تلك النسخة إلىٰ من يعرف ما في تلك النسخ أنكروا ذلك.

فيقال: هذا يُمكن إذا كانت تلك النسخة المغيّرة وصلت إلىٰ طائفةٍ يَمتنع عليهم مواطأتهم علىٰ الكذب؛ فإنه كما يَمتنع في الأخبار المتواترة التواطؤ علىٰ الكذب فيمتنع التواطؤ علىٰ كتمان ما يتعذر كتمانه في العادة.

ومعلومٌ أنه لا يَمتنع علىٰ الجماعة القليلة التواطؤ علىٰ تغيير بعض النسخ، والنسخ إنَّما هي موجودةٌ عند علماء أهل الكتاب، وليس عامتهم يحفظ ألفاظها كما يحفظ عوام المسلمين ألفاظ القرآن، فإذا قصد طائفةٌ منهم تغيير نسخة، أو نسخ عندهم أمكن ذلك، ثم إذا تواطأت طائفةٌ أخرىٰ علىٰ أن لا يذكروا ذلك أمكن ذلك، ولكن إذا كانت الطوائف ممن لا يُمكن تواطؤها علىٰ الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم.

وأما حجتهم الداحضة: فقولهم: «إن جَميع كتب النبوات التِي في العالم من التوراة، والإنْجيل، والزبور، والنبوات موجودةٌ باثنين وسبعين لسانًا بلفظٍ واحدٍ، وقول واحدٍ».

فهل يقول عاقل من العقلاء: أنه علم ذلك، وأنه علم أن كل نسخة من النبوات الأربعة وعشرين بأحد الألسنة الاثنين وسبعين موافقةٌ لكل نسخة في سائر الألسنة، ولو ادعىٰ مُدَّعٍ أن كل نسخة من التوراة في العالم باللسان العربي، أو كل نسخة من الإنجيل في العالم باللسان العربي، أو كل نسخة في العالم من

الزبور باللسان العربي موافقةٌ لجميع النسخ العربية الموجودة في زوايا العالم، لكان قد ادعىٰ ما لا يعلمه، ولا يُمكنه علمه، فمن أين له ذلك؟ وهل رأىٰ كل نسخة عربية بهذه الكتب، أو أخبره من يعلم صدقه أن جَميع النسخ العربية الموجودة في العالم موافقةٌ لهذه النسخة؟.

وكذلك إذا ادعىٰ ذلك في اللسان اليوناني، والسرياني، والرومي، والعبراني، والهندي، فإن كان في العالم بكل كتابٍ من هذه اثنان وسبعون لسانًا، فدعوىٰ اتفاق نسخ كل لسان من جنس دعوىٰ اتفاق النسخ العربية، فكيف إذا ادعىٰ اتفاق النسخ بِجميع الألسنة.

وهب أنه يُمكن أن يقال ذلك في نسخ لسان نقلها أهله، والناطقون به، فكيف يُمكن دعواه في لسان كثر الناطقون به، وانتشر أهله.

بِخلاف الكتب المتقدمة؛ فإنه قلَّ أن نَجد من أهل الكتاب أحدًا يحفظ كتابًا من هذه الكتب، فقلَّ أن يوجد من اليهود من يحفظ التوراة، وأما النصارىٰ فلا يوجد فيهم من يحفظ التوراة، والإنْجيل، والزبور، والنبوات كلها، فضلًا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لسانًا، وإن وجد ذلك فهو قليلٌ، لا يَمتنع عليهم لا الكذب، ولا الغلط.

فتبين أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوىٰ الأمور في عدم العلم بتماثل ما فيها من الألفاظ، وأن القرآن إذا كان منقولًا بلغةٍ واحدةٍ، وذلك اللسان يحفظه خلقٌ كثيرٌ من المسلمين، فكان ذلك مما يُبَيِّنُ أن القرآن لا يُمكن أحدًا أن يُغَيِّرَ شيئًا من ألفاظه، وإن أمكن تغيير بعض ألفاظ التوراة، والإنْجيل عند كثيرٍ من أهل الكتاب.

والمسلمون لا يدَّعون أنه غُيِّرَ جَميع ألفاظ جَميع النسخ بعد مبعث النَّبِيِّ ﷺ كما ظنّه بهم هؤلاء الجهال، بل إنَّما ادّعوا ما يسوغه العقل، بل ويظهر دليل صدقه، ولكن هؤلاء الجهال ادّعوا العلم بأن جَميع النسخ بِجميع الألسنة بِجميع الكتب بلفظٍ واحدٍ، فادّعوا ما لا يُمكن أحدًا علمه، وادّعوا ما يعلم بطلانه.

*****

فصل

وقد ظهر الجواب عن قولهم: «فمن هو الذي تكلم باثنين وسبعن لسانا؟ أو من هو الذي حكم علىٰ الدنيا جَميعها: ملوكها، وقساوستها، وعلمائها حتَّىٰ حكم علىٰ الدنيا جَميعها من أربع زوايا العالم حتَّىٰ غَيَّرَها؟ وإن كان مما أمكنه جَمعها كلها، أو بعضها، فهذا ما لا يُمكن؛ إذ جَميعه قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحدٌ، واعتقادٌ واحدٌ» اهـ.

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوهٍ:

أحدها: أنَّا لم نَدَّعِ تغييرها بعد صارت بهذه الألسن، وانتشرت بها النسخ، بل لا ندّعي التغيير بعد انتشار النسخ، فيما ليس من كتب الأنبياء مثل كتب النحو، والطب، والحساب، والأحاديث، والسنن المنقولة عن الأنبياء، مما نقل في الأصل نقل آحاد، ثم صارت النسخ به كثيرةٌ منتشرةٌ، فإنَّ أحدًا لا يدّعي أنه بعد انتشار النسخ بكتاب في مشارق الأرض ومغاربها حكم إنسانٌ علىٰ جَميع المعمورة، وجَمع النسخ التِي بها وغَيَّرَها.

ولا ادّعىٰ أحدٌ مثل ذلك في التوراة والإنْجيل، وإنَّما ادُّعِيَ ذلك فيها لما كانت النسخ قليلةً؛ إما نسخةً، وإما اثنتين، وإما أربع، ونَحو ذلك، أو ادُّعِيَ تغيير بعض ألفاظ النسخ؛ فإن بعض النسخ يُمكن تغييرها، ونسخ التوراة، والإنْجيل، والزبور موجودةٌ اليوم، وفي بعضها اختلافٌ، لكنه اختلافٌ قليلٌ، والغالب عليها الاتفاق.

وذلك يظهر بالوجه الثانِي: إن قولهم: «إن جَميعها قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحدٌ، واعتقادٌ واحدٌ».

ليس كما قالوه، بل نسخ التوراة مختلفةٌ في مواضع، وبين توراة اليهود، والنصارىٰ، والسامرة اختلافٌ، وبين نسخ الزبور اختلافٌ أكثر من ذلك، وكذلك بين الأناجيل، فكيف بنسخ النبوات.

وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريحٌ بنبوة محمدٍ ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرىٰ بالزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذ... فلا يَمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النَّبِيِّ ﷺ ما ليس في أخرىٰ.

الوجه الثالث: أن التبديل في التفسير أمرٌ لا ريب فيه، وبه يحصل المقصود في هذا المقام، فإنَّا نعلم قطعًا أن ذكر محمدٍ ﷺ مكتوبٌ فيما كان موجودًا في زمنه من التوراة، والإنْجيل، كما قال تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولا ريب أن نسخ التوراة والإنجيل علىٰ عهده كانت كثيرةً منتشرةً في مشارق الأرض ومغاربها، فلا بُدَّ من أحد الأمرين: إما أن يكون غُيِّرَ اللفظ من بعض النسخ، وانتشرت النسخ المغيرة.

وإما أن يكون ذكره في جَميع النسخ، كما استخرجه كثيرٌ من العلماء ممن كان من أحبار اليهود والنصارىٰ، وممن لم يكن من أحبارهم، استخرجوا ذكره، والبشارة به في مواضع كثيرةٍ متعددةٍ من التوراة، والإنْجيل، ونبوات الأنبياء، كما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر.

ومن قال: إن ذكره موجودٌ فيها أكثر من هذا، وأصرح في بعض النسخ، لا يُمكن هؤلاء دفعه بأن يقولوا: قد اطلعنا علىٰ كل نسخةٍ في العالم بالتوراة، والإنْجيل في مشارق الأرض ومغاربها، فوجدناها علىٰ لفظٍ واحدٍ؛ فإن هذا لا يقوله إلا كذابٌ، فإنه لا يُمكن بشرًا أن يطلع علىٰ كل نسخةٍ في مشارق الأرض

ومغاربها، كما لا يُمكنه أن يُغَيِّرَ كل نسخةٍ في مشارق الأرض ومغاربها، فلو لم يعلم اختلاف النسخ لم يُمكنه الجزم باتفاقها في اللفظ، فكيف وقد ذكر الناس المطلعون عليها من اختلاف لفظها ما تَبَيَّنَ به كذب من ادعىٰ اتفاق لفظها، وكيف يُمكن اتفاق لفظها وهي بلغاتٍ مختلفةٍ؟.

ثم قالوا: «فأما الذين ظلموا فما يشكّ أحدٌ في أنهم اليهود، الذين سجدوا لرأس العجل، وكفروا بالله مرارًا كثيرةً، ليست واحدةً، وقتلوا أنبياءه ورسله، وعبدوا الأصنام، وذبَحوا للشياطين، ليس حيوانات غير ناطقة فقط، بل بنيهم وبناتهم حسب ما شهد الله عليهم قائلًا علىٰ لسان داود النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب الزبور في مزمور مائة وخمسة يقول: «ذبَحوا بنيهم وبناتهم للشياطين، وأراقوا دمًا زكيًّا، دم بنيهم وبناتِهم الذين ذبَحوا للمنحوتات بكنعان، وقد تنجست الأرض بالدماء، وتنجست أعمالهم، وزنوا بضغائنهم، وسخط الرب عليهم، ورذل ميراثهم» (١).

وقال أيضًا علىٰ لسان أشعيا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الله في بني إسرائيل: «لم يسمعوا وصاياي، لم يحفظوا كل ما أوصيتهم به، بل غَيَّروا، ونقضوا الميثاق الذي كنت جعلته لهم إلىٰ الأبد، فلذلك أجلستهم عليهم الحزن، وأهلكتهم، وانقطع ممن يبقىٰ منهم الفرح والسرور».

هكذا قال الله علىٰ سكان بيت المقدس من بني إسرائيل: «سأبددهم بين الأمم، وفي تلك الأيام يرفعون الأمم أصواتهم، ويسبحون الله، ويَمجدونه بأصواتٍ عالية، ويجتمعون من أقطار الأرض، ومن جزائر البحر، ومن البلدان البعيدة، ويقدسون اسم الله، ويرجعون إلىٰ الله إله إسرائيل، ويكونون شعبه،

(١) انظر المزامير ١٠٦: ٣٦-٣٩.

وأما بنو إسرائيل فيكونون مبددين في الأرض».

وقال أشعيا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الله: «يا بنِي إسرائيل نَجَّستم جبلي المقدس، فإني سأفنيكم بالحرب، وتموتون، وذلك لأني دعوتكم فلم تجيبوا، وكلمتكم فلم تسمعوا، وعملتم الشيء بين يدي» (١).

وقال أشعيا أيضًا: «إن الله قد بغض بني إسرائيل، وأخرجهم من بيوتهم، ومن بيته، ولا يغفر لهم؛ لأنهم لعنة، وجعلوا لعنة الناس، فلذلك أهلكهم الله، وبددهم بين الأمم، ولا يعود يرحمهم، ولا ينظر إليهم برحمة إلىٰ أبد الآبدين، ولا يقربوا لله قربانًا، ولا ذبيحةً في ذلك اليوم، وذلك الزمان، ولا يفرح بنو إسرائيل؛ لأنهم قد ضلّوا عن الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال أرميا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «كما أن الحبشي لا يستطيع أن يكون أبيضًا، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركون عادتهم الخبيثة، ولذلك إني لا أرحم، ولا أشفق، ولا أرقّ علىٰ الأمة الخبيثة، ولا أرثي لها».

وقال حزقيل النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال الله: إنَّما رفعت يدي عن بنِي إسرائيل، وبددتهم بين الأمم؛ لأنهم لم يعملوا بوصاياي، ولم يطيعوا أمري، وخالفوني فيها فيما قلت لهم، ولم يسمعوا لي».

ومثل هذا القول في التوراة، وكتب الأنبياء، وزبور داود شيءٌ كثيرٌ، يقرونها اليهود في كنائسهم، ويقرؤونها، ولا ينكرون منها حرفًا واحدًا، ومثل ما هو عندهم، وكذلك عندنا في جَميع الألسن» اهـ.

والْجواب أن يقال: أما كون اليهود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقابه، فهذا معلومٌ بالاضطرار من دين محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ منقولٌ

(١) انظر: سفر أشعيا (٦٥: ١١-١٢).

بالتواتر، كما عُلِمَ بالاضطرار والنقل المتواتر عنه أن النصارىٰ أيضًا ظالمون معتدون كافرون مستحقون لعذاب الله وعقابه، وفي اليهود من الكفر ما ليس في النصارىٰ، وفي النصارىٰ ما ليس في اليهود، فإن اليهود بدّلوا شريعة التوراة قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم، فلما أتاهم كفروا به، وكذبوه، فلما بعث محمدٌ عليه السلام كذبوه، فباءوا بغضبٍ علىٰ غضبٍ، فغضب عليهم أولًا بتكذيب المسيح، وثانيًا بتكذيب محمدٍ عليه السلام.

فتبين أن اليهود لعنهم الله، وأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه جعل منهم القردة والخنازير، ومثل هذا في القرآن كثيرٌ، لكن قول القائل: إنهم المرادون بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦ غلطٌ بَيِّنٌ، ولهذا كان باطلًا باتفاق المسلمين؛ فإن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ نهي عن مجادلة أهل الكتاب: من اليهود والنصارىٰ إلا بالتي هي أحسن، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من الطائفتين جَميعًا.

ولهذا كان الواجب علىٰ المسلمين إذا جادلهم اليهودي والنصراني أن يجادلوه بالتي هي أحسن، إلا من ظلم من الطائفتين، فإنه يعاقب باللسان تارةً، وباليد أخرىٰ، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء، فجاهد النَّبِيُّ عليه السلام اليهود الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها، وقريبًا منها، كما جاهد بنِي قينقاع، والنضير، وقريظة، وأهل خيبر، وأهل وادي القرىٰ، وغيرهم.

وكما جاهد النصارىٰ عام تبوك، غزاهم بالشام: عربهم ورومهم، وأغزاهم قبل ذلك نوابه: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وأمرهم بغزوهم، فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون.

والنَّبِيُّ لما قدم وفد نَجران النصارىٰ جادلهم في مسجده بالتي هي أحسن، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، فامتنعوا عن مباهلته، وأقروا بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، كما تقدم ذلك مفصلًا، فجادل بعضهم بالتي هي أحسن، والظالم منهم عاقبه وجاهده، كما عاقب الظالم من اليهود.

وتفاسير النصارىٰ للكتب الإلهية فيها من التحريف لكتاب الله، والإلحاد في أسماء الله وآياته ما يطول وصفه، ولا ينقضي التعجب منه، لكن إقدامهم علىٰ تفسير القرآن بالإلحاد، والتحريف أعجب وأعجب، كقولهم: إن محمدًا ذكر أنه لم يرسل إليهم، وأنه أثنَىٰ علىٰ الدين الذي هم عليه بعد النسخ والتبديل بعد مبعثه عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة] أراد به النصارىٰ.

وقوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا ﴾ [الحديد: ٢٥] أراد به الحواريِّين.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢١٣] أراد به الإنجيل.

فإنَّ في هذا من الكذب الظاهر، والافتراء علىٰ محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أراد هذه الأمور ما هو من جنس افترائهم علىٰ الأنبياء، فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، وأن التوراة والزبور وغيرهما من الكتب أخبرت بذلك، ثم يأتون إلىٰ ما يعلم كل عاقلٍ أن محمدًا لم يرده، فيقولون: إنه لا يشكّ فيه أحدٌ، وأنه قول ظاهرٌ بَيِّنٌ، وكل من عرف حال محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما جاء به من القرآن والدين يعلم علمًا يقينيًّا ضروريًّا أن محمدًا لم يكن يجعل النصارىٰ مؤمنين دون اليهود، بل كان يكفّر الطائفتين، ويأمر بِجهادهم، ويكفّر من لم ير جهادهم واجبًا عليه.

وهذا مما اتفق عليه المسلمون، وهو منقولٌ عندهم عن نبيّهم نقلًا متواترًا،

بل هذا يعلمه مَنْ حاله الموافق والمخالف، إلا مَنْ هو مفرطٌ في الجهل بِحاله، أو مَنْ هو معاندٌ عنادًا ظاهرًا.

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدلّ علىٰ كفر اليهود، فهذا لا ننازعهم فيه، ولا حاجة بنا إلىٰ الاستدلال بِما نقلوه، وإن كان فيما يثبت عن الأنبياء ما يبين كفرهم لما بدّلوا دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما كفر النصارىٰ لما بدّلوا دين المسيح، فهذا حقٌّ موافقٌ لما أخبر به خاتم الرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنا قد علمنا كفرهم من جهة لا نشك في صدقها.

وأما قولهم: «وأما نَحن النصارىٰ فلم نعمل شيئًا مما عملته اليهود».

فيقال لهم: الكفر، والفسوق، والعصيان، لم ينحصر في ذنوب اليهود، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم، فلكم من الأقوال، والأعمال ما بعضه أعظم من كفر اليهود، وإن كنتم أنتم ألين من اليهود، وأقرب مودة، فأنتم أيضًا أجهل، وأضلّ من اليهود.

ومن تدبر حال اليهود والنصارىٰ مع المسلمين، وجد اليهود والنصارىٰ متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرفٍ يقابله، والمسلمون هم الوسط، وذلك في التوحيد، والأنبياء، والشرائع، والحلال والحرام، والأخلاق، وغير ذلك.

فاليهود يُشَبِّهُونَ الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الربّ سبحانه عنها، كقول من قال منهم: إنه فقير، وإنه بَخيل، وإنه تعب لما خلق السماوات والأرض.

والنصارىٰ يُشَبِّهُونَ المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل، كقولهم: إن المسيح هو الله، وابن الله.

وكل من القولين يستلزم الآخر.

والنصارىٰ أيضًا يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ويسبّون الله سبًّا ما سبّه إياه أحدٌ من البشر، كما كان معاذ بن جبل يقول: «لا ترحَموهم؛ فإنهم قد سبّوا الله سبّةً ما سبّه إياها أحدٌ من البشر»(١).

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما شرعه، كما يمتنع ما لا يدخل في القدرة، أو ينافي العلم والحكمة.

والنصارىٰ يجوِّزُونَ لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله الذي بعث به رسله، فيحلّلوا ما حرّم، كما حلّلوا الخنْزير، وغيره من الخبائث، بل لم يحرّموا شيئًا، ويحرّمون ما حلّل، كما يحرّمون في رهبانيتهم التي ابتدعوها، وحرّموا فيها من الطيبات ما أحلّه الله، ويسقطون ما أوجب، كما أسقطوا الختان وغيره، وأسقطوا أنواع الطهارة من الغسل، وإزالة النجاسة، وغير ذلك، ويوجبون ما أسقط، كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبياؤه.

والمسلمون وصفوا الربّ بِما يستحقه من صفات الكمال، ونزّهوه عن النقص، وأن يكون له مثل، فوصفوه بِما وصف به نفسه، وبِما وصفته به رسله، من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تَمثيلٍ، مع علمهم أنه ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وقالوا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، بل الدين كله له، هو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولا طاعة لأحدٍ إلا طاعته، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه، وليس لغيره أن ينسخ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٣٦٦ (٢٨٨٣)، والطبراني في مسند الشاميين ٢/ ١٢٧ (١٠٤١) بلفظ مقارب.

شرعه.

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات، وتحريم الطيبات.

والنصارىٰ استحلوا الخبائث، وملابسة النجاسات.

والمسلمون أحلّ الله لهم الطيبات خلافًا لليهود، وحرم عليهم الخبائث خلافًا للنصارىٰ.

واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم، مع خبث قلوبهم.

والنصارىٰ يدّعون أنهم يطهّرون قلوبهم، مع نَجاسة أبدانهم.

والمسلمون يطهّرون أبدانهم وقلوبهم جَميعًا.

والنصارىٰ لهم عباداتٌ، وأخلاقٌ بلا علمٍ، ومعرفةٍ، ولا ذكاءٍ.

واليهود لهم ذكاءٌ، وعلمٌ، ومعرفةٌ، بلا عباداتٍ، ولا أخلاقٍ حسنةٍ.

والمسلمون جَمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح، بين الزكا والذكاء، فإن الله أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق، فالهدىٰ يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح؛ ليظهره علىٰ الدين كله، والظهور يكون بالعلم واللسان؛ ليبين أنه حقٌّ وهدىٰ، ويكون باليد والسلاح؛ ليكون منصورًا مؤيدًا، والله أظهره هذا الظهور، فهم أهل الصراط المستقيم، صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذين يعرفون الحق، ولا يعملون به، كاليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين يعملون ويعبدون ويزهدون بلا علم كالنصارىٰ.

واليهود قتلوا النبيين، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

والنصارىٰ اتَّـخذوا أحبارهم، ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم.

والمسلمون اعتدلوا، فآمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولم يفرقوا بين أحدٍ من رسله، وآمنوا بِجميع النبيين، وبكل كتابٍ أنزله الله، فلم يكذبوا الأنبياء، ولا سبّوهم، ولا غَلَوا فيهم، ولا عبدوهم، وكذلك أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقّهم، ولا غَلَوا فيهم.

اليهود يغضبون لأنفسهم، وينتقمون.

والنصارىٰ لا يغضبون لربهم، ولا ينتقمون.

والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيّهم يغضبون لربهم، ويعفون عن حظوظهم، كما في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ عليه السلام بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَانْتَقَمَ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ للهِ» (١).

ثم قالوا: «وكذلك جاء في هذا الكتاب يقول: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة:٨٢].

فذكر القسيسين والرهبان لئلا يقال: إن هذا قيل عن غيرنا، ودلّ بهذا علىٰ أفعالنا وحسن نياتنا، ونفىٰ عنَّا اسم الشرك بقوله: اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا، والذين قالوا: إنا نصارىٰ أقربهم مودةً».

(١) انظر أحمد ٦/ ٣١، ومسلم ٤/ ١٨١٤برقم (٢٣٢٨)، والبخاري برقم (٦٨٥٣).

والجواب أن يقال: تمام الكلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥].

فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد عليه السلام الذين قال فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة، فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهم الشهداء الذين قال فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ **قال:** «مع محمدٍ عليه السلام وأمته».

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين، كما قال الحواريون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٧-

٧٨].

وأما قوله في أول الآية: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة:٨٢].

فهو كما أخبر سبحانه وتعالىٰ؛ فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارىٰ، والنصارىٰ أقرب مودةً لهم، وهذا معروفٌ من أخلاق اليهود؛ فإن اليهود فيهم من البغض، والحسد، والعداوة ما ليس في النصارىٰ، وفي النصارىٰ من الرحمة، والمودة ما ليس في اليهود، والعداوة أصلها البغض، فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم، فكيف ببغضهم للمؤمنين،

وأما النصارىٰ فليس في الدين الذي يدينون به عداوةٌ، ولا بغضٌ لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فسادًا، فكيف بعداوتهم، وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم، المؤمنين بِجميع الكتب والرسل.

وليس في هذا مدحٌ للنصارىٰ بالإيمان بالله، ولا وَعْدٌ لهم بالنجاة من العذاب، واستحقاق الثواب، وإنَّما فيه أنهم أقرب مودةً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢ أي بسبب هؤلاء، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيرًا من المشركين، وأقرب مودةً من اليهود والمشركين، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان، ووعدهم بثواب الآخرة، والضمير وإن عاد

إلىٰ المتقدمين فالمراد جنس المتقدمين، لا كل واحدٍ منهم،

قالوا: «وقال في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٦٢].

فساوىٰ بهذا القول بين سائر الناس: اليهود، والمسلمين، وغيرهم».

والْجواب أن يقال:

أولًا: لا حجة لكم في هذه الآية علىٰ مطلوبكم، فإنه يسوي بينكم وبين اليهود والصابئين، وأنتم مع المسلمين متفقون علىٰ أن اليهود كفارٌ من حين بعث المسيح إليهم فكذبوه، وكذلك الصابئون من حين بعث إليهم رسول فكذبوه، فهم كفار.

فإن كان في الآية مدحٌ لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث مُحمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ففيها مدح دين اليهود أيضًا، وهذا باطلٌ عندكم، وعند المسلمين.

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل، فليس فيها مدحٌ لدين النصارىٰ بعد النسخ والتبديل.

وكذلك يقال لليهودي إن احتج بها علىٰ صحة دينه: وأيضًا فإن النصارىٰ يكفرون اليهود، فإن كان دينهم حقًّا لزم كفر اليهود، وإن كان باطلًا لزم بطلان دينهم، فلا بدّ من بطلان أحد الدينين، فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما، وقد سوت بينهما.

فعلم أنها لم تمدح واحدًا منهما بعد النسخ والتبديل، وإنما معنَىٰ الآية: أن المؤمنين بِمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين هادوا الذين اتبعوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم الذين

كانوا علىٰ شرعه قبل النسخ والتبديل، والنصارىٰ الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا علىٰ شريعته قبل النسخ والتبديل، والصابئين وهم الصابئون الحنفاء، كالذين كانوا من العرب، وغيرهم علىٰ دين إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق قبل التبديل والنسخ.

فإن العرب ـ من ولد إسماعيل، وغيره ـ الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، كانوا حنفاء علىٰ ملة إبراهيم إلىٰ أن غَيَّرَ دينه بعض ولاة خزاعة، وهو عمرو بن لحي، وهو أول من غيّر دين إبراهيم بالشرك، وتحريم ما لم يحرمه الله، ولهذا قال النَّبِيُّ عليه السلام : «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قَصَبَهُ - أَيْ أَمْعَاءَهُ - فِي النَّارِ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ بَحَّرَ الْبَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ**» (١).

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسىٰ متمسكين بدين إبراهيم، كانوا من السعداء المحمودين، فهؤلاء الذين كانوا علىٰ دين موسىٰ، والمسيح، وإبراهيم، ونَحوهم هم الذين مدحهم الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٦٢].

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله، ولا باليوم الآخر، وعمل صالحا، كما قال تعالىٰ: ﴿ **قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٢١)، ومسلم برقم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد تقدم أنه كفر أهل الكتاب الذين بدّلوا دين موسىٰ، والمسيح، وكذبوا بالمسيح، أو بِمحمدٍ ﷺ في غير موضع، وتلك آياتٌ صريحةٌ، ونصوصٌ كثيرةٌ، وهذا متواترٌ معلومٌ بالاضطرار من دين محمدٍ ﷺ ولكن هؤلاء النصارىٰ سلكوا في القرآن ما سلكوه في التوراة والإنْجيل، يَدَعُونَ النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التي لا تحتمل إلا معنًىٰ واحدًا، ويتمسكون بالمتشابه المحتمل، وإن كان فيه ما يدل علىٰ خلاف مرادهم، كما قال تعالىٰ فيهم، وفي أمثالهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالوا: «ثم مدح قرابيننا، وتوعدنا إن أهْملنا ما معنا، وكفرنا بِما أنزل إلينا أن يعذبنا عذابًا أليما، لم يعذبه أحدًا من العالمين بقوله ذلك في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

فالمائدة هي القربان المقدس الذي يتقرب به في كل قُدّاس».

والْجواب أن يقال: هذا كذبٌ ظاهرٌ علىٰ القرآن في هذا الموضع، كما كذبتم عليه في غير هذا الموضع، فإنه ليس في الآيات ذكر قرابينكم البتة، وإنَّما فيه ذكر

المائدة التي أنزلها الله تعالىٰ في عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقولهم: «المائدة هي القربان الذي يتقرب به في كل قداس».

هو أولًا: قولٌ لا دليل عليه.

وثانيًا: هو قولٌ معلوم الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظه ومعناه، فإنهم متفقون علىٰ أن المائدة مائدةٌ أنزلها الله من السماء علىٰ عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصتها مشهورةٌ في عامة الكتب، تعرفها العامة والخاصة، ولم يقل أحدٌ: إنها قرابين النصارىٰ، وليس في لفظ الآية ما يدل علىٰ ذلك، بل يدل علىٰ خلاف ذلك، فإن الآية تبين أن المائدة مُنَزَّلَةٌ من السماء، وقرابينهم هي عندهم في الأرض، لم تَنْزِل من السماء.

قالوا: «ولما تقدم به القول؛ لأنه غير لائقٍ عند ذوي الألباب أن نهمل روح القدس، وكلمة الله الذي شهد لهما في هذا الكتاب بالعظائم، فقال عن كلمة الله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]».

والْجواب: إن الله تعالىٰ لم يبعث محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بإهْمال ما يجب من حقّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بل أمره بالإيمان بالمسيح، وبِما جاء به، كما أمره بالإيمان بِموسىٰ، وبِما جاء به، وكما أمر المسيح بالإيمان بِموسىٰ، وبِما جاء به، ولكنه أمر بإهْمال ما ابتدع من الدين الذي لم يشرعه الله علىٰ لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وما نسخه الله من شرعه علىٰ لسان محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهمل المبدل والمنسوخ، كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين الذي لم يشرعه، وما نسخه من شرع موسىٰ.

فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التي جاء بها موسىٰ

عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يكن في ذلك إهْمال لما يجب من حقّ التوراة، وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فكذلك إذا أهْمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل، لم يكن في ذلك إهْمالٌ لما يجب من حقّ الإنجيل والمسيح، بل ما جاء به محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يتضمن الإيمان بِجميع الكتب والرسل، وأن لا نفرّق بين أحدٍ منهم، ونَحن له مسلمون،

والنصارىٰ كاليهود، آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، فأيُّما هو اللائق عند أولي الألباب أن نؤمن بِجميع كتب الله ورسله، أو نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ، وأيُّما هو اللائق عند أولي الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، ونعبده بِما شرعه علىٰ لسان رسوله، أو نبتدع من الشرك، والعبادات المبتدعة ما لم يُنْزِل به الله كتابًا، ولا بعث به رسولًا، ونضاهي المشركين عباد الأوثان.

فالمسلمون لم يهملوا روح القدس، وكلمة الله، وقد قال تعالىٰ عن كلمة الله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩].

بل هم الذين اتبعوا دينه، ودين الرسل قبله؛ فإن دين الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَميعهم واحدٌ، كما ثبت في «الصحيحين» عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه **قال**: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**».

فدين المرسلين كلهم دينٌ واحدٌ، ويتنوع شرعهم، ومناهجهم، كتنوع شريعة الرسول الواحد، فإن دين المسيح هو دين موسىٰ، وهو دين الخليل قبلهما، ودين محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدهُما، مع أن المسيح كان علىٰ شريعة التوراة، ثم نسخ الله علىٰ لسانه ما نسخ منها، وهو قبل النسخ وبعده دينه دين موسىٰ، ولم يهمل دين موسىٰ، كذلك المسلمون هم علىٰ دين المسيح، وموسىٰ، وإبراهيم، وسائر الرسل، وهم الذين اتبعوا المسيح، ولهذا جعلهم الله فوق

النصارىٰ إلىٰ يوم القيامة.

والنصارىٰ الذين بدّلوا دين المسيح، وكذبوا محمدًا عليه السلام بريئون من دين المسيح، والمسيح بريءٌ منهم، كبراءة موسىٰ ممن بدّل وغيّر دينه، وكذّب المسيح.

والمسلمون أشد تعظيمًا للمسيح عليه السلام واتباعًا له بالحق ممن بدّل دينه، وخالفه من النصارىٰ؛ فإن المسلمين يصدقونه في كل ما أخبر به عن نفسه، ولا يحرّفون ما قاله عن مواضعه، ولا يفسرون كلامه بغير مراده، وكلام غيره من الأنبياء، كما فعلت النصارىٰ.

فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال: «عمّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس» (١).

وهذا إذا قاله المسيح فإنه يُفَسَّر بلغته، وعادته في خطابه، وعادة سائر الأنبياء، وليس في كلام المسيح، ولا في كلام سائر الأنبياء، ولا كلام غيرهم: أن كلمة الله القائمة بذاته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ تسمىٰ ابنًا، ولا روح قدس، ولا تسمىٰ صفته القديْمة ابنًا، ولا روح قدس، ولا يوجد قطّ في كلام الأنبياء اسم الابن واقعًا إلا علىٰ مخلوقٍ.

والمراد في تلك اللغة أنه مصطفًىٰ محبوبٌ لله، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل: «أنت ابني بكري» (٢).

ولداود: «أنت ابني وحبيبي» (٣).

---

(١) إنجيل متىٰ ٢٨: ١٩.

(٢) سفر الخروج ٤: ٤.

(٣) المزامير ٢: ٧.

وأن المسيح قال للحواريِّين: «أبي وأبيكم» (١).

فجعله أبًا للجميع، وهم كلهم مخلوقون، فيكون اسم الابن واقعًا علىٰ المسيح الذي هو ناسوتٌ مخلوقٌ، فعمد هؤلاء الضلال فجعلوا اسم الابن واقعًا علىٰ اللاهوت قديْم أزلي مولودٌ غير مخلوق.

وزعموا أن الابن يراد به الابن بالوضع، وهو المخلوق، وهو الابن بالطبع، وهو القديْم الأزلي المولود غير المخلوق، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه، ولا يوجد قطّ في كلام المسيح، ولا غيره أنه سَمَّىٰ القديْم الأزلي ابنًا، ولا جعل له ابنًا قديْمًا مولودًا غير مخلوقٍ، ولا سَمَّىٰ شيئًا من صفات الله قط ابنًا.

وكذلك لفظ «روح القدس» موجودٌ في غير موضعٍ من كلام الأنبياء عليهم السلام لا يراد بهذا قط حياة الله، ولا صفةً قائمةً به، وإنَّما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء، ويجعله في قلوبهم من هداه، ونوره، ووحيه، وتأييده، ومن ما ينْزل بذلك من الملائكة، وهذا الذي تسميه الأنبياء «روح القدس» لم يختصّ به المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل قد أنزله علىٰ غيره من الأنبياء والصالحين، كما هو موجودٌ في كتبهم: إن روح القدس كانت في داود وغيره، وكانت أيضًا عندهم في الحواريِّين.

وهكذا خاتم الرسل عليه السلام كان يقول لحسان بن ثابت: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُدَافِعُ عَنْ نَبِيِّهِ**»، وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**».

فروح القدس لا اختصاص للمسيح عليه السلام بها، بل ما يفسر به اسم الابن، واسم روح القدس، وغير ذلك مما وصف به المسيح، فهو مشتركٌ بينه وبين غيره من الرسل، وإذا فسروا الحلول بظهور نور الله، وعلمه، وهداه في الأنبياء،

---

(١) إنجيل يوحنا: ٢٠: ١٧.

فهذا حقٌّ، وهو مشتركٌ بين المسيح وغيره، فأما نفس ذات الله فلم تحلّ في أحدٍ من البشر.

والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبد الله ورسوله يقولون: إنه مؤيدٌ منصورٌ، عصمه الله من أعدائه، وطهّره منهم، ولم يسلطهم عليه.

والنصارىٰ يدّعون أن اسم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم اللاهوت والناسوت، وأنه إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تامٌّ، وهذا يَمتنع شرعًا وعقلًا، ثم يصفونه بالصفات المتناقضة، يصفونه بأن طائفةً من أشرار اليهود وضعوا الشوك علىٰ رأسه، وبصقوا في وجهه، وأهانوه، وصلبوه، وفعلوا به ما لا يُفعل بأخسّ الناس، ويقولون مع هذا: إنَّه ربّ السماوات والأرض وما بينهما.

قالوا: «ثم شهد لقرابيننا، وذبائحنا أنها مقدسةٌ مقبولةٌ لدىٰ الله، من كتب اليهود التي في أيديهم يومنا هذا المُنَزَلة من الله علىٰ أفواه الأنبياء المرسلين.

قال أشعيا: «قال الله: إني أعرف بني إسرائيل، وقلوبهم القاسية الخبيثة، فإذا أنا ظهرت إلىٰ الأمم، فنظروا إلىٰ كرامتي أقيم منها أنبياء، وأبعث منهم مخلصين، يخلّصون الأمم من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعي، ولم يعرفوا قرابين الله علىٰ الدواب، والمراكب إلىٰ جبل قدسي: بيت المقدس، فيقربون لي القرابين بالسميد كما كان بنو إسرائيل من قبل، وكذلك باقي الأمم، وتقرب القرابين بين يدي، فهم وزرعهم إلىٰ الأبد، ويحجّون في كل سنة، وفي كل شهر، ومن سنة إلىٰ سنة إلىٰ بيت المقدس: بيت الله، ويقرّبون لله ربهم فيه قرابين زكيةً نقيةً، ينظرون إلىٰ الأمة الخبيثة الماردة: بني إسرائيل، لا يبلىٰ حزنها، ولا ينقطع بلاؤها إلىٰ الأبد» (١).

---

(١) انظر: سفر أشيعاء النبي الإصحاح السادس والستون.

وقال دانيال النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وسيأتي علىٰ شعبك، وقرية قدسك سبعون سابوعًا، وتنقضي الذنوب، وتفنَىٰ الخطايا، وغفران الإثم، ويؤتىٰ بالحق الذي لم ينزل من قبل، وتتم نبوات الأنبياء، وكتب الرسل، وتبيد قرية القدس، وتخرب مع مجيء المسيح، ويفنَىٰ الميثاق العتيق من الناس، ومن بعد أسبوع ونصف تبطل ذبائح اليهود، وقرابينهم، وتصير علىٰ كف النجاسة، والفساد إلىٰ انقضاء الدهر» (١).

وقال ميخا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال الله في آخر الزمان: إذا أتىٰ المسيح يدعو الأمم المبددة، ويضعهم شعبًا واحدًا، ويبطل قتال بني إسرائيل، وسلاحهم، وقرابينهم إلىٰ الأبد» (٢).

وقال عاموص النَّبِيُّ: «لا تذبحوا العجول بعد، فإن الرّبّ سيأتي صهيون، ويحدث وصيةً جديدةً طاهرةً من الخبز النقي، والخمر الزكي، ويصير بنو إسرائيل مطرودين» (٣).

والْجواب من وجوه:

أحدها: أن ما يحتجّون به من النقل عن الأنبياء صلوات الله عليهم يحتاجون فيه إلىٰ أربع مقدمات:

١- إلىٰ أن تُعلم نبوة المنقول عنه.

٢- وإلىٰ أن يُعلم لفظه الذي تكلم به.

٣- وإلىٰ أن يُعلم ما ذكروه ترجَمةً صحيحةً عنده؛ فإن أولئك الأنبياء لم

(١) انظر: سفر دانيال النبي الإصحاح التاسع.
(٢) انظر: سفر ميخا الإصحاح الرابع.
(٣) انظر: سفر عاموص الإصحاح السادس.

يتكلموا بالعربية، بل ولا بالرومية، والسريانية، واليونانية، وإنَّما تكلموا بالعبرية كالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والرابع: أن يُعلم أن ما ذكروه من كلام الأنبياء دليلٌ علىٰ ما ادعوه من قبول قرابينهم في هذا الزمان.

ونَحن في هذا المقام نقتصر علىٰ منازعتهم في هذه المقدمة، فليس فيما ذكروه دليلٌ علىٰ مدح قرابينهم، وذبائحهم بعد التبديل والنسخ، ولكن غايتها أن يدل علىٰ مدحها قبل النسخ والتبديل، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون.

الوجه الثاني: أن هذه النعوت المذكورة عن أشعيا، وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارىٰ؛ فإن النصارىٰ لا يقربون القرابين بالسميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل، ولا يحجّون في كل شهر، ومن سنة إلىٰ سنة إلىٰ بيت المقدس: بيت الله، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقيةً زكيةً، وإنَّما يحجّون إلىٰ قمامة الخارجة عن بيت الله الذي كانت الأنبياء تقصده، وتصلي فيه؛ فإن الأنبياء إنَّما كانوا يصلون في بيت المقدس، ويزورون بيت المقدس نفسه، وأما قمامة: فليس لها ذكر في كتب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بل إنما ظهرت قمامة في زمن قسطنطين الملك لما أظهرتها أمه هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس، واختارت من اليهود ثلاثة، وسألتهم أن يدلّوها علىٰ موضع الصليب، فامتنعوا، فعاقبتهم بالحبس والجوع، فدلّوها علىٰ موضعه في مزبلة، فاستخرجوه، وجعلته في غلافٍ من ذهب، وحَملته، وبنت كنيسة القمامة في موضعه، كما ذكر ذلك ابن البطريق في تاريخه وغيره، كما سيأتي.

وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنة، ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب، وجعلوا عيد الصليب، ولم يشرع ذلك لا المسيح، ولا الحواريون، وهذا مذكور في كتبهم متفق عليه بين علمائهم، كما قد ذكر في موضع آخر، ولا

هم يأتون بقرابين لله علىٰ الدواب، والمراكب إلىٰ جبل قدس: بيت الله المقدس.

الوجه الثالث: أن ما ذكروه عن دانيال لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل، وإنَّما يتضمّن أن الله يبعث المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحق الذي لم يزل من قبل، وهو الدين الذي بعث به الرسل قبله، وهو عبادة الله وحده، وأن بيت المقدس يخرب مع مجيء المسيح، ويفنَىٰ الميثاق العتيق، يعني ما نسخ من شرع التوراة، وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم.

وهذا كله إنَّما يدلّ علىٰ نسخ شرع التوراة، وبطلان دولة اليهود، ويدلّ علىٰ أن المسيح جاء بالحق، ومن اتبع المسيح كان علىٰ الحق، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون؛ فإنهم متفقون علىٰ أن من كان متمسكًا بِما أمر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين، ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح، أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ فهو بمنزلة اليهود الذين نسخ الله ما نسخه من شرعهم، وأزال دولتهم.

وكذلك فعل بالنصارىٰ لما بعث الله محمدًا أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها وحيث بعثت الأنبياء، كأرض الشام، ومصر، والجزيرة، والعراق، وأرمينية، وأذربيجان، وأجلاهم إلىٰ طرفَي الأرض من جهة الشمال والجنوب، وصار الذين في وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم ـ إذا لم يسلموا ـ أن يؤدوا الجزية عن يدٍ، وهم صاغرون.

وكذلك ما ذكروه عن ميخا وعاموس إنَّما يدل علىٰ مجيء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وبطلان ما نسخه الله، وأبطله من شرع اليهود وملكهم، ولا يدل علىٰ صحة دين النصارىٰ الذي لم يشرعه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا علىٰ صحته بعد أن نسخ بشرع محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نسخًا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسىٰ بشرع المسيح

عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هـذا إذا سُـمِيَ الشـرع المؤقـت بغايـة مجهولـةٍ نسـخًا؛ فـإن الأول لـم يبشـر بالثاني، وأما إذا كان الأول بشّر بالثـاني، وكانـت شـريعة الأول مؤقتـة إلـىٰ مجـيء الثاني لم يسمّ ذلك نسخًا، فالمسيح ومحمـدٌ صـلىٰ الله عليهمـا وسـلم لـم ينسـخا شيئًا، بل كان شرع موسىٰ إلىٰ مجيء المسيح، وشرع المسيح إلىٰ مجيء محمـدٍ صلىٰ الله عليهما وسلم.

وأما ما حكي عن أشعيا عن الله أنه قال: «فإذا ظهرت إلىٰ الأمم...» فهـذا قـد يحتج به النصارىٰ، وبأمثاله من كلام الأنبيـاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علـىٰ الحلـول الـذي ابتـدعوه، وهو باطلٌ؛ فإن مثل هذا اللفظ مذكورٌ في كتب أهـل الكتـاب في غيـر موضـع، ولا يراد بشيءٍ منها حلول ذات الله في أحد مـن البشـر، كمـا ذكـر في التـوراة أن الله عَزَّ وَجَلَّ استعلن لإبـراهيم وغيـره: «وأن الله يـأتي مـن طـور سـيناء، ويشـرف مـن سـاعير، ويستعلن من جبال فاران».

ومعلومٌ عند جَميع أهل الملل أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يحلّ في موسىٰ، ولا غيره لما كلّمه، ولا يحلّ في شيءٍ من جبال فاران، مع إخباره أنه استعلن منها.

قـالوا: «فمـاذا يكـون أعظـم مـن هـذا برهانًـا، وأقـوىٰ شـهادةً، إذ هـذه كتـب أعدائنا المخالفين لديننا، وهم يقرّون بذلك، ويقرأونه في كنائسـهم، ولـم ينكـروا منه كلمةً واحدةً، ولا حرفًا واحدًا».

والجواب: أن الأمر إذا كان علىٰ ما قالوه من ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء، فليس فيها مدحٌ لدينهم بعد التبديل، فكيف بعد النسخ والتبديل، وإنَّما فيها إخبارٌ بزوال ملك بني إسرائيل، وبنسخ ما نسخ من شرعهم بمجيء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا دليلٌ علىٰ نبوة المسيح وصدقه، وهذا مما اتفق عليه المسلمون.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندهم، كما أخبر الله عنه بقوله تعالىٰ لمريم: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦].

وأما قولهم: إن هذا وغيره موجودٌ في كتب أعدائنا اليهود.

فيقال لَهم: لا ريب أن اليهود يخالفونكم في تفسير الكتب، فأنتم تفسرونها بشيءٍ، وهم يفسرونها بشيءٍ آخر، وقد يكون كلا التفسيرين باطلًا، وحينئذ... فيقال لكم: كما أن كتب الأنبياء شاهدة للمسيح ولدينه، وإن خالفتكم اليهود في تفسيرها، فكذلك هي شاهدةٌ لمحمدٍ وأمته، وإن خالف أهل الكتاب في تفسيرها، كما قد بَيَّنَ الله في كتب الأنبياء صفة محمدٍ وأمته في غير موضع.

قالوا: «وأيضًا في قول هذا الإنسان مما أتىٰ في كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتىٰ به في هذا الكتاب في سورة سبأ حيث يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤] وأيضًا في سورة الأحقاف يقول: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٩]».

والْجواب: أن نقلهم عنه أنه قال: «إنه لم يرسل إليهم» كذبٌ ظاهرٌ عليه؛ فإن كتابه مملوءٌ بدعوتهم، وأمره لهم بالإيمان به واتباعه، بل وبعموم رسالته إلىٰ جَميع الناس، بل وإلىٰ الجنّ والإنس، وليس فيه قط أنه لم يرسل إلىٰ أهل الكتاب، بل فيه التصريح بدعوة أهل الكتاب في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقد كتب النَّبِيُّ ﷺ بهذه الآية إلىٰ قيصر ملك النصارىٰ الذي اسمه هرقل بالشام، وقد تقدم ذكر ذلك.

وتقدم أيضًا أن قوله تعالىٰ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦] يقتضي أنه لم ينذر الأميين، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم.

كما أن قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] يقتضي إنذار قومه، ولا ينافي أن ينذر غيرهم من العرب.

كما أن قوله في قريش: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش:٣، ٤] لا يَمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت، بل أمر الله جَميع الثقلين: الجن والإنس أن يعبدوا ربّ هذا البيت.

فإن قيل: فقد سكت عن ما سوىٰ الأميّين في هذا، فيشعر بالنفي بدليل الخطاب الذي يسمىٰ مفهوم المخالفة.

قيل: ذاك إنَّما يدلّ إذا لم يكن في التخصيص فائدة سوىٰ الاختصاص بالحكم، ولم يكن هنا تصريحٌ بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق، وهنا لما بعث الله محمدًا أمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولًا، ثم ينذر العرب الأميين، ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم، وقد تقدم بسط هذا.

وأما قولهم: «مع تشككه فيما أتىٰ به» فمن الكذب البين؛ فإنه تعالىٰ **قال**: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٦].

فإنه لما دعاهم إلىٰ التوحيد، وبَيَّنَ أن ما يدعونه من دون الله لا يَملك مثقال ذرةٍ في السماوات، ولا في الأرض، ولا هو شريكٌ، ولا هو ظهيرٌ، ولا ينفع شفيع إلا بإذنه، نفىٰ بذلك جَميع وجوه الشرك؛ فإن ما يشرك به: إما أن يكون له ملك، أو شريك في الملك، أو يكون معينًا، فإذا انتفت الثلاثة لم يبقَ إلا الشفاعة التي هي دعاءٌ لك ومسألة، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له.

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازقٌ يرزق من السماء والأرض إلا الله، دلّ بهذا وهذا علىٰ التوحيد، كما في قوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥٣-٥٥].

فلما ذكر ما دلّ علىٰ وجوب توحيده، وبيان أن أهل التوحيد هم علىٰ الهدىٰ، وأن أهل الشرك علىٰ الضلال **قال**: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

يقول: إن أحد الفريقين ــ أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الله، وأهل الشرك ـ لعلىٰ هدىٰ، أو في ضلال مبين.

وهذا من الإنصاف في الخطاب، الذي كل من سمعه من وَلِيٍّ وعَدُوٍّ قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك.

كما يقول العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه الظالم: إما أنا،

وإما أنت.

لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم، وهو أنت، لا أنا.

فإنه إذا قيل: أهل التوحيد الذين يعبدون الله علىٰ هدًىٰ، أو في ضلالٍ مبينٍ، وأهل الشرك الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع علىٰ هدًىٰ، أو في ضلالٍ مبينٍ، تبين أن أهل التوحيد علىٰ الهدىٰ، وأهل الشرك علىٰ الضلال، وهذا مما يعلمه جَميع الملل: من المسلمين، واليهود، والنصارىٰ، يعلمون أن أهل التوحيد علىٰ الهدىٰ، وأهل الشرك علىٰ الضلال.

وفي القرآن في بيان مثل هذا ما لا يحصىٰ إلا بكلفةٍ، بل قطب القرآن، وسائر الكتب، ومدارها علىٰ عبادة الله وحده، فكيف يقال: إن الرسول كان يشك: هل المهتدي هم أهل التوحيد، أم أهل الشرك؟! وهل يقول هذا إلا من هو في غاية الجهل والعناد.

ثم الآية خطابٌ للمشركين، ليست خطابًا للنصارىٰ خصوصًا.

ثم قالوا: «مع الأمر له في فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، فإنه عنِيَ بقوله: المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين الثلاث أمم الذين كانوا في عصره، وهم النصارىٰ، واليهود، وعباد الأصنام، ولم يكن في زمانه غير هؤلاء الثلاث أمم، فالمنعم عليهم نَحن النصارىٰ، والمغضوب عليهم فلا يشك أنهم اليهود الذين غضب الله عليهم في كتب التوراة والأنبياء، وهذا الكتاب، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله، فهذا أمرٌ واضحٌ بَيِّنٌ ظاهرٌ عند كل أحد، ولا سيما عند ذوي العقول والمعرفة، والصراط: هو المذهب، أي

الطريق، وهذه اللفظة رومية؛ لأن الطريق بالرومية اسطراطا».

والجواب: أما قولهم: «المنعم عليهم نَحن النصارىٰ» فمن العجائب التي تدل علىٰ فرط جهل صاحبها، وأعجب من ذلك قولهم: «إن هذا شيءٌ بينٌ واضحٌ عند كل أحدٍ، لا سيما عند ذوي العقل والمعرفة».

فيا سبحان الله! ألم يعرف العام والخاص علمًا ضروريًّا لا تُمكن المنازعة فيه من دين محمدٍ عليه السلام ودين أمته الذي تلقوه عنه من تكفير النصارىٰ، وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم، وسَبْيِ حريْمهم، وأخذ أموالهم ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمدًا عليه السلام وأمته في كل صلاةٍ يقولون: اللهم اهدنا صراط النصارىٰ، وهل ينسب محمدٌ عليه السلام وأمته إلىٰ أنهم في كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارىٰ إلا من هو من أكذب الكذابين، وأعظم الخلق افتراءً، ووقاحةً، وجهلًا، وضلالًا.

ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارىٰ لدخلوا في دين النصارىٰ، ولم يكفروهم، ويقاتلوهم، ويضعوا عليهم الجزية التي يؤدونها عن يدٍ وهم صاغرون، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار، وأمته أخذوا ذلك جَميعه عنه، منقولًا عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم، لم يبتدعوا ذلك كما ابتدعت النصارىٰ من العقائد والشرائع ما لم يأذن به الله، فلا يُلاَمُ المسلمون في اتباعهم لرسول الله الذي جاء بالبينات والهدىٰ.

ومحمدٌ عليه السلام إن كان رسولًا صادقًا فقد كفّر النصارىٰ، وأمر بِجهادهم، وتبرأ منهم، ومن دينهم، وإن كان كاذبًا لم يُقْبَلْ شَيْءٌ مما نقله عن الله عز وجل، وقد تقدم غير مرة قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

فمن يقول عن النصارىٰ مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته في كل صلاة أن يقولوا: اهدنا طريقهم.

ثم يقال: أي شيءٍ في الآية مما يدل علىٰ أن قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧] هم النصارىٰ، وإنَّما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

فهؤلاء هم الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم.

وأما النصارىٰ الذين كانوا علىٰ دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من المنعم عليهم، كما أن اليهود الذين كانوا علىٰ دين موسىٰ قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم.

وأما النصارىٰ بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين، لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وعُبَّاد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ**» رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم عن النَّبِيِّ ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديثٌ صحيحٌ (١).

وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به، والنصارىٰ يعبدون بلا علم، وقد وصف الله اليهود بأعمال، والنصارىٰ بأعمال، فوصف اليهود بالكبر، والبخل، والجبن، والقسوة، وكتمان العلم، وسلوك سبيل الغي، وهو سبيل الشهوات والعدوان.

وأما قولهم: «إن الصراط هو المذهب، أي الطريق، وهذه لفظةٌ روميةٌ؛ لأن الطريق بالرومية اسطراطا».

فيقال لهم: الصراط في لغة العرب هو الطريق، يقال: هو الطريق الواضح، ويقال: هو الطريق المحدود بِجانبين الذي لا يخرج عنه، ومنه الصراط المنصوب علىٰ جهنم وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلىٰ الجنة، وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم، ويقال: فيه معنَىٰ الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه، وفيه ثلاث لغات، هي ثلاث قراءات: الصراط، والسراط، والزراط، وهي لغة عربية عرباء، ليست من المعرب، ولا مأخوذة من لغة الروم، كما زعموا.

ويقال: أصله من قولهم: «سرطت الشيء أسرطه سرطًا، إذا ابتلعته،

---

(١) انظر مسند أحمد ٤/ ٣٧٨، والترمذي ٥/ ٢٠٢ (٢٩٥٣)، وابن حبان ١٦/ ١٨٣ (٧٢٠٦).

واسترطته: ابتلعته؛ فإن المبتلع يجري بسرعة في مَجرًىٰ مَحدودٍ».

فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلىٰ مطلبه بسرعة، وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع، ولم يسمِّ الله سبيل الشيطان سراطًا، بل سَماها سُبُلًا، وخصّ طريقه باسم الصراط، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي «السنن» عن عبد الله بن مسعود قال: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ عليه السلام خَطًّا، وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَهَـذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، من أجابه قذفه في النار**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

فسمىٰ سبحانه طريقه صراطًا، وسَمَّىٰ تلك سُبُلًا، ولم يسمّها صراطًا، كما سَماها سبيلًا، وطريقه يسميه سبيلًا، كما يسميه صراطًا.

[انتهىٰ الجزء الثاني]

*****

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٣٥، والنسائي في الكبرىٰ ٦/ ٣٤٣ (١١١٧٤)، وابن حبان ١/ ١٨٠ (٦)، والحاكم ٢/ ٣٤٨ (٣٢٤١) وقال: صحيح الإسناد.

فصل

قال الحاكي عنهم: «**فقلت:** إنهم ينكرون علينا في قولنا: أب، وابن، وروح قدس.

وأيضًا في قولنا: إنهم ثلاثة أقانيم.

وأيضًا في قولنا: إن المسيح ربٌّ، وإله، وخالقٌ.

وأيضًا يطلبون منا إيضاح تجسيد تجسم كلمة الله الخالق بإنسان مخلوق.

أجابوا قائلين: لو علموا قولنا هذا إنَّما نريد به القول الذي يعني أن الله شيءٌ حيٌّ ناطقٌ لما أنكروا علينا ذلك؛ لأننا معشر النصارىٰ لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرها أحدثها، إذ لا يُمكن حدوثها من ذواتها؛ لما فيها من التضاد والتقلب.

فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة؛ إذ هو الخالق لكل شيءٍ، وذلك لننفي عنه العدم، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيءٍ حَيٍّ، وشيءٍ غير حَيٍّ، فوصفناه بأجْملهما، فقلنا: هو شيءٌ حَيٌّ؛ لننفي الموت عنه.

ورأينا الحَيّ ينقسم قسمين: حَيّ ناطقٍ، وحَيّ غير ناطقٍ، فوصفناه بأفضلهما، فقلنا: هو شيءٌ حيٌ ناطق؛ لننفي الجهل عنه.

والثلاثة أسماءٌ، وهي إلهٌ واحدٌ، مسمًّىٰ واحدٌ، وربٌّ واحدٌ، خالقٌ واحدٌ، شيءٌ حَيٌّ ناطقٌ، أي الذات، والنطق، والحياة، فالذات عندنا الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق الابن الذي هو مولودٌ منه؛ لولادة النطق من العقل، والحياة روح القدس، وهذه أسماءٌ لم نسمه نَحن بها».

والجواب من وجوه:

أحدها: قولهم: «أما قولنا: أب، وابن، وروح قدس.

فلو علموا قولنا هذا إنَّما نريد به تصحيح القول بأن الله حَيٌّ ناطقٌ، لما أنكروا ذلك علينا».

فيقال: ليس الأمر كما ادعوه؛ فإن النصارىٰ يقولون: إن هذا القول تلقوه عن الإنْجيل، وإن في الإنْجيل عن المسيح صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: «عمّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس» (١).

فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه متلقىٰ من الشرع المنَزّل، لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بِمعقولهم، ثم عبّروا عنها بهذه العبارات كما ادعوه في مناظرتهم.

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلىٰ هذه العبارة، ولا إلىٰ جعل الأقانيم ثلاثةً، بل معلوم عندهم، وعند سائر أهل الملل أن الله موجودٌ حيٌّ عليمٌ قديرٌ متكلمٌ، لا تختص صفاته بثلاثةٍ، ولا يعبر عن ثلاثةٍ منها بعبارةٍ لا تدل علىٰ ذلك، وهو لفظ الأب، والابن، وروح القدس؛ فإن هذه الألفاظ لا تدل علىٰ ما فسروها به في لغة أحدٍ من الأمم، ولا يوجد في كلام الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعاني، بل إثبات ما ادعوه من التثليث، والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه، لم يدل عليه لا شرعٌ، ولا عقلٌ.

وهم يدّعون أن التثليث، والحلول، والاتحاد، إنَّما صاروا إليه من جهة الشرع، وهو نصوص الأنبياء، والكتب المنَزّلة، لا من جهة العقل، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك، ثم تكلفوا لما ظنّوه مدلول الكتاب طريقًا عقليةً

---

(١) إنجيل متىٰ (٢٨: ١٩).

فسروه بها تفسيرًا ظنّوه جائزًا في العقل، ولهذا نَجد النصارىٰ لا يلجأون في التثليث، والاتحاد إلا إلىٰ الشرع والكتب، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث، والاتحاد، والحلول؛ فإن فطرة الله التي فطر الناس عليها، وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية التي قد يسمونها ناموسًا عقليًّا طبيعيًّا يدفع ذلك، وينفيه، وينفر عنه؛ ولكن يزعمون أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، وأن ذلك أمرٌ يفوق العقل، وأن هذا الكلام من طور وراء طور العقل، فينقلونه لظنّهم أن الكتب الإلهية أخبرت به، لا لأن العقول دلّت عليه، مع أنه ليس في الكتب الإلهية ما يدلّ علىٰ ذلك، بل فيها ما يدلّ علىٰ نقيضه، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ، ولا يُميّزون بين ما يحيله العقل ويبطله، ويعلم أنه ممتنعٌ، وبين ما يعجز عنه العقل، فلا يعرفه، ولا يحكم فيه بنفيٍ، ولا إثبات، وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول، ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدًا شريكًا.

- **ومما يبين ذلك الوجه الثاني**: وهو أن النصارىٰ المقرّون بأن هذه العبارة في الإنْجيل المأخوذ عن المسيح مختلفون في تفسير هذا الكلام، فكثير منهم يقول: الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو الحياة.

ومنهم من يقول: بل الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو القدرة.

وبعضهم يقول: إن الأقانيم الثلاثة جوادٌ حكيمٌ قادرٌ، فيجعل الأب هو الجواد، والابن هو الحكيم، وروح القدس هو القادر، ويزعمون أن جَميع الصفات تدخل تحت هذه الثلاثة، ويقولون: إنا استدللنا علىٰ وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلىٰ الوجود، وذلك من جوده.

وقد رأيت في كتب النصارىٰ هذا، وهذا، وهذا.

ومنهم من يعبر عن الكلمة بالعلم، فيقولون: موجودٌ حيٌّ عالمٌ، أو موجودٌ عالمٌ قادرٌ، كما يقول بعضهم: ناطقٌ.

ومنهم من يقول: موجودٌ حيٌّ حكيمٌ.

ومنهم من يقول: قائمٌ بنفسه حيٌّ حكيمٌ.

وهم متفقون علىٰ أن المتحد بالمسيح والحالّ فيه هو أقنوم الكلمة، وهو الذي يسمونه الابن دون الأب.

ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول: إن المسيح عليه السلام عبدٌ مرسلٌ كسائر الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فوافقهم علىٰ لفظ الأب، والابن، وروح القدس، ولا يفسر ذلك بِما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد كما أن النسطورية يوافقونهم أيضًا علىٰ هذا اللفظ، وينازعونهم في الاتحاد الذي يقوله اليعقوبية والملكية.

فإذا كانوا متفقين علىٰ اللفظ، متنازعين في معناه، عُلِمَ أنهم صدّقوا أولًا باللفظ؛ لأجل اعتقادهم مجيء الشرع به، ثم تنازعوا بعد ذلك في تفسير الكتاب، كما يختلفون هم، وسائر أهل الملل في تفسير بعض الكلام الذي يعتقدون أنه منقولٌ عن الأنبياء، وعُلِمَ بذلك أن أصل قولهم: «الأب، والابن، وروح القدس» لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجودٌ حيٌّ ناطقٌ الذي علموه أولًا بالعقل.

يوضح هذا الوجه الثالث: وهو قولهم: «إنَّما لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرها أحدثها».

إن كان المتكلم بهذا طائفةٌ معينةٌ من النصارىٰ فيقال لهؤلاء: القول بالأب،

والابن، وروح القدس، موجودٌ عند النصارىٰ قبل وجودكم، وقبل نظركم هذا واستدلالكم، فلا يجوز أن يكون نظركم هو الموجب لقول النصارىٰ هذا.

وإن كان المراد به أن جَميع النصارىٰ من حين قالوا هذا الكلام نظروا، واستدلوا حتَّىٰ قالوا ذلك، فهذا كذبٌ بَيِّنٌ؛ فإن هذا الكلام يقول النصارىٰ: إنهم تلقوه من الإنْجيل، وأن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «عمدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس».

والمسيح والحواريُّون لمْ يأمروهم بهذا النظر الموجب لهذا القول، ولا جعل المسيح هذا القول موقوفًا عندهم علىٰ هذا البحث، فَعُلِمَ أن جعلهم هذا القول ناشئًا عن هذا البحث قولٌ باطلٌ يعلمون هم بطلانه.

الوجه الرابع: إن هذا القول إن كان المسيح لمْ يقله، فلا يجوز أن يقال، ولو عَنيَ به الإنسان معنًىٰ صحيحًا؛ فإن هذه العبارة إنَّما يفهم منها عند الإطلاق المعاني الباطلة، ولهذا يوجد كثيرٌ من عوام النصارىٰ يعتقدون أن المسيح ابن الله البنوة المعروفة في المخلوقات، ويقولون: إن مريَم زوجة الله.

- **بل نقول في الوجه الخامس**: إن صحت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عليه الصلاة والسلام، فإنه أراد بذلك ما يناسب سائر كلامه، وفي الموجود في كتبهم تسمية الرب أبًا، وتسمية عباده أبناءً، كما يذكرون أنه قال في التوراة ليعقوب «إسرائيل»: «أنت ابني بكري» (١).

وقال لداود في الزبور: «أنت ابني وحبيبِي» (٢).

وفي الإنْجيل في غير موضع يقول المسيح: «أبِي وأبيكم» كقوله: «إني أذهب

(١) سفر الخروج: ٤: ٢٢.

(٢) المزامير: ٢: ٧.

إلىٰ أبِي وأبيكم، وإلهي وإلهكم» [1].

فيسميه أبًا لهم، كما يسميهم أبناءً له، فإن كان هذا صحيحًا، فالمراد بذلك أنه الربُّ المربِّي الرحيمُ، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والابن هو المربَّىٰ المرحوم، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها، فيكون المراد بالأب: الرب، والمراد بالابن عنده: المسيح الذي رباه.

وأما روح القدس: فهي لفظةٌ موجودةٌ في غير موضع من الكتب التِي عندهم، وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم، بل روح القدس عندهم تحل في إبراهيم، وموسىٰ، وداود، وغيرهم من الأنبياء الصالحين.

وتمام هذا بالوجه السادس: وهو أن النصارىٰ لما كان عندهم في الكتب تسمية المسيح عليه السلام ابنًا، وتسمية غيره من الأنبياء ابنًا، كقوله ليعقوب: «أنت ابني بكري» وتسمية الحواريِّين أبناءً، قالوا: هو ابنه بالطبع، وغيره هو ابنه بالوضع.

فجعلوا لفظ الابن مشتركًا بين معنيين، وأثبتوا لله طبعًا، جعلوا المسيح ابنه باعتبار ذلك الطبع، وهذا يقرر قول من يفهم منهم أنه ابنه البنوة المعروفة في المخلوقين، وأن مريَم زوجة الله.

وكذلك جعلوا روح القدس مشتركة بين حياة الله، وبين روح القدس التِي تَنْزل علىٰ الأنبياء والصالحين، ومعلومٌ أن الاشتراك علىٰ خلاف الأصل، وأن اللفظ إذا استعمل في عدة مواضع كان جعله حقيقةً متواطئًا في القدر المشترك أولىٰ من جعله مشتركًا اشتراكًا لفظيًّا بِحيث يكون حقيقةً في خصوص هذا، أو يكون مجازًا في أحدِهما؛ فإن المجاز، والاشتراك علىٰ خلاف الأصل، هذا إن

---

(١) إنجيل يوحنا: ٢٠: ١٧ نحوه.

قدر أن لفظ الابن، وروح القدس، استعمل في نطق الله وحياته، كما يزعم النصارىٰ، فكيف إذا لم يوجد في كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ الابن، ولفظ روح القدس، وأرادوا به شيئًا من صفات الله، لا كلامه، ولا حياته، ولا علمه، ولا غير ذلك، بل لم يوجد استعمال لفظ الابن في كلام الأنبياء إلا في شيءٍ مخلوقٍ، ولم يوجد استعمال روح القدس كما هو من صفات الله القائمة به، ونَحن إذا فسرنا الأب، وروح القدس ببنوة التربية، وروح القدس بِما يَنْزِل علىٰ الأنبياء، كنا قد جعلنا اللفظ مفردًا متواطئًا، وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركًا، أو مجازًا في أحد المعنيين، فكان تفسيرهم مخالفًا لظاهر اللغة التي خوطبوا بها، ولظاهر الكتب التي بأيديهم، وتفسيرنا موافقًا لظاهر لغتهم، وظاهر الكتب التي بأيديهم.

وحينئذٍ... فقد تبين أنه ليس معهم بالتثليث لا حجةٌ سَمعيةٌ، ولا عقليةٌ، بل هو باطلٌ شرعًا وعقلًا.

ويؤيد هذا الوجه السابع: وهو أنهم في أمانتهم أثبتوا من المعاني، ولفظ الأقانيم، وغير ذلك ما لا تدلّ عليه الكتب التي بأيديهم البتة، بل فهموا منها معنًىٰ باطلًا، وضمّوا إليه معاني باطلةٍ من عند أنفسهم، فكانوا محرّفين لكتب الله في ذلك، مفترين علىٰ الله الكذب، وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر.

الوجه الثامن: أن قولهم بالأقانيم ـ مع بطلانه في العقل والشرع ـ لمْ ينطق به عندهم كتابٌ، ولمْ يوجد هذا اللفظ في شيءٍ من كتب الأنبياء التي بأيديهم، ولا في كلام الحواريِّين، بل هي لفظة ابتدعوها، ويقال: إنها رومية، وقد قيل: الأقنوم في لغتهم معناه الأصل.

ولهذا يضطربون في تفسير الأقانيم، تارةً يقولون: أشخاص، وتارةً خواص، وتارةً صفات، وتارةً جواهر، وتارةً يجعلون الأقنوم اسْمًا للذات والصفة معًا، وهذا تفسير حُذَّاقِهم.

الوجه التاسع: قولهم في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنه خالقٌ» قولٌ ـ مع بطلانه في الشرع والعقل، قولٌ ـ لمْ ينطق به شيءٌ من النبوات التي عندهم، ولكن يستدلون علىٰ ذلك بِما لا يدل عليه، كما سنبينه إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه العاشر: قولهم في تجسد اللاهوت ـ أيضًا ـ هو قولٌ مع بطلانه في العقل والشرع، قولٌ لا يدل عليه شيءٌ من كلام المعصوم من النبيين والمرسلين.

الوجه الحادي عشر: إنَّا نقول: لا ريب أن الله حيٌّ عالمٌ قادرٌ متكلمٌ، وللمسلمين علىٰ ذلك من الدلائل العقلية التي دلّ الرسول عليها، وأرشد إليها، فصارت معروفةً بالعقل، مدلولًا عليها بالشرع، ما هو مبسوطٌ في موضعه، وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل لمْ تذكروا علىٰ ذلك دليلًا عقليًّا.

الوجه الثاني عشر: قولكم: «فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيءٍ؛ لننفي عنه العدم».

فيقال لهم: لا ريب أن الله كما وصف نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]. أي مثلًا يستحق أن يسمىٰ بأسمائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقد دل علىٰ ذلك العقل؛ فإن المثلين اللذين يَسُدُّ أحدهُما مَسَدَّ الآخر يجب لأحدهِما ما يجب للآخر، ويَمتنع عليه ما يَمتنع عليه، ويجوز عليه ما

يجوز عليه، فلو كان للخالق مِثْلٌ للزم أن يشتركا فيما يجب، ويجوز، ويَمتنع.

والخالق يجب له الوجود والقدم، ويَمتنع عليه العدم، فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود، قديما أزليًّا لَمْ يُعْدَمْ قطّ، وكونه محْدَثًا مخلوقًا يستلزم أن يكون كان معدومًا، فيلزم أن يكون موجودًا معدومًا قديمًا محْدَثًا، وهو جَمع بين النقيضين يَمتنع في بداية العقول، وأيضًا فالمخلوق يَمتنع عليه القدم، ويجب له سابقة العدم، فلو وجب للخالق القديم ما يجب له، لوجب كون الواجب للقدم واجب الحدوث بعد العدم، وهذا جَمع بين النقيضين، فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيءٌ، والكلام علىٰ هذا مبسوطٌ في موضع آخر، لكن أنتم لَمْ تذكروا علىٰ ذلك حجةً، بل قلتم: «إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيءٍ» فلم تذكروا حجةً علىٰ أنه خالق كل شيءٍ، إذ كان عمدتكم علىٰ ما شهدتْم حدوثه، وليس ذلك كل شيءٍ، ولَمْ تذكروا حجةً ـ مع كونه خالق كل شيءٍ ـ علىٰ أنه ليس كمثله شيءٌ، بل قلتم: «لأننا معشر النصارىٰ لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرها أحدثها لما فيها من التضاد والتقلب، فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيءٍ، وذلك لننفي العدم عنه».

ودليلكم لو دلّ علىٰ العلم بالصانع لَمْ يدل إلا علىٰ أنه خالق، فكيف إذا لَمْ يدل؟.

ولا ريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجودًا، لا معدومًا، وهذا معلومٌ بالضرورة، لا يحتاج إلىٰ دليلٍ عند جُمهور العقلاء والنُّظَّار، وإن كان بعضهم أثبت وجوده بالدليل النظري، لكن ليس في دليلكم ما يدل علىٰ أنه ليس كالأشياء المخلوقة، وقولكم: «إذ هو الخالق لكل شيءٍ» يتضمن أنه خالقٌ لكل ما سواه، ليس فيه بيان نفيٍ للمماثلة عنه، ولكن بَيَّنْتُمْ بهذا الكلام جهلكم

بالدلائل العقلية، كجهلكم بالكتب المُنَزَّلة،

وأما قولكم: «ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيءٌ حيٌّ، وشيءٌ غير حيٍّ، فوصفناه بأجلّ القسمين، فقلنا: إنه حيٌّ؛ لننفي الموت عنه».

فيقال: لا ريب أن الله حيٌّ، كما نطقت بذلك كتبه المنَزَّلة، التي هي آياته القولية، ودلّت على ذلك آياته، كمخلوقاته التي هي آياته الفعلية.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن حقٌّ.

- **والدلائل على حياته كثيرةٌ**:

منها: أنه قد ثبت أنه عالمٌ، والعلم لا يقوم إلا بِحَيٍّ، وثبت أنه قادرٌ مختارٌ يفعل بِمشيئته، والقادر المختار لا يكون إلا حيًّا.

ومنها: أنه خالق الأحياء وغيرهم، والخالق أكمل من المخلوق، فكل كمال ثبت للمخلوق فهو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من خالقه، وكماله أكمل منه.

ومنها: أن الحيَّ أكمل من غير الحيَّ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر: ٢٢].

فلو كان الخالق غير حَيٍّ لزم أن يكون الممكن المُحْدَث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخالق، فيكون أنقص الموجودين أكمل من أكملها، وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدليل، وإن كانوا لمْ يُبَيِّنُوهُ بيانًا تامًّا.

لكن قولهم: «قلنا: أنه حيّ لننفي الموت عنه» كلامٌ مستدرَكٌ؛ فإن الله موصوفٌ بصفات الكمال الثبوتية، كالحياة، والعلم، والقدرة، فيلزم من ثبوتها

سلب صفات النقص.

قالوا: «والثلاثة أسماءٌ، فهي إلهٌ واحدٌ، وربٌّ واحدٌ، وخالقٌ واحدٌ، مسمًّىٰ واحدٌ، لم يزل، ولا يزال شيئًا حيًّا ناطقًا، أي الذات، والنطق، والحياة، فالذات عندنا: الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق: الابن الذي هو مولودٌ منه، كولادة النطق من العقل، والحياة: هي الروح القدس».

والجواب عن هذا من وجوه:

[الاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها]:

الأول: أن أسْماء الله تبارك وتعالىٰ متعددةٌ كثيرةٌ؛

وإذا كانت أسْماء الله كثيرةٌ، كالعزيز، والقدير، وغيرها، فالاقتصار علىٰ ثلاثة أسْماء دون غيرها باطلٌ، وأيُّ شيءٍ زعم الزاعم في اختصاص هذه الأسماء به دون غيرها فهو باطلٌ،

الوجه الثاني: قولهم: «الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والابن النطق الذي هو مولودٌ منه، كولادة النطق من العقل» كلامٌ باطلٌ؛ فإن صفات الكمال لازمةٌ لذات الربِّ ﷻ أولًا وآخرًا، ولم يزل ولا يزال حيًّا عالمًا قادرًا، لم يصر حيًّا بعد أن لمْ يكن حيًّا، ولا عالمًا بعد أن لمْ يكن عالمًا.

فإذا قالوا: «إن الأب ـ الذي هو الذات ـ هو ابتداء الحياة والنطق» اقتضىٰ ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق، وأن يكون فاعلًا للحياة والنطق؛ فإنَّ ما كان ابتداءً لغيره يكون متقدمًا عليه، أو فاعلًا له، وهذا في حقّ الله باطلٌ.

وكذلك قولهم: «إن النطق مولودٌ منه، كولادة النطق من العقل» فإنَّ المولود من غيره متولدٌ منه، فيحدث بعد أن لمْ يكن، كما يحدث النطق شيئًا فشيئًا، سواءٌ أريد بالنطق العلم أو البيان، فكلاهُما لمْ يكن لازمًا للنفس الناطقة، بل

حدث فيها واتصفت به بعد أن لم يكن، وإن كانت قابلةً له، ناطقةً بالقوة، فإذا مثلوا تولد النطق من الرب كتولده عن العقل، لزم أن يكون الرب كان ناطقًا بالقوة، ثم صار ناطقًا بالفعل، فيلزم أنه صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا، وهذا من أعظم الكفر، وأشده استحالةً؛ فإنه لا شيء غيره يجعله متصفًا بصفات الكمال بعد أن لم يكن متصفًا بها، إذ كل ما سواه فهو مخلوقٌ له، وكماله منه، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرب سبحانه وتعالىٰ كاملًا.

وذلك دورٌ ممتنعٌ في صريح العقل؛ إذ كان الشيء لا يجعل غيره متصفًا بصفات الكمال حتَّىٰ يكون هو متصفًا بها، فإذا لَمْ يتصف بها حتَّىٰ جعله غيرُه متصفًا بها، لزم الدور الممتنع، مثل كون كلٍّ من الشيئين فاعلًا للآخر، وعلةً له، أو لبعض صفاته المشروطة في الفعل.

فتبين بطلان كون نطقه متولدًا منه، كتولد النطق من العقل، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأٌ لها، متقدمٌ عليها، أو فاعلٌ لها.

الوجه الثالث: أن قولهم في الابن: «إنه مولودٌ من الله» إن أرادوا به أنه صفةً لازمةً له، فكذلك الحياة صفةٌ لازمةٌ لله، فيكون روح القدس أيضًا ابنًا ثانيًا، وإن أرادوا حصل منه بعد أن لم يكن، صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا، وهذا مع كونه باطلًا وكفرًا، فيلزم مثله في الحياة، وهو أنه صار حيًّا بعد أن لم يكن حيًّا.

الوجه الرابع: أن تسمية حياة الله «روح القدس» أمرٌ لم ينطق به شيءٌ من كتب الله المُنَزَّلة، فإطلاق «روح القدس» علىٰ حياة الله من تبديلهم، وتحريفهم.

الوجه الخامس: أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذي هو العلم، وهذا إن أرادوا به نفس الذات العالمة الناطقة كان المسيح هو الأب، وكان المسيح نفسه هو الأب، وهو الابن، وهو روح القدس، وهذا عندهم وعند

جَميع الناس باطلٌ وكفرٌ.

وإن قالوا: «المتحد به هو العلم» فالعلم صفةٌ لا تفارق العالم، ولا تفارق الصفة الأخرىٰ التي هي حياة، فيمتنع أن يتَّحد به العلم دون الذات، ودون الحياة.

الوجه السادس: أن العلم أيضًا صفةٌ، والصفة لا تخلق، ولا ترزق، والمسيح نفسه ليس هو صفةً قائمةً بغيرها باتفاق العقلاء، وأيضًا فهو عندهم خالق السماوات والأرض، فامتنع أن يكون المتحد به صفةً، فإن الإله المعبود هو الإله الحي العالم القادر، وليس هو نفس الحياة، ولا نفس العلم والكلام.

فلو قال قائل: يا حياة الله، أو يا علم الله، أو يا كلام الله، اغفر لي، وارحمني واهدني، كان هذا باطلًا في صريح العقل، ولهذا لم يجَوِّز أحدٌ من أهل الملل أن يقال للتوراة، أو الإنْجيل، وغير ذلك من كلام الله: اغفر لِي، وارحَمني، وإنَّما يقال للإله المتكلم بهذا الكلام: اغفر لي، وارحمني.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندكم هو الإله الخالق الذي يقال له: اغفر لنا، وارحَمنا، فلو كان هو نفس علم الله وكلامه لم يجز أن يكون إلهًا معبودًا، فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه، بل هو مخلوقٌ بكلامه حيث قال له: كن فيكون.

فتبين من ذلك أن كلمات الله كثيرةٌ لا نهاية لها، وفي الكتب الإلهية، كالتوراة: أنه خلق الأشياء بكلامه، وكان في أول التوراة أنه قال: ليكن كذا، ليكن كذا، ومعلومٌ أن المسيح ليس هو كلماتٌ كثيرةٌ، بل غايته أن يكون كلمةً واحدةً، إذ هو مخلوقٌ بكلمةٍ من كلمات الله عَزَّ وَجَلَّ.

الوجه السابع: أن أمانتكم التي وضعها أكابركم بَحضرة قسطنطين وهي عقيدة إيمانكم التي جعلتموها أصل دينكم ـ تناقض ما تدعونه من أن الإله

واحدٌ، وتبين أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ما تعتقدونه، وهذان أمران معروفان في دينكم: تناقضكم، وإظهاركم في المناظرة بِخلاف ما تقولونه من أصل دينكم.

فإن الأمانة التي اتفق عليها جَماهير النصارىٰ يقولون فيها: «أومن بإلهٍ واحدٍ، أبٍ ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرىٰ، وما لا يرىٰ، وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حقّ من إله حقّ، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نَحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وَتَأَنَّسَ، وصلب، وتألم، وقبر، وقام في اليوم الثالث علىٰ ما في الكتب المقدسة، وصعد إلىٰ السماء، وجلس عن يَمين الأب، وأيضًا سيأتي بِمجده؛ ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه، وبروح القدس الرَّبّ المحيي، المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن، المسجود له، وممجد ناطق في الأنبياء، كنيسةً واحدةً جامعةً رسوليةً، واعترف بِمعموديةٍ واحدةٍ لِمغفرة الخطايا، وابنٍ جاء لقيامة الموتىٰ، وحياةِ الدهرِ العتيدِ كونُهُ أمينًا».

ففي هذه الأمانة ـ التي جعلتموها أصل دينكم ـ ذكر الإيمان بثلاثة أشياء: «بإلهٍ واحدٍ، خالق السماوات والأرض، خالق ما يرىٰ وما لا يرىٰ» فهذا هو رب العالمين الذي لا إله غيره، ولا ربّ سواه، وهو إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وسائر الأنبياء والمرسلين، وهو الذي دعت جَميع الرسل إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، ونهوا أن يُعبد غيره، ثم قلتم: «وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولودٌ غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر».

فصرحتم بالإيمان ـ مع خالق السماوات والأرض ـ بربٍّ واحدٍ مخلوقٍ، مساو الأب، ابن الله الوحيد، وقلتم: «هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه».

وهذا تصريحٌ بالإيمان بإلهين: أحدهما من الآخر، وعلم الله القائم به، أو كلامه، أو حكمته القائمة به، الذي سَمّيتموه ابنًا، ولم يسمِّ أحدٌ من الرسل صفة الله ابنًا، ليس هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، بل إلهٌ واحدٌ، وهذا صفة الإله، وصفة الإله ليست بإله، كما أن قدرته، وسَمعه، وبصره، وسائر صفاته ليس بآلهة، ولأن الإله واحدٌ، وصفاته متعددةٌ، والإله ذاتٌ متصفةٌ بالصفات، قائمةٌ بنفسها، والصفة قائمةٌ بالموصوف، ولأنكم سَمّيتم الإله جوهرًا، وقلتم: «هو القائم بنفسه» والصفة ليست جوهرًا قائمًا بنفسه.

وهم في هذه الأمانة قد جعلوا الله والدًا، وهو الأب، ومولدًا، وهو الابن، وجعلوه مساويًا له في الجوهر، وقد نزّه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة، فقالوا: «مولودٌ غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر» فصرّحوا بأنه مساوٍ له في الجوهر، والمساوي ليس هو المساوىٰ.

ولا يساوي الأب في الجوهر إلا جوهرٌ، فوجب أن يكون الابن جوهرًا ثانيًا، وروح القدس جوهرًا ثالثًا، كما سيأتِي، وهذا تصريحٌ بإثبات ثلاثة جواهر، وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك: إنَّما نثبت جوهرًا واحدًا، وإلهًا واحدًا، وهذا جَمع بين النقيضين، فهو حقيقة قولهم، يجمعون بين جعل الآلهة واحدًا، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهرٍ واحدٍ، وبين إثباته ثلاثة جواهرٍ، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فَنَزَّهَ نفسه أن يلد، كما يقولون: هو الأب، وأن يولد، كما يقولون: هو الابن،

وأن يكون له كفوًا أحدٌ، كما يقولون: إن له من يساويه في الجوهر.

وإذا قلتم: نَحن نقول: أَحَدِيُّ الذات، ثُلاَثِيُّ الصفات.

قيل لكم: قد صرحتم بإثبات إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ، وبأنه مساوٍ للأب في الجوهر، وهذا تصريحٌ بإثبات جوهر ثاني، لا بصفة، فجمعتم بين القولين: بين إثبات ثلاثة جواهر، وبين دعوىٰ إثبات جوهرٍ واحدٍ، ولا ينجيكم من هذا اعتذار من اعتذر منكم، كيحيَىٰ بن عدي[1] ونَحوه، حيث قالوا: هذا بِمنْزِلة قولك: زيد الطبيب الحاسب الكاتب، ثم تقول: زيد الطبيب، وزيد الحاسب، وزيد الكاتب، فهو مع كل صفةٍ له حكمٌ خلاف حكمه مع الصفة الأخرىٰ ـ وقد يفسرون الأقنوم بهذا، فيقولون: الأقنوم هو الذات مع الصفة، فالذات مع كل صفةٍ أقنومٌ، فصارت الأقانيم ثلاثةٌ ـ لأن هذا المثال لا يطابق قولكم؛ فإن زيدًا هنا هو جوهرٌ واحدٌ له ثلاث صفات: الطب والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهرٍ، ولكن لكل صفةٍ حكمٌ ليس للأخرىٰ.

ولا يقول عاقلٌ: إن الصفة مساويةٌ للموصوف في الجوهر، ولا أن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرىٰ في الجوهر؛ لأن الذات واحدةٌ، والمساوي ليس هو المساوىٰ، ولأن الذات مع الصفة هي الأب، فإن كان هذا هو الذي اتحد بالمسيح، فالمتَّحَد به هو الأب، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم: «إنه إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، الذي هو مساو الأب في الجوهر، وأنه نزل وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس، وصلب، وتألم».

---

(١) هو يحيىٰ بن عدي بن حميد بن زكريا، أبو زكريا، كان نصرانيًّا من اليعقوبية، نقل كثيرًا من كتب الفلاسفة إلىٰ العربية. انظر الفهرست لابن النديم ص٣٦٩. وموسوعة ويكيبيديا.

فاقتضىٰ ذلك أن يكون الإله الحق المساوي للأب في الجوهر صُلِبَ وتَأَلم، فيكون اللاهوت مصلوبًا متألمًا، وهذا تُقِرُّ به طوائف منكم، وطوائف تنكره، لكن مقتضىٰ أمانتكم هو الأول.

وأيضًا فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم، فإن كان روح القدس هو حياة الله كما زعمتم، فيكون المسيح كلمة الله وحياته، فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة، وعندهم إنَّما هو أقنوم الكلمة فقط، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس بأنه حياة الله، وقيل لكم: لا يجب أن يكون روح القدس صفةً لله، ولا أقنومًا.

ثم ذكرتم في عقيدة أمانتكم: أنكم تؤمنون بروح القدس الرب المحيي، فأثبتم ربًّا ثالثًا، قلتم: المنبثق من الأب، والانبثاق: الانفجار، كالاندفاق والانصباب، ونَحو ذلك، يقال: بثق السيل موضع كذا يبثقه بثقًا، أي: خرقه وشقه، فانبثق: أي انفجر، فاقتضىٰ ذلك أن يكون هذا الرب المحيي انفجر من الأب، واندفق منه.

ثم قلتم: «هو مع الأب، مسجودٌ له، وممجدٌ ناطقٌ في الأنبياء» فجعلتموه مع الأب مسجودًا له، فأثبتم إلهًا ثالثًا يسجد له، ومعلومٌ أن حياة الله التي هي صفته ليست منبثقةً منه، بل هي قائمةٌ به، لا تخرج عنه ألبتة، وهي صفةٌ لازمةٌ له، لا تتعلق بغيره، فإن العلم يتعلق بالمعلومات، والقدرة بالمقدورات، والتكليم بالمخاطبين، بِخلاف التكلم؛ فإنه صفةٌ لازمةٌ، يقال: علم الله كذا، وقدر الله علىٰ كل شيء، وكلم الله موسىٰ، وأما الحياة؛ فاللفظ الدالّ عليها لازمٌ، لا يتعلق بغير الحي، يقال: حيًّا يحيا حياةً، ولا يقال: حيا كذا، ولا بكذا، وإنَّما يقال: أحيا كذا، والإحياء فعلٌ غير كونه حيًّا، كما أن التعليم غير العلم، والأقدار غير القدرة، والتكليم غير المتكلم، ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقًا في الأنبياء،

وحياة الله صفةٌ قائمةٌ به، لا تحلّ في غيره، وروح القدس الذي تكون في الأنبياء والصالحين ليس هو حياة الله القائمة به، ولو كان روح القدس الذي في الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة، لكان كلٌّ من الأنبياء إلهًا معبودًا، قد اتحد ناسوته باللاهوت، كالمسيح عندكم، فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتًا ولاهوتًا، فإذا كان روح القدس الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقًا في الأنبياء، كان كلٌّ منهم فيه لاهوتٌ وناسوتٌ كالمسيح، وأنتم لا تقرّون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده، مع إثباتكم لغيره ما ثبت له.

وهم تارةً يشبّهون الأقنومين: العلم والحياة ـ التي يسمونها: الكلمة، وروح القدس ـ بالضياء والحرارة التي للشمس مع الشمس، ويشبّهون ذلك بالحياة والنطق الذي للنفس مع النفس، وهذا تشبيهٌ فاسدٌ؛ فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس، فذلك صفةٌ للشمس قائمةٌ بها، لَمْ تحل بغيرها، ولم تتحد بغيرها كما أن صفة النفس كذلك، هذا إن قيل: إن الشمس تقوم به حرارةٌ، وإلا فهذا ممنوعٌ، والمقصود هنا بيان فساد كلامهم، وقياسهم.

وإن أرادوا ما هو بائنٌ عن الشمس قائمٌ بغيرها، كالشعاع القائم بالهواء والأرض، والحرارة القائمة بذلك، كان هذا دليلًا علىٰ فساد قولهم من وجوهٍ:

منها: أن هذه أعراضٌ منفصلةٌ بائنةٌ عن الشمس، قائمةٌ بغيرها، لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء: من العلم، والحكمة، والوحي الذي أنذروا به، وعلىٰ هذا التقدير فليس في الناسوت شيئًا من اللاهوت، وإنَّما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائم بالهواء، والجدران أعراضٌ قائمةٌ بغير الشمس، والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران.

ومنها: أن هذا ليس هو الشمس، ولا صفة من صفات الشمس، وإنَّما هو

أثرٌ حاصلٌ في غير الشمس بسبب الشمس، ومثل هذا لا يُنْكَر قيامه بالأنبياء والصالحين، ولكن ليس للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك اختصاصٌ، فما حلّ بالمسيح حلّ بغيره من المرسلين، وما لمْ يحلّ بغيره لمْ يحلّ به، فلا اختصاص له بأمرٍ يوجب أن يكون إلهًا دون غيره من الرسل، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت، كما لمْ تتّحد الشمس، ولا صفاتها القائمة بها بالهواء والأرض التي حصل بها الشعاع والحرارة.

قالوا: «وهذه الأسْماء لمْ نسمّه نَحن معشر النصارىٰ بِها من ذات أنفسنا، بل الله سَمَّىٰ لاهوته بِها، وذلك أنه قال علىٰ لسان موسىٰ النَّبِيِّ في التوراة مخاطبًا بَني إسرائيل قائلًا: «أليس هذا الأب الذي صنعك، وبراك، واقتناك».

وعلىٰ لسانه أيضًا قائلًا: «وكان روح الله ترف علىٰ الماء».

وقوله علىٰ لسان داود النَّبِيِّ: «روحك القدس لا تنْزع مني».

وأيضًا علىٰ لسانه: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، وبروح فاه جَميع قواتهن».

وقوله علىٰ لسان أشعيا: «ييبس القتاد، ويجف العشب، وكلمة الله باقيةٌ إلىٰ الأبد».

وعلىٰ لسان أيوب الصديق: «روح الله خلقني، وهو يعلمني».

وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار: «اذهبوا إلىٰ جَميع العالم، وعمّدوهم باسم الأب، والابن، وروح القدس، إلهٍ واحدٍ، وعلموهم أن يحفظوا جَميع ما أوصيتكم به».

والجواب من وجوه:

أحدها: أن تقول: إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يكون إلا

حقًّا وصدقًا، ولا يكون فيه شيءٌ يعلم بطلانه بصريح العقل، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء، ولا يكون كلام النَّبِيِّ الذي يخبر به مناقضًا لكلامه في موضع آخر، ولا لكلام سائر الأنبياء، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حقٌّ وصدقٌ، يصدق بعضه بعضًا، وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكل ما أخبروا به، وحكم بكفر من آمن ببعض ذلك، وكفر ببعضه، فما علم بصريح العقل لا يناقض ما علم بالنقل الصحيح عن الأنبياء، وما علم بالنقل الصحيح عن بعضهم لا يناقض ما علم بالنقل الصحيح عن غيره، ولكن قد يختلف بعض الشرع والمناهج في الأمر والنهي، فأما ما يخبرون به عن الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وغير ذلك، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضًا.

وإذا كان كذلك.. فما ينقلونه عن الأنبياء إنَّما تتم الحجة به إذ علم إسناده ومتنه، فيعلم أنه منقول عنهم نقلًا صحيحًا، ونعلم أن ترجَمته من العبرية إلىٰ اللسان الآخر ـ كالرومية، والعربية، والسريانية ـ ترجَمةً صحيحةً، ويعلم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنىٰ.

وليس مع النصارىٰ حجةٌ عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث، ونَحن في هذا المقام يكفينا المنع، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات؛ فإنهم ادعوا أن التثليث أخذوه عن الأنبياء، فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات.

والجواب الثاني: أنا نبين تفسير ما ذكروه من الكلمات، أما قول علىٰ لسان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا بَني إسرائيل قائلًا: «أليس الأب الذي صنعك، وبراك، واقتناك».

فهذا فيه أنه سَماه أبًا لغير المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا نظير قوله لإسرائيل: «أنت

ابني بكري، وداود ابني حبيبِي».

وقول المسيح: «أبي وأبيكم» وهم يسلّمون أن المراد بهذا في حقّ غير المسيح بِمعنَىٰ الرَّبِّ، لا معنَىٰ التولد الذي يخصوّن به المسيح.

الثالث: أن هذا حجةٌ عليهم، فإذا كان في الكتب المتقدمة تسميته أبًا لغير المسيح، وليس المراد بذلك إلا معنَىٰ الرَّبّ، علم أن هذا اللفظ في لغة الكتب يراد به الرب، فيجب حَمله في حقّ المسيح علىٰ هذا المعنَىٰ؛ لأن الأصل عدم الاشتراك في الكلام.

الرابع: أن استعماله في المعنَىٰ الذي خصّوا به المسيح إنَّما يثبت إذا علم أنه أريد المعنَىٰ الذي ادعوه في المسيح، فلو أُثبت ذلك المعنَىٰ بِمجرد إطلاق لفظ الأب لزم الدور؛ فإنه لا يعلم أنه أريد به ذلك المعنَىٰ من حيث يثبت أنه كان يراد به في حق الله هذا المعنَىٰ، ولا يثبت ذلك حتَّىٰ يعلم أنه أريد به ذلك المعنَىٰ في حق المسيح، فإذا توقف العلم بكل منهما علىٰ الآخر لَمْ يعلم واحدٌ منهما، فتبين أنه لا علم عندهم بأنه أريد في حق المسيح بلفظ الأب، ما خصوه به في محل النزَاع.

الوجه الخامس: أنه لا يوجد في كتب الأنبياء، وكلامهم إطلاق اسم الأب والمراد به: أب اللاهوت، ولا إطلاق اسم الابن والمراد به: شيءٌ من اللاهوت، لا كلمته، ولا حياته، بل لا يوجد لفظ الابن إلا والمراد به: المخلوق، فلا يكون لفظ الابن إلا لابنٍ مخلوقٍ.

وحينئذٍ... فيلزم من ذلك أن يكون مسمَّىٰ الابن في حق المسيح هو الناسوت، وهذا يبطل قولهم: إن الابن وروح القدس أنهما صفتان لله، وأن المسيح اسم للاهوت والناسوت، فتبين أن نصوص كتب الأنبياء تُبطل مذهب

النصارىٰ، وتناقض أمانتهم، فهم بين أمرين: بَيْن الإيمان بكلام الأنبياء وبطلان دينهم، وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء، وهذا هو المطلوب.

قالوا: وعلىٰ لسانه أيضًا قائلًا: «وكان روح الله ترف علىٰ الماء».

فيقال: هذا في السفر الأول «سفر الخليقة» في أوله، لما ذكر أنه في البدء خلق السماوات والأرض، وأنه كانت الأرض مغمورةً بالماء، وكانت روح الله ترف علىٰ الماء، أخبر أنه كان الماء فوق التراب، والهواء فوق الماء، وروح الله هي الريح التي كانت فوق الماء.

هذا تفسير جَميع الأمم: من المسلمين، واليهود، وعقلاء النصارىٰ، ولفظ الكلمة بالعبرية «رُوّح» بضم الراء، وتشديد الواو، وهي الروح، والريح تسمىٰ روحًا، وجَمعها أرواح، ولم يرد بذلك أن حياة الله كانت ترف علىٰ الماء.

فإن هذا لا يقوله عاقلٌ؛ فإن حياة الله صفةٌ قائمةٌ به، لا تفارقه، ولا تقوم بغيره، فيمتنع أن تقوم بِماء أو غيره، فضلًا عن أن ترف علىٰ الماء، والذي يرف علىٰ الماء جسمٌ قائمٌ بنفسه، وهذا إخبارٌ عن الريح التي كانت تتحرك فوق الماء.

ومثل هذا قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ رُوحِ اللهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَلَا تَسُبُّوهَا، وَلَكِنْ تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا**» (١).

وقوله: «**إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ**» (٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٧، وأبو داود (٥٠٩٧)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٧٦٧)، وابن ماجه ٢/ ١٢٢٨، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ١٦٧عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البزار ٩/ ١٥٠ (٣٧٠٢)، والطبراني في الكبير ٧/ ٥٢ (٦٣٥٨)، والبخاري في =

قالوا: «وقوله علىٰ لسان داود: روحك القدس لا تُنْزَع مني».

فيقال: هذا دليلٌ علىٰ أن روح القدس كانت في داود، فعلم بذلك أن روح القدس التي كانت في المسيح من هذا الجنس، فعلم بذلك أن روح القدس لا تختص بالمسيح، وهم يسلِّمون ذلك، فإن ما في الكتب التي بأيديهم في غير موضع: أن روح القدس حلت في غير المسيح: في داود، وفي الحواريِّين، وفي غيرهم.

وحينئذٍ... فإن كان روح القدس هو حياة الله، ومن حلت فيه يكون لاهوتًا لزم أن يكون إلهًا، ولزم أن يكون كل هؤلاء فيهم لاهوتٌ وناسوتٌ كالمسيح، وهذا خلاف إجْماع المسلمين، والنصارىٰ، واليهود.

ويلزم من ذلك أيضًا أن يكون المسيح فيه لاهوتان: الكلمة، وروح القدس، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين: أقنوم الكلمة، وأقنوم روح القدس، وأيضًا فإن هذه ليست صفةً لله قائمةً به، فإن صفة الله القائمة به، بل وصفة كل موصوفٍ لا تفارقه، وتقوم بغيره، وليس في هذا أن الله اسْمه روح القدس، ولا أن حياته اسْمها روح القدس، ولا أن روح القدس الذي تجسد المسيح منه، ومن مريم هو حياة الله سبحانه وتعالىٰ.

وأنتم قلتم: «إنا معاشر النصارىٰ لَمْ نسمه بهذه الأسْماء من ذات أنفسنا، ولكن الله سَمَّىٰ لاهوته بها» وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سَمىٰ نفسه، ولا شيئًا من صفاته بروح القدس، ولا سَمىٰ نفسه، ولا شيئًا من صفاته ابنًا، فبطل تسميتكم لصفته التي هي الحياة بروح القدس، ولصفته التي هي العلم بالابن.

=

التاريخ الكبير ٤/ ٧٠ عن سلمة بن نفيل السكوني.

وأيضًا فأنتم تزعمون أن المسيح مختصٌ بالكلمة والروح، فإذا كانت روح القدس في داود عليه السلام، والحواريِّين، وغيرهم بطل ما خصصتم به المسيح، وقد علم بالاتفاق أن داود عبد الله ﷺ، وإن كانت روح القدس فيه، وكذلك المسيح عبد الله، وإن كانت روح القدس فيه، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجةٌ عليكم لأهل الإسلام، لا حجةٌ لكم.

قالوا: «وأيضًا علىٰ لسان داود النَّبِيِّ عليه السلام: بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، وبروح فاه جَميع قواتهن».

فيقال: أما قوله: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض» **فهو أيضًا حجةٌ عليكم لوجوه:**

أحدها: أن الله خلق الأشياء بكلمته التي هي «كن» كما قال في التوراة: «ليكن كذا، ليكن كذا، ليكن كذا» وكذلك في الزبور: «لأنه قال فكانوا، وهو أمرٌ، فخلقوا» فجعل كونهم عن قوله.

ومثل قوله في الزبور: «الكل بِحكمة صنعت».

وفي القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وليس المسيح هو هذه الكلمات.

الثاني: أن كلمة الله اسم جنس؛ فإن كلمات الله لا نهاية لها، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والتوراة تدل علىٰ تعدد الكلمات، وإذا كان كذلك فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات، بل خُلِقَ بكلمة منها.

الثالث: أن المسيح عندكم هو الخالق، وأنتم مع قولكم: «إنه الابن والكلمة» تقولون إنه الإله الخالق، وتقولون: «إنه إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ» وتقولون: «إلهٌ واحدٌ» فتجمعون بين النقيضين، وإذا كان هو الخالق فهو الذي يشدد السماوات والأرض، لا يقال: به تشددت السماوات والأرض، وإنَّما يقال: «به» فيما كان صفةً للموصوف، فيقال: خلق الله الأشياء بكن، وخلق الأشياء بقدرته.

وقوله: «بكلمته تشددت السماوات والأرض» يقتضي أن الكلمة صفةٌ، فُعِل بها؛ لأنها هي الخالقة، والمسيح عندكم هو الخالق، ليس هو صفة خلق.

والرابع: أن كلمة الله يراد بها جنس كلماته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وكقول النَّبِيِّ عليه السلام: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

وحينئذٍ... فالمراد: أن الله أقام السماوات والأرض بكلمته، كقوله: «كن»، وليس في هذا تعرضٌ للمسيح عليه السلام.

وأما نقلكم أنه قال: «وبروح فاه جَميع قواتهن» فهذه الكلمة ـ سواءٌ كانت حقًّا، أو باطلًا ـ لا حجة لكم فيها؛ لأنه إن أريد بهذه الكلمة: «حياة الله» فإثبات حياة الله حقٌّ، وهو لمْ يسمِ حياة الله روح القدس كما زعمتم، وإن أراد شيئًا غير حياة الله لمْ تنفعكم، فأنتم ادعيتم أن حياة الله روح القدس، حتَّىٰ قلتم: مراده في الإنْجيل بقوله: «عمدوا الناس باسم الأب، والابن، والروح القدس» هو حياة الله، وادعيتم أن الأنبياء سَمَّوه بذلك، ولمْ تذكروا نقلًا عن الأنبياء أنهم سَمَّوا

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠١، والبخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

حياته روح القدس، بل ذكرتم عنهم ما يوافق ما في القرآن: أن روح القدس ليس المراد بها حياة الله، ولو قُدِّر أن هذا اللفظ استعمل في هذا، وهذا لَمْ يتعين أن المسيح أراد بقوله: «روح القدس» حياة الله، فكيف إذا لَمْ يستعمل في كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجْمعين في حياة الله قط.

- **قالوا:** «وقوله على لسان أيوب الصديق: روح الله خلقني، وهو يعلمني».

فيقال: إن هذا لا حجة فيه، لأنكم أدعيتم أن الأنبياء سمّت حياة الله روح القدس، وهذا لم يقل: روح القدس، بل **قال:** «روح الله» وروح الله يراد بها: الملك الذي هو روحٌ، اصطفاه الله فأحبها، كما قال في القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩].

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشرًا سويًّا، وتبين أنه رسوله، فعلم أن المراد بالروح: ملكٌ، هو روح اصطفاها، فأضافها إليه، كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بِخصائص يحبها، كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

قالوا: وقوله على لسان أشعيا النَّبِيِّ: «ييبس القتاد، ويجف العشب، وكلمته باقية إلى الأبد».

فيقال: إما أن يريد بكلمة الله علمه، أو كلمةً معينةً، أو تكون كلمة الله اسم جنس، وعلى التقديرات الثلاثة لا حجة لكم في ذلك؛ فإنه إن كان كلمة الله اسم جنس لكل ما تكلم الله به، كما قال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

فالمراد بذلك أن ما قاله الله فهو حقٌّ ثابتٌ، لا يبطل، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

يعني بتمامها: نفاذ ما وعدهم به من النصر علىٰ فرعون، وإهلاكه، وإخراجهم إلىٰ الشام.

ومن هذا الباب قول المسيح: «السماء والأرض يزولان، وكلامي لا يزول» فإن أراد علم الله فعلم الله باقٍ، سواءٌ أراد به علمه القائم بذاته، أو معلومه الذي أخبر ببقائه، فلا حجة لكم فيه، وكذلك إن أراد كلمةً معينةً؛ فإن المسيح عندكم ليس كلمةً معينةً من كلامه، بل هو عندكم هو الكلمة، وهو الله الخالق، وليس في هذا اللفظ ما يدل علىٰ أنه أراد بالكلمة المسيح، والمسيح عندكم أزليٌّ أبديٌّ، لا يوصف بالبقاء دون القدم، ولو قدر أنه أراد بالكلمة المسيح، فنحن لا ننكر أنه يسمىٰ بالكلمة؛ لأنه قال له: «كن» فكان، كما سيأتي بيان ذلك، ويريد بذلك: إما بقاؤه إلىٰ أن ينْزل إلىٰ الأرض، وإما أن يريد بقاء ذكره، والثناء عليه، ولسان صدق له إلىٰ آخر الزمان.

ومما يوضح هذا، وأنه ليس المراد به ما يدعونه أنه قال: «وكلمة الله باقية إلىٰ الأبد» فوصفها بالبقاء دون القدم، وعندهم أن الكلمة المولودة من الأب قديمةٌ أزليةٌ، لم تزل، ولا تزال، ومثل هذا لا يحتاج أن يوصف بالدوام والبقاء، بِخلاف ما وعد به من النعيم، والرحْمة، والثواب، فإنه يوصف بالبقاء والدوام،

وفي الزبور: «اعترفوا للرب؛ فإنه صالِحٌ، وإنه إلىٰ الأبد رحمته».

قالوا: «وقال السيد المسيح في الإنْجيل المقدس لتلاميذه الأطهار: اذهبوا إلىٰ جَميع الأمم، وعمدوهم باسم الاب والابن وروح القدس الإله الواحد،

وعلموهم أن يحفظوا جَميع ما أوصيكم به».

فيقال لهم: هذا عمدتكم علىٰ ما تدعونه من الأقانيم الثلاثة، وليس فيه شيءٌ يدل علىٰ ذلك، لا نصًّا، ولا ظاهرًا؛ فإن لفظ الابن لم يستعمل قط في الكتب الإلهية في معنَىٰ صفةٍ من صفات الله، ولم يسمِّ أحدٌ من الأنبياء علم الله ابنه، ولا سَمَّوا كلامه ابنه، ولكن عندكم أنهم سَمَّوا عبده، أو عباده ابنه أو بنيه، وإذا كان كذلك فدعواكم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله وكلامه دعوىٰ في غاية الكذب علىٰ المسيح، وهو حَملٌ للفظه علىٰ ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه، لا حقيقةً، ولا مجازًا، فأي كذبٍ وتحريفٍ لكلام الأنبياء أعظم من هذا.

ولو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله لسميت حياته ابنًا، وقدرته ابنًا، فتخصيص العلم بلفظ الابن دون الحياة خطأٌ ثانٍ، لو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله، فكيف إذا لم يكن كذلك.

وكذلك روح القدس لم يستعملوها في حياة الله، ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة الله التي هي صفته، وإنما أرادوا بذلك ما يُنَزِّله علىٰ الصديقين والأنبياء، ويؤيدهم به، كما في قول داود: «روحك القدس لا تُنْزَع مني»، وعندهم أن روح القدس حلت في الحواريِّين، وقد قدمنا أن روح القدس يراد به الملك، ويراد به ما يجعله في القلوب من الهدىٰ والقوة، ومنه قوله في بعض النبوات: «وفي تلك الأيام أسكب من روحي علىٰ كل قديس» وفي زبور داود: «روحك الصالِح يهديني في أرض مستقيمة».

يوضح هذا أنهم قالوا في أمانتهم: «الذي من أجلنا نَحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء» وذكروا أن ذلك في الكتب المقدسة، والذي في الكتب المقدسة لا يكون إلا حقًّا، ولا ريب أن فيها مثل ما في القرآن، وفي القرآن أن الله أرسل روحه إلىٰ مريم، فنفخ

فيها، فحملت بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا الروح هو الرسول، كما قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩].

ونفخ فيها من هذا الروح، فكان المسيح مخلوقًا من هذا الروح، ومن أمه مريم، كما قالوا في الأمانة: أنه تجسد من مريم ومن روح القدس، لكن اعتقدوا أن روح القدس التي خُلِقَ المسيح منها ومن مريم هي حياة الله، وهذا ليس في الكتب ما يدل عليه، بل الكتب كلها صريحة في نقيض هذا، وهو أيضًا مناقضٌ لقولهم: إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة، وهو العلم؛ فإن كان قد تجسد من مريم وأقنوم الكلمة، لم يكن متجسدًا من روح القدس، وإن كان من روح القدس لم يكن من الكلمة، وإن كان منهما جَميعًا كان المسيح أقنومين: أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح.

والنصارىٰ بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون: إنَّما المتحد به أقنوم الكلمة، لا أقنوم الحياة، فتبين تناقضهم في أمانتهم، وتبين خطؤهم فيما فسروا به كلام الأنبياء، وتبين أن ما ثبت عن الأنبياء فهو حقٌّ موافقٌ لما أخبر به محمدٌ خاتم النبيين، لا يناقض شيئًا من كلام الأنبياء، كما أنه لا يناقض شيئًا من كلامهم صريح المعقول، وتبين أنهم حَملوا كلام الأنبياء في لفظ الابن، وروح القدس، وغيره علىٰ ما لم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه، وتركوا حَمله علىٰ المعنَىٰ الموجود في كلامهم، وهذا من أبلغ ما يكون من تحريف كلامهم عن مواضعه، وتبديل معاني كلام الله، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس علىٰ معنًىٰ لم يستعمله فيه الأنبياء، ولا أرادوه به، ويترك حَمله علىٰ المعنَىٰ المعروف الذي يستعملونه فيه دائمًا.

وهل هذا إلا من فعل من يحرّف كلام الأنبياء، ويفتري الكذب عليهم، بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الأب الذي يريدون به في لغتهم الرب، والابن الذي يريدون به في لغتهم المربِي، وهو هنا المسيح، وروح القدس وهو روح القدس الذي أيّد الله به المسيح: من الملك، والوحي، وغير ذلك، وبهذا فسر هذا الكلام من فسره من أكابر علمائهم.

فهذا ما ذكروه في كتابهم، يحتجون بها علىٰ ما يعتقدونه من الأقانيم الثلاثة، قائلين: «إن تسمية الله أنه أب وابن وروح القدس أسْماء لم نسمه نَحن النصارىٰ بها من ذات أنفسنا، بل الله سَمَّىٰ لاهوته بها».

وقد تبين أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء ما يدل ـ لا نصًّا، ولا ظاهرًا ـ علىٰ أن أحدًا من الأنبياء سَمَّىٰ الله، ولا شيئًا من صفاته ابنًا، ولا روح قدس.

وتبين أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنًا، وتسميتهم لحياته روح القدس أسْماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، وأنه ليس معهم علىٰ ما ادعوه من الأقانيم حجةٌ أصلًا، لا سَمعية، ولا عقلية، وأنه ليس لقولهم بالتثليث، وحصرهم لصفات الله في ثلاثة مستندٌ شرعيٌّ، كما تبين أنه ليس له مستندٌ عقليٌّ،

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل علىٰ محمدٍ عليه السلام حجةٌ لهم علىٰ الأقانيم التي ادعوها، وهم ابتدعوا القول بالأقانيم، والتثليث قبل أن يبعث محمدٌ عليه السلام، وذلك معروفٌ عندهم من حين ابتدعوا الأمانة التي لهم، التي وضعها الثلاثمائة وثمانية عشر منهم بِحضرة قسطنطين الملك.

فإذا لَمْ يكن لهم مستندٌ عقليٌّ، ولا سَمعي عن الأنبياء قبل محمدٍ عليه السلام، فكيف يكون لهم مستندٌ فيما جاء به محمدٌ عليه السلام بعد ابتداعهم الأمانة.

لا سيما مع العلم الظاهر المتواتر أن محمدًا عليه السلام كفرهم في الكتاب

الذي أنزل عليه، وضللهم، وجاهدهم بنفسه، وأمر بِجهادهم،

وقالوا: «وقد قال في هذا الكتاب أيضًا: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين﴾».

فيقال لهم: حرفتم لفظ الآية ومعناها؛ فإن لفظها: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

فالكلمة التي سبقت لعباده المرسلين قوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾.

أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرهم، فسبق منه كلمته بِما سيكون من نصر المرسلين، وملء جهنم من الجِنَّةِ والناس أجْمعين، ونَحو ذلك.

فحرف هؤلاء الضلال لفظ الآية فقالوا: «لعبادنا الصالحين»، وجعلوا: «الكلمة» هي المسيح، وليس في اللفظ ما يدل علىٰ ذلك بوجهٍ من الوجوه.

ولا في كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين معنًىٰ صحيحٍ،

قالوا: «وقال أيضًا: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠].

فيقال: هذا مما لا ريب فيه، ولا حجة لكم فيه، بل هو حجةٌ عليكم؛ فإن الله أيّد المسيح عليه السلام بروح القدس، كما ذكر ذلك في هذه الآية، وقال تعالىٰ في البقرة: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧].

وهذا ليس مختصًّا بالمسيح، بل قد أيّد غيره بذلك، وقد ذكروا هم أنه قال لداود: «روحك القدس لا تُنْزَع مني».

وعند النصارىٰ أن الحواريِّين حلت فيهم روح القدس، وكذلك عندهم روح القدس حلت في جَميع الأنبياء.

فهذه الروح التِي أوحاها، والتي تَنْزِل بها الملائكة علىٰ من يشاء من عباده غير الروح الأمين التي تَنْزِل بالكتاب، وكلاهُما يُسمىٰ روحًا، وهما متلازمان، فالروح التِي يَنْزِل بها الملك مع الروح الأمين التِي يَنْزِل بها روح القدس يُراد بها هذا وهذا، وبكلا القولين فسر المفسرون قوله في المسيح: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ولم يقل أحدٌ: إن المراد بذلك حياة الله، ولا اللفظ يدل علىٰ ذلك، ولا استعمل فيه.

وهم إمّا أن يُسَلِّموا أن «روح القدس» في حقّ غيره ليس المراد بها حياة الله، فإذا ثبت أن لها معنًىٰ غير الحياة، فلو استعمل في حياة الله أيضًا لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح؟!.

وإما أن يدّعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريِّين، فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالًّا في جَميع الأنبياء والحواريِّين، وحينئذ...فلا فرق بين هؤلاء، وبين المسيح.

ويلزمهم أيضًا أن يكون في المسيح لاهوتان: لاهوت الكلمة، ولاهوت الروح، فيكون قد اتحد به أقنومان.

ثم في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يَمتنع أن يراد بها حياة الله، فإن حياة الله صفةٌ قائمةٌ بذاته، لا تقوم بغيره، ولا تختص ببعض الموجودات غيره، وأما عندهم فالمسيح هو الله الخالق، فكيف يؤيد بغيره؟!.

وأيضًا فالمتّحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة، فلا يصح تأييده بها، فتبين أنهم يريدون أن يحرّفوا القرآن كما حرّفوا غيره من الكتب المتقدمة، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنسٍ واحدٍ

قالوا: «وقال أيضًا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]».

فيقال لهم: وأي حجةٍ لكم في هذا، وإنَّما هو حجةٌ عليكم، فإنه قد ثبت أن الله كلّم موسىٰ تكليمًا، وكلام الله الذي سَمعه منه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس هو المسيح، فعلم أن المسيح ليس هو كلام الله، وعندهم هو كلمة الله، وهو علم الله، وهو الله، ومعلومٌ أن كلام الله كثيرٌ كالتوراة، والإنْجيل، والقرآن، وغير ذلك من كلامه، وليس المسيح شيئًا من ذلك، والمسيح عندهم خالقٌ، ولو كان المسيح نفس كلام الله لم يكن خالقًا، ولا معبودًا؛ فإن كلام الله لم يخلق السماوات والأرض، ولا كلام الله هو الإله المعبود، بل كلامه كسائر صفاته، مثل حياته، وقدرته، ولا يقول أحد: يا علم الله! اغفر لي، ولا: يا كلام الله! اغفر لي.

وإنَّما يُعبد ويُدعىٰ الإله الموصوف بالعلم، والقدرة، والكلام الذي كلم به موسىٰ تكليما.

قالوا: «وسائر المسلمين يقولون: إن الكتاب كلام الله، ولا يكون كَلَامٌ إِلَّا لحيٍّ ناطق، وهذه صفات جوهرية تجري مجرىٰ الأسْماء، وكل صفةٍ منها غير الأخرىٰ، فالإله واحدٌ، خالقٌ واحدٌ، وربٌّ واحدٌ لا يتجزأ».

فيقال لهم: أما قول المسلمين: إن الكتاب ــ أي القرآن ــ كلام الله، فهذا حقٌّ، والكلام لا يكون إلا لمتكلم.

والمسلمون يقولون: إن الله حيٌّ متكلمٌ، وإنه تكلم بالتوراة، والإنْجيل،

والقرآن، وغير ذلك من كلامه، والقرآن قد أخبر بكلام الله في مواضع كثيرةٍ.

وهل يُسمىٰ ناطقًا، وكلامه نطقًا؟.

فيه نزاعٌ، فبعض المسلمين يجيزه، وبعضهم يَمنع منه؛ لكونه لم يَرِدْ به الشرع، وليس في التوراة، والإنْجيل، والزبور تسمية الله ناطقًا، بِخلاف لفظ القول والكلام، وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم ـ كما تنازع أهل الكتاب ـ في كلام الله هل هو قائمٌ به، أو مخلوقٌ منفصلٌ عنه؟.

والذي عليه سلف الأمة، وأئمتها، وجُمهورها: أن كلام الله قائمٌ بِه، وكذلك سائر ما يوصف به: من الحياة، والقدرة، وغير ذلك.

وأحدث قومٌ منهم بعد انقراض الصحابة، وأكابر التابعين، بعد أكثر من مائة سنة من موت النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه مخلوقٌ، خلقه في غيره، وشاركهم في هذه البدعة كثير من اليهود والنصارىٰ، وظهرت هذه المقالة بعد المائة الثانية، وانتصر لها قومٌ من الولاة وغيرهم، ثم أطفأها الله بِمن أقامه الله من أئمة الإسلام والسنة، الذين بينوا فسادها، وبينوا ما اتفق عليه السلف: من أن كلام الله مُنَزَّلٌ منه، غير مخلوقٍ، بل منه بدأ، لَمْ يبتدئ من شيءٍ من المخلوقات، ومع هذا فلم يقل أحدٌ من المسلمين: إن كلام الله يكون إلهًا، ولا ربًّا.

وكذلك حياته: لَمْ يقل أحدٌ منهم: إن حياته تكون إلهًا، ولا ربًّا، ولا أنه مساوٍ للرب تعالىٰ في الجوهر.

وأما قولهم: «هذه صفات جوهرية تجري مجرىٰ أسْماء».

فإن أرادوا بقولهم: «جوهرية» أن كل صفةٍ جوهرٌ، فهذا كلامٌ ظاهر الفساد، فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهرًا قائمًا بنفسه، ومن ظنّ أن حرارة النار القائمة بها جوهرٌ قائمٌ بنفسه كالنار، فهو إما مصابٌ في عقله، وإما مسفسطٌ

معاندٌ، والأول يستحق علاج المجانين، والثاني يستحق العقوبة التي تردعه عن العناد.

ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهرًا كانت القدرة أيضًا جوهرًا.

وإن أرادوا بقولهم: «جوهرية» أنها صفاتٌ ذاتيةٌ، وغيرها صفات فعلية، كالخالق والرازق، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة وغيرها، فلم تنحصر في هذه.

وأيضًا فالكلام وإن كان قائمًا بذاته، فقيل: هو متعلقٌ بِمشيئته وقدرته، وهو قول السلف والأكثرين، وقيل: ليس كذلك.

والمتكلم قيل: هو من فعل الكلام، ولو كان منفصلًا عنه.

وقيل: هو من قام به الكلام، وإن لَمْ يكن بِمشيئته وقدرته.

وقيل: المتكلم من قام به الكلام بِمشيئته وقدرته.

وهذا قول السلف والأكثرين، فبطل قولهم علىٰ كل تقديرٍ.

وإن أرادوا بالجوهرية أنها ذاتيةٌ مقومةٌ، وباقي الصفات عرضية ـ علىٰ رأي أهل المنطق: اليونان، الذين يفرقون في الصفات اللازمة للموصوف بين هذا وهذا ـ **كان هذا فاسدًا من وجوهٍ:**

وأما قولهم: «كل صفةٍ منها غير الأخرىٰ».

فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سبحانه وتعالىٰ قد تباينه، وتنفصل عنه، وهو حقيقة قولهم، ويقولون مع ذلك أنها متصلةٌ به، فهو جَمع بين النقيضين، وتمثيلهم بشعاع الشمس تمثيلٌ باطلٌ، وهو حجةٌ عليهم، لا لهم؛ فإن الشعاع القائم بالهواء، والأرض، والجبال، والشجر، والحيطان ليس هو قائمٌ بذات

الشمس، والقائم بذات الشمس ليس هو قائمًا بالهواء والأرض.

فإن قالوا: بل ما يقوم به من العلم يفيض منه علىٰ قلوب الأنبياء علوم، كما يفيض الشعاع من الشمس.

قيل لهم: لا اختصاص للمسيح بهذا، بل هذا قدرٌ مشتركٌ بينه وبين غيره من الأنبياء، وليس في هذا حلول ذات الرب، ولا صفته القائمة به بشيءٍ من مخلوقاته، ولا أن العبد بِما حل فيه من العلم، والإيمان يصير إلهًا معبودًا.

وإن أرادوا أنها قائمةٌ به، وتسمىٰ كل واحدةٍ غير الأخرىٰ، فهنا نزاعٌ لفظيٌّ: هل تسمىٰ غيرًا، أو لا تسمىٰ غيرًا؟.

فإن من الناس من يقول: كل صفة للرب ﷻ فهي غير الأخرىٰ، ويقول: الغيران: ما جاز وجود أحدهِما مع عدم الآخر، أو ما جاز العلم بأحدهِما مع الجهل بالآخر.

ومنهم من يقول: ليست هي الأخرىٰ، ولا هي هي؛ لأن الغيرين: ما جاز وجود أحدهِما مع عدم الآخر، أو ما جاز مفارقة أحدهِما الآخر بزمانٍ، أو مكانٍ، أو وجودٍ.

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم: علم الله، وكلام الله، هل هو غير الله، أم لا؟ لمْ يُطلقوا النفي، ولا الإثبات؛ فإنه إذا قال: غيره، أوهم أنه مباينٌ له، وإذا قال: ليس غيره، أوهم أنه هو، بل يستفصل السائل؛ فإن أراد بقوله: غيره، أنه مباينٌ له، منفصلٌ عنه، فصفات الموصوف لا تكون مباينةً له، منفصلةً عنه، وإن كان مخلوقًا، فكيف بصفات الخالق.

وإن أراد بالغير أنها ليست هي هو، فليست الصفة هي الموصوف، فهي غيره بهذا الاعتبار، واسم الرب تعالىٰ إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بِما يستحقه

من صفات الكمال، فيمتنع وجود الذات عَرِيَّةً عن صفات الكمال، فاسم «الله» يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدةً علىٰ هذا المسمىٰ، بل هي داخلةٌ في المسمىٰ، ولكنها زائدةٌ علىٰ الذات المجردة التِي تثبتها نفاة الصفات، فأولئك لما زعموا أنه ذاتٌ مجردةٌ، قال هؤلاء: بل الصفات زائدةٌ علىٰ ما أثبتموه من الذات.

وأما في نفس الأمر فليس هناك ذاتٌ مجردةٌ تكون الصفات زائدةً عليها، بل الرب تعالىٰ هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال، وصفاته داخلةٌ في مسمىٰ أسْمائه سبحانه وتعالىٰ.

وقولهم: «فالإله واحدٌ، خالقٌ واحدٌ، ربٌّ واحدٌ».

هو حق في نفسه؛ لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم: «نؤمن بربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مُسَاوٍ الأب في الجوهر».

فأثبتوا هنا إلهين، ثم أثبتوا روح القدس إلهًا ثالثًا، وقالوا: «إنه مسجودٌ له» فصاروا يثبتون ثلاثة آلهةٍ، ويقولون: إنَّما نثبت إلهًا واحدًا، وهو تناقضٌ ظاهرٌ، وجَمع بين النقيضين: بين الإثبات والنفي.

ولهذا قال طائفةٌ من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يُمكن تصورها إلا مقالة النصارىٰ، وذلك أن الذين وضعوها لَمْ يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بِجهلٍ، وجَمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارىٰ لتفرقوا عن أحد عشر قولًا، وقال آخر: لو سألت بعض النصارىٰ، وامرأته، وابنه عن توحيدهم، لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا.

وقولهم: «لا يتبعض، ولا يتجزأ» مناقضٌ لما ذكروه في أمانتهم، ولما يُمثلونه به؛ فإنه يُمثلونه بشعاع الشمس، والشعاع يتبعض، ويتجزأ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعضٌ وجزءٌ منه، ويُمكن زوال بعضه مع بقاء بعضٍ، فإنه إذا وضع علىٰ مطرح الشعاع شيءٌ فصل ما بين جانبيه، وصار الشعاع الذي كان بينهما علىٰ ذلك الفوقاني فاصلًا بين الشعاعين السافلين، يبين ذلك أن الشعاع قائمٌ بالأرض والهواء، وكل منهما متجزئٌ متبعضٌ، وما قام بالمتبعض فهو متبعضٌ، فإن الحالّ يتبع المحل، وذلك يستلزم التبعض وَالتَّجْزِيءَ فيما قام به.

ويقولون أيضًا: «إنه اتحد بالمسيح، وأنه صعد إلىٰ السماء، وجلس عن يَمين الأب» وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لمْ يفارقه، بل لما صعد إلىٰ السماء وجلس عن يَمين الأب، كان الصاعد عندهم هو المسيح الذي هو ناسوتٌ ولاهوتٌ، إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تامٌّ، فهم لا يقولون: إن الجالس عن يَمين الأب هو الناسوت فقط، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يَمين اللاهوت، فأي تبعيضٍ وتجزئةٍ أبلغ من هذا.

وليس هذا من كلام الأنبياء حتَّىٰ يقال: إن له معنًىٰ لا نفهمه، بل هو من كلام أكابرهم، الذي وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم، فإن كانوا تكلموا بِما لا يعقلونه فهم جهالٌ، لا يجوز أن يتبعوا، وإن كانوا يعقلون ما قالوه، فلا يعقل أحدٌ من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يَمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصلٌ مباينٌ للاهوت المتحد، وليس هو متصلًا به، بل غايته أن يكون مماسًّا له، بل يجب أن يكون الذي يُماسّ اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر.

وأيضًا فيقال لهم: المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين، أم صفةٌ من

صفاته؟.

فإن كان هو الذات، فهو الأب نفسه، ويكون المسيح هو الأب نفسه، وهذا مما اتفق النصارىٰ علىٰ بطلانه؛ فإنهم يقولون: هو الله، وهو ابن الله، كما حكىٰ الله عنهم، ولا يقولون: هو الأب والابن، والأب عندهم هو الله، وهذا من تناقضهم.

وإن قالوا: المتحد بالمسيح صفة الرب، فصفة الرب لا تفارقه، ولا يُمكن اتحادها ولا حلولها في شيءٍ دون الذات.

وأيضًا فالصفة نفسها ليست هي الإله الخالق رب العالمين، بل هي صفته، ولا يقول عاقلٌ: إن كلام الله، أو علم الله، أو حياة الله هي رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض، فلو قُدِّرَ أن المسيح هو صفة الله نفسها لَمْ يكن هو الله، ولَمْ يكن هو رب العالمين، ولا خالق السماوات والأرض.

والنصارىٰ يقولون: إن المسيح رب العالمين، خالق كل شيءٍ، وهو خالق آدم ومريم، وإن كان ابن آدم ومريم، فإنه خالق ذلك بلاهوته، وهو ابن آدم ومريم بناسوته.

فلو قُدِّرَ أن المسيح هو صفة الرَّبِّ لَمْ تكن الصفة هي الخالق، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها؟! بل هو مخلوقٌ بكلمة الله، وسُمي كلمة الله؛ لأن الله كونه بـ «كن».

وسَماه روحه؛ لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمه، لَمْ يخلقه كما خلق غيره من أبٍ آدميٍّ.

وإن قالوا: المتحد به بعض ذلك دون بعض، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة، فهم بين أمرين: إما بطلان مذهبهم، وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع

بطلانه.

وأيضًا فقولهم: «إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، ابن الله الوحيد، المولود قبل كل الدهور».

يقال لهم: هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر، الذي هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، هل هو صفةٌ قائمةٌ بغيرها، أو عينٌ قائمةٌ بنفسها؟.

فإن كان الأول، فالصفة ليست إلهًا، ولا هي خالقةٌ، ولا يقال لها: مولودة من الله، ولا أنها مساويةٌ لله في الجوهر، ولمْ يُسَمِّ قط أحدٌ من الأنبياء، ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابنًا له، ولا ولدًا، ولا قال: إن صفة الله تولدت منه، ولا قال عاقلٌ: إن الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة.

وهم يقولون: إن المسيح إلهٌ خلق السماوات والأرض؛ لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور، المساوي الأب في الجوهر.

وهذا كله نعت عينٍ قائمةٍ بنفسها كالجواهر القائمة بنفسها، لا نعت صفات قائمة بغيرها، وإذا كان كذلك كان التبعيض والتجزئة لازمةٌ لقولهم؛ فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزمٌ لأن يكون خرج منه جزءٌ، وأما هذا المعنَىٰ الذي يثبته من يثبته من علماء النصارىٰ، ويسمونه ولادة وبنوة، فيسمون الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنًا، ويسمونها تارةً النطق، وتارةً الكلمة، وتارةً العلم، وتارةً الحكمة، ويقولون: هذا مولود من الله، وابن الله.

فهذا لم يقله أحدٌ من الأنبياء وأتباعهم، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارىٰ، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنَىٰ، والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا علىٰ مخلوقٍ، وهم يقولون: هو أب للمسيح بالطبع، ولغيره بالوضع، فلا يعقل جُمهور العقلاء وغيرهم من هذا

المعنَىٰ إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الوالد.

وهذا ينكره من ينكره من علمائهم، لكنهم لم يتبعوا الأنبياء، ولم يقولوا ما تعقله العقلاء، فضلوا فيما نقوله عن الأنبياء، وأضلوا أتباعهم فيما قالوه، وعوامهم، وإن كانوا لا يقولون: إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شيءٍ يوجد، فيقولون: ولادة لاهوتية بانفصال جزء من اللاهوت حلّ في الناسوت، لا يعقل من الولادة غير هذا.

وأيضًا فقولهم: «ونؤمن بروح القدس، الرب المحي المنبثق من الأب، الذي هو مع الأب مسجودٌ له، وممجدٌ ناطقٌ في الأنبياء».

فقولهم: «المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجودٌ له، وممجدٌ» يمتنع أن يقال هذا في حياة الرب القائمة به؛ فإنها ليست منبثقةً منه كسائر الصفات، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقًا لكان علمه، وقدرته، وسائر صفاته منبثقةً منه، بل الانبثاق في الكلام أظهر منه في الحياة؛ فإن الكلام يخرج من المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من الحي، فلو كان في الصفات ما هو منبثقٌ لكان الصفة التي يسمونها الابن ـ ويقولون: هي العلم والكلام، أو النطق والحكمة ـ أولىٰ بأن تكون منبثقة من الحياة التِي هي أبعد عن ذلك من الكلام.

وقد قالوا أيضًا: «إنه مع الأب مسجودٌ له، وممجدٌ» والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجودٌ لها، وقالوا: «هو ناطقٌ في الأنبياء» وصفة الرب القائمة به لا تنطق في الأنبياء، بل هذا كله صفة روح القدس الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل، فإذا كان هذا منبثقًا من الأب، والانبثاق: الخروج، فأي تبعيضٍ وتجزئةٍ أبلغ من هذا.

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلًا من وجوه:

منها: أن الشعاع عَرَضٌ قائمٌ بالهواء والأرض، وليس جوهرًا قائمًا بنفسه، وهذا عندهم حيٌّ مسجودٌ له، وهو جوهرٌ.

ومنها: أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفةً للشمس، ولا قائمًا بها، وحياة الرب صفةٌ قائمةٌ به.

ومنها: أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا في الكلمة: إنها منبثقةٌ، والانبثاق لو كان حقًّا لكان بالكلمة أشبه منه بالحياة، وكلما تدبر العاقل كلامهم في الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفىٰ إلا علىٰ أجهل العباد، ووجد فيه من مناقضته التوراة، والإنْجيل، وسائر كتب الله ما لا يخفىٰ.

من تدبر هذا وهذا وجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفىٰ إلا علىٰ معاندٍ، أو جهولٍ، فقولهم متناقضٌ في نفسه، مخالفٌ لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجْمعين.

قالوا: «وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ، وولادتهما معًا ـ أي الكلمة مع الناسوت ـ فإنه لم يخاطب الباري أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجابٍ حسب ما جاء في هذا الكتاب بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف روح القدس وغيرها، فكلمة الله التِي بها خلقت اللطائف والكثائف تظهر في غير كثيف كُلًّا، ولذلك ظهر في عيسىٰ ابن مريم، إذ الإنسان أجلّ ما خلقه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا».

والجواب من طرقٍ:

أحدها: أنه يقال: هذا الذي ذكروه، وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة

بإنسانٍ مخلوقٍ، وولادتهما معًا، أي الكلمة مع الناسوت، وهو الذي يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت، هو أمرٌ ممتنعٌ في صريح العقل، وما علم أنه ممتنعٌ في صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسولٌ، فإن الرسل إنَّما تخبر بِما لا يعلم بالعقل أنه ممتنعٌ، فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنعٌ فالرسل مُنَزَّهون عن الإخبار عنه.

الطريق الثاني: أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بِخالق العالم، والنصارىٰ يقولون: هو إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تامٌّ.

الطريق الثالث: الكلام فيما ذكروه.

فأما الطريق الأول فمن وجوهٍ:

أحدها: أن يقال: المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام، أو الكلام فقط، وإن شئت قلت: المتحد به إما الكلام مع الذات، وإما الكلام بدون الذات.

فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب، وهو الابن، وهو روح القدس، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة.

وهذا باطلٌ باتفاق النصارىٰ، وسائر أهل الملل، وباتفاق الكتب الإلهية، وباطلٌ بصريح العقل، كما سنذكره إن شاء الله.

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط، فالكلمة صفة، والصفة لا تقوم بغير موصوفها، والصفة ليست إلهًا خالقًا، والمسيح عندهم إلهٌ خالقٌ، فبطل قولُهم علىٰ التقديرين.

وإن قالوا: المتحد به الموصوف بالصفة، فالموصوف هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب.

وإن قالوا: الصفة فقط، فالصفة لا تفارق الموصوف، ولا تقوم بغير الموصوف، والصفة لا تخلق، ولا ترزق، وليست الإله، والصفة لا تقعد عن يَمين الموصوف، والمسيح عندهم صعد إلىٰ السماء، وجلس عن يَمين أبيه.

وأما كونه هو الأب فقط، وهو الذات المجردة عن الصفات، فهذا أشدّ استحالةً، وليس فيهم من يقول بهذا.

الوجه الثاني: أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد، فليس ذلك باتحاد.

وإن قيل: صارا جوهرًا واحدًا ـ كما يقول من يقول منهم: إنهما صارا كالنار مع الحديدة، أو اللبن مع الماء ـ فهذا يستلزم استحالة كل منهما، وانقلاب صفة كل منهما، بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا، والنار مع الحديدة، وحينئذٍ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال، وتبدلت صفته وحقيقته، والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيءٍ ووجود آخر، فيلزم عدم شيءٍ من القديم الواجب الوجود بنفسه، وما وجب قدمه استحال عدمه، وما وجب وجوده امتنع عدمه، فإن القديم لا يكون قديمًا إلا لوجوبه بنفسه، أو لكونه لازمًا للواجب بنفسه، إذ لو لم يكن لازمًا له ـ بل كان غير لازم له ـ لم يكن قديمًا بقدمه، والواجب بنفسه يَمتنع عدمه، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه، فإنه يلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم.

الوجه الثالث: أن يقال: الناس لهم في كلام الله ﷻ عدة أقوال، وقول النصارىٰ باطلٌ علىٰ جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله، فثبت بطلانه علىٰ كل تقدير.

وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفةً له قائمًا به، وإما أن يكون مخلوقًا له بائنًا عنه، وإما أن يكون لا هذا ولا هذا، بل هو ما يوجد في النفوس، وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء، وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة: إن الرب لا تقوم به الصفات، وليس هو خالقًا باختياره، ويقولون مع ذلك: إنه ليس عالمًا بالجزئيات، ولا قادرًا علىٰ تغيير الأفلاك، بل كلامه عندهم ما يفيض علىٰ النفوس، وربَّما سَمَّوه كلامًا بلسان الحال.

وهؤلاء ينفون الكلام عن الله، ويقولون: ليس بِمتكلمٍ، وقد يقولون: متكلم مجازًا، لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل في الملل منهم، ثم فسره بِمثل هذا، وهذا أحد قولي الجهمية.

والقول الثاني: أنه متكلمٌ حقيقةً، لكن كلامه مخلوقٌ، خلقه في غيره، وهو قول المعتزلة وغيرهم، والقول الآخر للجهمية.

وعلىٰ هذين القولين فليس لله كلامٌ قائمٌ به حتَّىٰ يتحد بالمسيح، أو يحلّ به، والمخلوق عرضٌ من الأعراض، ليس بإلهٍ خالقٍ، وكثير من أهل الكتاب: اليهود والنصارىٰ من يقول بهذا وهذا.

والقول الثالث: إنه متكلمٌ بِمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته، قالوا: وهو حادثٌ، ويَمتنع أن يكون قديمًا؛ لامتناع كون المقدور المراد قديمًا.

وهذه الطوائف بنوا أقوالهم علىٰ أن ما لم يخْلُ عن الحوادث فهو حادثٌ؛ لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم، وإذا امتنع ذلك تَعَيَّنَ أن يكون لنوع الحوادث ابتداءٌ، كما للحادث المعنَىٰ ابتداءٌ، ولم يسبق الحوادث كان معه أو بعده، فيكون حادثًا، فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لا نهاية لها في الأزل، وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها في الأبد.

وأما القول بأن كلمات الله لا نهاية لها مع أنها قائمةٌ بذاته، فهو القول المأثور عن أئمة السلف، وهو قول أكثر أهل الحديث، وكثير من أهل الكلام، ومن الفلاسفة، وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها في غير موضع.

والمقصود هنا أن قول النصارىٰ باطلٌ علىٰ كل قولٍ من هذه الأقوال الأربعة، كما تقدم بيان بطلانه علىٰ ذينك القولين، فإنه علىٰ قول الجمهور الذين يجعلون لله كلماتٍ كثيرةٍ: إما كلماتٍ لا نهاية لها ولم تزل، وإما كلماتٍ لها ابتداءٌ، وإذا كان له كلماتٌ كثيرةٌ فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها، وليس هو كلماتٌ كثيرةٌ، بل إنَّما خُلِقَ بكلمةٍ من كلمات الله، كما في الكتب الإلهية ـ القرآن والتوراة ـ أنه يخلق الأشياء بكلماته.

والله تعالىٰ أيّد رسله من البشر حتَّىٰ أطاقوا التلقي عن الملائكة، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانًا في غير الصورة البشرية، وأحيانًا في الصورة البشرية، فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف، ووصولها إليهم أولىٰ منه بالكثائف، ولو جاز أن يتّحد الرّبّ سبحانه بِحيٍّ من الأحياء، ويحلّ فيه، لكان حلوله في ملك من الملائكة، واتحاده به أولىٰ من حلوله واتحاده بواحدٍ من البشر.

۞ [اللاهوت ـ على زعمهم ـ اتحد بروح المسيح وبدنه]:

الوجه الحادي عشر: أن الناسوت المسيحي عندهم الذي اتحد به هو البدن والروح معًا، فإن المسيح كان له بدنٌ وروحٌ كما له لسائر البشر، واتحد به عندهم اللاهوت، فهو عندهم اسمٌ يقع علىٰ بدن وروح آدميين، وعلىٰ اللاهوت، وحينئذٍ فاللاهوت علىٰ رأيهم إنَّما اتحد في لطيفٍ: وهو الروح، وكثيفٍ: وهو البدن، لمْ يظهر في كثيفٍ فقط، ولولا اللطيف الذي كان مع الكثيف ـ وهو الروح ـ لمْ يكن للكثيف فضيلةٌ، ولا شرفٌ.

الوجه الثاني عشر: أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح

بالبدن، كما شبّهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح في البدن، وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح، وما تتألم به الروح يتألم به البدن، فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب، وتألم، وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضًا متألما متوجعًا.

وقد خاطبتُ بهذا بعض النصارىٰ، فقال لي: الروح بسيطة. أي لا يلحقها ألمٌ.

فقلت له: فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت: أمنعمةٌ، أو معذبةٌ؟.

فقال: هي في العذاب.

فقلت: فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب، فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن، لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت، كما تتألم الروح إذا تألم البدن، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك.

الوجه الثالث عشر: أن قولهم: «وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف، فكلمة الله لا تظهر إلا في كثيف كلا» تركيبٌ فاسدٌ لا دلالة فيه، وإنَّما يدلّ إذا بينوا أن كل لطيف يظهر في كثيف، ولا يظهر في غيره حتَّىٰ يقال: فلهذا ظهر الله في كثيف، ولمْ يظهر في لطيف، وإلا فإذا قيل: إنه لا يحلّ لا في لطيفٍ، ولا كثيفٍ، أو قيل: إنه يحلّ فيهما، بطل قولهم بوجوب حلوله في المسيح الكثيف دون اللطيف، وهم لمْ يؤلفوا الحجة تأليفًا منتجًا، ولا دلوا علىٰ مقدماتها بدليلٍ، فلا أتوا بصورة الدليل، ولا مادته، بل مغاليط لا تروج إلا علىٰ جاهلٍ يقلدهم.

ولا يلزم من حلول الروح في البدن أن يحلّ كل شيء في البدن، بل هذه دعوىٰ مجردةٌ، فأرواح بني آدم تظهر في أبدانهم، ولا تظهر في أبدان البهائم، بل

ولا في الجن، والملائكة تتصور في صورة الآدميين، وكذلك الجن، والإنسان لا يظهر في غير صورة الإنسان، فأي دليلٍ من كلامهم علىٰ أن الرَّبَّ يحلّ في الإنسان الكثيف، ولا يحلّ في اللطيف.

والقوم شرعوا يحتجون علىٰ تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا: وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوقٍ وولادتهما معًا، أي الكلمة مع الناسوت، فإن الله لم يكلم أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، وليس فيما ذكروه قط دلالةً، لا قطعيةً، ولا ظنيةً علىٰ تجسيم كلمة الله الخالقة، وولادتها مع الناسوت.

الوجه الرابع عشر: أنهم قالوا: «وأما تجسيم كلمة الله الخالقة» ثم قالوا: «فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف».

فتارةً يجعلونها خالقةً، وتارةً يجعلونها مخلوقًا بها، ومعلومٌ أن الخالق ليس هو المخلوق به، والمخلوق به ليس هو الخالق، فإن كانت الكلمة خالقةً فهي خلقت الأشياء، ولم تخلق الأشياء بها، وإن كانت الأشياء خُلِقت بها فلم تخلُق الأشياء، بل خُلقت الأشياء بها، ولو قالوا: إن الأشياء خلق بها بِمعنَىٰ: أن الله إذا أراد أمرًا فإنَّما يقول له: «كن» فيكون، لكان هذا حقًّا، لكنهم يجعلونها خالقةً مع قولهم بِما يناقض ذلك.

الوجه الخامس عشر: أن يقال لهم: إذا كان الله لمْ يخاطب بشرًا إلا وحيًا، أو من وراء حجابٍ، أو يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء، فتكليمه للبشر بالوحي، ومن وراء حجاب، كما كلّم موسىٰ، وبإرسال ملكٍ، كما أرسل الملائكة، إما أن يكون كافيًا في حصول مراد الرب من الرسالة إلىٰ عباده، أو ليس كافيًا، بل لا بد من حلوله نفسه في بشرٍ، فإن كان ذلك كافيًا أمكن أن يكون المسيح مثل غيره، فيوحي الله إليه، أو يرسل إليه ملكًا، فيوحي بإذن الله ما يشاء، أو يكلمه من وراء

حجابٍ كما كلم موسىٰ، وحينئذٍ فلا حاجة به إلىٰ اتحاده ببشر مخلوقٍ.

وإن كان التكلم ليس كافيًا وجب أن يتَّحد بسائر الأنبياء، كما اتحد بالمسيح، فيتّحد بنوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وداود، وغيرهم. يبين هذا:

الوجه السادس عشر: وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارىٰ الذين كانوا بعد المسيح، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح، فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده في المسيح حتَّىٰ كلم عباده بنفسه، فيتَّحد بالمسيح محتجبًا ببدنه الكثيف، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح، وعوام النصارىٰ، وسائر من كلّمه المسيح، فكان أن يكلّم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولىٰ وأحرىٰ، مثل أن يتَّحد بإبراهيم الخليل، فيكلم إسحاق ويعقوب ولوطًا محتجبًا ببدن الخليل، أو يتَّحد بيعقوب فيكلم أولاده، أو غيرهم محتجبًا ببدن يعقوب، أو يتَّحد بِموسىٰ ابن عمران فيكلم هارون، ويوشع بن نون، وغيرهُما محتجبًا ببدن موسىٰ، فإذا كان هو سبحانه لمْ يفعل ذلك إما لامتناع ذلك، وإما لأن عزته وحكمته أعلىٰ من ذلك مع عدم الحاجة إلىٰ ذلك، عُلِمَ أنه لا يفعل ذلك في المسيح بطريق الأَوْلَىٰ والأَحْرَىٰ.

الوجه السابع عشر: أنه إذا أمكنه أن يتَّحد ببشرٍ فاتحاده بِملك من الملائكة أولىٰ وأحرىٰ، وحينئذٍ فقد كان اتحاده بِجبريل الذي أرسله إلىٰ الأنبياء أولىٰ من اتحاده ببشرٍ يخاطب اليهود، وعوام النصارىٰ.

- **قالوا**: «ولذلك ظهر في عيسىٰ ابن مريم؛ إذ الإنسان أجلّ ما خلقه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا».

فيقال: إن ادعيتم ظهوره في عيسىٰ كما ظهر في إبراهيم، وموسىٰ، ومحمدٍ

صلوات الله عليهم وسلامه، وكما يظهر في بيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسْمه، وذلك بظهور نوره ومعرفته، وذكر أسْمائه وعبادته، ونَحو ذلك من غير حلول ذاته في البشر، ولا اتحاده به، فهذا أمرٌ مشتركٌ بين المسيح وغيره، فلا اختصاص للمسيح بهذا.

وهذا أيضًا قد يسمىٰ حلولًا، وعندهم أن الله يحلّ في الصالحين، وهذا مذكورٌ عندهم في بعض الكتب الإلهية، كما في كتبهم في المزمور الرابع من الزبور، يقول داود؛ في مناجاته لربه: «وليفرح المتوكلون عليك إلىٰ الأبد، ويبتهجون، وتحلّ فيهم، ويفتخرون» (١).

فأخبر أنه يحلّ في الصالحين المذكورين، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به، وليس المراد بهذا ـ باتفاقهم واتفاق المسلمين ـ أن ذات الله نفسه تتحد بالبشر، ويصير اللاهوت والناسوت كالنار والحديد، والماء واللبن، ونَحو ذلك مما يُمثلون به الاتحاد، بل هذا يراد به حلول الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وذكره، وعبادته، ونوره، وهداه.

وقد يعبر عن ذلك بِحلول المثال العلمي، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف:٨٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣].

﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧].

فهو سبحانه له المثل الأعلىٰ في قلوب أهل السماوات، وأهل الأرض.

مَا يَرْوِيهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ قَالَ: يَقُولُ اللهُ: «**أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي،**

---

(١) انظر: العهد القديم ص٨٢٦.

وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ» (١).

فأخبر أن شفتيه تتحرك به، أي باسمه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، فَيَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ ، فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**».

فقال: «لوجدتني عنده» ولمْ يقل: لوجدتني إياه، وهو عنده، أي: في قلبه، والذي في قلبه المثال العلمي.

وقال تعالىٰ: «**وَقَالَ تَعَالَىٰ: عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، فَيَقُولُ: وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ، فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**».

ولم يقل: لوجدتني قد أكلته.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ **قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَن «عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ**».

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٥٤٠، والبخاري في خلق أفعال العباد ص٩٦، وابن ماجه ٢/ ١٢٤٦ (٣٧٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام، أو الاتحاد العام، أو وحدة الوجود، وقد يحتجّ به من يقول بالخاص من ذلك، كأشباه النصارىٰ.

والحديث حجةٌ علىٰ الفريقين؛ فإنه قال: «**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» فأثبت ثلاثة: وليًّا له، وعدوًّا يعادي وليه، وميّز بين نفسه، وبين وليه، وعدو وليه، فقال: «**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**».

ولكن دلّ ذلك علىٰ أن وليه الذي والاه، فصار يحبّ ما يحبّ، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، فيكون الربّ مؤذنًا بالحرب لمن عاداه بأنه معادٍ لله.

ثم قال تعالىٰ: «وما تقرب إليَّ عبدي بِمثل أداء ما افترضت عليه» ففرّق بين العبد المتقرِّب، والرّبّ المتقرَّب إليه.

ثم قال: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّىٰ أحبه» فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض.

ثم قال: «فإذا أحببته كنت سَمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يَمشي بها».

وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره، وبطنه، وظهره، ورأسه، وشعره، وهو كل شيء، أو في كل شيء، قبل التقرب وبعده.

وعند الخاص، وأهل الحلول صار هو، وهو كالنار والحديد، والماء واللبن، لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل.

ثم قال تعالىٰ: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يَمشي» وعلىٰ قول هؤلاء: الرَّبُّ هو الذي يسمع، ويبصر، ويبطش، ويَمشي، والرسول إنَّما قال: «فبي».

ثم قال: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه» فجعل العبد سائلًا مستعيذًا، والرَّبّ مسؤولًا مستعاذًا به. وهذا يناقض الاتحاد.

وقوله: «فبي يسمع» مثل قوله: «ما تحركت بي شفتاه» يريد به المثال العلمي.

وقول الله: فيكون الله في قلبه أي معرفته، ومحبته، وهداه، وموالاته، وهو المثل العلمي، فبذاك الذي في قلبه يسمع، ويبصر، ويبطش، ويَمشي.

والمخلوق إذا أحب المخلوق، أو عظمه، أو أطاعه، يعبر عنه بِمثل هذا، فيقول أنت في قلبي، وفي فؤادي، وما زلت بين عينَي،

ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتَّىٰ ظنّوا أن ذات المعلوم المعقول يتّحد بالعالم العاقل، فجعلوا المعقول، والعقل، والعاقل شيئًا واحدًا، ولم يُميِّزوا بين حلول مثال المعلوم، وبين حلول ذاته، وهذا يكون لضعف العقل، وقوة سلطان المحبة والمعرفة، فيغيب الإنسان بِمعبوده عن عبادته، وبِمحبوبه عن محبته، وبِمشهوده عن شهادته، وبِمعروفه عن معرفته، فيفنَىٰ من لَمْ يكن عن شهود العبد، لا أنه نفسه يعدم ويفنَىٰ فيمن لَمْ يزل في شهوده، ومن هذا المقام إذا غلط قد يقول مثل ما يحكىٰ عن أبي يزيد البسطامي(١): «سبحاني» أو «ما في الجبة إلا الله».

وفي هذا تُذكر حكايةٌ: وهو أن شخصًا كان يحبّ آخر، فألقىٰ المحبوب نفسه في ماء، فألقىٰ المحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فَلِمَ وقعت أنت؟

---

(١) طيفور بن عيسىٰ البسطاميُّ، وُلد عام ١٨٨هـ في بلدة بسطام في بلاد خرسان، وتوفي سنة ٢٣٤هـ كان يقول بوحدة الوجود، ويعرف أتباعه بالطيفورية، أو البسطامية، ومن أقواله الساقطة: «سبحاني ما أعظم شأني»، وقوله: « لا إله إلا أنا فاعبدوني». موسوعة ويكيبيديا.

فقال: غبت بك عني، فظننت أنك أنَّي.

فهذا العبد المحب لما استولىٰ علىٰ قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقًا في محبوبه، لا يشهد قلبه غير ما في قلبه، وغاب عن شهود نفسه وأفعاله، فظنّ أنه هو نفس المحبوب.

وهذا أهون من أن يظن أن ذات المحبوب نفسه، فهذا الظن لاتحاد الذات، أو لحلولها ظنٌّ غالطٌ، وقع فيه كثيٌر من الناس، فالذين قالوا: إن المسيح، أو غيره من البشر هو الله، أو أن الله حالٌّ فيه، قد يكون غلطهم من هذا الجنس، لما سَمعوا كلامًا يقتضي أن الله في ذات الشخص، وجعلوا فعل هذا فعل هذا، ظنوا ذاك اتحاد الذات وحلولها، وإنَّما المراد أن معرفة الله فيه، واتحاد المأمور به، والمنهي عنه، والموالي والمعادي، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وليس ذلك لأن الرسول هو الله، ولا لأن نفسه حالّ في الرسول، بل لأن الرسول يأمر بِما أمر الله به، وينهىٰ عما ينهىٰ الله عنه، ويحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فمن بايعه علىٰ السمع والطاعة فإنَّما بايع الله علىٰ السمع والطاعة، ومن أطاعه فإنَّما أطاع الله.

وكذلك المسيح، وسائر الرسل إنَّما يأمرون بِما يأمر الله به، وينهون عما ينهىٰ الله عنه، ويوالون أولياء الله، ويعادون أعداء الله، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن صدقهم، فقبل منهم ما أخبروا به فقد قبل عن الله، ومن والاهم فقد والىٰ الله، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادىٰ الله، وحارب الله.

ومن تصور هذه الأمور تبين له أن لفظ الحلول قد يعبر به عن معنًىٰ صحيحٍ،

وقد يعبر به عن معنًىٰ فاسدٍ، وكذلك حلول كلامه في القلوب، ولذلك كره أحمد ابن حنبل الكلام في لفظ حلول القرآن في القلوب، كما قد ذكر في غَيْرِ هَـٰذَا الْمَوْضِعِ.

ومما يوضح هذا أن الشيء له وجودٌ في نفسه هو، وله وجودٌ في المعلوم والأذهان، ووجودٌ في اللفظ واللسان، ووجودٌ في الخط والبيان، ووجودٌ عينيٌّ شخصيٌّ، وعلميٌّ، ولفظيٌّ، ورسْميٌّ، وذلك كالشمس ـ مثلًا ـ فلها تحققٌ في نفسها، وهي الشمس التي في السماء، ثم يتصور بالقلب الشمس، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس، ويكتب بالقلم: الشمس، والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ، وباللفظ مطابقة العلم، وبالعلم مطابقة المعلوم.

ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أنا وأبِي واحدٌ، من رآني فقد رأىٰ أبِي» (١).

وقوله تعالىٰ فيما حكاه عن رسوله: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي،... عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي...**».

ويشبهه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام، فإنه تنحلّ به إشكالاتٌ كثيرةٌ؛ فإن هذا موجودٌ في كلام الله ورسله، وكلام المخلوقين في عامة الطوائف، مع ظهور المعنَىٰ، ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدِهما اتحدت بذات الآخر.

بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنًىٰ صحيحٍ، كما

---

(١) انظر العهد الجديد ص١٦٧. وص١٧٥.

يقال: فلان وفلان بينهما اتحاد، إذا كانا متفقين فيما يحبّان ويبغضان، ويواليان ويعاديان، فلما اتحد مرادهُما ومقصودهُما صار يقال: هُما متحدان، وبينهما اتحادٌ، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر، كاتحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النفس والبدن، وكذلك لفظ الحلول والسكنَىٰ والتخلل، وغير ذلك، وأيضًا فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشيء تارةً، وحلول معرفته، ومحبته، ومثاله العلمي تارةً، كما تقدم ذكره.

وعندهم في النبوات أن الله حلّ في غير المسيح من الصالحين، وليس المراد به أن ذات الرّبّ حلّت فيه، بل يقال: فلانٌ ساكنٌ في قلبي، وحالٌّ في قلبي، وهو في سري، وسويداء قلبي، ونَحو ذلك، وإنَّما حلّ فيه مثاله العلمي، وإذا كان كذلك فمعلومٌ أن المكان إذا خلا ممَّن يعرف الله ويعبده لمْ يكن هناك ذكر الله، ولا حلّت فيه عبادته، ومعرفته، فإذا صار في المكان من يعرف الله، ويعبده، ويذكره، ظهر فيه ذكره، والإيمان به، وحلّ فيه الإيمان بالله، وعبادته، وذكره، وهو بيت الله ﷻ، فيقال: إن الله فيه، وهو حالٌّ فيه، كما يقال: إن الله في قلوب العارفين، وحالٌّ فيهم، والمراد به حلول معرفته، والإيمان به، ومحبته، ونَحو ذلك، وقد تقدم شواهد ذلك.

فإذا كان الرّبّ في قلوب عباده المؤمنين أي نوره، ومعرفته، وعُبِّرَ عن هذا بأنه حالٌّ فيهم، وهم حالّون في المسجد، قيل: إن الله في المسجد، وحالٌّ فيه بهذا المعنَىٰ، كما يقال: الله في قلب فلانٍ، وفلانٌ ما عنده إلا الله، كما قال النَّبِيُّ عليه السلام في الحديث الصحيح: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**».

ومما يزيد ذلك إيضاحًا ما يراه النائم من بعض الأشخاص في منامه، فيخاطبه، ويأمره، وينهاه، ويخبره بأمورٍ كثيرةٍ، وهو يقول: رأيت فلانًا في منامي،

فقال لي كذا، وقلت له كذا، وفعل كذا، وفعلت كذا...

ويذكر أنواعًا من الأقوال والأفعال، وقد يكون فيها علومٌ، وحكمٌ، وآدابٌ، ينتفع بها غاية المنفعة، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأىٰ في المنام حيًّا، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه في منامه فضلًا عن أن يكون شاعرًا بأنه قال أو فعل، وقد يقص الرائي عليه رؤياه، ويقول له الرائي: يا سيدي! رأيتك في المنام، فقلت لي كذا، وأمرتني بكذا، ونهيتني عن كذا، والمرئي لا يعرف ذلك، ولا يشعر به؛ لأن المرئي الذي حلّ في قلب الرائي هو المثال العلمي المطابق للعيني، كما يرىٰ الرائي في المرآة، أو الماء الشخص الموجود في الخارج فهو المقصود، وبعض المرئيين في المنام قد يدري بأنه رؤي في المنام، ويكاشف بذلك الرائي، كما قد يكاشفه بأمورٍ أخرىٰ، لا لأنه نفسه حلّ فيه.

وإذا أردتم بقولكم: «ظهر في عيسىٰ» حلول ذاته، واتحاده بالمسيح، أو غيره، فهذه دعوىٰ مجردة من غير دليلٍ متقدمٍ، ولا متأخرٍ.

وكون الإنسان أجلّ ما خلقه الله ـ لو كان مناسبًا لحلوله فيه ـ أمرٌ لا يختص به المسيح، بل قد قام الدليل علىٰ أن غير عيسىٰ عليه السلام أفضل منه، مثل إبراهيم، ومحمدٍ صلىٰ الله عليهما وسلم، وهذان اتخذهما الله خليلين، وليس فوق الخلة مرتبةٌ، فلو كان يحلّ في أجلّ ما خلقه الله من الإنسان؛ لكونه أجلّ مخلوقاته لحلّ في أجلّ هذا النوع، وهو الخليل، ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم.

وليس معهم قطٌّ حجةٌ علىٰ أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لمْ يتّحد باللاهوت علىٰ أصلهم أنه أفضل من الخليل وموسىٰ.

وإذا قالوا: «إنه لمْ يعمل خطيئةً» فيحيَىٰ بن زكريا لمْ يعمل خطيئةً، ومن

عمل خطيئةً وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل الخطيئة، وأفضل ممَّن لمْ يعمل تلك الخطيئة، والخليل وموسىٰ أفضل من يحيَىٰ الذي يسمونه «يوحنَّا المعمداني»(١).

وأما قولهم: «ولهذا خاطب الخلق» فالذي خاطب الخلق هو عيسىٰ ابن مريم، وإنَّما سَمع الناس صوته، لمْ يسمعوا غير صوته، والجنّي إذا حلّ في الإنسان، وتكلم علىٰ لسانه يظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمي، ويتكلم بكلام يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمي.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يكن يسمع منه إلا ما يسمع من مثله من الرسل، ولو كان المتكلم علىٰ لسان الناسوت هو جنيًّا، أو ملكًا لظهر ذلك، وعرف أنه ليس هو البشر، فكيف إذا كان المتكلم هو رب العالمين، فإن هذا لو كان حقًّا لظهر ظهورًا أعظم من ظهور كلام المَلك والجنّي علىٰ لسان البشر بكثيرٍ كثيرٍ.

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام، فقد شاهدوا من غيره ما هو مثلها، وأعظم منها، وقد أحيا غيره الميت، وأخبره بالغيوب أكثر منه، ومعجزات موسىٰ أعظم من معجزاته، أو أكثر، وظهور المعجزات علىٰ يديه يدلّ علىٰ نبوته ورسالته، كما دلّت المعجزات علىٰ نبوة غيره ورسالتهم، لا تدلّ علىٰ الإلهية.

والدجال لما ادعىٰ الإلهية لمْ يكن ما يظهر علىٰ يديه من الخوارق دليلًا عليها؛ لأن دعوىٰ الإلهية ممتنعةٌ، فلا يكون في ظهور العجائب ما يدل علىٰ الأمر الممتنع.

قالوا: «وقد قال الله علىٰ أفواه الأنبياء والمرسلين الذين تَنَبَّوْا علىٰ ولادته

---

(١) والمراد به يحيىٰ بن زكريا. انظر موسوعة ويكيبيديا.

من العذراء الطاهرة مريم، وعلىٰ جَميع أفعاله التي فعلها في الأرض، وصعوده إلىٰ السماء، وهذه النبوات جَميعها عند اليهود، مقرين ومعترفين بها، ويقرؤونها في كنائسهم، ولمْ ينكروا منها كلمةً واحدةً».

فيقال: هذا كله مما لا ينازع المسلمون فيه، فإنه لا ريب أنه ولد من مريم العذراء البتول، التي لمْ يَمسها بشرٌ قطّ، وأن الله أظهر علىٰ يديه الآيات، وأنه صعد إلىٰ السماء كما أخبر الله بذلك في كتابه كما تقدم ذكره، فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبياء في النبوات التي عند اليهود لمْ ينكروا ذلك، وإن كان اليهود يتأوّلون ذلك علىٰ غير المسيح، كما في النبوات من البشارة بِمحمدٍ عليه السلام فهو حقٌّ، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأولون ذلك علىٰ غيره.

قالوا: «وسبيلنا أن نذكر من بعض قول الأنبياء الذين تَنَبَّوْا علىٰ السيد المسيح، ونزوله إلىٰ الأرض.

قال عزرا الكاهن ـ حيث سباهم «بُختنصر الفريدي» إلىٰ أرض بابل إلىٰ أربعمائة واثنين وثمانين سنة ـ: «يأتي المسيح، ويخلّص الشعوب والأمم».

وفي كمال هذه المدة أتىٰ السيد المسيح.

وقال أرميا النَّبِيُّ عن ولادته في ذلك الزمان: «يقوم لداود ابنٌ، هو ضوء النور، يَملك الملك، ويعلم، ويفهم، ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلّص من آمن به من اليهود ومن بني إسرائيل وغيرهم، ويبقىٰ بيت المقدس بغير مقاتل، ويسمىٰ الإله».

وأما قوله: «ابن لداود» لأن مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال النَّبِيُّ: «يقوم لداود ابن».

فيقال: أما قول عزرا الكاهن: فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتي المسيح،

ويخلّص الشعوب والأمم، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون، فإنهم يقرّون بِما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتخليص الله به كل من آمن به من الشعوب والأمم إلىٰ أن بعث محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فكل من كان مؤمنًا بالمسيح متبعًا لما أُنزل عليه من غير تحريفٍ، ولا تبديلٍ، فإن الله خلّصه بالمسيح من شر الدنيا والآخرة، كما خلص الله تعالىٰ بِموسىٰ من اتبعه من بني إسرائيل.

ومن حرّف وبدّل فلم يتبع المسيح، ومن كذّب محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو كمن كذّب المسيح بعد أن كان مقرًّا بِموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولكن هذا النص وأمثاله حجةٌ علىٰ اليهود، الذين يتأوّلون ذلك علىٰ أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم، وإنَّما هو مسيحٌ يُنتظر، وإنَّما ينتظرون المسيح الدجال: مسيح الضلالة، فإن اليهود يتبعونه، ويقتلهم المسلمون معه حتَّىٰ يقول الشجر والحجر: «**يا مسلم! هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله**».

وهكذا يقال في النبوة الثانية التي ذكروها عن أرميا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قالوا: «وقال أرميا النَّبِيُّ عن ولادته في ذلك الزمان:

«يقوم لداود ابنٌ، هو ضوء النور، يَملك الملك، ويعلم، ويفهم، ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلّص من آمن به من اليهود ومن بني إسرائيل وغيرهم، ويبقىٰ بيت المقدس بغير مقاتل، ويسمىٰ الإله».

وأما قوله: «ابن لداود» لأن مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال: «يقوم لداود ابن».

والجواب أن يقال: قد قال فيه: «ويخلّص من آمن به من اليهود، ومن بني إسرائيل» وهو كما فسرنا به التخليص الذي نقله عن عزرا الكاهن.

وأما قوله: «واسْمه الإله» فهذا يدلّ علىٰ أنه ليس هو الله رب العالمين، وإما لفظ الإله اسمٌ سُمِّيَ به، كما سُمِّيَ موسىٰ إلهًا لفرعون عندهم في التوراة، إذ لو كان هو الله رب العالمين لكان أجلّ من أن يقال: «ويسمىٰ الإله»، فإن الله تبارك وتعالىٰ لا يعرف بِمثل هذا، ولا يقال فيه: إن الله يسمىٰ الإله، ولقال: يأتي الله بنفسه، فيظهر، وقال: «يَملك الملك» ورب العالمين ما زال، ولا يزال مالكًا للملك سبحانه.

وأيضًا فإنه قال: «يقوم لداود ابنٌ، هو ضوء النور» ومعلومٌ أن الابن الذي من نسل داود الذي اسم أمه مريم هو الناسوت فقط، فإن اللاهوت ليس هو من نسل البشر، وقد تبين أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود يسمىٰ الإله، فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق، لا للإله الخالق.

وأيضًا فإنه قال: «وهو ضوء النور» لم يجعله النور نفسه، بل جعله ضوء النور، والله تعالىٰ منور كل نور، فكيف يكون هو ضوء النور، والله تعالىٰ قد سَمَّىٰ محمدًا سراجًا منيرًا، ولمْ يكن بذلك خالقًا، فكيف إذا سُمِّيَ ضوء النور.

وأيضًا فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود، وابن داود مخلوقٌ، وأضاف الفعل إلىٰ هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشري، لبَيَّنَ أرميا وغيره من الأنبياء ذلك بيانًا قاطعًا للعذر، ولمْ يكتفوا بِمثل هذه الألفاظ التي هي إما صريحةٌ، أو ظاهرةٌ في نقيض ذلك، أو مجملةٌ لا تدلّ علىٰ ذلك، فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نَبِيٍّ من الأنبياء أمرٌ معتادٌ ممكنٌ، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة.

وأما الإخبار بِمجيء الرَّبِّ نفسه، وحلوله، أو اتحاده بناسوت بشري، فهو إما ممتنعٌ غير ممكنٍ، كما يقوله أكثر العقلاء من بني آدم، ويقولون: يعلم بصريح العقل أن هذا ممتنعٌ.

وإمـا ممكـنٌ، كمـا يقولـه بعـض النـاس، وحينئـذٍ فإمكانـه خفـي علـىٰ أكثـر العقلاء، وهو أمرٌ غير معتادٍ.

وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسولٍ، ونَبِيٍّ، لا سيما إذا كـان إتيانـه باتحاده ببشرٍ لم يظهر علىٰ يديه من الآيات ما يختص بالإلهية، بل لم يظهـر علـىٰ يديه إلا ما ظهر علىٰ يد غيره من الأنبياء ما هو مثله، أو أعظم منه، والله تعالىٰ لمـا كان يكلّم موسىٰ، ولـمْ يكن موسـىٰ يـراه، ولا يتَّحـد لا بِموسـىٰ، ولا بغيـره، ومـع هذا فقد أظهر من الآيات علىٰ ذلـك، وعلـىٰ نبـوة موسـىٰ مـا لـمْ يظهـر مثلـه، ولا قريبٌ منه علىٰ يد المسيح.

فلو كان هو بذاته متَّحدًا بناسوتٍ بشريٍّ لكان الأنبياء يخبرون بـذلك إخبـارًا صريحًا بَيِّنًا، لا يحتمل التأويلات، ولكان الرَّبُّ يظهر علـىٰ ذلـك مـن الآيـات مـا لـمْ يظهـر علـىٰ يـد رسـولٍ، ولا نَبِيٍّ، فكيـف والأنبيـاء لـمْ ينطقـوا في ذلـك بلفـظٍ صريحٍ، بل النصوص الصريحة تدل علىٰ أن المسيح مخلوقٌ، ولـم تأتِ آيةٌ علـىٰ خلاف ذلك، بل إنَّما تدل الآيات علىٰ نبوة المسيح.

قـالوا: وقـال أشـعيا النَّبِيُّ: «قـل لصـهيون: هنـا تفـرح وتتهلـل، فـإن الله يـأتي، ويخلّـص الشـعوب، ويخلّـص مـن آمـن بـه، وبشـعبه، ويخلّـص مدينـة بيـت المقدس، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيهـا لجميـع الأمـم المبـددين، ويجعلهـم أمـةً واحدةً، ويبصرون جَميع أهل الأرض من خلاص الله؛ لأنـه يَمشـي معهـم، وبـين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل» (١).

فيقال: هذا محتاجٌ ـ أولًا ـ أن يعلـم مـن هـذه النبـوة أن هـذا الكـلام نُقِـل بـلا تحريفٍ للفظه، ولا غلطٍ في الترجَمة، ولـمْ يثبت ذلك، وإذا ثبت ذلك فحينئذٍ هـو

(١) انظر العهد القديم ص١٠٥٦.

نظير ما في التوراة من قوله: «جاء الله من طور سينا، وأشرف من ساعير، واستعلن من جبال فاران» (١).

ومعلومٌ أنه ليس في هذا ما يدلّ علىٰ أن الله حالٌّ في موسىٰ بن عمران، ومتحدٌ به، ولا أنه حالٌّ في جبل فاران، ولا أنه متحدٌ بشيءٍ من طور سينا، ولا ساعير، وكذلك هذا اللفظ لا يدلّ علىٰ أنه حالٌّ في المسيح، ومتحدٌ به؛ إذ كلاهُما سواءٌ.

وإذا قيل: المراد بذلك قربه ودنوه، كتكليم موسىٰ، وظهور نوره، وهداه، وكتابه، ودينه، ونَحو ذلك من الأمور التِي وقعت.

قيل: وهكذا في المسيح.

وقوله: «ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المبددين» قد قال في التوراة مثل هذا في غير موضع، ولمْ يدلّ ذلك علىٰ اتحاده بِموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما قوله عن الأمم المبددين: «فيجعلهم أمةً واحدةً» فهم الذين اتبعوا المسيح، فإنهم كانوا متفرقين مبددين، فجعلهم أمةً واحدةً.

وأما قوله: «ويبصرون جَميع أهل الأرض خلاص الله؛ لأنه يَمشي معهم، وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل» فمثل هذا في التوراة في غير موضع، ولمْ يدلّ ذلك علىٰ اتحاده بِموسىٰ، ولا حلوله فيه، كقوله في السفر الخامس من التوراة: «يقول موسىٰ لبني إسرائيل: لا تهابوهم، ولا تخافوهم؛ لأن الله ربكم السائر بين أيديكم هو يحارب عنكم» (٢).

---

(١) انظر العهد القديم ص٢٣٤.

(٢) انظر العهد القديم ص٢٧٨.

وفي موضع: «قال موسىٰ: إن الشعب هو شعبك.

فقال: أنا أمضي أمامك فارتَحل.

فقال: إن لمْ تمضِ أنت أمامنا، وإلا فلا تصعدنا من هاهنا، وكيف أعلم أنا، وهذا الشعب أنَّي وجدت أمامك نعمة كذا إلا بسيرك معنا» (١).

وفي السفر الرابع من الفصل الثالث عشر: «إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سَمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم، يرونه عينًا بعينٍ، وغمامك يقيم عليهم، وبعمود غمامٍ يسير بين أيديهم نَهارًا، وبعمود نارٍ ليلًا» (٢).

وفي التوراة أيضًا: «يقول الله لموسىٰ: إني آتٍ إليك في غلظ الغمام؛ لكي يسمع القوم مخاطبتِي لك» (٣).

ثم قوله: «اجْمع سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلىٰ خباء العزب، يقفون معك حتَّىٰ أخاطبهم» (٤).

قالوا: وقال زكريا النَّبِيُّ: «افرحي يا بيت صهيون؛ لأني آتيك، وأحلّ فيك، وأترايا، قال الله: ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة، ويكونون له شعبًا واحدًا، ويحلّ هو وهم فيك، وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهوذا، ويَملك عليهم إلىٰ الأبد».

فيقال: مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم، وغيره من الأنبياء: أن الله تجلّىٰ

---

(١) انظر العهد القديم ص١٤٣.

(٢) انظر العهد القديم ص٢٣٤.

(٣) انظر العهد القديم ص١١٩.

(٤) انظر العهد القديم ص٢٢٩.

له واستعلن له، وترايا له، ونَحو هذه العبارات، ولمْ يدلّ ذلك علىٰ حلوله فيه، واتحاده بِه.

وكذلك إتيانه، وهو لمْ يقل: إني أحلّ في المسيح، وأتحد به، وإنَّما قال عن بيت صهيون: «آتيك، وأحلّ فيك» كما قال مثل ذلك عندهم في غير هذا، ولمْ يدلّ علىٰ حلوله في بشر، وكذلك قوله: «وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك» لمْ يرد بهذا اللفظ حلوله في المسيح، فإن المسيح لمْ يسكن بيت المقدس وهو قوي، بل كان يدخلها وهو مغلوبٌ مقهورٌ حتَّىٰ أُخِذَ وصُلِبَ، أو شبهه، والله سبحانه إذا حصلت معرفته، والإيمان به في القلوب اطمأنت، وسكنت.

وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد رفعه، حصل فيه من الإيمان بالله، ومعرفته ما لمْ يكن قبل ذلك.

وجِماع هذا أن النبوات المتقدمة، والكتب الإلهية: كالتوراة، والإنْجيل، والزبور، وسائر نبوات الأنبياء، لم تخصّ المسيح بشيءٍ يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به، وحلوله فيه، كما يقوله النصارىٰ، بل لمْ تخصّه إلا بِما خصّه الله به علىٰ لسان محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

فكتب الأنبياء المتقدمة، وسائر النبوات موافقةٌ لما أخبر به محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يصدق بعضها بعضًا، وسائر ما تستدل بِه النصارىٰ علىٰ إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات في حق غير المسيح، فتخصيص المسيح بالإلهية ــ ودون غيره ــ باطلٌ، وذلك مثل اسم الابن، والمسيح، ومثل حلول روح القدس فيه، ومثل تسميته إلهًا، ومثل ظهور الرب، أو حلوله فيه، أو سكونه فيه، أو في مكانه.

فهذه الكلمات، وما أشبهها موجودةٌ في حق غير المسيح عندهم، ولم يكونوا بذلك آلهةً.

ولكن القائلون بالحلول، والاتحاد في حقّ جَميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات، وهذا المذهب باطلٌ باتفاق المسلمين، واليهود، والنصارىٰ، وهو باطلٌ في نفسه عقلًا ونقلًا، وإن كان طوائف من أهل الإلحاد، والبدع المنتسبين إلىٰ المسلمين، واليهود، والنصارىٰ تقول به، فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحلّ في قلوب العارفين به؛ من أهل الإيمان به، ومعرفته، ونوره، وهداه، والروح منه، وما يعبر عنه بالمثل الأعلىٰ، والمثال العلمي، وظنّوا أن ذلك ذات الرب، كمن يظنّ أن نفس اللفظ بالاسم هو المعنَىٰ الذي في القلب، أو نفس الخط هو نفس اللفظ، ومن يظنّ أن ذات المحبوب حلّت في ذات المحب، واتحدت به، أو نفس المعروف المعلوم حلّ في ذات العالِم العارفِ به، واتحد به، مع العلم اليقيني أن نفس المحبوب المعلوم باينٌ عن ذات المحب، روحه وبدنه، لم يحلّ واحدٌ منها في ذات المحبّ.

فالمؤمنون يعرفون الله، ويحبونه، ويعبدونه، ويذكرونه، ويقال: هو في قلوبهم، والمراد معرفته، ومحبته، وعبادته، وهو المثل العلمي، ليس المراد نفس ذاته، كما يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي، وما زلت في قلبي، وبين عينَي.

ثم قوله: «اجمع سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلىٰ خباء العرب، يقفون معك حتَّىٰ أخاطبهم».

وفي السفر الرابع لما تكلم مريم وهارون في موسىٰ: «حينئذ تجلّىٰ الله بعمود الغمام قائمًا علىٰ باب الخباء، ونادىٰ يا هارون! ويا مريم! فخرجا كلاهُما،

فقال: اسمعا كلامي، إني أنا الله فيما بينكم» [١].

وفي الفصل الثالث عشر: «إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم، يرونه عينًا بعينٍ، وغمامك يقيم عليهم، وبعمود غمامٍ يسير بين أيديهم نهارًا، وبعمودٍ نار ليلًا».

وفي السفر الخامس قول موسىٰ لبني إسرائيل: «لا تهابوهم، ولا تخافوهم؛ لأن الله ربكم السائر بين أيديكم، وهو يحارب عنكم».

وفي موضعٍ آخر: «قال موسىٰ: إن الشعب هو شعبك.

فقال: يا موسىٰ! أنا أمضي أمامك فارتحل.

فقال: إن لمْ تمضِ أنت معنا، وإلا فلا تصعدنا من ههنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا»

وفي المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول: «وليفرح المتكلون عليك إلىٰ الأبد، ويبتهجون، ويحلّ فيهم، ويفتخرون» [٢].

فأخبر أنه يحلّ في جَميع الصديقين، أي: معرفته، ومحبته؛ فإنهم متفقون علىٰ أن ذات الله لمْ تحلّ في الصديقين.

وكذلك في رسائل يوحنا الإنجيلي: «إذا أخفا بعضنا بعضًا نعلم أن الله يلبث فينا»[٣] أي محبته. ونظائره كثيرةٌ.

قالوا: «وقال عاموص النَّبِيُّ: «ستشرق الشمس علىٰ الأرض، ويهتدي بها

---

(١) انظر العهد القديم ص٣٤٠.

(٢) انظر العهد القديم ص٨٧٦.

(٣) انظر العهد القديم ص٣٨٩.

الضالون، ويضلّ عنها بنو إسرائيل».

قالوا: فالشمس هو السيد المسيح، والضالون الذين اهتدوا به هم النصارىٰ المختلفة ألسنتهم، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام، وضالّين عن معرفة الله، فلما أتوهم التلاميذ، وأنذروهم بِما أوصاهم السيد المسيح، فتركوا عبادة الأصنام، واهتدوا باتباعهم السيد المسيح».

فيقال: هذا مما لا ينازع فيه المسلمون، وإنَّما ينازع في مثل هذا وأمثاله اليهود المكذبون للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما ينازع كفار أهل الكتاب في محمدٍ.

وأما المسلمون فيؤمنون بِجميع كتب الله ورسله، وأن المسيح عليه الصلاة والسلام أشرق نوره علىٰ الأرض، كما أشرق قبله نور موسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمدٍ.

وقد قال الله تعالىٰ لمحمدٍ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فسمَّاه الله سراجًا منيرًا، وسَمىٰ الشمس سراجًا وهَّاجًا، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج؛ فإن الوهَّاج له حرارةٌ تؤذي، والمنير يهتدىٰ بنوره من غير أذىٰ بوهجه.

وقوله: «ستشرق الشمس علىٰ الأرض، ويهتدي بها الضالون، ويضلّ عنها بنو إسرائيل» يناسب قوله في التوراة: «جاء الله من طور سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران».

فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا هو ظهور نوره بِموسىٰ، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بِمحمدٍ.

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

فبلد التين والزيتون هي الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وكان بها أنبياء بني إسرائيل، وأسري بِمحمدٍ إليها، وظهرت بها نبوته، وطور سينين المكان الذي كلّم الله فيه موسىٰ ابن عمران، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التي بعث الله منه محمدًا، وأنزل عليه القرآن.

*****

[الجواب عما نقلوه عن سفر الملوك]

قالوا: وقال في السفر الثالث من أسفار الملوك: «والآن يا رب إله إسرائيل لتحقق كلامك لداود؛ لأنه حقٌّ أن يكون، إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم، ولتنصت الأرض وكل من فيها، فيكون الرب عليها شاهدًا من بيته القدوس، ويخرج من موضعه، وينزل، ويطأ على مشاريق الأرض في شأن خطيئة بني يعقوب هذا كله».

فيقال: هذا السفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذي تكلم به نَبِيٌّ، وأن ألفاظه ضبطت، وترجِمت إلى العربية ترجَمةً مطابقةً، ثم بعد ذلك يقال فيه ما يقال في أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم، وليس فيها ما يدلّ على اتحاده بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن قوله: «إن الله سيسكن مع الناس في الأرض» لا يدلّ على المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ كان المسيح لمْ يسكن مع الناس في الأرض، بل لما أظهر الدعوة لمْ يبق في الأرض إلا مدةً قليلةً، ولمْ يكن ساكنًا في موضعٍ معيَّنٍ، وقبل ذلك لمْ يظهر عنه شيءٌ من دعوى النبوة، فضلًا عن الإلهية، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء، فلم يسكن مع الناس في الأرض.

وأيضًا فإذا قالوا: سكونه هو ظهوره في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قيل لهم: أما الظهور الممكن المعقول، كظهور معرفته، ومحبته، ونوره، وذكره، وعبادته، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره.

وحينئذٍ فليس في هذا اللفظ ما يدلّ على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيره وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس في ظهوره فيه، أو حلول معرفته، ومحبته، ومثاله العلمي ما يوجب اتحاد ذاته به.

وأما قوله: «فيكون الرب عليها شاهدًا».

فيقال: أولًا: شهود الله علىٰ عباده لا يستلزم حلوله، أو اتحاده ببعض مخلوقاته، بل هو شهيدٌ علىٰ العباد بأعمالهم، كما **قال**: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

ولفظ النص: «ولتنصت الأرض، وكل من فيها، فيكون الرب عليها شاهدًا» وهذا كما في التوراة أن موسىٰ لما خاطب بني إسرائيل أشهد عليهم، وكذلك محمدٌ كان يقول لأمته لما بلغ الناس بقول: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» فَيَقُولُونَ: نَعَم، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» (١).

وحينئذٍ فليس في هذا تعرضٌ لكون المسيح هو الله، وقد يقال أيضًا: ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله، ولفظ الربّ يراد به السيد المطاع، وقد غاير بين اللفظين، فقال هناك: «إنه سيسكن الله مع الناس» فقال: «فيكون الرب عليها شاهدًا» والأنبياء يشهدون علىٰ أممهم، وحينئذٍ فيكون الرب الشهيد هو المسيح الذي هو الناسوت، وهو الذي جاء من بيت المقدس، وخرج من موضعه، ونزل، ووطئ علىٰ الأرض من أجل خطيئة بني يعقوب؛ فإنهم لما أخطأوا، وبدّلوا أرسل الله إليهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده وطاعته، فمن آمن به كان سعيدًا مستحقًّا للثواب، ومن كفر به كان شقيًّا مستحقًّا للعذاب.

قالوا: وقال ميخا النَّبِيُّ: «وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفراتا، يخرج لي رئيس الذي يرعىٰ شعبي إسرائيل، وهو من قبل أن تكون الدنيا، لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة، وسلطانه من أقاصي الأرض إلىٰ أقاصيها».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٤١)، ومسلم برقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة.

والجواب: أن عامّة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجةٌ عليهم، لا لهم، كما ذكروه عن المسيح عليه السلام في أمر التثليث، فإنه حجةٌ عليهم، لا لهم، وهكذا تأملنا عامة ما يحتج به أهل البدع، والضلالة من كلام الأنبياء، فإنه إذا تُدبر حقّ التدبر وُجد حجةً عليهم، لا لهم، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدًى وبيانٌ، وهم معصومون لا يتكلمون بباطلٍ.

فمن احتج بكلامهم علىٰ باطل فلا بد أن يكون في كلامهم ما يبين به أنهم أرادوا الحق، لا الباطل، وهذا مثل قوله في هذه النبوة:

«منك يخرج لِي رئيس» فهذا صريحٌ في أن هذا الذي يخرج هو رئيس الله، ليس هو الله، بل هو رئيس له، كسائر الرؤساء الذين لله، وهم الرسل والأنبياء المطاعون، مثل داود موسىٰ وغيرهما، ولهذا قال: «الذي يرعي شعبي إسرائيل» ولو كان هو لكان هو راعي شعب نفسه.

وأما قوله: «وهو من قبل أن تكون الدنيا» فهذا مثل قول النَّبِيِّ في حديث ميسرة الفجر(١) وقد قيل له: يا رسول الله متَىٰ كنت نبيًّا، **قال**: «**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**» وفي لفظ: متَىٰ كُتبت نبيًّا؟ قال: «**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**» (٢).

وفي مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن النَّبِيِّ أنه قال: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَمَكْتُوبٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، وَرُؤْيَا أُمِّي، رَأَتْ حِينَ وَلَدَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا**

---

(١) ميسرة الفجر: صحابي، ذكره البخاري والبغوي وابن السكن وغيرهم في الصحابة، وليس له إلا هذا الحديث، وقيل: إنه عبدالله بن أبي الجدعاء. انظر الاستيعاب ٤/ ٥٠، و الإصابة ٦/ ١٨٩.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٩، والترمذي في العلل الكبير ص ٣٦٨ (٦٨٣)، والحاكم ٢/ ٦٦٥ (٤٢٠٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» (١).

فقد أخبر أنه كان نبيًّا، وكتب نبيًّا، وآدم بين الروح والجسد، وأنه مكتوبٌ عند الله: خاتم النبيين، وآدم منجدل في طينته.

ومراده أن الله كتب نبوته، وأظهرها، وذكر اسمه، ولهذا جعل ذلك في ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم، وقبل نفخ الروح فيه، كما يكتب رزق المولود، وأجله، وعمله، وشقي هو أو سعيد، بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه.

وكذلك قول القائل في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو من قبل أن تكون الدنيا، فإنه مكتوبٌ مذكورٌ من قبل أن تكون الدنيا، فإنه قد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن النَّبِيِّ أنه قال: «**قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**» (٢).

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النَّبِيِّ أنه قال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**» (٣).

وهو قد قال: «قبل أن تكون الدنيا» ولمْ يقل: إنه كان قديمًا أزليًّا، مع الله لـمْ يزل، كما يقول النصارىٰ: إنه صفة الله الأزلية، بل وقّت ذلك بقوله: «قبل أن تكون الدنيا»، ولا يحسن أن يقال في رب العالمين: «كان قبل أن تكون الدنيا»؛ فإنه سبحانه قديمٌ أزليٌّ، ولا ابتداء لوجوده، فلا يوقّت بهذا المبدأ، لا سيما إن

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧، وابن حبان ١٤/ ٣١٣ (٦٤٠٤).

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٩، ومسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) البخاري (٣١٩١).

أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته، فإن الدنيا قد لا تدخل فيها السماوات والأرض، بل يجعل من الآخرة، وأرواح المؤمنين في الجنة في السماوات، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا، أو الدار الدنيا.

ولهذا قال: «لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة» كما يظهر غيره أن الأنبياء بعد أن تلده أمه، والوالدة إنَّما ولدت الناسوت، وأما اللاهوت فهو عندهم مولودٌ من الله القديم الأزلِيّ، وإذا قالوا: «فهي ولدت اللاهوت مع الناسوت» كان هذا معلوم الفساد من وجوهٍ كثيرةٍ.

وإذا قيل: لِمَ خصّ عيسىٰ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذكر؟.

قيل: كما خُصَّ محمدٌ بالذكر؛ لأن أمر المسيح كان أظهر، وأعظم ممن قبله من الأنبياء بعد موسىٰ، وكذلك أمر محمدٍ كان أظهر، وأعظم من أمر جَميع الأنبياء قبله، وإذا عظم الشيء كان ظهوره في الكتاب أعظم.

وظنُّ بعض النصارىٰ أن المراد بذلك وجود ذات المسيح، يضاهي ظنَّ طائفةٍ من غلاة المنتسبين إلىٰ الإسلام وغيرهم الذين يقولون: إن ذات النَّبِيِّ كانت موجودةً قبل خلق آدم، ويقولون: إنه خُلق من نور ربّ العالمين، ووجد قبل خلق آدم، وأن الأشياء خلقت منه، حتَّىٰ قد يقولون في محمدٍ من جنس قول النصارىٰ في المسيح، حتَّىٰ قد يجعلون مدد العالمِ منه، ويَرْوُون في ذلك أحاديث، وكلها كذب، مع أن هؤلاء لا يقولون: إن المتقدم هو اللاهوت، بل يدّعون تقدم حقيقته وذاته، ويشيرون إلىٰ شيءٍ لا حقيقة له، كما تشير النصارىٰ إلىٰ تقدم لاهوتٍ اتحد به لا حقيقة له.

ومن هؤلاء الغلاة من يروي عن النَّبِيِّ أنه قال: «**من قال: إني كلي بشرٌ، فقد كفر، ومن قال: لست ببشرٍ، فقد كفر**».

ويحتجّون بقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فيجعلون فيه شيئًا من اللاهوت مضاهاةً للنصارىٰ.

وهذا الحديث كذبٌ باتفاق أهل العلم بالحديث، وقد ثبت عنه في الحديث الذي في «الصحيحين» أنه قال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون: إن الرب يحلّ في الصالحين، ويتكلم علىٰ ألسنتهم، وأن الناطق في أحدهم هو الله، لا نفسه.

وقول هؤلاء من جنس قول النصارىٰ في المسيح، وهو من جنس قول الذين يجعلون روح الإنسان قديمةً أزليةً، ويقولون: هي صفة الله، فيجعلون نصف الإنسان لاهوتًا، ونصفه ناسوتًا، لكن اللاهوت عندهم هو روحه، لا لاهوتٌ واحدٌ كما يقوله النصارىٰ، وعلىٰ قول هؤلاء مع قول النصارىٰ يكون في المسيح، وأمثاله ممَّن ادعي فيه اتحاد اللاهوت به لاهوتان: روحه لاهوتٌ، والكلمة لاهوتٌ ثانٍ.

ولو قدر أن نفسه هي التي كانت قبل أن تكون الدنيا، فهذا لا يدلّ علىٰ أنه الله، أو صفة الله، بل إذا قال من يدعي أن روحه كانت موجودةً حينئذٍ، المراد روحه كان هذا أقرب من قول النصارىٰ.

وفي الجملة ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بِمنزلة ما عند أهل الكتاب عن سليمان أنه قال: «كنت قبل أن تكون الدنيا».

ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لمْ يكن اللاهوت متحدًا به، فعلم أن مثل هذا الكلام لا يوجب اتحاد اللاهوت به، بل المسلمون يعدلون في القول،

ويفسرون كلام الله في كتبه بعضه ببعض، ويجعلون كلامه يصدق بعضه بعضًا، لا يناقض بعضه بعضًا.

وأما أهل الضلال من النصارىٰ وغيرهم؛ فيفضلون المفضول علىٰ من هو أفضل منه، ويبخسون الفاضل حقه، ويغلون في المفضول، ويبخسون الأنبياء حقوقهم، مثل تنقصهم لسليمان؛ فإن كثيرًا من اليهود والنصارىٰ يطعنون فيه، **منهم من يقول**: كان ساحرًا، وأنه سحر الجن بسحره.

ومنهم من يقول: سقط عن درجة النبوة، فيجعلونه حكيمًا، لا نبيًّا، ولهذا ذكر الله في القرآن تبرئة سليمان عن ذلك، وذلك أن سليمان سأل الله مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فسخر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، فسخر له الريح غدوها شهرٌ، ورواحها شهرٌ، فلما مات سليمان عمدت الشياطين إلىٰ أنواعٍ من الشرك، فكتبوها، ووضعوها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يسخر الجن بهذا.

فصار هذا فتنةً لمَنْ صدق بذلك، وصاروا طائفتين: طائفةً علمت أن هذا من الشرك والسحر، وأنه لا يجوز، فطعنت في سليمان، كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب: اليهود والنصارىٰ.

وطائفة قالت: سليمان نَبِيٌّ، وإذا كان قد سخر الجن بهذا دلّ علىٰ أن هذا جائزٌ، فصاروا يقولون، ويكتبون من الأقوال التي فيها الشرك، والتعزيم، والإقسام بالشرك، والشياطين - ما تحبه الشياطين وتختاره، ويساعدونهم لأجل ذلك علىٰ بعض مطالب الإنس، إما إخبارًا بأمورٍ غائبة، يخلطون فيها كذبًا كثيرًا، وإما تصرف في بعض الناس، كما يقتل الرجل، أو يَمرض بالسحر، أو تسرق الشياطين له بعض الأموال، ونَحو ذلك مما فيه إعانة الشياطين للإنس

علىٰ أمورٍ تريدها الإنس؛ لأجل مطاوعة الإنس، وموافقتهم للشياطين علىٰ ما تريده الشياطين من الكفر والفسوق والعصيان.

وكثيرٌ منهم يضيف ذلك إلىٰ سليمان، وإلىٰ آصف بن برخيا(١)، ويصورون خاتم سليمان، وقد يأخذون الرجل الذي صار من إخوانهم إلىٰ مواضع، فيُرُونَه شخصًا، ويقولون: هذا سليمان بن داود، كما قد جرىٰ مثل ذلك لمَنْ نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترن بهم الشياطين، وكان لهم خوارق شيطانية من جنس خوارق السحرة والكهان.

فَنَزَّهَ الله تعالىٰ سليمان من كذب هؤلاء وهؤلاء، الذين جعلوه يسخر الشياطين بنوع من الشرك والسحر، هؤلاء جرحوه، وهؤلاء زعموا أنهم يتبعونه، ومثل هذا كثيرٌ يحكىٰ عن بعض الأنبياء، أو بعض أهل العلم والدين؛ من أمورٍ ليست من شرع الله، فيصدق بها بعض الناس، وتصير فتنةً لطائفتين مصدقتين بها: طائفةٍ تقدح في ذلك النَّبِيِّ، أو الرجل الصالِح بِما هو منه بريءٌ، وطائفةٍ تقول: إنها تتبعه فيم يقول.

وهذا موجودٌ في كثيرٍ مما يحكيه أهل الكتاب عن الأنبياء، فإن اليهود تذكر عنهم ما يقدح في نبوتهم، والنصارىٰ تجعل ذلك قدوةً لهم فيما يبتدعونه.

وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر.

فالمقصود هنا أن الكلام الذي وصف به المسيح: إما وصفه به الأنبياء قبله، أو أخبر به عن نفسه موجودٌ مثله في حقّ غيره، ولَمْ يكن أحدهم بذلك لاهوتًا وناسوتًا، ولا اتحد اللاهوت بالناسوت، ولا استحق أحدهم بذلك أن يُعبد، ويُصلىٰ له، ويُسجد، ويُدعىٰ كما يُدعىٰ الله، ويُضاف إليه ما يُضاف إلىٰ الله: من

(١) انظر النسائي في السنن الكبرىٰ ٦/ ٢٨٨ (١٠٩٩٤) عن ابن عباس.

الخلق، والبعث، والثواب، والعقاب، وليس للمسيح صلوات الله عليه آيةً خارقةً إلا ولغيره مثلها، وأعظم منها، ولا قيل فيه كلمةً إلا قيل في غيره مثلها، وأعظم منها إلا ما خصه فيه القرآن.

قالوا: وقال حبقوق النَّبِيُّ: «إن الله في الأرض يتراءىٰ، ويختلط مع الر أس، ويَمشي معهم».

وقال أرميا النَّبِيُّ: «الله بعد هذا في الأرض يظهر، وينقلب مع البشر، فيقول: أنا الله رب الأرباب».

والجواب: أن هذا يحتاج إلىٰ تثبيت نبوة هذين، وإلىٰ ثبوت النقل عنهما، وثبوت الترجَمة الصحيحة المطابقة، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره، ففي التوراة ما هو من هذا الجنس، ولَمْ يدلّ ذلك باتفاق المسلمين، واليهود، والنصارىٰ علىٰ أن الله حلّ في موسىٰ، ولا في غيره من أنبياء بني إسرائيل، بل قوله: «يتراءىٰ» هو بِمنزلة «يتجلىٰ»، و «يظهر» وقد ذكر في التوراة أنه تجلّىٰ وتراءىٰ لإبراهيم، وغيره من الأنبياء عَلَيْهِمْ السَّلَامُ من غير أن تكون ذاته حلّت بأحدٍ منهم، وما في القلوب من المثال العلمي، وبِمعرفته، ومحبته، وذكره يطلق عليه ما يطلق علىٰ المعروف بنفسه؛ لعلم الناس أن المراد به المثال العلمي.

وما في القلوب من معرفة المعروف، ومحبته، ليس المراد به نفس المعروف المحبوب، فإذا قال القائل: أنت والله في قلبي، أو في سويداء قلبي.

أو قال له: والله ما زلت في قلبي، وما زلت في عيني.

ونَحو ذلك علم جَميع الناس أنه لَمْ يُرِدْ ذاته، فإذا رأوا من يذكر عالمًا مشهورًا، أو شيخًا مشهورًا، فيذكر علمه وعمله، ويحيا ذلك بين الناس، قالوا: قد صار فلانٌ ـ يعني المعروف المذكور ـ عندنا، وبين أظهرنا. لعلم المخاطبين

بالمراد.

ويقول أحدهم لمن مات والده: أنا والدك.

أي قائمٌ مقامه، ويقولون للولد القائم مقام أبيه: من خلف مثلك ما مات.

وإذا رأوا عكرمة مولىٰ ابن عباس الذي معه علمه يقولون: جاء ابن عباس.

وابن عباس بين الناس؛ لأن مولاه نائبٌ عنه، وقائمٌ مقامه.

وإذا بعث الملك نائبًا قائمًا مقامه، يقولون: جاء الملك الفلاني؛ لأن هذا النائب قائمٌ مقامه، مظهرٌ لأمره، ونهيه، وأحواله.

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «إن غلامًا ولد لنا، وابنًا اعطيناه الذي رياسته علىٰ عاتقيه، وبين منكبيه، ويدعىٰ اسمه ملكًا، عظيم المشية، مسيرًا عجيبًا إلهًا قويًّا مسلطًا، رئيس السلامة في كل الدهور، وسلطانه كاملٌ ليس له فناءٌ».

فيقال: ليس في هذه البشارة دلالةٌ بينةٌ أن المراد به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان المراد به المسيح لَمْ يدلّ علىٰ مطلوبهم، بل قد يقال: المراد بها محمدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه الذي رياسته علىٰ عاتقيه، وبين منكبيه من جهتين: من جهة خاتم النبوة علىٰ بعض كتفيه، وهو علامة من أعلام النبوة الذي أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختمهم، ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلد به علىٰ عاتقه، ويرفعه إذا ضرب به علىٰ عاتقه، ويدلّ علىٰ ذلك قوله: «مسلط رئيس قوي السلامة».

وهذه صفة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإن دينه الإسلام، ومن اتبعه سلم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوه عليه.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يسلط علىٰ أعدائه كما سلط محمدٌ، بل كان أعداؤه

بحيث يقدرون علىٰ صلبه، وعند النصارىٰ قد صلبوه، وعند المسلمين ألقىٰ الله شبهه علىٰ غيره، فصُلب ذاك المشبه، فبهذه الطريق دفع الله الصلب عنه، لا بقهر أعدائه، وإهلاكهم، وذلهم له، كما نصر الله محمدًا علىٰ أعدائه.

و**قال**: «في كل الدهور سلطانه كاملٌ، ليس له فناء» وهذا صفة خاتم الرسل الذي لا يأتي بعده نَبِيٌّ ينسخ شرعه، وسلطانه بالحجة واليد، كاملٌ لا يحتاج فيه إلىٰ الاستعانة بشرعٍ آخر، وشرعه ثابتٌ باقٍ إلىٰ آخر الدهر

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «يخرج عصاه من بيت يَسِّي، ينبت نور منها، ويحل فيه روح القدس، روح الله، روح الحكمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح العلم وخوف الله، وفي تلك الأيام يكون أصل يَسِّي آية للأمم، وبه يؤمنون، وعليه يتوكلون ويكون لهم التاج والكرامة إلىٰ دهر الداهرين».

والجواب: إن هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النَّبِيِّ، وصحة الترجَمة له باللسان العربي هو حجةٌ علىٰ النصارىٰ، لا لهم؛ فإنه لا يدلّ علىٰ أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، بل يدلّ علىٰ مثل ما دلّ عليه القرآن: من أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أيّد بروح القدس، فإنه قال: «ويحل فيه روح القدس، وروح الله، وروح الحكمة والفهم، وروح الحيل والقوة، روح العلم وخوف الله».

ولمْ يقل: تحل فيه حياة الله، فضلًا عن أن يقول: حلّ فيه الله، أو اتحد به، ولكن جعل روح القدس هي روح، وهي روح الحكمة والفهم والعلم، وهي روح الحيل والقوة، كما أن عندهم في التوراة: «أن الذين كانوا يعملون في قبة الزمان حلّت فيهم روح الحكمة، روح الفهم، روح العلم» فهي ما يحصل به الهدىٰ والنصر.

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من

البشر

فيقال: مثل هذا الكلام لا بد أن يكون قبله كلامٌ، وبعده كلامٌ، وهو منقولٌ من لغةٍ إلىٰ لغةٍ، ونَحن نعلم قطعًا أنه لَمْ يَرِدْ أن رب العالمين يولد من البشر، ولو أراد ذلك لَمْ يقل: رب الملائكة فقط.

فإن الله ربّ كل شيءٍ؛ لكن قد يريد أنه يولد من البشر من سيكون سيد الملائكة، تخدمه، وتكرمه، كما سجدت الملائكة لأبي البشر آدم.

والنصارىٰ يسلمون أن اللاهوت ما هو متولد من البشر، وإنَّما المتولد من البشر هو الناسوت، وليس هو رب العالمين بالاتفاق، فعلم أنه لا حجة لهم في ظاهر اللفظ إن قدر سلامته من التغيير.

ونظير هذا ما عندهم في إنجيل متَّىٰ: «إن ابن الإنسان يرسل ملائكته، ويجمعون كل الملوك رُبًا علىٰ الأمم، فيلقونهم في أتون النار».

قال بعض علماء أهل الكتاب: لَمْ يُرِدْ بذلك أن المسيح هو رب الأرباب، ولا أنه خالق الملائكة، بل رب الملائكة أوصىٰ الملائكة بِحفظ المسيح بشهادة النَّبِيِّ القائل: «إن الله يوصي ملائكته بك؛ ليحفظوك».

ثم شهادة لوقا: «إن الله أرسل له ملكًا من السماء؛ ليقويه».

قال: وإذا شهد الإنجيل باتفاق الأنبياء والرسل بأن الله يوصي ملائكته بالمسيح، فيحفظونه علم أن الملائكة تطيع للمسيح بالأمر، وهو والملائكة في خدمة رب العالمين.

وقال المسيح لتلاميذه: «من قبلكم فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل من أرسلني»

وقال المسيح: «من أنكرني قدام الناس أنكرته قدام ملائكة الله».

وقال للذي ضرب عبد رئيس الكهنة: «أغمد سيفك، ولا تظن أن لا أستطيع أن أدعو الله الأب، فيقدم لي أكثر من اثني عشر جوقًا من الملائكة».

قالوا: ومثل هذا القول في كتب الله المنزلة علىٰ أفواه الأنبياء والرسل شيء كثير عند النصارىٰ جَميعهم، المختلفة ألسنتهم، المفرقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسكين بدين النصرانية، قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحدٌ، علىٰ ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم، وردوهم عن عبادة الأصنام إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، سلموها إليهم كل أمة بلسانها، وهي علىٰ هيئتها إلىٰ يومنا هذا».

والجواب علىٰ هذا من وجوه:

أحدها: أن القول في سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدم، وقد تكلم علىٰ هذا من تكلم عليه من علماء النصارىٰ الذين هداهم الله، وبينوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله، ليس هو الله، مما يتبين به بطلان قولهم، وأنهم ممَّن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه، ولهذا أنزل الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا كقول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سُئِل عن علم الساعة فقال: «لا يعلمها إنسانٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب فقط».

فنفىٰ عن نفسه علم الساعة، وهذا يدلّ علىٰ شيئين: علىٰ أن اسم الابن إنَّما يقع علىٰ الناسوت دون اللاهوت، فإن اللاهوت لا يجوز أن يُنْفَىٰ عنه علم

الساعة، ويدلّ علىٰ أن الابن لَمْ يكن يعلم ما يعلمه الله، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد، فإنه لو كان الاتحاد حقًّا ـ كما يزعمون ـ لكان الابن يعلم ما يعلمه الله، ويقدر علىٰ ما يقدر عليه، فإنه هو الله عندهم، والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالمًا قادرًا يحيي ويُميت.

وقال المسيح لتلاميذه: «آمنوا بالله، وآمنوا بِي».

وقال أيضًا: «من يؤمن بي فليس يؤمن بي فقط، بل وبالذي أرسلني».

وهم يذكرون أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ استصرخ الله قائلًا: «إلهي! إلهي! انظر لماذا تركتني، وتباعدت عن خلاصي؟».

الوجه الثاني: أن قولهم: «إن هذه الكتب التي بأيديهم من التوراة، والإنْجيل، وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها، وهي علىٰ هيئتها» قولٌ لَمْ يقيموا علىٰ صحته دليلًا، بل ادعوا ذلك دعوىٰ مجرد.

ومثل هذا النقل إن لَمْ يثبت بالتواتر لَمْ يحتجّ به في المسائل العلمية، لا سيما إذا قيل في:

الوجه الثالث: إن هذا كذب ظاهر، فإن كثيرًا من الألسنة ليس عند أهله إنجيل قديمٌ، ومن ذلك لسان العرب؛ فإن العرب النصارىٰ كثيرون قبل الإسلام، ولا تعرف توراة، ولا إنجيل، ولا نبوات عربية إلا ما عُرِّبَ من النسخ العبرية، والرومية، والسريانية، ونَحنُ نطالبهم بهذه ا الكتب التي هي بالعربية التي في زمن الحواريِّين، أين هي؟ ومن رآها؟.

ولو قدر أنها كانت بالعربية، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدي الناس هي مما عُرِّبَ مما بأيديهم، وحينئذ... فلا تعرف صحتها إن لَمْ تعرف صحة الترجَمة، ويثبت نقل تلك عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهكذا القول في سائر

الألسن.

الوجه الرابع: أن التوراة، والنبوات التي نقلت من نسخ اليهود، والأناجيل هي أربعةٌ كتبت بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، اثنان ممَّن كتبها لمْ يريا المسيح وهما: لوقا ومرقس، واثنان رأياه وهما: يوحنَّا ومتَّىٰ.

والنسخ إنَّما كثرت عن الأربعة، وما ينقله الأربعة لا يجب أن يكون متواترًا معلومًا، وإذا كثرت الألسن بها فمن بعد الأربعة، لا أن الذين سَمعوها من المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تكلموا باثنين وسبعين لسانًا، فإن هذا لمْ يقله أحدٌ، ولا يقوله عاقلٌ؛ إذ الحواريون كانوا اثني عشر، لمْ يكونوا اثنين وسبعين، فإذا قيل: إنه نقلها اثنان وسبعون فهم نقلوها عمَّن نقلها إليهم من الحواريِّين، وهم إنَّما يسندون نقلها إلىٰ أربعة.

الوجه الخامس: أن الحواريِّين ليسوا معصومين، بل يجوز علىٰ أحدهم الغلط في بعض ما ينقله، وما ينقل من خوارقهم للعادات فمن الناس من يكذبه، ومنهم من يصدقه، ولا دلالة فيه علىٰ عصمتهم إلا أن يثبت أنهم ادعوا النبوة، وأقاموا المعجزات الدالة علىٰ نبوتهم، ولمْ يكن الأمر كذلك، وإلا فالصالحون إذا كانت لهم كراماتٌ لمْ تدل كراماتهم علىٰ أنهم معصومون كالأنبياء، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم، والحواريُّون عندهم ليسوا بأنبياء، وإن سَمَّوهم رسلًا، فهم رسل المسيح، لا رسل الله تبارك وتعالىٰ.

الوجه السادس: أن في هذه الكتب التي بأيديهم ما يناقض قولهم ـ من الأقوال الصريحة الكثيرة ـ ما هو أكثر، وأصرح مما احتجُّوا به علىٰ قولهم، والواجب حينئذٍ التمسك بالصريح المحكم، ورد المتشابه إليه، ولا يجوز التمسك بالمتشابه، ورد المحكم إليه.

الوجه السابع: أنه بتقدير أن يكون في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا، سواءٌ كانت كلها منقولةً عن الحواريِّين نقلًا صحيح أو كان نقل أكثرها، أو أكثر منها مترجَمةً من لغةٍ إلىٰ لغةٍ.

فمعلومٌ أنه بكل لسانٍ عدة نسخٍ، ولو لمْ يكن بها إلا لسانٌ واحدٌ مع كثرة النسخ بها في مشارق الأرض ومغاربها لمْ يُمكن أحدًا أن يقطع بأن جَميع النسخ علىٰ لفظٍ واحدٍ، ونصٍّ واحدٍ، كما ادعاه هؤلاء في الاثنين وسبعين لسانًا، حيث قالوا: «ومثل هذا القول في كتب الله المنَزَّلة علىٰ أفواه الأنبياء والرسل كثيرٌ عند النصارىٰ جَميعهم المختلفة ألسنتهم، المتفرقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسكين بدين النصرانية قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحدٌ علىٰ ما تسلموه من الحواريين، وردوهم عن عبادة الأصنام، فسلموها إليهم كل أمة بلسانها، وهي علىٰ هيئتها إلىٰ يومنا هذا».

فإن هذا الكلام يتضمن عدة دعاوىٰ، ليس فيها ما يُمكن قائله أن يكون عالمًا به، فعلم أن هؤلاء تكلموا بهذا الكلام بلا علمٍ، بل بالجهل والضلال كما هو عادتهم.

فإنه يقال لهم: من الذي جَمع كل نسخة في العالم من جَميع التوراة، والإنْجيل، والزبور، وسائر النبوات الأربعة والعشرين بلسانٍ واحدٍ كالعربِي مثلًا؟ وهل ميز جَميع النسخ فلم يجد نسخةً تزيد علىٰ نسخةٍ، ولا تنقص عنها.

ومعلومٌ إن كان هذا ممْكنًا أمكن أن يقال: جَمعها جامعٌ، وغيَّر بعض ألفاظها، فلا يُمكنهم دعوىٰ بقائها بلا تغيير، وإن لمْ يُمكن ذلك لمْ يُمكن أَحَدًا أن يقول: أنا أعلم موافقة كل نسخةٍ من نسخ هذه الكتب لكل نسخة توجد في سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان، فضلًا عن اثنين وسبعين لسانًا، فضلًا عن أن يقال: أنا أعلم أن هذه الألسن كلها، تكلمت بها الحواريون، وهي باقية علىٰ

لفظهم إلىٰ اليوم.

ومعلومٌ أن هذا لَمْ يفعله أحدٌ، ولا يقدر عليه أحدٌ، بل لو اجتمع جَميع ملوك النصارىٰ علىٰ ذلك، وعلماء بلادهم علىٰ ذلك لَمْ يقدروا عليه، فإن من النسخ ما هو عند المسلمين، ومنها ما هو في بلادٍ لا حكم لهم عليها، وأيضًا فقد يكون في بلادهم من النسخ ما لَمْ يظهرها أصحابها، فكل من شهد من النصارىٰ، وغيرهم بأن كل نسخة في العالم بهذه الكتب توافق جَميع النسخ فهو شاهد زورٍ، شهد بِما لا يعلم، بل شهد بِما يعلم أنه كاذبٌ فيه.

- **الوجه الثامن**: أن هذا لو قُدِّرَ إمكانه فإنَّما يكون منقولًا، لو لَمْ يعلم أنه كذبٌ، فكيف مع العلم بأنه كذبٌ، فإنه يوجد في هذا الزمان نسخ التوراة، والإنْجيل، والزبور والنبوات مختلفةٌ متناقضةٌ، والنسخ التي عند النصارىٰ مختلفةٌ، وهي أيضًا تخالف نسخ اليهود، والسامرة في مواضع، وحينئذ... فإذا قالت النصارىٰ: نسخنا هي الصحيحة.

لَمْ يكن هذا أولىٰ من قول اليهود: نسخنا هي الصحيحة.

بل معلومٌ أن اعتناء اليهود بالتوراة أعظم من اعتناء النصارىٰ.

ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفي إن لَمْ يعلم أن نسخهم توافق النسخ التي عند اليهود حتَّىٰ السامرة، وهذا غير معلومٍ.

وإن قالوا: إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريِّين لَمْ يلتفت إليه؛ لأنهم معصومون.

كان هذا مبنيًّا علىٰ دعوىٰ عصمتهم، وقد عرف فساده.

وإذا قالت النصارىٰ: نَحن ننقلها عن الحواريين المعصومين.

قالت اليهود: نَحن ننقلها عن موسىٰ المعصوم باتفاق أهل الملل، أو عن العارف المعصوم باتفاق اليهود والنصارىٰ، وكثيرٍ من المسلمين، فالتوراة باتفاق الخلق مأخوذةٌ عن موسىٰ بن عمران، وهو معصومٌ، وإنَّما يطعن من يطعن في نقل بعضها لانقطاع التواتر في أثناء المدة لما خرب بيت المقدس، ولـمْ يبقَ فيه ساكنٌ أكثر من سبعين سنة، فيقول بعض الناس: إن بعض ألفاظها غُيِّرَ حينئذ، ويقول بعضهم: لـمْ تغيّر ألفاظ جَميع النسخ، وإنَّما غُيِّرَ ألفاظ بعض النسخ، وانتشرت النسخ المغيّرة عند كثيرٍ من الناس حتَّىٰ لا يعرفوا غيرها.

ثم بنو إسرائيل لـمْ يزل فيهم نَبِيٌّ بعد نَبِيٍّ حتَّىٰ جاء المسيح، وبعد المسيح فلم يزالوا خلقًا كثيرًا، لا يُمكن تواطؤهم في مشارق الأرض ومغاربها علىٰ تغيير نسخ التوراة، بِخلاف الإنْجيل، فإنه إنَّما نقله أربعةٌ، ومن كتب التوراة، والزبور، والنبوات من أتباع المسيح، فإنَّما كتبوها من النسخ التي كانت بأيدي اليهود.

وإذا قالوا: كانوا معصومين.

فهذا ممنوعٌ عند المسلمين واليهود، وعلىٰ تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضًا عن المعصوم قبل هؤلاء، فلا يُمكن مع هذا أن يدعي مدعٍ أن النبوات التي عند النصارىٰ تواترت عن المعصوم أعظم من تواتر ما عند اليهود، بل لا يشك العقلاء العادلون أن نقل حروف التوراة أصحّ من نقل حروف الإنْجيل، وهذا أمرٌ يعرف من وجوهٍ متعددةٍ؛ فإن التوراة أخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل، وكانت منقولةً قبل المسيح بين الأنبياء، وبين بني إسرائيل أعظم من نقل الإنْجيل، وبعد المسيح نقلها اليهود والنصارىٰ.

وإذا كان كذلك، فإذا وجد ما عند اليهود، والسامرة من نسخ النبوات يخالف ما عند النصارىٰ في بعض الألفاظ كان هذا دليلًا علىٰ أن هذه الكتب ليست ألفاظها منقولةً عن نصٍّ واحدٍ، وأنه ليس كل لفظٍ من ألفاظها متواترًا،

والله أعلم.

الوجه التاسع: أن جميع ما عندهم من النصوص الصحيحة لا يدلّ علىٰ مذهبهم ألبتة نصًّا، بل غاية ما يدعون فيها الظهور، وهم منازعون في ذلك، حتَّىٰ يقال: بل الظاهر فيما يحتجّون به خلاف قولهم.

ومعلومٌ أن أصول الإيمان التي يؤمن أهل الإيمان بها، ويكفّرون من خالفها، لابد أن تكون معلومةً عندهم عن الأنبياء، والعلم لا يحصل بلفظٍ محتملٍ، فعلم أنه لا علم عندهم عن الأنبياء، وهو محلّ النزاع.

الوجه العاشر: أن أصرح ما عندهم من التثليث هو قوله: «عمّدوا الناس باسم الاب، والابن، وروح القدس».

وعلىٰ هذا القول بنوا قولهم بالتثليث، وأثبتوا لله ثلاثة أقانيم، ولفظ الأقانيم لمْ ينطق به أحدٌ من الأنبياء، ولا أحدٌ من الحواريِّين باتفاقهم، بل هو مما ابتدعوه، قيل: إنه لفظٌ رومي، معناه: الأصل.

ثم أقنوم الابن تارةً يقولون: هو علم الله.

وتارةً يقولون: هو حكمة الله.

وتارةً يقولون: هو كلمة الله.

وتارةً يقولون: هو نطق الله، وروح القدس.

وتارةً يقولون: هو حياة الله.

وتارةً يقولون: هو قدرة الله.

والكتب المنقولة عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسمية شيءٍ من صفات الله، لا باسم ابن، ولا باسم روح القدس، فلا يوجد أن أحدًا من الأنبياء سَمَّىٰ علم

الله، وحكمته، وكلامه ابنًا، ولا سَمَّىٰ حياة الله، أو قدرته روح القدس، بل روح القدس في كلام الأنبياء يراد بها معنًىٰ ليس هو حياة الله، كما يراد بها ملك الله، أو ما يُنَزِّله في قلوب الأنبياء والصالحين من هداه، ونوره، وتأييده، ونَحو ذلك.

وإذا كان كذلك عُلم أن ما فسروا به قول المسيح عليه السلام: «عمّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس» كذبٌ صريحٌ عليه.

وكذلك ما فسروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثلاثة كذبٌ صريحٌ عليهم، كقولهم: «إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب» أرادوا به إثبات ثلاثة آلهة، فإن هذا مما يعلم بالضرورة ضلالهم فيه، وافتراءهم علىٰ الأنبياء، ويعلم أن إله الثلاثة هو إلهٌ واحدٌ، ليس إله إبراهيم إلهًا آخر غير إله إسحاق، حتَّىٰ لو قيل بالأقانيم، فلا يقول عاقلٌ: إن أحد الأقانيم إله هذا، والأقنوم الآخر إله الآخر.

فإن هذا لمْ يقله أحدٌ من العقلاء، لا النصارىٰ ولا غيرهم، لا يقولون: إن الأب إله إبراهيم مثلًا، والابن إله إسحاق، وروح القدس إله يعقوب، بل هم متفقون مع قولهم بالتثليث: أن الجميع إلهٌ واحدٌ لجميع المرسلين، ليس إله هذا أقنومًا، وإله الآخر أقنومًا آخر.

فعلم أن ما يفسرون به كلام الأنبياء كذبٌ، لا يصح، لا علىٰ تثليثهم الذي ابتدعوه، ولا قول أهل التوحيد المتبعين لرسل الله تعالىٰ.

قال الحاكي عنهم: «فقلت لهم: إذا كانت هذه النبوات عند اليهود، وهم مقرون معترفون بها أنها حقٌّ، وأنها عتيدة أن تكمل عند مجيء المسيح، فأي حجةٍ لهم يحتجّون بها عن الإيمان به.

أجابوا قائلين: إن الله اختار بني إسرائيل، واصطفاهم علىٰ الناس له شعبًا في

ذلك الزمان، وحيث كانوا في أرض مصر في عبودية فرعون، أرسل إليهم موسىٰ النَّبِيّ، دلهم علىٰ معرفة الله، ووعدهم أن الله يخلصهم من عبودية فرعون، ويخرجهم من مصر، ويريهم أرض الميعاد التي هي أرض بيت المقدس، فطلب موسىٰ من الله، وعمل العجائب قدام عيونهم، وضرب أهل مصر العشر ضربات، وهم يرون ذلك جَميعه، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم، وأخرجهم من مصر بيد قوية، وشقَّ لهم البحر، وأدخلهم فيه، وصار لهم الماء حائطًا عن يَمينهم، وحائطًا عن شِمالهم، ودخل فرعون وجَميع جنوده في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون ذلك، فلما برز موسىٰ وبنو إسرائيل من البحر، وخلفهم فرعون بِجنوده فيه، أمر الله لموسىٰ أن يرد عصاه إلىٰ الماء، فعاد الماء كما كان، وغرق فرعون، وجَميع جنوده في البحر، وبنو إسرائيل يشهدون ذلك.

فلما غاب عنهم موسىٰ إلىٰ الجبل ليناجي ربه، وأخذ لهم التوراة من يد الله، تركوا عبادة الله، ونسوا جَميع أفعاله، وكفروا به، وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك، ثم عبدوا الأصنام مرارًا كثيرةً، ليس مرةً واحدةً، وذبَحوا لها الذبائح، ليست حيوانات، بل بنيهم مع البنات حسبما ذكر فيما قبل ذلك، وجَميع أفعالهم مكتوبةٌ في أخبار بني إسرائيل، فلما رأىٰ الله قساوة قلوبهم، وغلظ رقابهم، وكفرهم به، ورأىٰ أفعالهم النجسة الخبيثة غضب عليهم، وجعلهم مرذولين، وطبع علىٰ قلوبهم فلا يؤمنون، وجعلهم مهانين في جَميع الأمم، وليس لهم ملكٌ، ولا بلادٌ، ولا نَبِيٌّ، ولا كاهنٌ إلىٰ الأبد، حسبما تنبئت عليهم الأنبياء علىٰ ما ذكرناه قبل، وتشهد به كتبهم التي في أيديهم إلىٰ يومنا هذا.

وكذا قال الله لأشعيا: «اذهب إلىٰ هذا الشعب، فقل لهم: تسمعون سَماعًا، ولا تفهمون، وينظرون نظرًا ولا تبصرون؛ لأن قلب هذا الشعب قد غلظ، وقد سمعوا بأفهامهم سَمْعًا ثقيلًا، وقد غمضوا أعينهم لئلا يبصروا بها، وسَمعوا

بآذانهم، ولا يفهمون بقلوبهم، ويرجعون إلي فأرحَمهم».

وقال أشعيا: «قال الله: هكذا مقتت نفسي سبوتكم، ورؤوس شهوركم صارت عندي مرذولة».

و**قال:** «وفي ذلك اليوم يقول الله: سأبطل السبوت والأعياد كلها، وأعطيكم سنةً جديدةً مختارةً، لا كالسنة التي أعطيتها لموسىٰ عبدي يوم حوريب يوم الجمع الكثير، بل سنةً جديدةً مختارةً، أمر بها، وأخرجها من صهيون».

فصهيون هي أورشليم، والسنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلمناها نَحن معشر النصارىٰ من يدي الرسل الحواريِّين الأطهار، الذين خرجوا من أورشليم، وداروا في سبعة أقاليم العالم، وأنذروا بهذه السنة الجديدة، فأي بيان يكون أوضح وأصح من هذا البيان، إذ قد أوردناه من قول الله، ولا سيما وأعداؤنا اليهود المخالفون لديننا شهدوا لنا بصحة ذلك جَميعه.

وأما حجة اليهود في هذه النبوات يقولون ويعتقدون أنها حقٌّ، وأنها قول الله، لكن يقولون: إنها عتيدة، فهذه النبوات مثلما هي عند اليهود، كذلك هي عندنا معشر النصارىٰ في اثنين وسبعين لسانًا، فيراهم جَميع الأمم قولًا واحدًا، وأنها قول الله.

وقالت اليهود: نَحن مصدقون بها أن تكمل، وتتم عند مجيء المسيح، لكن المسيح لَمْ يَجِئْ بَعْدُ، وأن الذي جاء ليس هو المسيح.

هذا قولهم، وكفاهم أنهم يكفرون، ويفجرون مع الكفر، ويقولون: إن المسيح كان ضالًّا مضلًّا، وأما المسيح الحق فعتيدٌ، أنه يأتي، ويكمل نبوات الأنبياء إذا جاء، وإذا جاء اتبعناه، وكنا أنصاره.

وهذا رأيهم، واعتقادهم في السيد المسيح، فماذا يكون أعظم من هذا الكفر

الذي هم عليه.

ولأجل ذلك في هذا الكتاب سَماهم: المغضوب عليهم؛ لأجل خلافهم لقول الله الذي أرسل نطقه على أفواه الأنبياء، ولما كنا نَحن النصارى متمسكين بِما أمرتنا به الرسل الأطهار سَمانا في هذا الكتاب: المنعم عليهم.

وأما قولنا في الله: ثلاثة أقانيم، إلهٌ واحدٌ، فهو أن الله نطق به، وأوضحه في التوراة، وفي كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء في السفر الأول من التوراة يقول: «حيث شاء الله أن يخلق آدم قال: لنخلق خلقًا على شبهنا ومثالنا»، فمن هو شبهه.

ومثاله سوى كلمته، وروح قدسه، وحين خالف آدم، وعصى ربه: «ها آدم قد صار كواحدٍ منَّا».

وهذا واضحٌ أن الله قال هذا القول لابنه: أي كلمته، وروح قدسه، وقال هذا القول يستهزئ بآدم، أي طلب أن يصير كواحدٍ منَّا صار عريانًا مفتضحًا.

وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة، قال في التوراة: «وأمطر الرب عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارًا وكبريتًا».

أوضح بهذا ربوبية الآب والابن بذكر ثالث».

والجواب أن يقال: أما كفر اليهود كلهم لما أُرسل المسيح عليه السلام إليهم، فلم يؤمنوا به، وكفر من كفر منهم قبل ذلك إما بقتل النبيين، وإما بتكذيبهم إما بالشرك، وإما بغير ذلك مما كفروا فيه بِما أنزل الله.

فهذا حقٌّ.

وهذا هو نظير كفر النصارى كلهم الذين بلغتهم دعوة محمدٍ، وأقام الله

عليهم الحجة به، فلم يؤمنوا به، وكفر من كفر منهم قبل ذلك بِما أنزل الله، إما بتكذيب بعض ما أنزله، وإما بتبديله بغيره، وإما بِجعل ما لَمْ يُنْزِله الله مُنَزَّلًا منه، وإما بغير ذلك مما فيه كفرٌ بِما أنزل الله ﷻ.

وكذلك ما ذكر من أن الله أقام سنةً جديدةً، وعهدًا جديدًا، وهو ما بعث به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشريعة التي بعث بها، وفيها تحليل بعض ما حرم الله في التوراة، كما قال في القرآن عن المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فهذا أيضًا حقٌّ.

وأما قولكم: «السنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلمناها من يدي الرسل الأطهار علىٰ ما تسلموها هم من المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ».

فيقال: لو كنتم علىٰ تلك السنة لَمْ تُغَيِّرُوها لَمْ ينفعكم المقام عليها إذا كذبتم الرسول النَّبِيَّ الأميَّ الذي بعث إليكم، وإلىٰ سائر الخلق بسنةٍ أخرىٰ أكمل من السنن التي كانت قبله، كما لَمْ ينفع اليهود، ولو تمسكوا بسنة التوراة، ولَمْ يتبعوا سنة المسيح الذي أرسل إليهم، بل من كذب برسولٍ واحدٍ فهو كافرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

فإنه وإن كانت السنة التي جاء بها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حقًّا، وكل من كان متبعًا له فهو مؤمنٌ مسلمٌ من أولياء الله من أهل الجنة، الذين لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون.

فمن اتبع المسيح كان مؤمنًا، ومن كفر به كان كافرًا، لكن غيرتموها، وبدلتموها قبل مبعث محمدٍ، فصرتُم كفارًا بتبديل شريعة المسيح، وتكذيب

شريعة محمدٍ، كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التوراة، وتكذيب شريعة الإنْجيل، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمدٍ، وعلىٰ سائر رسل الله أجْمعين.

فإن المسيح لمْ يَسُنَّ لكم التثليث، والقول بالأقانيم، ولا القول بأنه رب العالمين، ولا سَنَّ لكم استحلال الخنْزير، وغيره من المحرمات، ولا ترك الختان، ولا الصلاة إلىٰ المشرق، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولا الشرك، واتخاذ التماثيل، والصليب، ودعاء الموتىٰ، والغائبين من الأنبياء، والصالحين، وغيرهم، وسؤالهم الحوائج، ولا الرهبانية، وغير ذلك من المنكرات التي أحدثتموها، ولمْ يسنها لكم المسيح، ولا ما أنتم عليه هي السنة التي تسلمتموها من رسل المسيح، بل عامة ما أنتم عليه من السنن أمورٌ محدَثةٌ مبتدَعةٌ بعد الحواريِّين، كصومكم خمسين يومًا زمن الربيع، واتخاذكم عيدًا يوم الخميس والجمعة والسبت، فإن هذا لمْ يسنه المسيح، ولا أحدٌ من الحواريِّين، وكذلك عيد الميلاد، والغطاس، وغير ذلك من أعيادكم، بل عيد الصليب إنَّما ابتدعته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين، فأنتم تقولون: إنها هي التي أظهرت الصليب، وصنعت لوقت ظهوره عيدًا، وذلك بعد المسيح والحواريِّين بِمدةٍ طويلةٍ زمن الملك قسطنطين، بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، وفي ذلك الزمان أحدثتم الأمانة المناقضة لنصوص الأنبياء في غير موضع، وأظهرتُم استحلال الخنْزير، وعقوبة من لمْ يأكله، وابتدعتم في ذلك الزمان تعظيم الصليب، وغير ذلك من بدعكم، وكذلك كتب القوانين التي عندكم جعلتموها سنةً وشريعةً، فيها شيءٌ عن الأنبياء والحواريِّين، وكثيرٌ مما فيها ابتدعه من بعدهم، لا ينقلونه لا عن المسيح، ولا عن الحواريِّين، فكيف تدعون أنكم علىٰ السنة، والشريعة التي كان عليها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذبٌ بَيِّنٌ.

قالوا: «وأما قولنا في الله: ثلاثة أقانيم، إلهٌ واحدٌ، فهو أن الله نطق به، وأوضحه في التوراة، وفي كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء في السفر الأول من التوراة يقول: حيث شاء الله أن يخلق آدم، قال الله: «لنخلق خلقًا علىٰ شبهنا، ومثالنا».

فمن هو شبهه، ومثاله سوىٰ كلمته وروحه، وحين خالف آدم وعصىٰ ربه قال الله تعالىٰ: «ها آدم قد صار كواحدٍ منَّا».

وهو قولٌ واضحٌ أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه».

والجواب: أن استدلالهم بهذا علىٰ قولهم في المسيح هو في غاية الفساد والضلال، فإن لفظ التوراة: «نصنع آدم كصورتنا، وشبهنا».

وبعضهم يترجِمه: «نَخلق بشرًا علىٰ صورتنا، وشبهنا».

والمعنَىٰ واحدٌ، وهذا كما قال النَّبِيُّ عليه السلام: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**»، وفي روايةٍ: «**عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ**» (١).

فقولهم: «من هو شبهه ومثاله سوىٰ كلمته وروحه» **من أبطل الباطل من وجوه**:

أحدها: أن الله ليس كمثله شيءٌ، وليس لفظ النص: «علىٰ مثالنا».

الثاني: أنه لا اختصاص للمسيح بِما ذكر علىٰ تقدير حقٍّ وباطلٍ، فإنه بأي تفسيرٍ فسر قوله: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا شبهنا» لمْ يخصّ ذلك المسيح.

الثالث: أنهم إن أرادوا بالكلمة التي هي شبهه ومثاله صفته، التي هي العلم القائم به، والحياة القائمة به مثلًا، فالصفة لا تكون مثلًا للموصوف، إذ

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الموصوف هو الذات القائمة بنفسها، والصفة قائمةٌ بها، والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه.

وإن أرادوا به شيئًا غير صفاته، مثل بدن المسيح، وروحه، ذلك مخلوقٌ له، والمخلوق لا يكون مثل الخالق، وكذلك روح القدس سواءٌ أريد به ملكٌ، أو هديٌ وتأييدٌ، ليس مثلًا لله ﷻ.

الرابع: أنه قال: «لنخلق خلقًا» أو قال: «نَخلق آدم» أو «نَخلق بشرًا علىٰ صورتنا وشبهنا» وعلىٰ ما قالوه نَخلق خلقًا علىٰ شبهنا ومثالنا.

وبكل حال، فهذا و «كلمة الله» و «روحه» عندهم غير مخلوقٍ، فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمته وروحه.

وإن قالوا: أراد بذلك الناسوت المسيحي، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت، مع أن المراد بذلك النص آدم أبو البشر باتفاق الأمم، والناسوت نفسه ليس هو كلمة الله وروحه.

الخامس: أنه لو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه، مثل كونه قديمًا بقدمه، لمْ يكن في ذلك ما يدلّ علىٰ الأقانيم الثلاثة.

وكذلك اللفظ المعروف وهو قوله: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا شبهنا» فهذا لا يدلّ علىٰ التثليث بوجه من الوجوه، وشبه الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه، وذلك لا يقتضي التماثل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب، ويجوز، ويمتنع.

وإذا قيل: هذا حيٌّ عليمٌ قديرٌ، وهذا حيٌّ عليمٌ قديرٌ، فتشابها في مسمىٰ الحي والعليم والقدير، لمْ يوجب ذلك أن يكون هذا المسمىٰ مماثلًا لهذا المسمىٰ فيما يجب، ويجوز، ويَمتنع، **بل هنا ثلاثة أشياء:**

أحدها: القدر المشترك الذي تشابها فيه، وهو معنًىٰ كليٌّ، لا يختصّ به أحدهما، ولا يوجد كليًّا عامًّا مشتركًا إلا في علم العالم.

والثاني: ما يختصّ به هذا، كما يختصّ الربّ بِما يقوم به من الحياة، والعلم، والقدرة.

والثالث: ما يختصّ به ذاك، كما يختصّ به العبد من الحياة، والعلم، والقدرة، فما اختص به الربّ ﷻ لا يشركه فيه العبد، ولا يجوز عليه شيءٌ من النقائص التي تجوز علىٰ صفات العبد، وما يختصّ به العبد لا يشركه فيه الربّ، ولا يستحق شيئًا من صفات الكمال التي يختصّ بها الربّ ﷻ.

وأما القدر المشترك كالمعنَىٰ الكلي الثابت في ذهن الإنسان، فهذا لا يستلزم خصائص الخالق، ولا خصائص المخلوق، فالاشتراك فيه لا محذور فيه.

ولفظ التوراة فيه: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا يشبهنا» لمْ يقل: علىٰ مثالنا، وهو كقول النَّبِيِّ في الحديث الصحيح: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» (١).

فلم يذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كموسىٰ، ومحمدٌ إلا لفظة شبه، دون لفظ: مثل.

- **والوجه السادس**: أن قوله: «سنخلق خلقًا علىٰ شبهنا» لا يتناول صفته، مثل كلامه، وحياته القائمة به، فإن ذلك ليس بِمخلوقٍ، وحينئذٍ فهذا لا يتناول اللاهوت الذي يزعمون أنه تدرع بالناسوت، فإن اللاهوت ليس بِمخلوقٍ، وأما الناسوت فهو كسائر نواسيت الناس، لا اختصاص له بأن يكون شبيهًا لله دون

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٤، والبخاري في الأدب المفرد (١٧٣)، وابن حبان ١٣/ ١٨ (٥٧١٠) عن أبي هريرة.

سائر النواسيت.

فقوله: «فمن هو الشبه المخلوق سوىٰ كلمته وروحه» باطلٌ علىٰ كل تقدير.

وأما قوله: «ها آدم قد صار كواحدٍ منَّا»، وقولهم: «إن هذا قولٌ واضحٌ أن الله قال هذا القول لابنه روح قدسه».

فإن أرادوا أن يجعل الذي صار كواحدٍ منَّا لابنه، كان هذا من أبطل الكلام؛ فإن هذا الابن إن كان المراد به الكلمة التي هي صفةٌ لله، فتلك لمْ يُخلق لها أمرٌ يصير كواحدٍ منهم، وتلك لا تسمىٰ آدم، ولا سَماها الله ابنًا.

وإن أريد به ناسوت المسيح، فذاك مخلوقٌ مبتدعٌ، يَمتنع أن يكون كالقديم الأزلي.

وأيضًا فإن الله قال عن آدم، وآدم ليس هو المسيح، ولا يجوز أن يقال آدم، ويراد به المسيح، كما لا يجوز أن يقال: عصىٰ آدم، ويراد به المسيح.

وأيضًا فإنه قال: «ها آدم قد صار كواحدٍ منَّا» هذه إشارةٌ إلىٰ أمرٍ قد كان في الزمن الماضي، ليس هو إشارةٌ إلىٰ ما سيكون بعد ذلك بألوف من السنين، وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذي هو كلمته وروحه، وهذا هو مرادهم، كقولهم: إنه قال هذا القول يستهزئ بآدم، أي أنه طلب أن يصير كواحدٍ منَّا، صار هكذا عريانًا مفتضحًا، ويكون شبهتم قوله: «منا» لأنه عبر بصيغة الجمع، وكذلك إن أرادوا هذا بقوله: «نَخلق بشرًا علىٰ صورتنا وشبهنا» فاحتجّوا علىٰ التثليث بصيغة الجمع.

وهذا مما احتجّ به نصارىٰ نَجران علىٰ النَّبِيِّ، فاحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ ﴾ قالوا: وهذا يدل علىٰ أنهم ثلاثةٌ، وكان هذا من المتشابه الذي اتبعوه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وتركوا المحكم المبين الذي لا يحتمل إلا واحدًا،

فإن الله في جَميع كتب الإلهية قد بَيَّنَ أنه إلهٌ واحدٌ، وأنه لا شريك له، ولا مثل له.

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ لفظٌ يقع في جميع اللغات علىٰ من كان له شركاء وأمثالٌ، وعلىٰ الواحد المطاع العظيم، الذي له أعوان يطيعونه، وإن لمْ يكونوا شركاء، ولا نظراء، والله تعالىٰ خلق كل ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريكٌ أو مثلٌ، والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:٧].

فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا، ونَحن.

ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك، فمالك الملك، ربّ العالمين، ربّ كل شيءٍ ومليكه، هو أحق بأن يقول: إنا، ونَحن.

مع أنه ليس له شريكٌ، ولا مثيلٌ، بل له جنود السماوات والأرض.

وأيضًا فمن المعلوم أن آدم لمْ يطلب أن يصير مثل الله، ولا مثل صفاته، كعلمه، وحياته.

وأيضًا فليس في ظاهر اللفظ أن الله خاطب صفاته بتلك.

وأيضًا فالصفة القائمة بالموصوف لا تخاطِب، ولا تخاطَب، وإنَّما يخاطَب الموصوف، ولمْ يكن قد خلق آدم ناسوت المسيح، ولا غيره من البشر حتَّىٰ يخاطبه، فعلم أن دعواهم أن الله خاطب صفته التي سَمَّوها ابنًا، وروح قدس، كلامٌ باطلٌ، بل قد يخاطِب ملائكته.

وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد، والملك، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

[طه: ١٢٠].

قالوا: «وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة، قال في التوراة: «وأمطر الرب من عند الرب من السماء علىٰ سدوم وعامورة نارًا وكبريتًا» أوضح بهذا ربوبية الأب والابن».

والجواب: أن احتجاجهم بهذا من أبطل الباطل؛ لوجوه:

أحدها: أن تسمية الله علمه وحياته ابنًا وربًّا تسميةٌ باطلةٌ، لَمْ يُسَمِّ موسىٰ في التوراة شيئًا من صفات الله باسم الابن، ولا باسم الأب، فدعوىٰ المدعي أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد بالربّ شيئًا من صفات الله، أو أن له صفةً تسمىٰ ابنه كلامٌ باطلٌ.

الثاني: أنه لو قدر أن صفة الله تسمىٰ بذلك، فمعلومٌ أن الذي أمطر هو الذي كان المطر عنده، لَمْ يكن المطر عند أحدهِما، والآخر هو الممطر، كما لا يجوز أن يقال: خلق أحدهُما من شيءٍ عند الآخر، ولا أنزل أحدهُما المطر من سحاب الآخر.

الثالث: أن الصفة لا تفعل شيئًا، ولا عندها شيءٌ، بل هي قائمةٌ بالموصوف، والذات المتصفة بالصفة هي التي تفعل، وعندها يكون ما يكون.

الرابع: أن هذا بِمنْزلة قوله: «أمطر الرب من عنده» لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهارًا؛ لأن الأمر له وحده في هذا وهذا.

قالوا: نذكر ثالثًا، وقال داود في الزبور في المزمور المئة والتسعة قائلًا: «قال الرب لربِي: اجلس عن يَميني حتَّىٰ أضع أعداءك تحت موطأ قدميك».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنه لا يجوز أن يراد بـ «ربِي» شيئًا من صفات الله؛ فإنه لـمْ يسم داود ولا أحدٌ من الأنبياء شيئًا من صفات الله ربًّا ولا ابنًا، ولا قال أحدٌ لشيءٍ من صفات الله: يا ربَّ ارحَمَّني. ولا قال لعلم الله، أو كلامه، أو قدرته: يا ربِّ.

وإذا لمْ يكونوا يسمّون صفات الله ربًّا، ولو كان المسيح صفةً من صفاته لـمْ يجز أن يكون هو المراد بلفظ «الرب»، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك؟.

فعلم أنهم لمْ يريدوا بذلك لا اللاهوت، ولا الناسوت.

الثاني: أنه قال: «قال الرب لربِي» فأضاف إليه الثاني دون الأول، وأنه هو ربه الذي خلقه، وعامة ما عند النصارىٰ من الغلو أن يقولوا: «إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ» ويجعلونه خالقًا، أما أن يجعلوه أحقّ من الأب بكونه رب داود، فهذا لمْ يقولوه، وهو ظاهر البطلان.

الثالث: أنه ليس في هذا ذكر الأقانيم الثلاثة، غايته ـ لو كان كما تألوه ـ أن يكون فيه ذكر الابن، وأما الأقانيم الثلاثة فلم ينطق بها شيءٌ من كتب الله التي بأيديهم، فضلًا عن القرآن، لا بلفظها، ولا معناها، بل ابتدعوا لفظ الأقنوم، وعبّروا به عما جعلوه مدلول كتب الله، وهي لا تدل علىٰ ذلك، فكانوا في ذلك مترجِمين لكلام الله وهم لمْ يفهموا معناه، ولا عبّروا عنه بعبارةٍ تدلّ علىٰ المراد.

الرابع: أنه قال: «لربِي» وهذا يراد به السيد، كما قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال لغلام الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

ولهذا ذكر الأول مطلقًا، والثاني مقيدًا، فيكون المعنىٰ: وقال الله لسيدي.

قال رب العالمين لسيدي، وسَماه سيدًا تواضعًا من داود، وتعظيمًا له؛ لاعتقاده أنه أفضل منه.

قالوا: نذكر رابعًا: وقال في المزمور الثاني: «الذي قال لِي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن هذا ليس فيه تسمية صفات الله: علمه وحياته ابنًا، ولا فيه ذكر الأقانيم الثلاثة، فليس فيه حجةٌ لشيءٍ مما تدّعونه.

والثاني: أن هذا حجةٌ عليهم؛ فإنه هو سَمَّىٰ داود ابنه، فعلم أن اسم الابن ليس مختصًا بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل سَمَّىٰ غيره من عباده ابنًا، فعلم أن اسم الابن ليس اسْمًا لصفاته، بل هو اسمٌ لمَن ربَّاه من عبيده.

وحينئذٍ...فلا تكون تسمية المسيح ابنًا لكون الرب، أو صفته اتحدت به، بل كما سَمَّىٰ داود ابنًا، وكما سَمَّىٰ إسرائيل ابنًا، فقال: «أنت ابني بكري».

وهذا في كتبهم كما ذكر، فإن كان ما في كتبهم قول الله فلا حجة فيه؛ لأنه أراد المربِي، وإن لمْ يكن قول الله ورسله فلا حجة فيه؛ لأن قول غير المعصوم ليس بِحجةٍ

الثالث: أن قوله: «وأنا اليوم ولدتك» يدل علىٰ حدوث هذا الفعل، وعندهم تولد الكلمة التي يسمونها الابن من الأب قديمٌ أزلِيٌّ، كما قالوا في أمانتهم: «وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولودٌ غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر، الذي به كان كل شيءٍ».

فهذا الابن عندهم مولودٌ من الأب قبل كل الدهور، وذاك ولد في يوم خاطبه بعد خلق داود، فلم يكن في هذا المحدث دليلٌ علىٰ وجود ذلك القديم.

الوجه الرابع: أنه إذا كان الأب في لغتهم هو الرب الذي يربِّي عبده، أعظم مما يربي الأب ابنه، كان معنَىٰ لفظ الولادة مما يناسب معنَىٰ هذه الأبوة، فيكون المعنَىٰ: اليوم جعلتك مرحومًا مصطفًىٰ مختارًا.

والنصارىٰ قد يجعلون الخطاب الذي هو ضميرٌ لغير المسيح يراد به المسيح، فقد يقولون: المراد بهذا المسيح، وهذا باطلٌ لا يدل اللفظ عليه، وبتقدير صحته فهو يدلّ علىٰ أن المسيح هو الناسوت المخلوق، وهو المسمىٰ بالابن؛ لقوله: «وأنا اليوم ولدتك».

واللاهوت عندهم مولودٌ من قبل الدهور، وحينئذٍ فإن كان المراد به يوم ولادته، فالمعنَىٰ: خلقتك.

وإن كان يوم اصطفاه، فالمراد: اليوم اصطفيتك وأحببتك، كأنه قال: اليوم جعلتك ولدًا وابنًا، علىٰ لغتهم.

قالوا: «نذكر خامسًا: وفي السفر الثاني من التوراة: «وكلَّم اللهُ موسىٰ من العليقة قائلًا: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب»، ولمْ يقل: أنا إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلًا: «أنا إله...، وإله...»؛ لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته».

والجواب: أن الاحتجاج بهذا علىٰ الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء، وذلك يظهر من وجوهٍ:

أحدها: أنه لو أريد بلفظ الإله أقنوم الوجود، وبلفظ الإله مرةً ثانيةً أقنوم الكلمة، وبالثالث أقنوم الحياة، لكان الأقنوم الواحد إله إبراهيم، والأقنوم الثاني

إله إسحاق، والأقنوم الثالث إله يعقوب، فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة، والأقنومين ليسا بإلهين له.

وهذا كفرٌ عندهم، وعند جَميع أهل الملل، وأيضًا فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة ثلاثة، وهم يقولون: إلهٌ واحدٌ، ثم هم إذا قالوا: كلٌّ من الأقانيم إلهٌ واحدٌ، فيجعلون الجميع إله كل نَبِيٍّ، فإذا احتجوا بهذا النص علىٰ قولهم لزم أن يكون إله كل نَبِيٍّ ليس هو إله النَّبِيِّ الآخر، مع كون الآلهة ثلاثةٌ.

الوجه الثاني: أنه يقال: إن الله رب العالمين، ورب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش، ورب كل شيءٍ، أفيلزم أن يكون رب السماوات ليس هو رب الأرض رب كل شيءٍ.

وكذلك يقال: إله موسىٰ، وإله محمدٍ، مع قولنا: إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، أفتكون الآلهة خَمسةٌ، وقد قال يعقوب لبنيه: ﴿**مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِی قَالُوا۟ نَعۡبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَاۤىِٕكَ إِبۡرَ ٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِیلَ وَإِسۡحَـٰقَ**﴾ [البقرة: ١٣٣]. أفتراه أثبت إلهين: أحدهُما إلهه، والآخر إله الثلاثة.

الوجه الثالث: أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات، وتارة لتغاير الصفات، كقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِی خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِی قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِیۤ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَاۤءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٥]. والذي خلق هو الذي قدر وأخرج.

فقوله في التوراة: «إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب» هو من هذا الباب، ولا يختص هذا بثلاثةٍ، بل يقال في الاثنين، والأربعة، والخمسة، بِحسب ما يقصد المتكلم ذكره من الصفات، وفي هذا من الفائدة ما ليس في قوله: إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فإنه لو قيل ذلك لَمْ يفدْ إلا أنه معبود الثلاثة، لا

يدلّ علىٰ أنهم عبدوه مستقلين، كل منهم عبده عبادة اختصّ بها، لـمْ تكن هي نفس عبادة الأول.

وأيضًا فإنه إذا قيل: إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، دلّ علىٰ عبادة كل منهم باللزوم وإذا قال: «وإله... » دلّ علىٰ أنه معبود كل من الثلاثة، فأعاده باسم الإله الذي يدلّ علىٰ العبادة دلالةً باللفظ المتضمن لها، وفي ذلك من ظهور المعنَىٰ للسامع، وتفرعه بصورة له من غير فكرٍ، ما ليس في دلالة الملزوم.

قالوا: «وكذلك شهد أشعيا بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره، وذلك بقوله: «رب القوات»، وبقوله: «رب السماوات والأرض» ومثل هذا القول في التوراة والمزامير شيءٌ كثيرٌ، حتَّىٰ اليهود يقرّون هذه النبوات، ولا يعرفون لها تأويلًا، وهم معترفون بذلك، ولا ينكرون منه كلمةً واحدةً، وإنَّما قلوبهم مغلوقة عن فهمه؛ لقساوتها علىٰ ما ذكرنا قبل ذلك، وأنهم إذا اجتمعوا في كنيستهم كل سبت يقف الْحَزَّانُ أمامهم، ويقول كلامًا عبرانيًّا هذا تفسيره، ولا يجحدونه: نقدسك، ونعظمك، ونثلث لك تقديسًا مثلثًا، كالمكتوب علىٰ لسان نبيك.

فيصرخ الجميع مجاوبين: قدوس، قدوس، قدوس، رب القوات، ورب السماوات والأرض.

فما أوضح إقرارهم بالثالوث، وأشد كفرهم بِمعناه، فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة، وفي كتب الأنبياء، فجعلوه ثلاثة أقانيم، جوهرًا واحدًا، طبيعةً واحدةً، إلهًا واحدًا، ربًّا واحدًا، خالقًا واحدًا، وهو الذي نقوله: أبٌ، وابنٌ، وروح قدس».

والجواب: أما ما في كتب الأنبياء من تثنية اسم الرب عند إضافته إلىٰ مخلوقٍ آخر، فهو من نَمط تثنية اسم الإله، وهذا لا يقتضي تعدد الأرباب

والآلهة، ولهذا لا يقتضي جعلهم اثنين، وأربعة، إذا ذكر اللفظ مرتين، وأربعة.

فكذلك إذا ذكر ثلاث مرات لا يقتضي أن الأرباب ثلاثة، وهم أيضًا لا يقولون بثلاثة أرباب، وثلاثة آلهة، فلو كان هذا يدلّ علىٰ ثلاثة أرباب، وثلاثة آلهة، لدلّ علىٰ نقيض قولهم، بل هم يزعمون أنهم إنَّما يثبتون إلهًا واحدًا، ولكنهم يناقضون، فيصرحون بثلاثة آلهة، ويقولون: هم إلهٌ واحدٌ.

والكتب لا تدلّ علىٰ قولهم المتناقض بوجهٍ من الوجوه.

وأما ما ذكروه من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النبوات، ودعواه أنهم لا يعرفون لها تأويلًا، فإن أرادوا بالتأويل تفسيرها، وما يدلّ عليه لفظها، فهذا ظاهرٌ لا يخفىٰ علىٰ الصبيان من اليهود، وغيرهم، ولكن النصارىٰ ادعوا ما لا يدلّ عليه اللفظ.

وإن أرادوا بالتأويل معنًىٰ يخالف ظاهر اللفظ، فهذا إنَّما يحتاج إليه ــ إن كان يحتاج إليه ـ إذا كان ظاهره معنًىٰ باطلًا، لا يجوز إرادته، وليس ما ذكروا هنا من هذا الباب، بل الكتب الإلهية يكثر فيها مثل هذا الكلام عند أهل الكتاب، وعند المسلمين، ولا يفهم منها ثلاثة أرباب، أو ثلاثة آلهة، إلا من اتبع هواه بغير هدىٰ من الله، وقال قولًا مختلفًا، يؤفك عنه من أفك، ومثل هذا موجود في سائر الكلام، يقال: هذا أمير البلد الفلاني، وأمير البلد الفلاني، وأمير البلد الفلاني، وهو أميرٌ واحدٌ.

ويقال: هذا رسولٌ إلىٰ الأميين، ورسولٌ إلىٰ أهل الكتاب، ورسولٌ إلىٰ الجن والإنس، وهو رسولٌ واحدٌ.

وأما قولهم: «نقدسك، ونعظمك، ونثلث لك تقديسًا مثلثًا، كالمكتوب علىٰ لسان نبيك أشعيا».

وقولهم: «قدوس، قدوس، قدوس، رب القوات، ورب السماوات والأرض».

فيقال: هذا الكلام صريحٌ في أن المثلث هو نفس التقديس، لا نفس الإله المقدس.

وكذلك قولهم: «قدوس، قدوس، قدوس» قدسوه ثلاث مرات، فإنه قال: «نقدسك، ونثلث لك تقديسًا مثلثًا» فنصب التثليث علىٰ المصدر الذي ينصب بفعل التقديس، فقال: «نقدسك تقديسًا مثلثًا» فنصب التقديس علىٰ المصدر كما تقول: سبحتك تسبيحًا مثلثًا، أي سبحتك ثلاث مرات، وقال: نثلث لك، أي نثلث تقديسًا لك، لمْ يقل: أنت ثلاثة، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث، وهم يثلثون له، وهذا صريحٌ في أنهم يسبحونه ثلاث مرات، ولا يسبحون ثلاثة آلهة، ولا ثلاثة أقانيم.

والتسبيح هو تقديس الرب، وأدناه أن يقدسه ثلاث مرات، فمعناه قدسوه ثلاث مرات، لا تقتصروا علىٰ مرةٍ واحدةٍ.

ولهذا يقولون مجاوبين: قدوس، قدوس، قدوس، فيقدسونه ثلاث مرات، فعلم أن المراد تثليث التقديس حيث ما دلّ عليه لفظه، وما يفعلونه ممتثلين لهذا الأمر، وما يفعل في نظير ذلك من تثليث تقديسه، وأن يقدس ثلاث مرات، لا أن يكون المقدس ثلاث أقانيم، فإن هذا أمرٌ لمْ ينطق نَبِيٌّ من الأنبياء به، لا لفظًا، ولا معنًىٰ، بل جَميع الأنبياء أثبتوا إلهًا واحدًا، له الأسْماء الحسنَىٰ وأسْماؤه متعددةٌ تدلّ علىٰ صفاته المتعددة، ولا يختص ذلك بثلاثة أسْماء، ولا بثلاث صفات، وليست الصفات أقنومًا هو ذاتٌ وصفةٌ، بل ليس إلا ذاتٌ واحدةٌ، لها صفاتٌ متعددةٌ، فالتعدد في الصفات، لا في الذات التي يسمونها الجوهر، ولا في الذات والصفة التي يسمونها الأقنوم.

قالوا: «فما أعظم إقرارهم في الثالوث، وأشد كفرهم بِمعناه».

فيقال: هذا من الافتراء الظاهر علىٰ اليهود، وإن كان اليهود كفارًا، فلم يكن كفرهم لأجل إنكار الثالوث، بل لو أقروا به لكان زيادةً في كفرهم، يزيد به عذابهم، كما أن النصارىٰ لما كفروا لَمْ يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشر به الذي قد ظهر ليس هو المسيح الدجال الذي تنتظره اليهود، وإذا خرج كانوا شيعته، ويقتلهم المسلمون معه شر قِتْلةٍ، حتَّىٰ إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم! هذا يهودي ورائي تعال فاقتله.

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادةً في كفرهم.

وعند اليهود، وعندكم في التوراة من التوحيد المحض الذي يبطل تثليثكم، ما لا يخفىٰ إلا عمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله، وهداه الذي هدىٰ به عباده.

قالوا: «فمن أجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة، وفي كتب الأنبياء نَجعل ثلاثة أقانيم جوهرًا واحدًا، إلهًا واحدًا، خالقًا واحدًا، وهو الذي نقوله: أب، وابنٌ، وروح قدس».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن في التوراة، والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله، ونفي تعدد الآلهة، ونفي إلهية ما سواه، ما هو صريحٌ في إبطال قول النصارىٰ ونَحوهم، وليس فيها ذكر الأقانيم، لا لفظًا، ولا معنًىٰ، حيث يجعلون الأقنوم اسمًا للذات مع الصفة، والذات واحدةٌ، والتعدد في الصفات، لا في الذات.

ولا يُمكن أن تتّحد صفةٌ دون الأخرىٰ، ولا دون الذات، فيمتنع اتحاد أقنوم، أو حلوله بشيءٍ من المخلوقات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم، ولا إثبات ثلاث صفات دون ما سواها في شيءٍ من الكتب الإلهية، ولا

كلام الحواريين، ولا إثبات إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ، ولا تسمية صفات الله ــ مثل كلامه وحياته ـ لا ابنًا، ولا إلهًا، ولا ربًّا، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السماوات والأرض بشيءٍ من الآدميين، ولا حلول ذاتٍ وصفةٍ دون ذات مع الصفات الأخرىٰ، بل ولا حلول نفس الصفة القائمة به في غيره، لا علمه، ولا كلامه، ولا حياته، ولا غير ذلك.

بل جَميع ما أثبتوه من التثليث، والحلول، والاتحاد، ليس في كتب الأنبياء التي بأيديهم ما يدلّ عليه، بل فيها أقوالٌ كثيرةٌ صريحةٌ بنقيض ذلك، مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول، وكتب الله المنزَّلة.

الثاني: أنهم يقولون: إنَّما نثبت إلهًا واحدًا.

ثم يقولون في أمانتهم، وأدلتهم، وغير ذلك من كلامهم ما هو صريحٌ بإثبات ثلاثة آلهةٍ، فينقضون كلامهم بعضهم ببعض، ويقولون من الأقوال المتناقضة ما يعلم بطلانه كل عاقلٍ تصوره.

وهذا لا ينضبط لهم قولٌ مطّردٌ، كما يقول من يقول من عقلاء الناس: إن النصارىٰ ليس لهم قولٌ يعقله عاقلٌ، وليس أقوالهم منصوصةً عن الأنبياء، فليس معهم لا سَمعٌ ولا عقلٌ، كما قال الله تعالىٰ عن أصحاب النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وهم أيضًا يبطنون خلاف ما يظهرون، ويفهم جُمهور الناس من مقالاتهم خلاف ما يزعم بعضهم أنه مرادهم، فإنه قد تقدم آنفًا من استدلالهم بالتوراة، وقوله: «وكلم الله موسىٰ من العليقة قائلًا: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب» قالوا: «ولم يقل: أنا إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، بل كرر اسم إله ثلاث دفوع قائلًا: «أنا إله...وإله...وإله...» لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في

لاهوته».

فيقال لهم: وإن كان هذا التكرير لا يقتضي إلا إثبات إلهٍ واحدٍ، فلا حجة لكم فيه، كما لو قال: أنا إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإن كان يقتضي إثبات ثلاثة آلهةٍ فقد أثبتم ثلاثة آلهةٍ، وأنتم تقولون: لا نثبت إلا إلهًا واحدًا، وإن كان المعنَىٰ: إنه إلهٌ واحدٌ موصوفٌ بأنه معبود إبراهيم، ومعبود إسحاق، ومعبود يعقوب، فلا حجة لكم فيه علىٰ التثليث والأقانيم، بِحيث تجعلون الأقنوم اسْمًا للذات مع صفة، والذات واحدةٌ، فالتعدد في الصفات لا في الذات، ولا يُمكن أن تتحد صفةٌ دون أخرىٰ، ولا دون الذات، فيمتنع اتحاد أقنومٍ، وحلوله بشيءٍ من المخلوقات دون الأقنوم الآخر.

الوجه الثالث: قولهم: «وهو الذي نقوله: أبٌ، وابنٌ، وروح القدس» قد تقدم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لمْ يقولوه ابتداءً، ولا علموا بالعقل التثليث الذي قالوه في أمانتهم، ثم عبروا عنه بهذه العبارة، بل هذه العبارة منقولةٌ عندهم في بعض الأناجيل: أن المسيح عليه الصلاة والسلام أمر أن يعمدوا الناس بها.

وحينئذٍ فالواجب إذا كان المسيح قالها أن ينظر ما أراد بها، وينظر سائر ألفاظه ومعانيها، فيفسر كلامه بلغته التي تكلم بها تفسيرًا يناسب سائر كلامه.

وهؤلاء حَملوا كلام المسيح، والأنبياء علىٰ شيءٍ لا يدلّ عليه كلامهم، بل يدل علىٰ نقيضه، فسمّوا كلام الله، أو علمه، أو حكمته، أو نطقه ابنًا، وهذه تسميةٌ ابتدعوها، لمْ يسمِّ أحدٌ من الأنبياء شيئًا من صفات الله باسم الابن، ولا باسم الرب، ولا باسم الإله، ثم لما أحدثوا هذه التسمية قالوا: مراد المسيح بالابن هو الكلمة.

وهذا افتراءٌ علىٰ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحَمْلٌ لكلامه علىٰ معنًىٰ لا يدل عليه لفظه.

ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالىٰ، فلا يطلق عندهم في كلام الأنبياء لفظ الابن قط إلا علىٰ مخلوقٍ محدثٍ، ولا يطلق إلا علىٰ الناسوت دون اللاهوت، فَيُسَمَّىٰ عندهم إسرائيل ابنًا، وداود ابنًا لله، والحواريون كذلك، بل عندهم في إنجيل يوحنَّا في ذكر المسيح إلىٰ خاصته، أي: وخاصته لمْ يقبلوه، والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله، الذي ليس من دمٍ، ولا من مشبه لحمٍ، ولا من مشبه رجلٍ، بل من الله ولد.

فهذا إخبارٌ بأنهم يكونون جَميعًا أبناء الله، وهم معترفون بأنه ليس فيهم لاهوت يتحد بناسوت، بل كل منهم ناسوتٌ محضٌ، فعلم أن الكتب ناطقة بأن لفظ ابن الله يتناول الناسوت فقط، وليس معهم لفظ ابن الله والمراد به صفةٌ من صفات الله.

فقولهم: إن المسيح أراد بلفظ: الابن اللاهوت، كذبٌ بَيِّنٌ عليه، والمسيح لا يسمىٰ ابنًا بهذا الاعتبار، وروح القدس لمْ يعبر بها أحدٌ من الأنبياء عن حياة الله التي هي صفته، بل روح القدس في كتب الله يراد بها المَلك، ويراد بها الهدىٰ، والوحي، والتأييد، فيقال: روح الله، كما يقال: نور الله، وهدىٰ الله، ووحي الله، وملك الله، ورسول الله، لمْ يُرِدْ به أحدٌ من الأنبياء بقوله: روح الله، وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله: روحي.

فالإنسان مركبٌ من روحٍ وبدنٍ، وفي بدنه بُخارٌ يخرج من القلب، ويسري في بدنه، وله جوفٌ يخرج منه هواءٌ، ويدخل فيه، فإذا قيل: روح الإنسان، فقد يراد بها الروح التي بها البخار اللطيف الذي في البدن، وقد يراد بها الريح الذي يخرج من جوف البدن، ويدخل فيه.

والله تبارك وتعالىٰ بإجْماع المسلمين، واليهود، والنصارىٰ ليس هو روحًا وبدنًا كالإنسان، وهو سبحانه أحدٌ صمدٌ، لا جوف له، ولا يدخل فيه شيءٌ، ولا يخرج منه شيءٌ، لا بُخارٌ، ولا هواءٌ مترددٌ وقد يعبر بعض الناس بلفظ: الروح عن الحياة، والله تعالىٰ حيٌّ، له حياةٌ؛ لكن لم ترد الأنبياء بقولهم: روح القدس حياة الله، بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء، ويؤيدهم به، فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء، وما قاله أهل البدع من النصارىٰ، وغيرهم لَمْ يجد لهم في كلام الأنبياء إلا ما يدل علىٰ نقيض ضلالهم، لا ما يدل علىٰ ضلالهم

قالوا: «وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة، بل إلهٌ واحدٌ، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان، ونطقه، وروحه ثلاثة أناسي، بل إنسانٌ واحدٌ، ولا إذا قلنا: لهيب النار، وضوء النار، وحرارة النار ثلاثة نيران، ولا إذا قلنا: قرص الشمس، وضوء الشمس، وشعاع الشمس ثلاثة شُموس، وإذا كان هذا رأينا في الله تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه، فلا لوم علينا، ولا ذنب لنا؛ إذ لَمْ نهمل ما تسلمناه، ولا نرفض ما تقلدناه، ونتبع ما سواه، ولا سيما أن لنا هذه الشهادات البينات، والدلائل الواضحات من الكتاب الذي أتىٰ به هذا الرجل».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنكم صرحتم بتعدد الآلهة والأرباب في عقيدة إيمانكم، وفي استدلالكم وغير ذلك من كلامكم، فليس ذلك شيئًا ألزمكم الناس به، بل أنتم تصرحون بذلك، كما تقدم من قولكم: «نؤمن بإلهٍ واحدٍ: أبٍ ضابط الكل، خالق ما يرىٰ، وما لا يرىٰ، وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه يولد غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر، وبروح القدس الرب المحيي

المنبثق من الأب، الذي مع الأب، مسجودٌ له، وممجدٌ».

فهذا تصريح بالثلاثة أرباب، وأن الابن إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، ومع تصريحكم بثلاثة أرباب، وتصريحكم بأن هذا إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، تقولون: إن ذلك إلهٌ واحدٌ، وهذا تصريحٌ بتعدد الآلهة مع القول بإلهٍ واحدٍ.

ولو لمْ تذكروا ما يقتضي أنه جوهرٌ آخر، لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة، لكن يكون كلامكم أعظم كفرًا، فتكونون قد جعلتم المسيح هو نفس الإله الواحد الأب، خالق ما يرى، وما لا يرى، وهذا أعظم من كفركم، مع أن هذا حقيقة قولكم؛ فإنكم تقولون: المسيح هو الله، وتقولون: هو ابن الله، كما ذكر الله القولين عنكم في كلامه، وكفركم بذلك، وليس هذا قول طائفة، وهذا قول طائفة، كما يقوله بعض الناس، بل القولان جَميعًا يقولهما فرق النصارى، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكية، ونَحوهم.

وهذا أيضًا من تناقضكم، فإنه إن كان هو الله لمْ يكن هو ابن الله، سواءٌ عبر بالابن عن الصفة أو غيرها، فإن الأب هو الذات، والذات ليست هي الصفة، وإن عنَى بالابن الذات مع صفة الكلام ــ كما تفسرون الأقنوم بذلك ــ فهذه الذات متصفة مع ذلك بالحياة والكلام، سواءٌ عنوا به العلم، أو البيان مع العلم، هو مع الحياة قائمٌ بالأب، والصفة ليست عين الموصوف، بل ولا يعبر عنها بأنها ابن الموصوف، ولا عبر بذلك أحد من الأنبياء.

والمقصود أنهم لمْ يريدوا بقولهم: وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، عطف الصفة، وأن هذا هو الأب، كما قال: إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، فهذا إلهٌ واحدٌ، والعطف لتغاير الصفة، فلو كان المراد بالابن نفس الأب لكان هذا خلاف مذهبهم، ويكونون قد جعلوه إلهًا من نفسه، فقالوا: إِلَهَانِ، بل ثلاثةٌ، وهو واحدٌ.

فهذا لو أرادوه لكان أعظم في الكفر، بل قالوا: وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوقٍ.

فصرحوا بأنه ربٌّ، وأنه إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، وصرحوا بإلهٍ ثانٍ مع الإله الأول، وقالوا مع ذلك: إنه مولودٌ من الأب قبل كل الدهور، وأنه مولودٌ غير مخلوقٍ، فامتنع أن يريدوا بذلك الناسوت، فإن الناسوت مخلوقٌ.

وهم يقولون: إن الكلمة هي المتولدة من الأب، والكلمة صفة المتكلم، وقائمةٌ به، والكلام ليس بربٍّ، ولا بإلهٍ، بل هو كلام الرب الإله، كما أن سائر كلام الله، كالتوراة، والإنْجيل، والقرآن، ليس هو الرب والإله، ثم قلتم: مساو الأب في الجوهر.

فاقتضىٰ هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهرًا، وأنه مساوٍ الأب في الجوهر، والمساوي ليس هو المساوىٰ.

وهذا يقتضي إثبات جوهرٍ ثانٍ مساو الجوهر الأول، وهو صريح بإثبات إلهين، ويقولون مع ذلك: إنه إلهٌ واحدٌ، جوهرٌ واحدٌ، ولا يقال: الجوهر مع العلم الذي يعبرون عنه بالأقنوم مساو الجوهر الذي هو الذات، فإن الجوهر هو الذات، وليس هنا جوهران: أحدهُما مجرّدٌ عن العلم، والآخر متصفٌ به، حتّىٰ يقال: إن أحدهُما مساو للآخر، بل الرب تعالىٰ هو الذات المتصفة بالعلم، فإن كان الأب هو الذات المجردة فالابن أكمل من الأب، وهو الذات مع العلم، والأب بعض الابن.

وكذلك يلزمهم أن يكون الابن هو بعض روح القدس، فإنهم في أمانتهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيي، والرب المحيي هو الذات المتصفة

بالحياة، والذات المجردة بعض ذلك، فإن كان الأب هو الذات المجردة، فالابن بعض روح القدس.

ثم قلتم في أقنوم روح القدس الذي جعلتموه الرب المحيي: «إنه منبثق من الأب، مسجودٌ له، ممجدٌ، ناطقٌ في الأنبياء».

فإن كان المنبثق ربًّا حيًّا فهذا إثبات إله ثالث، وقد جعلتم الذات الحية منبثقةً من الذات المجردة، وفي كل منهما من الكفر، والتناقض ما لا يخفىٰ.

ثم جعلتم هذا الثالث مسجودًا له، والمسجود له هو الإله المعبود، وهذا تصريحٌ بالسجود لإلهٍ ثالثٍ، مع ما فيه من التناقض، ثم جعلتموه ناطقًا بالأنبياء، وهذا تصريحٌ بِحلول هذا الأقنوم الثالث بِجميع الأنبياء، فيلزمكم أن تجعلوا كل نَبِيٍّ مركبًّا من: لاهوتٍ وناسوتٍ، وأنه إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تامٌّ، كما قلتم في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ لا فرق بين حلول الكلمة وحلول روح القدس، كلاهُما أقنومٌ.

وأيضًا فيمتنع حلول إحدىٰ الصفتين دون الأخرىٰ، وحلول الصفة دون الذات، فيلزم أن يكون الإله الحي الناطق بأقانيمه الثلاثة حالًّا في كل نَبِيٍّ، ويكون كل نَبِيٍّ هو رب العالمين، ويقال مع ذلك: هو ابنه، وفي هذا من الكفر الكبير، والتناقض العظيم ما لا يخفىٰ.

وهذا لازمٌ للنصارىٰ لزومًا لا محيد عنه، فإن ما ثبت للشيء ثبت لنظيره، ولا يجوز التفريق بين المتماثلين.

وليس لهم أن يقولوا: الحلول، أو الاتحاد في المسيح ثبت بالنص، ولا نص في غيره؛ **لوجوهٍ**:

أحدها: أن النصوص لمْ تدلّ علىٰ شيءٍ من ذلك، كما قد تبين.

الثاني: أن في غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه، كلفظ

الابن، ولفظ حلول روح القدس فيه، ونَحو ذلك.

الثالث: أن الدليل لا ينعكس، فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول، وليس كل ما علمه الله، وأكرم به أنبياءه، أعلم به الخلق بنصٍّ صريحٍ، بل من جُملة الدلالات دلالة الالتزام.

وإذا ثبت الحلول والاتحاد في أحد النبيين بِمعنًىٰ مشتركٍ بينه، وبين النَّبِيِّ الآخر وجب التسوية بين المتماثلين، كما إذا ثبت أن النَّبِيَّ يجب تصديقه؛ لأنه نَبِيٌّ، ويكفر من كذبه؛ لأنه نَبِيٌّ، فيلزم من ذلك أنه يجب تصديق كل نَبِيٍّ، وتكفير من كذبه.

الرابع: هبْ أنه لا دليل علىٰ ثبوت ذلك في الغير، فيلزم تجويز ذلك في الغير؛ إذ لا دليل علىٰ انتفائه، كما يقولون: إن ذلك كان ثابتًا في المسيح قبل إظهاره الآيات، علىٰ قولهم، وحينئذٍ فيلزمهم أن يجوّزوا في كل نَبِيٍّ أن يكون الله قد جعله إلهًا تامًّا، وإنسانًا تامًّا، كالمسيح، وإن لمْ يُعلم ذلك.

الخامس: أنه لو لمْ يقع ذلك؛ لكنه جائزٌ عندهم؛ إذ لا فرق في قدرة الله بين اتحاده بالمسيح، واتحاده بسائر الآدميين، فيلزمهم تجويز أن يجعل الله كل إنسانٍ إلهًا تامًّا، وإنسانًا تامًّا، ويكون كل إنسانٍ مركبًّا من: لاهوتٍ وناسوتٍ.

وقد تقرب إلىٰ هذا اللازم الباطل من قال بأن أرواح بني آدم من ذات الله، وأنها لاهوتٌ قديمٌ أَزَلِيٌّ، فيجعلون نصف كل آدمي لاهوتًا، ونصفه ناسوتًا، وهؤلاء يلزمهم من المحالات أكثر مما يلزم النصارىٰ من بعض الوجوه، والمحالات التي تلزم النصارىٰ أكثر من بعض الوجوه.

الوجه الثاني: قولهم: «ولا يلزمنا إذا قلنا هذه عبادة ثلاثة آلهة، بل إلهٌ واحدٌ، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان، وروحه، ونطقه ثلاثة أناسي، ولا إذا قلنا: النار،

وحرها، وضوؤها ثلاث نيران، ولا إذا قلنا: الشمس، وضوؤها، وشعاها ثلاث شموس».

فيقال: هذا تمثيلٌ باطلٌ؛ لوجوهٍ:

أحدها: أن حر النار، وضوؤها القائم بها ليس نارًا من نارٍ، ولا جوهرًا من جوهرٍ، ولا هو مساوي النار والشمس في الجوهر، وكذلك نطق الإنسان ليس هو إنسانًا من إنسانٍ، ولا هو مساو الإنسان في الجوهر، وكذلك الشمس وضوؤها القائم بها، وشعاعها القائم بها ليس شمسًا، ولا جوهرًا قائمًا بنفسه، وأنتم قلتم: إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، فقلتم في الأمانة: «نؤمن بإلهٍ واحدٍ أبٍ ضابط الكل، وبربٍّ واحدٍ: يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مُسَاوٍ الأب في الجوهر».

وقلتم في روح القدس: «إنه ربٌّ ممجدٌ مسجودٌ له» فأثبتم ثلاثة أرباب.

والثاني: أن الضوء في الشمس والنار يراد به نفس الضوء القائم بها، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران، وهذا مباينٌ لها، ليس قائمًا بها، ولفظ النور يعبر به عن هذا وهذا، وكلاهُما صفةٌ قائمةٌ بغيرها وعرضٌ، وقد يراد بلفظ النور نفس النار، ونفس الشمس والقمر، فيكون النور جوهرًا قائمًا بنفسه، وإذا كان كذلك فهم جعلوا الأب ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، والابن أيضًا ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، وروح القدس ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه.

ومعلوم أن ضوء النار، والشمس، وحرارتها ليس كل منهما شَمسًا ونارًا قائمًا بنفسها، ولا جوهرًا قائمًا بنفسه، فلو أثبتوا حياة الله، وعلمه، أو كلامه صفتين قائمتين به، ولمْ يجعلوا هذا ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، وهذا ربًّا جوهرًا

قائمًا بنفسه، لكان قولهم حقًّا، وتمثيلهم مطابقًا، ولكنهم لمْ يقتصروا علىٰ مجرد جعلهما صفتين لله حتىٰ جعلوا كلًّا منهما ربًّا وجوهرًا وخالقًا، بل صرحوا بأن المسيح الذي يزعمون اتحاد أحدهِما به إلهًا واحدًا وخالقًا، فلو كان نفس كلمة الله، وعلمه لمْ يكن إلهًا خالقًا، فإن كلام الله وعلمه ليس إلهًا خالقًا، فكيف والمسيح مخلوقٌ بكلمة الله، ليس هو نفس كلمة الله؟.

الوجه الثالث: أن قولهم: «الشمس، وشعاعها، وضوؤها» إن أرادوا بالضوء ما يقوم بها، وبالشعاع ما ينفصل عنها، فليس هذا مثال النار، وحرها، ولهبها؛ إذ كلاهُما يقوم بها، وعلىٰ هذا فالشمس لمْ تقم بها إلا صفةٌ واحدةٌ، لا صفتين، فلا يكون التمثيل بها مطابقًا.

وإن أرادوا بالضوء والشعاع كلاهُما ما يقوم بها، أو كلاهما ما ينفصل عنها، فكلاهُما صفةٌ واحدةٌ، ليس هُما صفتان كالحياة والعلم، فعلم أن تمثيلهم بالشمس خطأٌ.

وبعضهم يقول: الشمس، وحرها، وضوؤها، كما يقولون مثل ذلك في النار، وهذا التمثيل أصح لو ثبت أن في جرم الشمس حرارة تقوم بها، فإن هذا لمْ يقم عليه دليلٌ، وكثير من العقلاء ينكره، ويزعم أن جرم الشمس، والقمر، والكواكب، لا توصف بِحرارةٍ، ولا برودةٍ، وهو قول أرسطو وأتباعه.

وأما تمثيلهم بروح الإنسان، ونطقه، فإن أرادوا بالروح حياته، فليس هذا هو مفهوم الروح، وإن أرادوا بالروح التي تفارق بدنه بالموت، وتسمىٰ النفس الناطقة، فهذه جوهرٌ قائمٌ بنفسه، ليس عرضًا من أعراضه، وحينئذ... فيلزم أن تكون روح الله جوهرًا قائمًا بنفسه مع جوهرٍ آخر، نظير بدن الإنسان، ويكون الرب سبحانه وتعالىٰ مركبًا من بدنٍ وروحٍ كالإنسان، وليس هذا قول أهل الملل، لا المسلمين، ولا اليهود، ولا النصارىٰ، بل هو كفرٌ عندهم، فتبين أن

تمثيلهم بالثلاثة باطلٌ.

والوجه الرابع: أن التمثيل إما أن يقع بصفات الشمس، والنار، والإنسان، أو النفس القائمة بهذه الجواهر، أو بِما هو مباينٌ لذلك كالضوء الذي يقع علىٰ الأرض، والحيطان، والهواء، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشمس، أو النار، أو الإنسان، أو النفس القائمة بهذه الجواهر، فإن أريد هذا فهذا شعاعٌ منعكسٌ، وضوءٌ منقلبٌ، وليس صفةً قائمةً بالشمس والنار.

وإذا أريد بِما حلّ في المسيح هذا، وهذا يُسمىٰ نورًا وروحًا، يُسمىٰ نور الله، فإذا أريد ما حل في المسيح من الروح والكلمة بهذا المعنَىٰ فلا اختصاص للمسيح بذلك، فإن هذا يحلّ في جَميع الأنبياء والمؤمنين، وإن كانوا متفاضلين فيه بِحسب درجاتهم، وليس هذا الحالّ فيهم نفس صفة الله القائمة به، وإن كان ذلك حاصلًا عنها، ومسببًا عنها، لكن ليس هو نفس صفة الله، وإن كان من الناس من يقول: بل صفة الله التي اتصف بها حلّت في العبد، فهذا القول خطأٌ، فإن صفة الموصوف القائمة به يَمتنع قيامها بعينها بغيره، ولكن الإنسان إذا تعلم علم غيره، وبلغ كلام غيره يقال: هذا علم فلان وكلامه؛ لأن هذا الثاني بلغه عنه، والمقصود هو علم الأول وكلامه، مع العلم بأن نفس ما قام بذات الأول ليس هو عين ما قام بذات الثاني، وإن كان قد يكون مثله، وقد يكون الأول هو المقصود بالثاني، مثل من بلغ كلام غيره، فكلام المبلغ هو المقصود بالتبليغ.

وصفات المبلغ كحركته وصوته التي بها يحصل التبليغ، ليس هو نفس المقصود، وإذا قيل: هذا كلام المبلغ عنه، فالإشارة إلىٰ حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ، لا إلىٰ ما يختص به المبلغ من أفعاله وصفاته، ولهذا شبه الناس من قال بِحلول صفة الرب في عبده بالنصارىٰ القائلين بالحلول، وهو شبيهٌ بهم من بعض الوجوه، لكن النصارىٰ لا يقولون بِحلول صفة مجرّدةٍ، بل بِحلول الأقنوم الذي

هو ذاتٌ متصفةٌ بالصفة، ويقولون: إن المسيح خالقٌ ورازقٌ، وهو خالق آدم ومريم، وهو ولد آدم ومريم، وهو خالق لهم بلاهوته، ابن لهما بناسوته.

ويقولون: هو ابن الله، وهو الله بلاهوته، ويقولون أيضًا باللاهوت والناسوت؛ لأجل الاتحاد، والله كفرهم بقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، ونَحو ذلك.

وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشمس، والنار، والنفس، التمثيل بنفس ما يقوم بالشمس، والنار، والنفس من الضوء، والحياة، والنطق، وجعلوا ما يثبتونه من الأب، والابن، وروح القدس صفات الله، كما أن هذه صفات لهذه المخلوقات.

قيل لهم أولًا: لمْ يعبر أحدٌ من الأنبياء عن صفات الله باسم الأب، والابن، وروح القدس، فليس لكم ــ إذا وجدتم في كلام المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو غيره من الأنبياء ذكر الإيمان بالأب، والابن، وروح القدس ــ أن تقولوا: مرادهم بذلك صفة الله التي هي الكلمة والعلم، ولا حياة الله؛ إذ كانوا لمْ يريدوا هذا المعنىٰ بهذا اللفظ، وإنَّما أرادوا باسم الابن، وروح القدس ما هو بائنٌ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، والبائن عن الله ليس صفةً لله، فضلًا عن أن يكون هو الخالق، فضلًا عن أن يكون البشر المتحد به خالقًا، فقد ضللتم ضلالًا بعد ضلالٍ، ضلالًا حيث جعلتم مراد المسيح وغيره بالابن، وروح القدس صفة الرب، ثم ضلالًا ثانيًا حيث جعلتم الصفة خالقًا وربًّا، ثم ضلالًا ثالثًا حيث جعلتم الصفة تتحد ببشر هو عيسىٰ، ويسمىٰ المسيح، ويكون هو الخالق رب العالمين، فضللتم في الحلول ضلالًا مثلثًا بعد ضلالكم في التثليث أيضًا ضلالات أخر، حيث أثبتم ثلاث صفات دون غيرها، وجعلتموها جواهرًا أربابًا، ثم قلتم: إلهٌ واحدٌ، فضللتم ضلالًا مثلثًا في التثليث، وضلالًا مثلثًا في الاتحاد.

وقيل لكم ثانيًا: إذا جعلتم ذلك صفاتٍ لله، كما أن الضوء، والنطق، والحرارة، صفات لما تقوم بها، امتنع أن تحلّ بغيرها، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلةً فعل النار، والشمس، والنفس، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حالةً بغير الله، وجعلتم ما يحلّ به إلهًا خالقًا، بل هو الإله الخالق، ومعلومٌ أن أحدًا من العقلاء لا يجعل ما يحصل فيه ضوء النار نارًا، ولا ما يحصل فيه شعاع الشمس شَمسًا، ولا ما يحصل فيه نطق زيد وعلمه هو نفس زيد، فكان جعلكم المسيح هو الخالق للعالم مخالفًا لتمثيلكم.

وتبين بذلك أن ما ذكرتموه لا يطابقه شيءٌ من الأمثلة؛ إذ كان كلامًا باطلًا متناقضًا يَمتنع تحققه، فلا تمثيل بشيءٍ من الموجودات الثابتة المعلومة إلا إذا كان تمثيلًا غير مطابق ولهذا يشبهون الحلول والاتحاد تارةً بِحلول الماء في الظرف، وتارةً بِحلول النار في الحديد، وتارةً بالنفس والبدن، وتارةً يقولون بأنهما جوهرٌ واحدٌ اختلطا كاختلاط الماء واللبن، وكلُّ هذه الأمثال التي ضربوها لله أمثالٌ باطلةٌ، فإن الماء في الظرف، وغيره من الأوعية محتاجٌ إلىٰ وعائه، لو انخرق وعاؤه لتبدد، وهو محيط به، ولا يتصف الظرف بشيءٍ من صفات الماء، والرب تعالىٰ يَمتنع أن يحتاج إلىٰ شيءٍ من مخلوقاته، لا إلىٰ العرش، ولا إلىٰ غيره، أو يحيط به شيءٌ من الموجودات؛ إذ هو الظاهر فليس فوقه شيءٌ، كما ثبت في «الصحيح» عن النَّبِيِّ أنه قال: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**» (١).

فهو غنيٌّ عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ إليه، ولهذا لَمْ يكن ما وصف الله به نفسه مماثلًا لصفات المخلوقين، كما لَمْ تكن ذاته كذوات المخلوقين،

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٨٤ (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو مستوٍ علىٰ عرشه، كما أخبرنا عن نفسه مع غناه عن العرش.

والمخلوق المستوي علىٰ السرير، أو الفلك، أو الدابة لو ذهب ما تحته لسقط؛ لحاجته إليه، والله غني عن كل ما سواه، وهو الحامل بقدرته للعرش، ولحملة العرش.

وفرق النصارىٰ الثلاثة يقولون بالاتحاد، فلا ينفعهم التمثيل بِحلول الماء في الظرف، ولو قدر أنهم قالوا بالحلول المجرد، مع أن الرب لا يحتاج إلىٰ الناسوت، لا يحويه، ولا يَمسه، بل كما خاطب موسىٰ من الشجرة، فهذا يوجب أن الناسوت لا يتصف بشيء من الإلهية كالشجرة، ثم إنه معلومٌ بالضرورة أن الصوت الذي كان يسمع هو صوت الناسوت، فالتمثيل بالشجرة أيضًا باطلٌ، كما بسط في موضعه.

وأما الحديد، والخشب، وغيرهُما إذا ألقي في النار، فإنه يستحيل نارًا لاتصاله بالنار، لا أن النار الذي استحال إليها كانت موجودةً، فحلت به، فهذا استحالة بلا حلول، والنار التي صارت في الحديد حادثةٌ عن تلك النار، ليست إياها، ثم تلك الحديدة إذا طرقت وقع التطريق علىٰ النار، وكذلك إذا ألقيت في الماء، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا لكان الضرب، والصلب، والإهانة وقع علىٰ اللاهوت، وكان اللاهوت هو الذي يغتسل بالماء، وهو الذي يأكل ويشرب، وهذا من أعظم الكفر.

ويُحكىٰ عن بعض طائفة منهم كاليعقوبية أنه يقول بهذا الكفر، وإن كان كثيرٌ منهم كالملكية والنسطورية ينكره، فهو لازمٌ لهم، وكذلك إذا شبهوه بالنفس والبدن، فإن النفس تَتَأَلَّمُ تَأَلُّمَ الْبَدَنِ، وتستحيل صفاتها بكونها في البدن، وتكتسب عن البدن أخلاقًا وصفاتٍ، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا لزم تألم اللاهوت بآلام البدن، وأن يكون متألما بِجوع البدن، وعطشه، وضربه، وصلبه،

وأن يكون مستحيلًا لما اكتسبه من صفات الناسوت، الذي هو عندهم بِمنْزِلة البدن للنفس.

وأما قولهم: «إذ لمْ نهمل ما تسلمناه، ولمْ نرفض ما تقلدناه».

فقولهم في ذلك بِمنْزِلة قول اليهود للمسيح: إنا لا نهمل ما تسلمناه، ولا نرفض ما تقلدناه من موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وجواب الطائفتين من وجهين:

أحدهُما: أنكم بدلتم وحرفتم الكتاب الذي أُنزل إليكم، والشرع الذي شرع لكم، وتبديل المعاني والأحكام، لا ريب فيه عند جَميع عقلاء الأنام، وما كان عليه اليهود بعد التبديل لمْ يكن هو الشرع الذي شرعه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان عليه النصارىٰ بعد التبديل لمْ يكن هو الشرع الذي شرعه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والثاني: أنكم كذبتم بالكتاب الآخر، والرسول الآخر الذي أرسل إليكم، ومن كذب ما أنزل إليه من ربه، والرسول الذي أرسل إليه كان كافرًا مستحقًّا لعذاب الدنيا والآخرة، وإن كان قبل ذلك متبعًا لشرع رسولٍ وكتابٍ غير مبدل، فكيف إذا كان قد بدّل ما بدّل من أحكامه، ومعانيه؟.

*****

فصل

وأما قولهم: «ولنا هذه الشهادات، والدلائل من الكتاب الذي في أيدي هؤلاء القوم».

فيقال: لا يصح استشهادهم بهذا الكتاب، واستدلالهم بوجهٍ من الوجوه؛ فإن الذي قد جاء به قد تواتر عنه أنه أخبر أنه مرسلٌ إليهم، وأنهم كفارٌ إذا لمْ يؤمنوا به، مستحقون للجهاد، ومن لمْ يستحلّ جهادهم فهو كافرٌ، والقرآن مملوءٌ بكفرهم، فإن كان هذا رسولًا من الله، وقد أخبر بكفرهم ثبت أنهم كفارٌ، فإن الرسول لا يقول علىٰ الله إلا حقًّا، لا يكذب علىٰ الله في شيءٍ، ومن كذب علىٰ الله ـ ولو في كلمةٍ واحدةٍ ـ فهو من الكذابين المفترين علىٰ الله الكذب، مستحقٌّ لعقوبة الكذابين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

فمتىٰ كانت كلمةٌ من كلمات هذا الكتاب كذبًا علىٰ الله لمْ يكن كتاب الله، ولمْ يكن جاء به رسول الله، فإن الكاذب قد يصدق في أكثر ما يقوله، لكن إذا كذب في بعض ما يقوله كان كاذبًا، والله تعالىٰ لا يرسل من يكذب عليه، فإن المخلوق لا يرضىٰ أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه، ولو فعل ذلك دلّ علىٰ جهله، أو عجزه، فكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه؟!.

وحينئذٍ فمتىٰ كذّبوا بكلمةٍ واحدةٍ مما في الكتاب لمْ يصح استشهادهم، واستدلالهم بشيءٍ مما في الكتاب، وإن صدقوا بالكتاب كله لزمهم الإيمان بِما جاء به، واتباع شريعته، والاعتراف بكفر الذين كذبوه، وكفر الذين يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثةٍ.

وهذا بِخلاف من آمن بالرسول، ولـم يثبت عنده بعض ما نقل عنه، أو لـم يعرف معناه، فإن هذا لا يقدح في أصل إيمانه بالرسول.

فالمسلمون إذا كذبوا ببعض ما نقل عن موسىٰ والمسيح، فهو لطعنهم في الناقل، لا في النَّبِيِّ المنقول عنه، وأما النصارىٰ فيعلمون أن محمدًا جاء بالقرآن، فطعنهم في بعضه طعن في الرسول نفسه، وكفر به، وليس هذا بِمنْزِلة ما مثلوا به من الوثيقة التي كُتب وفاؤها في ظهرها، فإن الذي له الدين أقرّ بالاستيفاء المسقط له، فلم يبقَ هناك حقٌّ له يدعيه، بِخلاف ما يخبر به الذي يقول: إنه رسول الله، فإنه يقول: إن الله أنزل علي هذا الكتاب كله، وأرسلني بكذا وكذا إلىٰ كذا وكذا، فإن كذب في شيءٍ مما أخبر به عن الله لـمْ يكن الله أرسله، فإن الذي أرسله هو الذي جعله يبلغ عنه ما يقوله، بلا زيادةٍ ولا نقصٍ.

وإرسال الله للرسول يتضمن شيئين: إنشاء الله للرسالة، والله حكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، لا يجعلها إلا فيمن هو من أكمل الخلق، وأصدقهم.

ويتضمن إخبار الله عنه بأنه صادقٌ عليه فيما يبلغه عنه مما يقول: إن الله أرسله به، فكما صدقه بالآيات المعجزات في قوله: إنه أرسلني، فقد صدقه بِما يقول: إنه أرسلني به؛ إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفةٍ بصدقه فيما يخبر به لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الإرسال، والله تعالىٰ عليم بِما يشهد به لمَنْ أرسله، بِخلاف المخلوق الذي يبعث من يظنه يصدق فيما يبلغه عنه، فيظهر أنه كذب عليه، والله يعلم عواقب الأمور، والرسالة صادرةٌ من علمه وحكمته وهو عليم حكيم، ومن يكذب علىٰ الله ـ ولو في كلمة ـ لـمْ يبلغ عنه ما يقوله علىٰ هذا الوجه، فلا يكون رسوله.

ولهذا اتفق أهل الملل علىٰ أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله، لا

يكذبون عليه عمدًا، ولا خطأً، فإن هذا مقصود الرسالة.

فكان تمثيل هذا بالوثيقة تمثيلًا باطلًا، فإن الْمُدَّعِيَ للإسقاط لم يدع كلامًا متناقضًا، بل قال: أقررت بهذا الدين، ثم وفيتك إياه، وأنت تقر بوفائه، وإقرارك مكتوبٌ في ظهرها، فليس لك أن تحتجّ بإقراري بالدين دون إقرارك بالوفاء، بل إما أن تعتبر ما في الوثيقة من إقراري وإقرارك، وإما أن تبطل الأمرين المتعارضين.

وهذا كلامٌ عدلٌ، كالشريكين المتفاوضين، مثل شريكي العنان إذا قال لصاحبه: إن حصل ربحٌ فهو لِي ولك، وإن لمْ يحصل ربحٌ فلا لِي ولا لك.

وكذلك البائع، والمؤاجر الذي يقول: إن كان بيننا معاوضة، فعليك تسليم ما بذلته، وعلي تسليم ما بذلته، لا يستحق هذا إلا بهذا، فهذا كله كلامُ عادلٍ وإنصافٌ.

بِخلاف الشخص الذي يقال فيه: إنه رسول الله، والكتاب الذي يقال: إنه كلام الله، وأن الله أنزله، فإن هذا إن كان رسولًا صادقًا، فجميع ما بلغه من الله حقٌّ، وإن كان كاذبًا لمْ يكن الله أرسله، فجميع ما بلغه عن الله كذبٌ علىٰ الله، فلا يجوز بِمجرد خبره أن ينسب إلىٰ الله شيءٌ، ولا يحتج بِما يخبر به عن الله علىٰ شيءٍ.

وإن قالوا: خبره يناقض بعضه بعضًا.

كان الجواب من وجهين:

أحدُهما: أن هذا أيضًا إن كان حقًّا فإنه يقدح في رسالته، فإن الرسول لا يناقض بعض خبره بعضًا، ومن كان كذلك لمْ يصح لكم أن تحتجّوا بشيءٍ مما جاء به، وإن كان باطلًا لمْ يُرَدّ عليه.

فعلم أن استدلالهم بِما في هذا الكتاب علىٰ صحة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد، وهو جَمعٌ بين النقيضين، واستدلالٌ بِما في الكتاب علىٰ ما يوجب بطلان الاستدلال بشيءٍ مما في الكتاب.

وإذا كانت النتيجة تستلزم فساد بعض مقدمات الدليل بطل الاستدلال بذلك الدليل الذي لا يصح إلا بصحة مقدماته، فإذا كانت مقدمته لا تصح إلا مع فساد نتيجته، ونتيجته مستلزمةٌ لفساد مقدمته، كان الجمع بين صحة المقدمة والنتيجة جَمعًا بين النقيضين.

وكذلك من استدل بشيءٍ من الكتاب علىٰ ما يناقض ما في الكتاب ـ كاستدلال النصارىٰ بآياتٍ فيه علىٰ صحة دينهم ـ كان تناقضًا، فإنه إن صح ذلك الدليل بأن مدح دينهم مع ذمه كان متناقضًا، والكتاب المتناقض لا يكون كتاب الله.

وإن فسد أحدهُما: إما فساد دينهم، وإما فساد مدحه، فالكتاب الذي فيه فسادٌ لا يكون كتاب الله، فيلزم أن لا يكون كتاب الله علىٰ التقديرين، فلا يصح الاستدلال به من جهة كونه خبر الله، وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلم به رجلًا عالمًا حكيمًا، وهذا لا يفيد العلم؛ إذ ليس معصومًا إلا الأنبياء، والنصارىٰ يجوّزون أن يكون معصومًا غير الأنبياء، فبتقدير أن يكون كذلك فهو حجةٌ عليهم.

وإن قالوا: هو رجلٌ عالمٌ، ليس برسول من الله.

قيل لهم: فهذا قوله ليس بِحجةٍ؛ لجواز أن يخطئ، ولكن يعتضد بقوله.

وأما إذا ادعىٰ أن الله أرسله وهو لمْ يرسله بهذا الكتاب كله، فهذا كذابٌ لا يحتج بشيءٍ من كلامه، ولا يكون مثل هذا عدلًا، فضلًا عن أن يكون حكيمًا،

بل هو من الذين افتروا علىٰ الله كذبًا، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والجواب الثاني: أنَّا قد بيّنا أن ما ذكروه لا يناقض شيئًا مما أخبر به، وأنه ليس في هذا الكتاب تناقضٌ يحتجّون به بوجهٍ من الوجوه.

وأما قولهم: «وأعظم حجتنا ما وجدناه فيه من الشهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذي كفروا إلىٰ يوم القيامة».

فيقال: بل ما ذكروه حجةً عليهم، لا لهم؛ فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة، وخبر الله حقٌّ، ووعد الله صدقٌ، والله لا يخلف الميعاد، فلما اتبع المسيح من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم، ثُمَّ لما بعث الله محمدًا بالدين الذي بعث به المسيح، وسائر الأنبياء قبله، وكان محمدٌ مصدقًا لما جاء به المسيح، وكان المسيح مبشرًا برسولٍ يأتِي من بعده اسْمه: أحْمد، صارت أمة محمدٍ أتبع للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من النصارىٰ الذين غيروا شريعته، وكذبوه فيما بشّر به، فجعل الله أمة محمدٍ فوق النصارىٰ إلىٰ يوم القيامة، كما جعلهم أيضًا فوق اليهود إلىٰ يوم القيامة.

والنصارىٰ بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح، لكنهم أتبع له من اليهود، الذين بالغوا في تكذيبه، وسبّه، فإنهم كذبوه أولًا، وكذبوا محمدًا ثانيًا، فصاروا أبعد عن متابعة المسيح من النصارىٰ، فكانوا مجعولين فوق اليهود.

والمؤمنون أمة محمدٌ هم المتبعون للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن سواهم كافر به، فأمة محمدٍ فوق اليهود والنصارىٰ إلىٰ يوم القيامة، ولهذا لما جاء المسلمون يقاتلون النصارىٰ غلبوهم، وأخذوا منهم خيار الأرض: الأرض المقدسة، وما

حولها من مصر والجزيرة، وأرض المغرب، ولمْ يزل المسلمون منتصرين علىٰ النصارىٰ، ولا يزالون إلىٰ يوم القيامة لمْ تنتصر النصارىٰ قط علىٰ جَميع المسلمين، وإنَّما تنتصر علىٰ طائفةٍ من المسلمين بسبب ذنوبهم، ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم.

ولو كان النصارىٰ هم المتبعين للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمسلمون كفارًا به لوجب أن ينتصروا علىٰ جَميع المسلمين؛ لأن جَميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح، ويكفرون النصارىٰ، فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارىٰ.

قالوا: «وأما تجسم كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، وتجسدها بإنسان مخلوقٍ، وهو الذي أُخذ من مريم العذراء المصطفاة، التي فضلت علىٰ نساء العالمين، واتحدت الكلمة به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ، أو تغيّرٍ، أو استحالةٍ، وخاطب الناس كما خاطب الله موسىٰ النَّبِيّ من العوسجة، ففعل المعجز بلاهوته، وأظهر العجز بناسوته، والفعلان هُما من المسيح الواحد».

والجواب: إن في هذا الكلام من أنواع الكذب، والكفر، والتناقض أمورًا كثيرةً، وذلك يظهر بوجوهٍ:

الأول: أن قولهم: «كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ» كلامٌ متناقضٌ؛ فإن الخالق هو الإله الخالق، وهو خلق الأشياء بكلامه، وهو قوله: «كن»، فالخالق لمْ يخلق به الأشياء، بل هو خلقها، والكلام الذي به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها، بل خلق الخالق الأشياء، والفرق بين الخالق والمخلوق، وبين ما به خَلْقُ الْخَالِقِ مَعْقُولٌ.

وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذي به خلقت المخلوقات، فجعلوا الكلمة هي

الخالق، وجعلوا المخلوقات خلقت بها.

وإيضاح هذا: أن الكلمة إن كانت مجرّد الصفة، فإن الصفة ليست خالقةً، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق، ليس هذا هو المخلوق به.

والثاني: قولهم: «تجسدها بإنسانٍ مخلوقٍ»، وقولهم: «تجسم كلمة الله».

فإن قولهم: «تجسمت، وتجسدت» يقتضي أن الكلمة صارت جسدًا وجسمًا بالإنسان المخلوق، وذلك يقتضي انقلابها جسدًا وجسمًا، وهذا يقتضي استحالتها وتغيّرها، وهم قالوا: «اتحادًا بريًّا من تغيّرٍ، واستحالةٍ».

الثالث: قولهم: «اتحدت الكلمة به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ، أو تغيّرٍ، أو استحالة» كلامٌ متناقضٌ أيضًا، فإن الاتحاد يُصَيِّرُ الاثنين واحدًا، فيقال: قبل الاتحاد كان اللاهوت جوهرًا، والناسوت جوهرًا آخر.

وإن شئت قلت: كان هذا شيئًا، وهذا شيئًا، أو هذا عينًا قائمةً بنفسها، وهذا عينًا قائمةً بنفسها، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا، أو صار الاثنان واحدًا، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتحاد، بل هُما متعددان كما كانا متعددين، وإن كانا قد صارا شيئًا واحدًا، فإن كان هذا الواحد هو أحدهُما فالآخر قد عُدِمَ، وهذا عَدَمٌ لأحدهِما، لا اتحاده، وإن كان هذا الذي صار واحدًا ليس هو أحدهُما فلا بُدَّ من تَغْيِيرهِما، واستحالتهما، وإلا فلو كانا بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتِهما لَمْ يكن هناك اتحادٌ.

فإذا قيل: اتحد اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ، أو تغيّرٍ، أو استحالةٍ، كان هذا كلامًا متناقضًا، ينقض بعضه بعضًا، فإن هذا إنَّما يكون مع التعدد والمباينة، لا مع الاتحاد.

يوضح ذلك: أنه إذا اتحد الماء واللبن، أو الماء والخمر، ونَحو ذلك، كان

الحاصل من اتحادِهما شيئًا ثالثًا، ليس ماءً محضًا، ولا لبنًا محضًا، بل هو نوعٌ ثالثٌ، وكل من الماء واللبن قد استحال، وتغيّر، واختلط، وأما اتحادٌ بدون ذلك فَغَيْرُ معقولٍ.

ولهذا عظم اضطراب النصارىٰ في هذا الموضع، وكثر اختلافهم، وصار كلٌّ منهم يردّ علىٰ الآخر ما يقوله، ويقول هو قولًا يكون مردودًا، فكانت أقوالهم كلها باطلةً مردودةً؛ إذ كانوا قد اشتركوا في أصل فاسدٍ، يستلزم أحد أمورٍ كلها باطلةٌ، فأيُّ شيءٍ أُخِذَ من تلك اللوازم كان باطلًا، ولا بد له منها، فيأخذ هذا بعض اللوازم، فَيَرُدّه الآخر، ويأخذ الآخر لازمًا آخر، فَيَرُدّه الآخر.

وهذا شأن جَميع المقالات الباطلة إذا اشترك فيها طائفةٌ لزمها لوازم باطلةٌ، وفساد اللازم يدل علىٰ فساد الملزوم، فإنه إذا تحقق الملزوم تحقق اللازم، وإذا انتفىٰ اللازم انتفىٰ الملزوم.

وهذا يتبين بالوجه الرابع: وهو أن يقال: كثيرٌ من النصارىٰ يقول: إنهما بعد الاتحاد جوهرٌ واحدٌ، وطبيعةٌ واحدةٌ، ومشيئةٌ واحدةٌ. وهذا القول يضاف إلىٰ اليعقوبية.

ويقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا، كما يختلط الماء واللبن، والماء والخمر، وهذا القول هو حقيقة الاتحاد، لا يعقل الاتحاد إلا هكذا، لكنّ فساده ظاهرٌ لعقول الناس.

فإذا كان هذا لازمًا لقول النصارىٰ، وفساده ظاهرًا، كان فساد اللازم يدل علىٰ فساد الملزوم، فإن حقيقة هذا القول أن الذي كان يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، والذي ضُرب، وبُصق في وجهه، ووضع الشوك علىٰ رأسه هو رب العالمين.

ونفس تصور هذا القول مما يوجب العلم ببطلانه، وتَنْزِيه الله عن ذلك، وأن قائله من أعظم المفترين علىٰ الله،

- **الوجه الخامس**: قولهم: «وخاطب الناس، كما خاطب الله موسىٰ من العوسجة» يوجب أن يكون الذين كلمهم المسيح ممَّن آمن به، وكفر به بِمنْزلة موسىٰ بن عمران الذي كلمه الله تكليمًا.

ومعلومٌ أن تكليم الله لموسىٰ عليه الصلاة والسلام مما فضله به علىٰ غيره من النبيين، فإن كان آحاد الناس بِمنْزلة موسىٰ بن عمران لزم أن يكون كل من آحاد الناس في ذلك بِمنْزلة موسىٰ بن عمران، وهذا مما يُعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل.

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيائه ورسله أفضل من خطابه لمن ليس بِنَبِيٍّ، ولا رسولٍ، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يكلم عامة النبيين والمرسلين، بل لَمْ يكلم إلا ناسًا منهم من آمن به، ومنهم من كفر به.

والتحقيق أنه لَمْ يكلم أحدًا من رسل الله، ولكن النصارىٰ يزعمون أن الحواريِّين رسل الله، وهذا باطلٌ، ولو سلم فلم يكلم إلا اثنَيْ عشر رسولًا، وقد بعث الله قبله رسلًا كثيرين، وقد رُوي في حديث أبي ذر أن عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر [(١)].

الوجه السابع: أن الناسوت: ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواسيت، والإنسان لا يستطيع أن يرىٰ الله في الدنيا، كما أخبر بذلك موسىٰ، وعيسىٰ، ومحمدٌ صلىٰ الله عليهم وسلم، فإذا لَمْ يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصال به، ومماسته، فضلًا عن الاتحاد به أولىٰ وأحرىٰ.

---

(١) سبق تخريجه.

الوجه الثامن: أن الله لما كلم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة، كان الكلام المسموع مخالفًا لما يسمع من كلام الناس، ولهذا لمْ تُطِقْ بنو إسرائيل سَماع ذلك الصوت، بل قالوا لموسىٰ: صف لنا ذلك، وهذا عندهم في التوراة، كما روىٰ الخلال في كتاب السنة عن أحْمد بن حنبل فيما رواه من حديث الزهري قال: لما سَمع موسىٰ كلام الله قال: يا رب! هذا الكلام الذي أسْمع هو كلامك، قال: نعم يا موسىٰ، هو كلامي، وإنَّما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأنا أقوىٰ من ذلك، وإنَّما كلمتك علىٰ قدر ما يطيق بدنك، ولو كلمتك بأكثر من هذا لمُتَّ، فلما رجع موسىٰ إلىٰ قومه قالوا له: صف لنا كلام ربك، فقال: سبحان الله! وهل أستطيع أن أصفه لكم، قالوا: فشبهه لنا، قال: هل سَمعتم أصوات الصواعق التِي تقبل في أحلىٰ حلاوة سَمعتموها، فكأنه مثله[1].

وأما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان كل أحدٍ يسمع صوتَه، كصوت سائر الناس، لمْ يتميز عنهم بِما يوجب أن يكونوا سَمعوا كلام الله كما سمعه موسىٰ بن عمران.

الوجه التاسع: أن الجِنيَّ إذا حل في الإنسيِّ، كما يحلُّ في المصروع، ويتكلم علىٰ لسانه، فإنه يتغير الكلام، ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلام الإنسي، مع أنه يتكلم بلسان الإنسي، وحركة أعضائه، فيعلم أن الصوت حصل بِحركة بدن الإنسي مع العلم بأنه قد تغيَّر تغيُّرًا خالف به المعهود من كلام الإنسي،

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٨٢-٢٨٣) (٥٣٩-٥٤١)، وعنه أبو بكر النجاد في الرد علىٰ من يقول القرآن مخلوق (ص٣٤-٣٥) (٨-١٠)، وابن جرير في التفسير (٦/ ٢٩-٣٠)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٦) (٩٨٧)، من حديث الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن جزء بن جابر عن كعب الأحبار.
قال ابن كثير في التفسير ١/ ٥٨٩: هذا موقوف علىٰ كعب الأحبار، وهو يحكي عن الكتب المتقدمة المشتملة علىٰ أخبار بني إسرائيل، وفيها الغث والسمين.

والإنسان الذي حَل فيه الجِني يغيب عنه عقله، ولا يشعر بِما تكلم الجِني علىٰ لسانه.

فرب العالمين سبحانه وتعالىٰ لو حلّ في بشرٍ، واتحد به، وتكلم بكلامه، وكان الكلام المسموع كلام الله المسموع منه، لكان يظهر من الفرق بين ذلك، وبين المعهود من كلام الإنسي ما هو في غاية الظهور، وكان يتغير حال الإنسي غاية التغير، فإن الرَّبَّ ﷻ لما تجلىٰ للجبل جعله دَكًّا، وخرَّ موسىٰ صعقًا، فإذا كان البدن الإنسي لا يثبت لتجليه للجبل، فكيف يثبت لحلوله فيه، وتكلمه علىٰ لسانه من غير تغيُّرٍ في البدن.

وقد كان الوحي، والملائكة إذا نزلت علىٰ الأنبياء في باطنهم يظهر التغير في أبدانهم، فكان النَّبِيُّ إذا نزل عليه الوحي ثقل حتَّىٰ يبرك به البعير (١).

وموسىٰ عليه السلام لما سَمع كلام الله مقت الآدميين؛ لما وقر في سَمعه من كلام الله، وكان النور يظهر علىٰ وجهه حتَّىٰ كان يتبرقع.

والمسيح عند النصارىٰ قد اتحد به اللاهوت من حين علقت به مريم، ولَمْ يزل متحدًا به وهو حَمْلٌ في بطنها، يعظم اتحاده به كلما كبر، ثم كذلك كان متحدًا به وهو صَبِيٌّ إلىٰ أن رفع إلىٰ السماء، وقعد عن يَمين أبيه، وهو متحدٌ به عندهم، واللاهوت والناسوت جَميعًا، ومع هذا لَمْ يتغيّر بدن المسيح تغيّرًا يناسب ذلك، ولا ظهر من الأنوار ما يناسب ذلك، بل عندهم أن المسيح قبل أن يعمده يوحنا، ويرىٰ شبه الحمامة نازلًا عليه، لَمْ يظهر الآيات، بل كان كآحاد

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٩) (٣٨٦٥)، وقال: صحيح الإسناد، عن عائشة: «أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ، وَضَعَتْ جِرَانَهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ حَتَّىٰ يُسَرَّىٰ عَنْهُ».

الناس، وأول ما ظهر من الآيات قلب الماء خَمْرًا.

وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمجرد ما سَمع الكلام ظهر عليه النور، وأين سَمع الكلام من الاتحاد به.

وموسىٰ لما سَمع الكلام، وكلمه الله من الشجرة نزلت الملائكة، وظهر له من آيات الله وعظمته ما يناسب تكليم الله عَزَّ وَجَلَّ.

والرب دائمًا عند النصارىٰ مُتَّحدٌ ببدن المسيح، ولمْ يظهر من آيات الربوبية والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء.

الوجه العاشر: أن المخاطِب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت فكلامه صريحٌ في أنه مخلوقٌ مربوبٌ، يدعو و يسأل، والمجموع ليس بمخلوق يسأل الله، ويعبده.

وإن كان هو اللاهوت وحده ـ كما يقتضيه كلامهم هذا ـ فهو أبعد وأبعد، وإن كان هو الناسوت وحده فلم يكن اللاهوت مخاطبًا للناس، ولمْ يكلم الله الناس من الناسوت كما كلم الله موسىٰ من الشجرة.

وأيضًا فلم يكن فرقٌ بين حقيقة كلام الناسوت وكلام اللاهوت.

وكلام المسيح الصريح في أنه مخلوقٌ كثيرٌ، وهم يقرّون به؛ لكن يقولون: ذلك كلام الناسوت، فيقال لهم: حينئذٍ فالمخاطِب للناس هو الناسوت دون اللاهوت، وأنتم قلتم: إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح، كما خاطب موسىٰ من الشجرة.

والخطاب الذي سَمعه موسىٰ من الشجرة هو كله كلام اللاهوت، والكلام الذي كان يُسمع من المسيح ليس فيه شيءٌ يختصّ باللاهوت، بل عامته صريحٌ في أنه كلام الناسوت.

الوجه الحادي عشر: أن الله لما كلّم موسىٰ من الشجرة كان الكلام كلام الله وحده، لمْ يكن للشجرة كلامٌ أصلًا بوجهٍ من الوجوه، فإن كان هذا المثل مطابقًا كان الذي يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده، ومعلومٌ أن في الإنْجيل، وغيره من النصوص الصريحة ما يدل علىٰ أن الناسوت كان هو المتكلم، مما يُبَيِّنُ الفرق الواضح بين هذا وهذا.

الوجه الثاني عشر: أن الذي نادىٰ موسىٰ من الشجرة لمْ يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وسائر ما تكلم به كله يقتضي أنه كلام رب العالمين، وأما المتكلم علىٰ لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلًا، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسولٌ، وأنه مخلوقٌ محتاجٌ، وأنه ابن البشر، وغير ذلك مما يناقض من كل وجه كلام المنادي لموسىٰ من الشجرة، فمن سوَّىٰ بين هذا وهذا كان قد سوَّىٰ بين رب العالمين، وبين إنسان من الآدميين، وهو أضل من الذين قال الله فيهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

فإن أولئك جعلوهم أندادًا لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلم هو ربّ العالمين، الذي كلّم موسىٰ من الشجرة، وقالوا: إن هذا الذي كلم العباد هو ذاك الذي نادىٰ موسىٰ من الشجرة.

الوجه الثالث عشر: أن يقال: معلومٌ أن الله أجلّ، وأعظم، وأكبر من رسله بِما لا يقدر المخلوق قدره، فلو كان هو الذي كلّم الخلق علىٰ لسان المسيح، وكان الحواريُّون رسله الذين سَمعوا كلامه منه بلا واسطةٍ، لكان الحواريُّون إما مثل موسىٰ، وإما أعظم.

ومعلومٌ أن المسيح نفسه لمْ تكن له آياتٌ مثل آيات موسىٰ، فضلًا عن الحواريِّين، فإن أعظم آيات المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إحياء الموتىٰ، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء، كإلياس وغيره.

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا اللهُ علىٰ يديه الموتىٰ، وموسىٰ بن عمران من جُملة آياته العصا التِي انقلبت فصارت ثعبانًا مبينًا حتَّىٰ بلعت الحبال والعصي التِي للسحرة، وكان غير مرةٍ يلقيها فتصير ثعبانًا، ثم يُمسكها فتعود عصًا.

ومعلومٌ أن هذه آية لمْ تكن لغيره، وهي أعظم من إحياء الموتىٰ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة، فإذا عاش فقد عاد إلىٰ مثل حاله الأول، والله تعالىٰ يحيي الموتىٰ بإقامتهم من قبورهم، وقد أحيا غير واحدٍ من الموتىٰ في الدنيا.

وأما انقلاب خشبةٍ تصير حيوانًا، ثم تعود خشبةً مرةً بعد مرةٍ، وتبتلع الحبال والعصي، فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضًا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتىٰ علىٰ يد موسىٰ وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممَّن أحياهم علىٰ يد المسيح، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وأيضًا فموسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يخرج يده بيضاء من غير سوءٍ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن البرص مرضٌ معتادٌ، وإنَّما العجب الإبراء منه، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلىٰ حالها الأول ففيه أمران عجيبان لا يعرف لهما نظيرٌ.

وأيضًا فموسىٰ فلق اللهُ له البحر حتَّىٰ عبر فيه بنو إسرائيل، وغرق فيه فرعون

وجنوده، وهذا أمرٌ باهرٌ، فيه من عظمة هذه الآية، ومن إهلاك الله لعدو موسىٰ ما لمْ يكن مثله للمسيح.

وأيضًا فموسىٰ كان الله يطعمهم علىٰ يده المنّ والسلوىٰ، مع كثرة بني إسرائيل، ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثنَي عشر عينًا يكفيهم.

وهذا أعظم من إنزال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ للمائدة، ومن قلب الماء خَمرًا، ونَحو ذلك مما يحكىٰ عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسىٰ في عدوه من القمل، والضفادع، والدم، وسائر الآيات ما لمْ يكن مثله للمسيح، فلو كان الحواريُّون رسلًا قد كلمهم الله مثل ما كلم موسىٰ من الشجرة كانوا مثل موسىٰ، فكيف والمسيح نفسه لمْ يكن له آيات مثل آيات موسىٰ؟!.

ولو كان المسيح هو اللاهوت الذي كلم موسىٰ، لكان يظهر من قدرته أعظم مما أظهره علىٰ يد موسىٰ، فإنه لمْ يحل في بدن موسىٰ، ولا كان اللاهوت يكلم الخلق من موسىٰ كما يزعمه هؤلاء في المسيح، ومع هذه فالآيات التِي أيد بها عبده موسىٰ تلك الآيات العظيمة، فكيف تكون آياته إذا كان هو نفسه الذي قد حل في بدن المسيح، وهو الذي يخاطب الناس علىٰ لسان المسيح.

الوجه الرابع عشر: أن يقال: إن قولهم: «إن الله خاطب الناس في المسيح كما خاطب موسىٰ النبي من العوسجة» من أبطل الباطل؛ فإن الله باتفاق الأمم كلها لم يحلّ في الشجرة، ولمْ يتّحد بها، كما يزعمون هم أنه حلّ بالمسيح، واتحد به، فإنه عندهم حلّ بباطن المسيح، بل وبظاهره، واتحد به باطنًا وظاهرًا، والربّ تعالىٰ لمْ يكن في باطن الشجرة، ولا حلّ فيها، ولا اتحد بها، وقول الله: إنه كلمه منها، وناداه منها، كقوله أنه: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [القصص:

٣٠].

وذلك مثل قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥-١٦]، و﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، ونَحو ذلك.

وليس في شيءٍ من ذلك أن الربّ تعالىٰ حلّ في باطن الوادي المقدس، أو البقعة المباركة، أو الجانب الأيمن، ولا أنه اتحد بشيءٍ من ذلك، ولا صار هو وشيءٌ من ذلك جوهرًا واحدًا، ولا شخصًا واحدًا، كما يقول بعض النصارىٰ: إن اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا، وبعضهم يقول: صارا شخصًا واحدًا.

بل ولا قال أحدٌ: إنه حلّ في شيءٍ من ذلك كحلول الماء في اللبن، أو النار في الحديد، كما يقول بعضهم: إن اللاهوت حلّ في الناسوت كذلك، ولو قدر أن بعض الناس قد قال شيئًا من المقالات التِي لا تدلّ عليها الكتب الإلهية، ولا تعلم بالعقل، لمْ يكن قوله حجةً؛ إذ لا يحتجّ إلا بنقلٍ ثابتٍ عن الأنبياء، أو بِما يعلم بالعقل.

الوجه الخامس عشر: أن الذي كلم موسىٰ، وناداه هو الله رب العالمين، وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنُزُوله إلىٰ السماء الدنيا، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق، والكلام علىٰ ذلك مبسوطٌ في غير هذا الموضع.

وأما حلوله في البشر، أو اتحاده به، فيمتنع من وجوهٍ كثيرةٍ عقلًا وسَمعًا، مع أنه لمْ يخبر به نَبِيٌّ.

وما تقوله النصارىٰ في غاية التناقض؛ فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة، وهو الخالق؛ لأن الكلمة والذات شيءٌ واحدٌ، فلا يفرقون بين الصفة والموصوف، ثم يقولون: المتحد بالمسيح هو الكلمة دون الذات التِي يسمونها

الأب، ويقولون مع ذلك: إنه لمْ يتبعض، ولمْ يتجزأ.

ومعلومٌ بصريح العقل أن الكلمة التِي هي الصفة لا يُمكن مفارقتها للموصوف، فلا تتَّحد، وتحلّ دون الموصوف، لا سيما والمتحد الحالّ عندهم هو الخالق، فيجب أن يكون هو الأب، وهم لا يقولون: المتحد الحالّ هو الأب، بل هو الابن.

وإذا قالوا: إن الابن هو المتحد الحال دون الأب، فالمتّحد ليس هو الذي ما اتحد، والابن اتحد، والأب ما اتحد.

ويقولون: إن المتحد اتخذ عيسىٰ حجابًا احتجب به، ومسكنًا يسكن فيه، خاطب الناس فيه، ويقولون في ذلك: إنه اتحد به الأب لمْ يحتجب به، ولمْ يسكن فيه، ولمْ يتّحد به، فلزم قطعًا أن يكون منه شيءٌ اتحد، ومنه شيءٌ لمْ يتّحد، فالأب لمْ يتّحد، والابن اتحد، وهذا يناقض قولهم: «لمْ يتبعض»، ويبطل تمثيلهم بالمخاطِب من الشجرة، فإن ذاك هو الله رب العالمين، ليس هو الابن دون الأب، مع ما ذكر من الفروق الكثيرة المبيَّنة التِي تبين بطلان تمثيل هذا بهذا.

الوجه السادس عشر: أن الرّبّ ﷻ إذا تكلّم تكلّم بكلام الربوبية، فلو كان في المسيح اللاهوت الذي أرسل موسىٰ وغيره لمْ يخضع لموسىٰ ولتوراته، ويذكر أنه إنَّما جاء ليكملها، لا لينقضها، ولا كان يقوم بشرائعها؛ فإن رب العالمين أعظم وأجلّ من ذلك، بل لو كان ملكًا من الملائكة لمْ يفعل مثل ذلك، فكيف برب العالمين؟!.

واذا قالت النصارىٰ: فعل ذلك خوفًا من بني إسرائيل، أو خوفًا أن يكذبوه كان عذرهم أقبح من ذنبهم، فرب العالمين ممَّن يخاف سبحانه وتعالىٰ؟!.

وموسىٰ لما كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات يذلّ بها فرعون وقومه، مع عتوه وعتو قومه، ولمْ تكن بنو إسرائيل أعتَىٰ من فرعون وقومه، فلو كان هو رب العالمين كان ما يؤيد به نفسه من الآيات أعظم مما يؤيد به عبده موسىٰ.

ومن عجائب النصارىٰ أنهم يدَّعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتَّىٰ صلب.

وأما المسلمون فيقولون: هو رسولٌ مؤيدٌ، لمْ يُصلب، وهذه سنة الله سبحانه في رسله؛ فإنه يؤيدهم، وينصرهم علىٰ عدوهم، كما نصر نوحًا، وإبراهيم، ومحمدًا صلوات الله عليهم وسلامه.

فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولًا مغلوبًا، فكيف يكون ربًّا مغلوبًا مصلوبًا.

الوجه السابع عشر: قولهم: «فعل المعجزات بلاهوته، وأظهر العجز بناسوته».

فيقال لهم: إن الله فعل من المعجزات ما هو أعظم من المعجزات التِي ظهرت علىٰ يد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولمْ يكن مُتَّحِدًا بشيءٍ من البشر، فأي ضرورةٍ له إلىٰ أن يتَّحد بالبشر إذا فعل معجزات دون ذلك.

الوجه الثامن عشر: أن المسيح ظهرت علىٰ يديه معجزات كما ظهر لسائر المرسلين، ومعجزات بعضهم أعظم من معجزاته، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلًا علىٰ اتحاد اللاهوت بالنَّبِيِّ الذي ظهرت علىٰ يديه، فعلم أن الاستدلال بظهور المعجزات علىٰ يديه في غاية الفساد.

الوجه التاسع عشر: أن اللاهوت إن كان مُتَّحِدًا بالناسوت لمْ يتميز فعله عن فعل الناسوت؛ فإنهما إذا صارا شيئًا واحدًا كان كل ما فعله: من عجزٍ ومعجزٍ هو ذلك الواحد، كالأمثال التِي يضربونها لله سبحانه وتعالىٰ، فإنهم يُمثّلون ذلك

بالنار مع الحديد، والماء مع اللبن والخمر.

ومعلومٌ أن الحديدة إذا أدخلت النار حتَّىٰ صارت بيضاء كالنار البيضاء، ففعلها فعلٌ واحدٌ، ليس لها فعلان متميزان؛ أحدهُما بالحديد، والآخر بالنار، بل فيها قوة الحديد، وقوة النار، بل فيها قوةٌ ثالثةٌ ليست قوة الحديد، ولا قوة النار؛ إذ ليست حديدًا محضًا، ولا نارًا محضًا.

وكذلك الماء إذا اختلط باللبن والخمر، فالمتحد منهما شيءٌ واحدٌ، فعله فعلٌ واحدٌ، منه ما ليس ماءً محضًا، ولا لبنًا محضًا، لا يقول عاقل: إن له فعلين يتميز أحدهُما عن الآخر، فعلًا بكونه لبنًا محضًا، وفعلًا بكونه ماءً محضًا.

فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللاهوت بالناسوت، وأن يصير فعل المتَّحد شيئًا واحدًا، وإن كان اللاهوت لَمْ يتّحد به فهما اثنان شخصان، وجوهران، وطبيعتان، ومشيئتان، وليس هذا دين النصارىٰ، مع أن حلول الربّ ﷻ في البشر ممتنعٌ، كما قد بسط في موضعٍ آخر.

وكذلك إذا مثّلوه بالنفس مع البدن؛ فإن النفس تتغير صفاتها بِمفارقة البدن، وكذلك البدن تتغير صفاته بِمفارقة الروح له، والإنسان الذي نفخت فيه الروح فصارت بدنًا فيه الروح هو نوعٌ ثالثٌ، ليس فيه بدنٌ محضٌ، وروحٌ محضٌ حتَّىٰ يقال: إنه يفعل كذا ببدنه، وكذا بنفسه، بل أفعاله تشترك فيها الروح، فهو إذا أكل وشرب فالروح تتلذذ بالأكل والشرب، وبها صار آكلًا شاربًا، وإلا فالبدن الميت لا يأكل، ولا يشرب، وإذا نظر، واستدل، وسَمع، ورأىٰ، وتعلم، فالنفس فعلت ذلك بالبدن، والبدن يظهر فيه ذلك، والروح وحدها لا تفعل ذلك، وعندهم أن فعل اللاهوت بعد الاتحاد كفعله قبله، وكذلك فعل الناسوت، وهذا يناقض الاتحاد، والقول بهذا مع الاتحاد في غاية التناقض والفساد، ولا يعقل نظير هذا في شيءٍ من الموجودات، ونفس المتكلم بهذا من النصارىٰ لا يتصور ما يقول،

ولا يُمكنه أن يُمثله بشيءٍ معقولٍ.

قالوا: «وقد جاء في هذا الكتاب الذي جاء به هذا الإنسان يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا يوافق قولنا؛ إذ قد شهد أنه إنسانٌ مثلنا، أي: بالناسوت الذي أخذ من مريم، وكلمة الله وروحه المتحدة فيه، وحاشا أن تكون كلمة الله وروحه الخالقة مثلنا نَحن المخلوقين.

وأيضًا قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فأشار بهذا القول إلىٰ اللاهوت الذي هو كلمة الله التِي لمْ يدخل عليها ألمٌ، ولا عرض.

وقال أيضًا في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، فأشار بهذا إلىٰ اللاهوت الذي هو كلمة الله الخالقة، وعلىٰ هذا القياس نقول: إن المسيح صلب، وتألم بناسوته، ولمْ يصلب، ولا تألم بلاهوته».

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: دعواهم علىٰ محمدٍ أنه أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت ـ كما يزعمه هؤلاء النصارىٰ فيه ـ هو من الكذب الواضح المعلوم علىٰ محمدٍ عليه السلام الذي يعلم من دينه بالاضطرار، كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام وإثبات رسالته، فلو ادعىٰ اليهود علىٰ محمدٍ عليه السلام أنه كان يكذب المسيح ويجحد رسالته، كان كدعوىٰ النصارىٰ عليه أنه كان يقول: إنه رب العالمين، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت، ومحمدٌ عليه السلام قد أخبر فيما

بلغه عن الله ﷻ بكفر من قال ذلك، وبما يناقض ذلك في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

[وغير ذلك من الآيات الحاكمة بكفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم].

- **الوجه الثاني**: أن يقال: إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل، إنما **قال**: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

فذمّ الله اليهود بأشياء:

منها: قولهم علىٰ مريم بهتانًا عظيمًا حيث زعموا أنها بغي.

ومنها: قولهم: إنا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وأضاف هذا القول إليهم، وذمّهم عليه، ولم يذكر النصارىٰ؛ لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود، ولم يكن أحدٌ من النصارىٰ شاهدًا هذا معهم، بل كان الحواريون خائفين غائبين، فلم يشهد أحدٌ منهم الصلب، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صُلب من النصارىٰ وغيرهم إنّما نقلوه عن أولئك اليهود، وهم

شُرَطٌ من أعوان الظلمة، لم يكونوا خلقًا كثيرًا يمتنع تواطؤهم علىٰ الكذب.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فنفىٰ عنه القتل، ثم **قال:** ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

وهذا عند أكثر العلماء معناه: قبل موت المسيح.

الوجه الثالث: قولهم: «إنه عني بموته عن موت الناسوت» كان ينبغي لهم أن يقولوا علىٰ أصلهم عني بتوفيته عن توفي الناسوت، وسواء قيل موته أو توفيته، فليس هو شيئًا غير الناسوت، فليس هناك شيءٌ غيره لم يتوف، والله تعالىٰ **قال:** ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، فالمتوفىٰ هو المرفوع إلىٰ الله.

وقولهم: «إن المرفوع هو اللاهوت» مخالفٌ لنصّ القرآن لو كان هناك موتٌ، فكيف إذا لم يكن، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفىٰ، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفىٰ.

وكذلك قوله في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨] هو تكذيب لليهود في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

واليهود لم يدّعوا قتل لاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتًا في المسيح، والله تعالىٰ لم يذكر دعوىٰ قتله عن النصارىٰ حتىٰ يقال: إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت، بل إن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت، وقد زعموا أنهم قتلوه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٧، ١٥٨].

فأثبت رفع الذي قالوا: إنهم قتلوه.

وإنما هو الناسوت، فعلم أنه هو الذي نُفي عنه القتل، وهو الذي رُفع، والنصارىٰ معترفون برفع الناسوت، لكن يزعمون أنه صلب، وأقام في القبر، إما يومًا، وإما ثلاثة أيام، ثم صعد إلىٰ السماء، وقعد عن يمين الرب الناسوت مع اللاهوت.

الوجه الرابع: أنه قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه، أو لكلمته: إني أرفعك إلي.

وكذلك قوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨] فالمسيح عندهم هو الله.

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلىٰ نفسه.

وإذا قالوا: «هو الكلمة» فهم يقولون مع ذلك: إنه الإله الخالق، لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن، ونحوهما مما هو من كلام الله الذي قال فيه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠]، بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين، ورفع رب العالمين إلىٰ رب العالمين ممتنعٌ.

الوجه الخامس: قوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

دليلٌ علىٰ أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح، فإن قوله: ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ يدلّ علىٰ الحصر، كقوله: ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأنفال:

٣٢]، ونحو ذلك.

فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبًا علىٰ أتباعه، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم، المحصي أعمالهم، المجازي عليها، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع علىٰ أعمالهم، ولا يحصيها، ولا يجازيهم بها.

قالوا: «وقد سماه الله أيضًا في هذا الكتاب خالقًا حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠] فأشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتحدة بالناسوت المأخوذ من مريم؛ لأنه كذا قال علىٰ لسان داود النبي: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه».

وهذا مما يوافق رأينا واعتقادنا في السيد المسيح لذكره؛ لأنه حيث قال: من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩] أي: بإذن لاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت».

والجواب: أن جميع ما يحتجّون به من هذه الآيات وغيرها فهو حجةٌ عليهم، لا لهم، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجّوا بشيءٍ من كتب الله وكلام أنبيائه، كان في نفس ما احتجّوا به ما يدلّ علىٰ فساد قولهم، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة، وما أنطق به أنبياءه، فإنه جعل ذلك هدًىٰ وبيانًا للخلق، وشفاءً لما في الصدور، فلا بدّ أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدىٰ والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل، والصدق والكذب، لكن الناس يؤتون من قِبَلِ أنفسهم، لا من قبل أنبياء الله تعالىٰ؛ إمّا من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حقّ التدبر حتىٰ يفقهوه ويفهموه.

وإمّا من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض، فيضلّون من جهة ما لم يؤمنوا به، كما قال تعالىٰ عن النصارىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وإما من جهة نسبتهم إلىٰ الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم، ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذي دلّ عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمع، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض، ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا، وتعرف ما عادته يعينه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به، وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه، كان هذا مما يستعان به علىٰ معرفة مراده.

وأما إذا استعمل لفظه في معنىٰ لم تجرِ عادته باستعماله فيه، وترك استعماله في المعنىٰ الذي جرت عادته باستعماله فيه، وحمل كلامه علىٰ خلاف المعنىٰ الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ بجعل كلامه متناقضًا، وترك حمله علىٰ ما يناسب سائر كلامه، كان ذلك تحريفًا لكلامه عن موضعه، وتبديلًا لمقاصده، وكذبًا عليه.

فهذا أصل من ضلّ في تأويل كلام الأنبياء علىٰ غير مرادهم، فإذا عُرف هذا فنقول: **الجواب عما ذكروه هنا من وجوهٍ:**

أحدها: أن الله لم يذكر عن المسيح خلقًا مطلقًا، ولا خلقًا عامًّا، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالىٰ، فأول ما أنزل الله علىٰ نبيه محمدٍ عليه السلام: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا

لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١-٥].

ووصف نفسه بأنه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين، وأنه له الملك وله الحمد، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه علىٰ كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ عليم، ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولم يصف شيئًا من مخلوقاته ـ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا ـ بشيءٍ من الخصائص التي يختص بها، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالىٰ.

وأما المسيح؛ فقال فيه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال المسيح عن نفسه: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فلم يذكر إلا خلق شيءٍ معينٍ خاصٍّ بإذن الله، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك؟!.

الوجه الثاني: أنه خلق من الطين كهيئة الطير، والمراد به تصويره بصورة الطير، وهذا الخلق يقدر عليه عامّة الناس، فإنّه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير، وغير الطير من الحيوانات، ولكن هذا التصوير محرمٌ، بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه.

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيرًا بإذن الله ﷻ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين، فإن هذا مشتركٌ.

وقد لعن النبيُّ المصورين(١)، وقال: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ**»(٢).

الوجه الثالث: أن الله أخبر المسيح أنه إنَّما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالىٰ، وأخبر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه فعله بإذن الله، وأخبر الله أن هذا من نعمه التي أنعم بها علىٰ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الزخرف: ٥٩].

وهذا كله صريحٌ في أنه ليس هو الله، وإنما هو عبد الله، فعل ذلك بإذن الفعل مثل ذلك غيره من الأنبياء، وصريحٌ بأن الآذن غير المأذون له، والمعلِّم ليس هو المعلم والمنعَم عليه، وعلىٰ والدته، ليس هو إياه، كما ليس هو والدته.

الوجه الرابع: أنهم قالوا: «أشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتحدة في الناسوت» ثم قالوا في قوله: ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾: «أي: بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت».

هذا يبين تناقضهم وافتراءهم علىٰ القرآن؛ لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، ففرق بين المسيح وبين الله، وبَيَّنَ أن الله هو الآذن للمسيح، وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق وهو الآذن، فجعلوا الخالق هو الآذن، وهو تفسيرٌ للقرآن بما يخالف صريح القرآن.

الوجه الخامس: أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلىٰ أن يأذن لنفسه، فإنهم يقولون: «هو إلهٌ واحدٌ، وهو الخالق» فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٦) عن أبي جحيفة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٠) عن ابن مسعود.

وينعم علىٰ نفسه.

الوجه السادس: أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام، أو الكلام الذي هو صفةٌ للذات.

فإن كان هو الكلام؛ فالكلام صفةٌ لا تكون ذاتًا قائمةً بنفسها خالقةً، ولو لم تتّحد بالناسوت، واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنعٌ، لو كان الاتحاد ممكنًا، فكيف وهو ممتنعٌ.

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقةً من وجوهٍ وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام، فذاك هو الله الخالق لكل شيءٍ رب العالمين، وعندهم هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب، فلا يكون هو الخالق لكل شيءٍ، والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتىٰ خلق من الطين كهيئة الطير.

فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله، صفة من صفاته فليس المسيح هو الله، ولا ابنٌ قديمٌ أزليٌّ لله، ولكن عبدُهُ فَعَلَ بإذنِهِ.

الوجه السابع: قولهم: فأشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتحدة في الناسوت، المأخوذ من مريم؛ لأنه كذا قال علىٰ لسان داود النبي: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض».

يقال لهم: هذا النص عن داود حجةٌ عليكم، كما أن التوراة والقرآن وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجةٌ عليكم، فإن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض» ولم يقل: إن كلمة الله هي الخالقة، كما قلتم أنتم أنه أشار بالخالق إلىٰ كلمة الله.

والفرق بين الخالق للسماوات والأرض، وبين الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض أمرٌ ظاهرٌ معروفٌ، كالفرق بين القادر والقدرة، فإن القادر

هو الخالق، وقد خلق الأشياء بقدرته، وليست القدرة هي الخالقة.

وكذلك الفرق بين المريد والإرادة، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته، وليست مشيئته هي الخالقة.

وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق، لا لشيءٍ من صفاته، فالناس كلهم يقولون: يا الله! يا ربنا! يا خالقنا! ارحمنا واغفر لنا.

ولا يقول أحدٌ: يا كلام الله! اغفر لنا وارحمنا.

ولا: يا قدرة الله! ويا مشيئة الله! ويا علم الله! اغفر لنا وارحمنا.

والله تعالىٰ يخلق بقدرته، ومشيئته، وكلامه، وليست صفاته هي الخالقة.

الوجه الثامن: أن قول داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض» يوافق ما جاء في القرآن والتوراة وغير ذلك من كتب الأنبياء: أن الله يقول للشيءِ: «كن» فيكون.

وهذا في القرآن في غير موضعٍ، وفي التوراة: «قال الله: ليكن كذا، ليكن كذا».

الوجه التاسع: قولهم: «لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه».

إن أرادوا بكلمته: كلامه، وبروحه: حياته.

فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته، فلم يعبر أحدٌ من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله، فمن حمل كلام أحدٍ من الأنبياء بلفظ «الروح» أنه يراد به: حياة الله. فقد كذب.

فالخالق هو الله وحده، وصفاته داخلة في مسمىٰ اسمه، لا يحتاج أن تجعل معطوفةً علىٰ اسمه بواو التشريك التي تؤذن أن لله شريكًا في خلقه، فإن الله لا شريك له.

ولهذا لما قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] دخل كل ما سواه في مخلوقاته، ولم تدخل صفاته: كعلمه، وقدرته، ومشيئته، وكلامه؛ لأن هذه داخلةٌ في مسمىٰ اسمه، ليست أشياء مباينة له، بل أسماؤه الحسنىٰ متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات، لا يجوز أن يراد بأسمائه ذاتًا مجردةً عن صفات الكمال، فإن تلك لا حقيقة لها، ويمتنع وجود ذاتٍ مجردةٍ عن صفةٍ، فضلًا عن وجود ذاته تعالىٰ مجردةً عن صفات كماله التي هي لازمةٌ لذاته، فيمتنع تحقق ذاته دونها، ولهذا لا يقال: الله وعلمه خلق، والله وقدرته خلق.

وإن أردوا بكلمته وروحه المسيح، أو شيئًا اتحد بناسوت المسيح، فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كله مخلوق كسائر الرسل، والله وحده هو الخالق، وإن شئت قلت: إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفةٌ الله، فتلك داخلةٌ في مسمىٰ اسمه، وإن أريد ما ليس بصفةٍ، فذلك مخلوقٌ له، كالناسوت.

الوجه العاشر: أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح، لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت، وهو عندهم اسم للاهوت والناسوت لما اتحدا، والاتحاد فعلٌ حادثٌ عندهم، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوتٌ، ولا ما يسمىٰ مسيحًا، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح، ولكن غايتهم أن يقولوا: أراد الكلمة التي اتحدت فيما بعد بالمسيح.

لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح، كما نطق به القرآن بقوله: ﴿ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران:٤٥].

فالكلمة التي ذكرها، وأنها هي التي خلقت السماوات والأرض، ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فاحتجاجهم بهذا علىٰ هذا

احتجاجٌ باطلٌ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض لم يكن معها ناسوتٌ حين خلقت باتفاق الأمم، والمسيح لا بدّ أن يدخل فيه الناسوت، فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح.

قالوا: «وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران:٥٩]. فأعنىٰ بقوله: ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ إشارةً إلىٰ البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة؛ لأنه لم يذكر ها هنا اسم المسيح، إنما ذكر عيسىٰ فقط، كما أن آدم خلق من غير جماعٍ، ولا مباضعةٍ، فكذلك جسد السيد المسيح خلق من غير جماعٍ، ولا مباضعةٍ، وكما أن جسد آدم ذاق الموت فكذلك جسد المسيح ذاق الموت.

وقد يبرهن بقوله أيضًا قائلًا: إن الله ألقىٰ كلمته إلىٰ مريم، وذلك حسب قولنا معشر النصارىٰ: إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلّت في مريم، وتجسدت بإنسانٍ كاملٍ، وعلىٰ هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان: طبيعةٌ لاهوتيةٌ: التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعةٌ ناسوتيةٌ: التي أخذت من مريم العذراء، واتحدت به، ولما تقدم به القول من الله تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ النبي إذ يقول: «أليس هذا الأب الذي خلقك وبراك واقتناك».

قيل: وعلىٰ لسان داود النبي: «روحك القدس لا تنزع مني».

وأيضًا علىٰ لسان داود النبي: «بكلمة الله تشددت السماوات، وبروح فاه جميع قواهن».

وليس يدلّ هذا القول علىٰ ثلاثة خالقين، بل خالقٍ واحدٍ: الأب، ونطقه: أي كلمته، وروحه: أي حياته».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن قوله تعالىٰ: : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩].

كلامٌ حقٌّ، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري علىٰ الأقسام الممكنة؛ ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثىٰ، وخلق زوجته حواء من ذكرٍ بلا أنثىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]، وخلق المسيح من أنثىٰ بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكرٍ وأنثىٰ.

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح.

فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأةٍ هي من جنس بدن الإنسان، وهو سبحانه خلق آدم من تراب، ثم قال له: «كن» فيكون، لما نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه، وقال له: «كن» فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتًا وناسوتًا، بل كله ناسوتٌ، فكذلك المسيح كله ناسوتٌ، والله تبارك وتعالىٰ ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارىٰ لما قدم علىٰ النبي عليه السلام نصارىٰ نجران، وناظروه في المسيح، وأنزل الله فيه ما أنزل، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارىٰ، فكذب الله الطائفتين: هؤلاء في غلوهم فيه، وهؤلاء في ذمهم له.

وقال عقب هذه الآية: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ

عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦١-٦٤].

وقد امتثل النبي قول الله، فدعاهم إلىٰ المباهلة، فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته، فأقروا بالجزية وهم صاغرون.

ثم كتب النبي عليه السلام إلىٰ هرقل ملك الروم بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ ... ﴾ إلىٰ آخرها.

وهذا كله يبين به أن المسيح عبدٌ، ليس بإلهٍ، وأنه مخلوقٌ كما خلق آدم.

وقد أمر أن يباهل من قال: إنه إله. فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء، ويدعون الله أن يجعل لعنته علىٰ الكاذبين، فإن كان النصارىٰ كاذبين في قولهم: «هو الله» حقت اللعنة عليهم، وإن كان من **قال**: «ليس هو الله، بل عبد الله» كاذبًا حقت اللعنة عليه.

وهذا إنصافٌ من صاحب يقينٍ، يعلم أنه علىٰ الحق.

والنصارىٰ لما لم يعلموا أنهم علىٰ الحق نكلوا عن المباهلة، وقد قال عقب ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

تكذيبًا للنصارىٰ الذين يقولون: «هو إله حق من إله حق»، فكيف يقال: إنه أراد أن المسيح فيه لاهوتٌ وناسوتٌ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت.

وبهذا ظهر الجواب عن قولهم: «قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فأعنىٰ بقوله عيسىٰ إشارة إلىٰ البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة؛ لأنه لم يذكر ها هنا اسم المسيح، إنما ذكر عيسىٰ فقط».

فإنه يقال: عيسىٰ هو المسيح بدليل أنه قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥].

فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولًا، ليس هو بإله، وأنه ابن مريم، والذي هو ابن من مريم هو الناسوت.

الوجه الثاني: أن ما ذكروه من موته قد بَيَّنَّا أن الله لم يذكر ذلك، وأن المسيح لم يمت بعد، وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطلٌ من وجهين: فإن ناسوته لم يصلب، وليس فيه لاهوت، وهم ذكروا ذلك دعوىٰ مجردة، فيكتفىٰ في مقابلتها بالمنع.

لكن نقول في الوجه الثالث: إنهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارةً باتحاد الماء باللبن، وهذا تشبيه اليعقوبية.

وتارةً باتحاد النار بالحديد، أو النفس بالجسم، وهذا تشبيه الملكانية، وغيرهم.

ومعلومٌ أنه لا يصل إلىٰ الماء شيءٌ إلا وصل إلىٰ اللبن، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر، وكذلك النار التي في الحديد متىٰ طرق الحديد، أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب بالنفس، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود، وتعذيبهم له، وإيلامهم له، والصلب الذي ادعوه.

وهذا لازم على القول بالاتحاد، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه، لم يكن هنا اتحادٌ، بل تعددٌ.

الرابع: أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السماوات والأرض متّحدًا ببشرٍ في جوف امرأةٍ، وجعلوه له مسكنًا، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه، وبصقوا في وجهه، ووضعوا الشوك على رأسه، وصلبوه بين لصين، وهو في ذلك يستغيث بالله، ويقول: «إلهي إلهي! لمَ تركتني» وهم يقولون: «الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة»، ويقولون: «هما شخصٌ واحدٌ».

ويقول بعضهم: «لهما مشيئةٌ واحدةٌ، وطبيعةٌ واحدةٌ».

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغِيث المصلوب هو اللاهوت، وهو المستغِيث المتضرع، وهو المستغَاث به.

وأيضًا فهم يقولون: «إن اللاهوت والناسوت شخصٌ واحدٌ» فمع القول بأنهما شخصٌ واحدٌ: إما أن يكون مستغِيثًا، وإما أن يكون مستغَاثًا به، وإما أن يكون داعيًا، وإما أن يكون مدعوًا.

فإذا قالوا: إن الداعي هو غير المدعو، لزم أن يكونا اثنين، لا واحدًا.

وإذا قالوا: هما واحد، فالداعي هو المدعو على دفعهم عن ناسوته.

وإما أن يقولوا: لم يكن قادرًا.

فإن قالوا: لم يكن قادرًا، لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين، وأن يكون رب العالمين مقهورًا مأسورًا، مع قومٍ من شرار اليهود.

وهذا من أعظم الكفر، والتنقص برب العالمين، وهذا أعظم من قولهم: إن لله ولدًا، وأنه بخيلٌ، وأنه فقيرٌ.

ونحو ذلك مما يسبُّ به الكفار رب العالمين.

وإن قالوا: كان قادرًا، فإن كان ذلك من عدوان الكفار علىٰ ناسوته وهو كاره لذلك، فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابرٌ، فإن أولئك صبروا حتىٰ قُتِلوا شهداء، والناسوت عندهم استغاث وقال: «إلهي إلهي! لماذا تركتني» وإن كان هو قد فعل ذلك مكرًا، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان، وأخفىٰ نفسه حتىٰ يأخذه بوجه حق، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة، وهم يذكرون من جزع الناسوت، وهربه، ودعائه، ما يقتضي أن كل ما جرىٰ عليه كان بغير اختياره.

ويقول بعضهم: «مشيئتهما واحدة» فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت، بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين، وقد اتفقا علىٰ المكر بالعدو، ولم يجزع الناسوت، كما جرىٰ ليوسف مع أخيه لما وافقه علىٰ أنه يحمل الصواع في رحله، ويظهر أنه سارقٌ، لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله كما جزع إخوته حيث لم يعلموا، وكثيرٌ من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون، وهم ثابتون صابرون، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية.

الوجه السادس: قولهم: «إنه كلمته وروحه» تناقضٌ منهم؛ لأنه عندهم أقنوم الكلمة فقط، لا أقنوم الحياة.

الوجه السابع: قولهم: «وقد برهن بقوله رأينا أيضًا في موضعٍ آخر قائلًا: إن

الله ألقىٰ كلمته إلىٰ مريم.

وذلك حسب قولنا معشر النصارىٰ: إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلّت في مريم، واتحدت بإنسانٍ كاملٍ».

فيقال لهم: أما قول الله في القرآن فهو حقٌّ، ولكن ضللتم في تأويليه كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء، وما بلغوه عن الله، وذلك أن الله تعالىٰ قال: ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

ففي هذا الكلام وجوهٌ تبين أنه مخلوقٌ، وليس هو ما يقوله النصارىٰ:

منها: أنه قال: ﴿**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ**﴾، وقوله: ﴿**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ**﴾ نكرةٌ في الإثبات، تقتضي أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله، كما يقول النصارىٰ.

ومنها: أنه يبين مراده بقوله: ﴿**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ**﴾، وأنه مخلوقٌ، حيث قال: ﴿**كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالىٰ في سورة كهيعص: ﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له: «كن» فيكون، وهذا تفسير كونه

كلمة منه.

وقال: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران:٤٥] أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيهٌ في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، وهذه كلها صفة مخلوقٍ، والله تعالىٰ وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيءٌ من ذلك.

وقالت مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سبحانه وتعالىٰ.

فقد نهىٰ النصارىٰ عن الغلو في دينهم، وأن يقولوا علىٰ الله غير الحق، وبين أن المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله، فبين أنه رسوله، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة وقال: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء:١٧١].

وهذا تكذيب لقولهم في المسيح: إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء:١٧١] فنزَّه نفسه وعظمها أن يكون له ولد، كما تقوله النصارىٰ.

ثم قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فأخبر أن ذلك ملكٌ له ليس فيه شيءٌ من ذاته.

ثم قال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢] أي: لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لله تبارك وتعالىٰ، فمع هذا البيان الواضح الجلي هل يظنّ ظانّ أن مراده بقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أنه إله خالق، أو أنه صفةٌ لله قائمةٌ به، وأن قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ المراد به: أنه حياته، أو

روحه منفصلةٌ عن ذاته.

ثم نقول أيضًا: أما قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ فقد بَيَّنَ مراده أنه خلقه بـ «كن» ثم يقال للنصارىٰ: فلو قُدِّرَ أن المسيح نفس الكلام، فالكلام ليس بخالق، فإن القرآن كلام الله، وليس بخالق، والتوراة كلام الله وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرةٌ، وليس منها شيءٌ خالقٌ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقًا، فكيف وليس هو الكلام، وإنما خلق بالكلمة، وخص باسم الكلمة، فإنه لم يخلق علىٰ الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره، بل خرج عن العادة، فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة في البشر.

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلًا من ذات الله، وقوله عن المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ خصّ المسيح بذلك؛ لأنه نفخ في أمه من الروح، فحبلت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح، فلهذا سُمِّيَ روحًا منه.

ولهذا قال طائفةٌ من المفسرين: روح منه: أي رسولٌ منه، سمَّاه باسم الروح الرسول الذي نفخ فيها، فكما يسمىٰ كلمةً، يسمىٰ روحًا؛ لأنه كون بالكلمة، لا كما يخلق الآدميون غيره، ويسمىٰ روحًا؛ لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها، لم تحبل به من ذكرٍ كغيره من الآدميين.

وعلىٰ هذا فيقال: لما خلق من نفخ الروح ومن مريم، سُمِّيَ روحًا، بخلاف سائر الآدميين؛ فإنه يخلق من ذكرٍ وأنثىٰ، ثم ينفخ فيه الروح بعد مضي أربعة أشهر.

والنصارىٰ يقولون في أمانتهم: «تجسد من مريم ومن روح القدس».

ولو اقتصروا علىٰ هذا، وفسروا روح القدس بالملك الذي نفخ فيها وهو

روح الله، لكان هذا موافقًا لما أخبر الله به، لكنهم جعلوا «روح القدس» حياة الله، وجعلوه ربًّا، وتناقضوا في ذلك، فإنه علىٰ هذا كان ينبغي فيه أقنومان: أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وهم يقولون: ليس فيه إلا أقنوم الكلمة.

وكما يسمىٰ المسيح كلمةً؛ لأنه خلق بالكلمة يسمىٰ روحًا؛ لأنه حلّ به من الروح.

والمقصود هنا أنه ليس للنصارىٰ حجةٌ، لا في ظاهر النصوص، ولا في باطنها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

والكلمة عندهم هي جوهرٌ، وهي ربٌّ لا يخلق بها الخالق، بل هي الخالقة لكل شيءٍ، كما قالوا في كتابهم: «إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلّت في مريم».

والله تعالىٰ قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلىٰ مريم، والرّبّ سبحانه هو الخالق، والكلمة التي ألقاها ليست خالقةً؛ إذ الخالق لا يلقيه شيءٌ، بل هو يلقي غيره.

وكلمات الله نوعان: كونية، ودينية.

فالكونية: كقوله للشيء: «كن» فيكون.

والدينية: أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل.

وكذلك أمره، وإرادته، وإذنه، وإرساله، وبعثه ينقسم إلىٰ هذين القسمين.

*****

[زعمهم أن السيد المسيح فيه طبيعتان لاهوتية، وناسوتية]

وأما قولهم: «وعلىٰ هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان: طبيعةٌ لاهوتيةٌ التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعةٌ ناسوتيةٌ التي أخذت من مريم العذراء، واتحدت به».

فيقال لهم: كلام النصارىٰ في هذا الباب مضطربٌ مختلفٌ متناقضٌ، وليس لهم في ذلك قولٌ اتفقوا عليه، ولا قولٌ معقولٌ، ولا قولٌ دلّ عليه كتابٌ، بل هم فيه فِرَقٌ وطوائف، كل فرقةٍ تكفر الأخرىٰ، كاليعقوبية، والملكانية، والنسطورية.

ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربةٌ كثيرة الاختلاف، ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة نصارىٰ، لَتفرقوا علىٰ أحد عشر قولًا ،وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد ـ كما هو مذكورٌ في أمانتهم ـ لم ينطق به شيءٌ من كتب الأنبياء، ولا يوجد لا في كلام المسيح، ولا الحواريّين، ولا أحدٍ من الأنبياء، ولكن عندهم في الكتب ألفاظًا متشابهةً، وألفاظًا محكمةً يتنازعون في فهمها، ثم القائلون منهم بالأمانة ـ وهم عامّة النصارىٰ اليوم من الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية ـ مختلفون في تفسيرها، ونفس قولهم متناقضٌ يمتنع تصوره علىٰ الوجه الصحيح.

فلهذا صار كلٌّ منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره؛ فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم، وإن صرّح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحدٍ كاليعقوبية، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية، وكثيرٌ منهم ـ وهم الملكانية ـ بين هؤلاء وهؤلاء، ولما ابتدعوا ما ابتدعوا من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك.

[قول ابن حزم في النصارى]

وقال أبو محمد بن حزم: النصارىٰ فِرَقٌ، منهم أصحاب أريوس، وكان قسيسًا بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسىٰ عبدٌ مخلوقٌ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السماوات والأرض.

وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية، وأوّل من تنصر من ملوك الروم، وكان علىٰ مذهب أريوس(١) هذا.

قال: ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي(٢)، وكان بطرياركًا بأنطاكية قبل ظهور النصرانية، وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، كأحد الأنبياء، خلقه الله في بطن أمه مريم من غير ذَكَرٍ، وأنه إنسانٌ لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة، ولا الروح القدس.

قال: وكان منهم أصحاب مقدنيوس(٣)، كان بطرياركًا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية، وكان هذا الملك أريوسيًّا كأبيه، وكان من قول مقدونيوس هذا: التوحيد المجرد، وأن عيسىٰ عليه السلام عبدٌ مخلوقٌ، إنسانٌ نبيٌّ رسولٌ كسائر الأنبياء، وأن عيسىٰ هو روح القدس، وكلمة الله، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك.

قال: وكان منهم البربرانية(٤)، وهم يقولون: إن عيسىٰ وأمه إلهان من دون

---

(١) انظر ترجمته فيما سبق ص٨٤.

(٢) يكفي تعريف ابن حزم به أعلاه.

(٣) عرّف به ابن حزم فيكفي.

(٤) إحدىٰ فرق النصرانية التي تذهب إلىٰ القول بألوهية المسيح وأمه معًا، ويقال أنها =

الله تعالىٰ.

قال: وهذه الفرق قد بادت، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق، وأعظمها فرق الملكانية، وهي مذهب جميع ملوك النصارىٰ حيث كانوا، حاشا الحبشة والنوبة، ومذهب عامّة أهل كل مملكة النصارىٰ حاشا النوبة والحبشة، وهو مذهب جميع نصارىٰ إفريقية، وصقلية، والأندلس، وجمهور الشام.

وقولهم: إن الله ـ تعالىٰ عن قولهم ـ ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل، وأن عيسىٰ إلهٌ تامٌّ كله، وإنسانٌ تامٌّ، ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شيءٌ من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما معًا شيءٌ واحدٌ، ابن الله.

تعالىٰ الله عن كفرهم.

وقالت النسطورية مثل ذلك سواءً بسواءٍ، إلا أنهم قالوا: إن مريم لم تلد الإله، وإنما ولدت الإنسان، وأن الله لم يلد الإنسان، وإنما ولد الإله.

تعالىٰ الله عن كفرهم.

وهذه الفرقة غالبةً علىٰ الموصل، والعراق، وفارس، وخراسان، وهم منسوبون إلىٰ نسطور(١)، وكان بطرياركًا بالقسطنطينية.

وقالت اليعقوبية: إن المسيح هو الله نفسه، وأن الله ــ تعالىٰ الله عن عظيم

=

انقرضت، وقد قرر مذهبهم ابن البطريق في تاريخه. ويسمون «الريميتيين».

(١) ولد هذا القديس سنة ٣٨١م في مدينة مرعش بسوريا، وتربىٰ في إنطاكية، كان فصيحًا ومعجبًا بنفسه، ومع ذلك كان محبوبًا لدىٰ الناس لمحاولته إزالة ما في الكنيسة من الهطرقة والدروس اليونانية. انظر موسوعة ويكيبيديا.

كفرهم ـ مات وصُلب وقُتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبّرٍ، والفلك بلا مدبّرٍ، ثم قام ورجع كما كان، والله تعالىٰ عاد محدثًا، والمحدث عاد قديمًا، والله تعالىٰ كان في بطن مريم محمولًا به.

وهم في أعمال مصر، وجميع النوبة، وجميع الحبشة، وملوك الأمتين المذكورتين [١].

قلت: ومن أخبر الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم، وأسلم علىٰ بصيرةٍ بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم، كالحسن بن أيوب[٢] الذي كتب رسالة إلىٰ أخيه علي بن أيوب، يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة علىٰ بطلان دين النصارىٰ، وصحة دين الإسلام.

قال في رسالته إلىٰ أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه، بعد أن ذكر خطبته: ثم أعلمك ـ أرشدك الله ـ أن ابتداء أمري في الشكّ الذي دخلني فيما كنت عليه، والاستبشاع بالقول به من أكثر من عشرين سنة، لما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله ﷻ بما أُدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم[٣]،

---

(١) انظر: الفصل لابن حزم (١/ ١٠٩-١١١).

(٢) أحد علماء النصارىٰ، ومن الخبيرين بفرقهم ومقالاتهم، منّ الله عليه بالإسلام فأسلم، وكتب رسالة إلىٰ أخيه علي بن أيوب، يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة علىٰ بطلان دين النصارىٰ، وصحة دين الإسلام.
وقال عنه ابن النديم: «من المتكلمين وله من الكتب كتاب إلىٰ أخيه علي بن أيوب في الرد علىٰ النصارىٰ، وتبيين فساد مقالتهم وتثبيت النبوة». الفهرست ص٢٤٦.
وقد ذكر ابن تيمية كتابه ضمن كتابه هذا، وأثنىٰ عليه وزكاه، فقال: «وهو ممن كان من أجلاء وعلماء النصارىٰ، وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره». اهـ.

(٣) يؤمن النصارىٰ بأن ذات الله ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس. وهذه عندهم تعتبر شيء واحد.

=

وغيرها مما تضمنته شريعة النصارىٰ، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تقرير ذلك.

وكنت إذا تبحرته وأجلت الفكر فيه بان لي عواره، ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي مَنّ الله عليّ به، وجدت أصوله ثابتةً، وفروعه مستقيمةً، وشرائعه جميلةً.

وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحدٌ ممن عرف الله ﷻ منكم، ومن غيركم، وهو الإيمان بالله الحي، القيوم، السميع، البصير، الواحد، الفرد، الملك، القدوس، الجواد، العدل، إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وإله موسىٰ، وعيسىٰ، وسائر النبيين، والخلق أجمعين، الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، ولا ضد ولا ند، ولم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، الذي خلق الأشياء كلها لا من شيءٍ، ولا علىٰ مثال، بل كيف شاء، وبأن قال لها: «كوني» فكانت علىٰ ما قدّر وأراد، وهو العليم القدير، الرؤوف الرحيم، الذي لا يشبهه شيءٌ، وهو الغالب فلا يغلب، والجواد فلا يبخل، لا يفوته مطلوبٌ، ولا تخفىٰ عليه خافيةٌ، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وكل مذكورٍ أو موهومٍ هو منه، وكل ذلك به، وكلٌّ له قانتون.

ثم نؤمن بأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون، ونؤمن بموسىٰ وعيسىٰ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا نفرّق بين أحدٍ منهم، ونؤمن بالتوراة، والإنجيل، والزبور،

=

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣].

والقرآن، وسائر الكتب التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه، وأن الساعة آتيةً لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين، ذلك بما كسبت أيديهم، وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد.

قال:(١) وكان يحملني إلف ديني، وطول المدّة والعهد عليه، والاجتماع الآباء، والأمهات، والإخوة، والأخوات، والأقارب، والإخوان، والجيران، وأهل المودّات، علىٰ التسويف بالعزم، والتلبث علىٰ إبرام الأمر، ويعرض مع ذلك الفكر في إمعان النظر، والازدياد في البصيرة، فلم أدع كتابًا من كتب أنبياء: التوراة، والإنجيل، والزبور، وكتب الأنبياء، والقرآن إلا نظرت فيه، وتصفحته، ولا شيئًا من مقالات النصرانية إلا تأملته، فلما لم أجد للحق مدفعًا، ولا للشكّ فيه موضعًا، ولا للأناة والتلبث وجهًا، خرجت مهاجرًا إلىٰ الله ﷻ بنفسي، هاربًا بديني عن نعمةٍ، وأهل مستقر، ومحلٍّ، وعزٍّ، ومتصرف في عمل، فأظهرت ما أظهرته عن نيةٍ صحيحةٍ، وسريرةٍ صادقةٍ، ويقينٍ ثابتٍ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ، وإياه تعالىٰ نسأل أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا منه رحمةً، إنه هو الوهاب.

قال: ولما نظرت في مقالات النصارىٰ وجدت صنفًا منهم يعرفون بـ «الأريوسية»(٢) يجردون توحيد الله، ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام، ولا يقولون فيه شيئًا مما يقوله النصارىٰ من ربوبيةٍ، ولا بنوةٍ خاصة، ولا غيرهما،

---

(١) الأسباب التي أخرت الحسن بن أيوب عن الإسلام.

(٢) هم أتباع أريوس قسيس الإسكندرية، الذي كان في زمن قسطنطين الأول، وهو القائل بالتوحيد المجرد، وأن القديم هو الله، وأن عيسىٰ عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله التي خلق بها السماوات والأرض. انظر الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٢١) والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١/ ٤٧).

وهم متمسكون بإنجيل المسيح، مقرّون بما جاء به تلاميذه، والحاملون عنه، فكانت هذه الطبقة قريبةً من الحق، مخالفةً لبعضه في جحود نبوة محمدٍ، ودفع ما جاء به من الكتاب والسنة.

قال: ثم وجدت منهم صنفًا يعرفون بـ «اليعقوبية(١)» يقولون: إن المسيح طبيعةً واحدةً من طبيعتين، إحداهما طبيعة الناسوت، والأخرىٰ طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا، كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانًا واحدًا، وجوهرًا واحدًا، وشخصًا واحدًا، وأن هذه الطبيعة الواحدة، والشخص والواحد هو المسيح، وهو إلهٌ كله، وإنسانٌ كله، وهو شخصٌ واحدٌ، وطبيعةٌ واحدةٌ من طبيعتين.

وقالوا: إن مريم ولدت الله ـ تعالىٰ الله عما يقولون ـ وإن الله مات، وتألم، وصلب متجسدًا، ودفن، وقام من بين الأموات، وصعد إلىٰ السماء.

فجاءوا من القول بما لو عرض علىٰ السماء لانفطرت، أو علىٰ الأرض لانشقت، أو علىٰ الجبال لانهدت، فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجهةٌ، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك، وكان غيرهم من النصارىٰ كالمالكانية، والنسطورية يشهدون بذلك عليهم.

قال: ثم نظرت في قول «الملكانية(٢)» وهم الروم، وهم أكثر النصارىٰ،

---

(١) هم القائلون بأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، اتحاد بلا اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة، وأول من أعلن مذهبهم بطريرك الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، وينسبون إلىٰ يعقوب البرادعي لأنه من أنشط الدعاة إليه، وليس مؤسسًا له؛ لأن مذهبهم أقدم منه. انظر تاريخ الأمة القبطية (٢/ ٩٣-٩٤) ومحاضرات في النصرانية لأبي زهرة ص١٢٩، ١٤٦.

(٢) هم الدين يعتقدون أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إله تام كله، وإنسان تام كله، ليس أحدهما غير =

فوجدتهم قالوا: إن الابن الأزلي الذي ـ هو الله الكلمة ـ تجسد من مريم تجسدًا كاملًا كسائر أجساد الناس، وركب في ذلك الجسد نفسًا كاملةً بالعقل، والمعرفة، والعلم، كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنسانًا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس، وإلهًا بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل، وهو إنسانٌ بجوهر الناسوت، مثل إبراهيم وداود، وهو شخصٌ واحدٌ لم يزد عدده، وثبت له جوهر اللاهوت، كما لم يزل يصح له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم، وهو شخصٌ واحدٌ لم يزد عدده وطبيعتان، ولكل واحدةٍ من الطبيعتين مشيئةٌ كاملةٌ، فله بلاهوته مشيئةٌ مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئةٌ مثل مشيئة إبراهيم وداود.

وقالوا: إن مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح ـ وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت ـ مات.

وقالوا: إن الله لم يمت، والذي ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته، فهو إلهٌ تامٌّ بجوهر لاهوته، وإنسانٌ تامٌّ بجوهر ناسوته، وله مشيئة اللاهوت، ومشيئة الناسوت، وهو شخصٌ واحدٌ، لا نقول شخصان، لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم.

قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت به اليعقوبية في ولادة مريم، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون، وقالوا: إن المسيح ـ وهو اسمٌ لا تشك جماعة النصارىٰ

= الآخر، وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ويقولون: بأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما شيء واحد ابن الله. انظر اعتقاد المسلمين والمشركين للفخر الرازي ص٨٤. والفصل في الملل والنحل (١/ ٤٨و٢٢١).

أنه واقعٌ علىٰ اللاهوت والناسوت ـ مات، وأن الله لم يمت، فكيف يكون ميتًا لم يمت، وقائمًا قاعدًا في حالٍ واحدةٍ؟ وهل بين المقالتين فرقٌ إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع؟.

قال: ثم نظرت في قول «النسطورية[1]» فوجدتهم قالوا: إن المسيح شخصان وطبيعتان، لهما مشيئةٌ واحدةٌ، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعة ناسوته، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التي صارت الطبيعتان بجهةٍ واحدةٍ، وإرادةٍ واحدةٍ، واللاهوت لا يقبل زيادةً، ولا نقصان، ولا يمتزج بشيءٍ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان، فكان المسيح بتلك إلهًا وإنسانًا، فهو إلهٌ بجوهر اللاهوت الذي لا يزيد ولا ينقص، وهو إنسانٌ بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان.

وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته.

و**قال**: فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله ــ تعالىٰ عما يصفه المبطلون، ويقوله العادلون ـ وأنه تألم، وصلب، ومات، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتىٰ.

وهذا الكفر الذي تشهد به عليهم سائر ملل النصارىٰ وغيرهم.

ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلىٰ ما هو دونه في الظاهر،

---

(١) نسبة إلىٰ نسطور الراهب وهو أسقف القسطنطينية، كان يرىٰ أن المسيح يقال له: إله، وابن الإله، ليس علىٰ الحقيقة، ولكن موهبة. وأن مريم ليست بولدة الإله علىٰ الحقيقة، وأن اللاهوت لم يولد، ولم يصلب، ولم يقم مع الناسوت. انظر محاضرات في النصرانية. لأبي زهرة ص١٤٤-١٤٥، وهداية الحيارىٰ لابن القيم ص٢٥٦.

فقالوا: إن المسيح شخصٌ واحدٌ وطبيعتان، فلكل واحدةٍ من الطبيعتين مشيئةٌ، فله بلاهوته مشيئةٌ مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئةٌ كمشيئة إبراهيم وداود.

وأوهموا الواقف علىٰ قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت، ثم عادوا إلىٰ قول اليعقوبية فقالوا: إن مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح ــ وهو اسمٌ يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك ــ مات بالجسد، وأن الله لم يمت، والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته.

فكيف يكون ميت لم يمت؟ وهل بين المقالتين إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع فرق؟.

وإذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله، وأن الذي ولدته مريم ــ وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين للاهوت والناسوت ـ قد مات، فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال التي تحكي النصارىٰ أنها فُعلت بالمسيح إلا عليهما؟ فكيف يصح لذي عقلٍ عبادة مولودٍ من امرأةٍ بشريةٍ قد مات، ونالته العلل والآفات؟!.

*****

[تعليق شيخ الإسلام على مقالتهم هذه]

قلت: ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون: إن المسيح ـ وهو اللاهوت والناسوت ـ شخصٌ واحدٌ، وأقنومٌ واحدٌ، مع قولهم: إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين، فيثبتون للجوهرين أقنومًا واحدًا، ويقولون: هو شخصٌ واحدٌ، ثم يقولون: إن رب العالمين إلهٌ واحدٌ، وأقنومٌ واحدٌ، وجوهرٌ واحدٌ، وهو ثلاثة أقانيم، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم، وللجوهرين المتحدين أقنومًا واحدًا، مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدةٌ، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين، ومع هذا هما عندهم شخصٌ واحدٌ، أقنومٌ واحدٌ، وهذا يقتضي غاية التناقض، سواءٌ فسروا الأقنوم بالصفة، أو الشخص، أو الذات مع الصفة، أو أي شيءٍ قالوه.

وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما قالوه، بل كانوا ضُلّالًا جُهّالًا، بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حقٌّ، فلهذا لا يوجد عن المسيح، ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم في التثليث، والأقانيم، والاتحاد، ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمعٍ وعقلٍ، بل ألقوا أقوالًا مخالفةً للشرع والعقل.

۞ [مقالة النسطورية تعود إلى اليعقوبية والملكانية]:

ثم قال الحسن بن أيوب: ثم وجدنا النصارىٰ المعروفين بالنسطورية قد خالفوا اليعقوبية والملكانية في قولهم بشخصين لهما مشيئةٌ واحدةٌ، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهةٍ واحدةٍ، ثم عادوا إلىٰ شبيه قولهم في أن مريم ولدت المسيح، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليه الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين.

وقد رجع المعنىٰ إلىٰ قول اليعقوبية، إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظًا زوقوها، وقدروا بها التمويه علىٰ السامع، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية؛ لأن المتحد بالشيء هو الممازج له، والمجتمع معه حتىٰ صار مازجه وهو شيئًا واحدًا، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه، فما لم يفارق الشيء هل هو إلا يجري مجراه في سائر متفرقاته من ضرٍّ ونفعٍ، وخيرٍ وشرٍّ، وحاجةٍ وغنىٰ.

قال: وأما قولهم: إن مريم ولدت المسيح بناسوته.

فهذه أغلوطةٌ، وإلا فكيف يولد ولد متّحدٌ بشيءٍ آخر مجامعٍ له دون ذلك الشيء؟ وكيف يكون ذاك وهم يقولون: إنه لم يفارقه قط؟ وهل يصح هذا عند أهل النظر؟.

أوليس الحكم عند كل ناظرٍ، ومن كل ذي عقلٍ يوجب أن تكون الولادة واقعةٌ علىٰ اللاهوت والناسوت معًا، بمعنىٰ الاتحاد، وبمعنىٰ الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح، وكذلك الحمل بهما جميعًا، وأن يكون البطن قد حواهما.

*****

[اجتماع النصارى على الباطل ودفاعهم عنه]

قال: فإن لجوا في الباطل، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة، ومالوا إلىٰ تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته، فنحن نقيم عليهم شاهدًا من أنفسهم لا يمكنهم دفعه، وذلك أن شريعة إيمانهم[١] التي ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة، والمطارنة، والأساقفة، والأحبار، في دينهم وذوي العلم منهم بحضرة الملك عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينية، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلًا، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس، وهي التي لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم في المقالات فيها، ولا يتم لهم قربانٌ إلا بها علىٰ هذا النسق الذي نبينه: «نؤمن بالله الأب مالك كل شيءٍ، صانع ما يرىٰ وما لا يرىٰ، وبالرب الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوعٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيءٍ، الذي من أجلنا معشر البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنسانًا، وحبل به، وولد من مريم البتول، وتألم، وصُلب أيام قيطوس بن بيلاطوس، ودفن، وقام في اليوم الثالث، كما هو مكتوبٌ، وصعد إلىٰ السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعدٌّ للمجيء تارةً أخرىٰ للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه روحٌ، ومجيئه، وبمعموديةٍ واحدةٍ لغفران الخطايا، وبجماعةٍ واحدةٍ قديسية سليخية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلىٰ أبد الآبدين».

---

(١) يقصد به قانون إيمانهم النيقي.

قال: فهذه الشريعة يجتمع علىٰ الإيمان بها، وبذل المهج فيها، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية.

وقد اعترفوا فيها جميعًا بأن الرب المسيح الذي هذه صفته علىٰ ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنسانًا، وحبل به، وولد من مريم البتول، وتألم، وصلب علقةٌ يتعلق بها العنت المدافع عن الحجة، فتدبروا هذا القول يا معشر النصارىٰ، فإنه لا يمكن أحدٌ منكم أن يخرج عنه، ولا أن يدفع ما صرح به، فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله، فمريم علىٰ قولكم ولدت الله، سبحانه وتعالىٰ عما يقولون.

وإن قلتم: إنه إنسان؛ فمريم ولدت إنسانًا.

وفي ذلك أجمع بطلان شريعة إيمانكم، فاختاروا أي القولين شئتم، فإن فيه نقض الدين.

*****

[نقد قانون الإيمان النيقي]

قال: وقد يجب علىٰ ذوي العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إلهٍ ولدته مريم، وهي امرأةٌ آدميةٌ، ثم مكث علىٰ الأرض ثلاثين سنة تجري عليه أحكام الآدميين؛ من غذاءٍ، وتربيةٍ، وصحةٍ، وسقمٍ، وخوفٍ، وأمنٍ، وتعلمٍ، وتعليمٍ، لا يتهيأ لكم أن تدّعوا أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيءٌ، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم، وضروراتهم، وهمومهم، ومحنهم، وتصرفاتهم مخرج.

ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالىٰ، والنبوات، والآيات الباهرة، المعجزة بقوة الله تعالىٰ، وقد كان عند غيره من الأنبياء مثلها، وما هو أعلىٰ منها، فكانت مدته في ذلك أقل من ثلاث سنين، ثم انقضىٰ أمره بما يصفون أنه انقضىٰ به، وينسبونه إليه من حبسٍ، وضربٍ، وقذفٍ، وصلبٍ، وقتلٍ.

فهل تقبل العقول ما يقولون من أن إلهًا نال عباده منه، مثل ما تذكرون أنه نيل منه؟!.

فإن تأولتم أن ذلك حلّ بالجسم، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنىٰ اتحاد اللاهوت به، أفليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به، وحلّت الروح فيه، وقد أنجبه الله علىٰ ما تزعمون وتصفون لخلاص الخلق، وفوض إليه القضاء بين العباد في اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب.

وقد وجدناكم تؤثرون أخبارًا في قومٍ عرضوا لتوابيت فيها شهداء لكم بأن

الأيدي التي بسطت إليها جفت، أو هل نال أحدًا من الجزع والهلع، والغم والقلق، والتضرع إلىٰ الله في إزالة ما حلّ به، مثل ما يحكىٰ في الإنجيل أنه ناله.

ووجدنا الكتب تنبئ بأنه نيل من جورجيس أحد من كان علىٰ دين المسيح من العذاب الشديد بالقتل والحرق، والنشر بالمناشير ما لم يسمع بمثله في أحدٍ من الخلق، ونال خلقًا كثيرًا من تلامذته أيضًا عذابٌ شديدٌ.

وقيل: لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلىٰ الكفر الذي كان أولئك الملوك عليه، فصبروا علىٰ ذلك، واحتسبوا أنفسهم، فلم يهربوا من الموت، وقد كان يمكنهم الهرب من بلدٍ إلىٰ بلدٍ، والاستتار، وإخفاء أشخاصهم، وما أظهروا في حالٍ من تلك الأحوال جزعًا ولا هلعًا، وهم بعض الآدميين التابعين له؛ لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله ﷻ إياهم.

قال: ثم نقول قولًا آخر: قد نستدل علىٰ صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجهٍ، لا يقع في شيءٍ منها شكٌّ، ولا طعنٌ، ولا زيادةٌ، ولا نقصانٌ، وهي أصل أمر المسيح عندكم.

فأولها: البشرىٰ التي أتىٰ بها جبريل عليه السلام.

والثانية: قول يحيىٰ بن زكريا الذي شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله(١).

والثالثة: النداء المسموع من السماء.

والرابعة: قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيىٰ عن شأنه.

---

(١) إنجيل «متىٰ».

والذي قال جبريل ـ علىٰ ما ثبت في إنجيلكم لمريم حين بشرها ــ: «السلام عليك أيتها الممتلئة نعمًا، ربنا معك أيتها المباركة في النساء، فلما رأته مريم ذعرت منه، فقال: لا ترهبي يا مريم، فقد فزت بنعمةٍ من ربك، فها أنت تحبلين، وتلدين ابنًا، وتسميه يسوع، ويكون كبيرًا، ويُسمىٰ ابن الله العلي(١)، ويعطيه الله الرب كرسي أبيه داود، ويكون ملكًا علىٰ آل يعقوب إلىٰ الأبد.

فقالت مريم: أنَّىٰ يكون لي ذلك ولم يمسسني رجلٌ.

قال لها الملك: إن روح القدس يأتيك ــ أو قال: يحل فيك ــ وقوة العلي تحبلك، من أجل ذلك يكون الذي يولد منك قديسًا، ويسمىٰ ابن الله العلي».

قال: فلم نر الملك قال لها: إن الذي تلدين هو خالقك وهو الرب.

كما سميتموه، بل أزال الشكّ في ذلك بأن **قال**: إن الله الرب يعطيه كرسي أبيه داود، ويصطفيه، ويكرمه، وأن داود النبي أبوه، وأنه يسمىٰ ابن الله.

وما قال أيضًا: إنه يكون ملكًا علىٰ الأرض، وإنما جعل له الملك علىٰ بني إسرائيل فقط، وقد علمتم أن من يسمىٰ بابن الله كثيرٌ لا يحصون، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعًا أبناء الله بالمحبة.

وقول المسيح: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»(٢) في غير موضعٍ من الإنجيل، ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصًا، فالسبيل في المسيح إذًا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور أن يجري في هذه التسمية مجرىٰ الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار، ونسبة الملك إياه إلىٰ أبيه داود تحقق أن أباه داود، وأن التسمية الأولىٰ علىٰ جهة الاصطفاء والمحبة، وأن حلول الروح

(١) إنجيل «لوقا».

(٢) إنجيل « يوحنا».

عليه على الجهة التي قالها «مَتَّىٰ» التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل: «لستم أنتم متكلمين، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم»(١).

فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين، وتتكلم فيهم.

وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح: «إنه يكون ملكًا علىٰ آل يعقوب(٢).

فخصّ آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس، ولم يقل: إنه يكون إلهًا للخلائق.

ومعنىٰ قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لمريم: «ربنا معك» مثل معنىٰ قول الله عَزَّ وَجَلَّ لموسىٰ وغيره من الأنبياء: «إني معكم» (٣) فقد قال ليوشع بن نون: «إني أكون معك، كما كنتُ مع موسىٰ عبدي)(٤).

فقول النصارىٰ كلهم في مجاري لغتهم، ومعاني ألفاظهم: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ وروح القدس مع كل خطيبٍ وراهبٍ وفاضلٍ في دينه» علىٰ هذه السبيل (٥).

قال: وأما النداء الذي سمعه يحيىٰ بن زكريا من السماء في المسيح، وشهادة يحيىٰ له، فإن «مَتَّىٰ» قال في إنجيله: «إن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرج من الأردن تفتحت له السماء، فنظر يحيىٰ إلىٰ روح القدس قد نزلت علىٰ المسيح كهيئة حمامةٍ، وسمع نداءً من السماء: إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته (٦).

---

(١) إنجيل «متىٰ».

(٢) إنجيل « لوقا».

(٣) انظر «سفر التكوين».

(٤) إنجيل « يشوع ».

(٥) إنجيل «لوقا» الإصحاح الثاني. ورومية.

(٦) انظر إنجيل «متىٰ» الإصحاح الثالث.

وقد علمنا وعلمتم أن المصطفىٰ مفعولٌ، والمفعول مخلوقٌ، وليس يستنكف المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كل كلامه، وما زال يقول: «إلهي وإلهكم، وأبي وأبيكم»(١).

وكل ما يصحح به أنه عبدٌ مرسلٌ مربوبٌ مبعوثٌ مأمورٌ، يؤدي ما سمع، ويفعل ما حد له، ونحن نشرح هذا في موضعه من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالىٰ.

ثم قال: وقد وجدنا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ احتاج إلىٰ تكميل أمره بمعمودية يحيىٰ له، فصار إليه لذلك، وسأله إياه، فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب.

وقال «لوقا» التلميذ في إنجيله: «إن يحيىٰ المعمداني أرسل إلىٰ المسيح بعد أن عمده، وسأله: أنت ذلك الذي تجيء، أو نتوقع غيرك؟ فكان جواب المسيح لرسله: أن ارجعوا، فأخبروه بما ترون من عميانٍ يبصرون، وزمنىٰ ينهضون، وصمٍّ يسمعون، فطوبىٰ لمن لم يغترّ بي، أو يزلّ في أمري» (٢).

قال: فوجدنا يحيىٰ ـ مع محله، وجلالة قدره عند الله عَزَّوَجَلَّ، ثم ما شهد به للمسيح له من أنه ما قامت النساء عن مثله ـ قد شكّ فيه، فاحتاج إلىٰ أن يسأله عن شأنه، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشيءٍ مما تصفون من الربوبية، ولا قال: إني خالقك، وخالق كل شيءٍ.

كما في شريعة إيمانكم، بل حذر الغلط في أمره والاغترار، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهر بنبوته من هذه الآيات التي سبق إلىٰ مثلها أكثر الأنبياء.

---

(١) إنجيل « يوحنا».

(٢) إنجيل «لوقا» الإصحاح السابع.

قال: ولا رأينا يحيىٰ زاد في وضعه إياه لما قرّظه[١] وأعلىٰ ذكره ــ مع تشككه في أمره، وحاجته إلىٰ مسألته عن حاله ــ علىٰ أن قال: «هو أقوىٰ مني، وأني لا أستحق أن أحلّ معقد خفه» [٢].

ولم يقل: إنه خالقي.

وقد يقول الرجل الخير فيمن هو دونه، مثل الذي قال يحيىٰ فيه تواضعًا لله وخشوعًا، كما قال المسيح في يحيىٰ: «إنه ما قامت النساء عن مثله»[٣].

قال: فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات في المسيح، وهو أصلكم الذي وقع عليه بناؤكم، وجعلتم لأنفسكم شريعةً غيرها، ومَثَلُ الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مَثَلُ من آمن بنبوة رجلٍ ينتفي من النبوة؛ لأن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إنه مربوبٌ مبعوثٌ»، ويقول جبريل: إنه مكرَّمٌ مصطفىٰ، وأن أباه داود، وأن الله جعله ملكًا علىٰ آل يعقوب.

وينادي منادٍ من السماء بمثل ذلك، ويشهد يحيىٰ بن زكريا علىٰ مثله.

وتقولون: بل هو خالقٌ أزليٌّ، إلا أنه يستر نفسه.

ويقول المسيح وغيره ممّن سمينا: أنه معطىٰ، وأن الله معطيه.

وتقولون: بل رازق النعم، وواهبها.

ويقول: إن الله أرسله.

وتقولون: بل هو الذي نزل لخلاصنا.

---

(١) يقال: قرظه تقريظًا: مدحه وهو حي بحق أو باطل. انظر محيط المحيط (ص٧٢٨).

(٢) إنجيل« لوقا».

(٣) إنجيل «متىٰ».

وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يخلصكم، ويحتمل الخطيئة، ويربط الشيطان، فقد وجدنا الخلاص لم يقع، والخطيئة قائمةٌ لم تزل، والشيطان أعتىٰ ما كان يربط، بل سلطه الله عليه علىٰ ما تقولون، فحصره في الجبل أربعين يومًا يمتحنه (١).

وقال له في بعض أحواله معه: إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزًا.

فقال له المسيح مجيبًا له: إنه مكتوبٌ أن حياة الإنسان لا تكون بالخبز، بل بكل كلمةٍ تخرج من الله (٢).

ثم ساقه الشيطان إلىٰ مدينة بيت المقدس، وأقامه علىٰ قرنة الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا، فإنه مكتوبٌ: إن الملائكة توكل بك، لئلا تعثر رجلك بالحجر.

قال يسوع: ومكتوبٌ أيضًا: لا تجرب الرب إلهك (٣).

ثم ساقه إلىٰ جبلٍ عالٍ، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها، وقال له: إن خررت علىٰ وجهك ساجدًا لي، جعلت هذا الذي ترىٰ كله لك.

قال له المسيح: اغرب أيها الشيطان، فإنه مكتوبٌ: اسجد للرب إلهك، ولا تعبد شيئًا سواه.

ثم بعث الله ﷻ ملكًا اقتلع العدو من مكانه، ورمىٰ به في البحر، وأطلق السبيل للمسيح.

---

(١) إنجيل « مرقس».

(٢) إنجيل «متىٰ».

(٣) إنجيل «متىٰ».

وقال: أفلا يعلم من كان في عقله أدنىٰ مسكةٍ أن هذا الفعل لا يكون من شيطان إلىٰ إلهٍ، ولو كان إلهًا لأزاله عن نفسه قبل أن يأتيه الملك من عند ربه.

ولما قال: أمرنا أن لا نجرب الله، وأن نسجد للرب ولا نعبد شيئًا سواه.

وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربط عن أمته؟.

قال: فهذه أمورٌ إذا تأمّلها المتأمل قبحت جدًّا، وكثر اختلافها، واشتد تناقضها واضطرابها.

قال: ومما يعجب منه أنكم تعتقدون أن الابن الأزلي اتحد بالمسيح فصارا بجهةٍ واحدةٍ، ولم يفارقه قطّ منذ اتحد به، ومكث علىٰ ذلك في بطن أمه تسعة أشهر، ثم أقام مولودًا، وتغذىٰ باللبن، ومربوبًا صبيًّا مغذىٰ بالأغذية إلىٰ أن بلغ ثلاثين سنة، لا يظهر منه شيءٌ من آلة الربوبية، ولا أمر يوجب هذا المحل، ولا كان بينه وبين نظرائه من الآدميين فرقٌ، ولا سطع منه نورٌ، ولا ظهرت له سكينةٌ، ولا حفته الملائكة بالتهليل، ولا ألم به الشعث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله.

فقد كلم الله موسىٰ من العوسجة[1] كيف شاء، فأشرق ما حولها نورًا، وكلمه من طور سيناء فاضطربت في الجبل النيران، والتبس وجهه النور الساطع حتىٰ كان يتبرقع إذا جلس مع بني إسرائيل بعد ذلك؛ لأنهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه، ثم سأل موسىٰ ربه ﷻ لما قرب منه، فقال: رب أرني أنظر إليك.

قال: لن تراني ولكن انظر إلىٰ الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني.

فلما تجلّىٰ ربه للجبل جعله دكًّا، وخر موسىٰ صعقًا، فلما أفاق من صعقته

---

(١) ورد في لسان العرب أنه شجر شوكي وله ثمر أحمر مدور، كأنه خرز العقيق.

استغفر ربه، فتاب عليه، وتجلىٰ مجد الله لجماعةٍ من الأنبياء، فرأوا حول مجده ربوات الملائكة.

وقال داود: «يا رب! إنك حيث عبرت ببلادٍ سنين تزلزلت الأرض منك، وانفطرت من هيبتك».

وقال أيضًا كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها: «ما لك أيها البحر هاربًا، وأنت يا نهر الأردن لمَ ولّيت راجعًا، وما لك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل، وما لكنّ أيتها الشوامخ والهضبات تَنْزُو نَزْوَ الشِّيَاءِ».

ثم قال كالمجيب عنهم: «من قدام الرب تزلزلت البقاع».

قال: فإن كان المسيح هو الأزلي الخالق، أو كان متحدًا به، فكيف لمْ ترجف بين يديه الجبال، ولمْ تتصرف عن مشيئته الأنهار، والبحار؟ أو كيف لم تظهر منه آياتٌ باهراتٌ أجلّ من آيات الأنبياء قبله، مثل المشي علىٰ متون الهواء، والاضطجاع علىٰ أكتاف الرياح، والاستغناء عن المآكل والمشارب، وإحراق من قرب منه من الشياطين والجنّ، كما أحرق إيليا من قرب منه من جند أُحَابَ الملك، ويمنع الآدميين من نفسه، وما فعلوا ـ علىٰ زعمكم ـ بجسمه؛ ليعلم الناس أنه خالقهم، أو أنه هيكل الخالق؟.

*****

[نقد عقيدة البنوة]

قال: ووجدناكم تقولون: إن الابن إنما يسمىٰ ابن الله وكلامه؛ لأنه تولد من الأب، وظهر منه.

فلم نقف علىٰ معنىٰ ذلك؛ لأن شريعة إيمانكم تقول: إن الروح أيضًا تخرج من الأب.

فإن كان الأمر كما تقولون فالروح أيضًا ابنٌ؛ لأنها تخرج عن الله تعالىٰ، وإلا فما الفرق بينهما.

قال: ولم نفهم أيضًا قولكم: إن الابن تجسد من روح القدس، وأن روح القدس ساقه إلىٰ البر ليمتحنه الشيطان.

فما كانت حاجة الابن إلىٰ أن تكون الروح ـ وهي في قولكم مثله ـ تدبره وتغيره من حالٍ إلىٰ حالٍ، أو ما علمتم أن الغير السابق المدبِّر فاعلٌ، والمسبوق المدبَّر مفعولٌ به، فالابن إذن دون الروح، وليس مثله؛ لأن الأزلي لا ينفك من الأزلي، وهو مثله.

قال: وإن كان المسيح من روح القدس، كما قال جبريل الملك لأمه مريم، فَلِمَ سميتموه كلمة الله وابنه، ولمْ تسموه روحه، فإنما قال لها الملك: «إن الذي تلدين من روح القدس» والروح غير الابن، ولو كان المعنىٰ واحدًا لما قالت الشريعة: إنه تجسد من روح القدس، وإن روح القدس ساقه إلىٰ البر، وإن روح القدس نزل عليه.

ولمَ تُثلّثون به في إيمانكم، فتقولون: نؤمن بالأب، والابن، والروح القدس.

[نقد عقيدة النسطورية]

قال: ووجدناكم تقولون ـ أيتها النسطورية ـ: إن لله علمًا وحكمةً هما الابن، وحياةً هي الروح، قديمين، ولعلمه وحياته ذاتٌ كذات الله، وذلك أن علم الله له علمٌ وحياةٌ، ولحياته التي هي روحه علمٌ وحياةٌ، وأن الله الأب لما رأىٰ استيلاء العدو علىٰ خلقه، ونكول الأنبياء عن مناوأته أرسل إليه ابنه الفرد، وحبيبه، وجعله فداءً ووفاء للناس أجمعين، وأن ابنه نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنسانًا، ثم ولد ونشأ وعاش ثلاثين سنة، يتقلب بين بني إسرائيل كواحدٍ منهم، يصلي في كنائسهم، ويستنّ بسننهم، لا يدّعي دينًا غير دينهم، ولا ينتحل رسالةً، ولا نبوةً، ولا بنوةً، حتىٰ إذا انقضت تلك السنون أظهر الدعوة، وجاء بالآيات الباهرة، والبراهين المشهورة، فأنكرته اليهود، وقتلته، وصلبته، ثم صعد إلىٰ السماء.

[مخالفة النسطورية لشريعة الإيمان]:

وصدقتم بشريعة الإيمان، وكفّرتم من خالفها، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها، وانسلختم منها، وقلتم: إن المسيح جوهران وأقنومان، جوهرٌ قديمٌ، وجوهرٌ حديثٌ، ولكل جوهرٍ أقنومٌ علىٰ حياله، وإن الله جوهرٌ قديمٌ يقوم بمعنيين، فهو واحدٌ يقوم بثلاثة معانٍ، وثلاثةٌ لها معنًىٰ واحدٌ، كالشمس التي هي شيءٌ واحدٌ، ولها ثلاثة معانٍ: القرص، والحرّ، والنور، فالمسيح هو الله، وهو مبعوثٌ، غير أنه ليس بعبدٍ.

فكان معنىٰ قولكم هذا أن المسيح مولودٌ، لكنه ليس مفعولًا به، وهو مبعوثٌ مرسلٌ، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولًا، إذ كنتم لا تفرقون بين الله

وبينه في شيءٍ من الأشياء.

[تكفير النسطورية لليعقوبية والملكانية]:

وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتكفير واللعن؛ لقولهم: إن الله والمسيح شيءٌ واحدٌ، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى، وبدأتم به في التمجيد، ورفعتم إليه تهاليلكم، ورغائبكم في أوقات القرابين خاصة، وهي أجلّ صلواتكم، وأفضل محافلكم عندكم، فإنه يقوم الإمام منكم على المذبح من مذابحكم، وأهله مرعوبون، فتتوقعون نزول روح القدس بزعمكم من السماء بدعائه.

فيفتح دعاءه ويقول: ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح، ومحبة الله الأب، ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين.

ثم يختم صلاته بمثل ذلك.

فهذا تصريحٌ بالشرك، وتصغير لعظمة الله وعزته، أن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه، وهو معطى ومخوَّل من عند الله على قولكم، وجعلتم لله بعد المسيح محبةً، ولروحه مشاركةً.

قال: ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم: إن مريم ولدت الله، عزّ الله وجل عن ذلك، وفي شريعة الإيمان التي بيناها المجتمع عليها: أن المسيح إلهٌ حقٌّ، وأنه ولد من مريم.

فما معنى المنافرة، وما الفرق، وما تنكرون من قولهم: إن المقتول المصلوب هو الله، عزّ الله وجل عن ذلك.

وشريعة إيمانكم تقول: نؤمن بالرب المسيح الذي من خبره وحاله الذي ولد من مريم، وتألم، وصلب على عهد الملك بيلاطس النبطي، ودفن، وقام في

اليوم الثالث.

أليس هذا إقرارًا بمثل قولهم، فتدبروا هذا القول يا أولي الألباب.

فإنكم إن قلتم: إن المقتول المصلوب هو الله.

فإن مريم عندكم ولدت الله.

وإن قلتم: إنه إنسانٌ.

فإن مريم ولدت إنسانًا، وبطلت الشريعة، فأي القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم.

ثم عبتم علىٰ الملكانية قولهم: إنه ليس للمسيح إلا أقنومًا واحدًا؛ لأنه صار مع الأزلي الخالق شيئًا واحدًا، لا فرق بينهما، وقلتم بأن له أقنومين، لكل جوهرٍ أقنومٌ علىٰ حياله.

ثم لمْ تلبثوا أن رجعتم إلىٰ مثل قولهم، فقلتم: إن المسيح وإن كان مخلوقًا من مريم مبعوثًا، فإنه هيكلٌ لابن الله الأزلي، ونحن لا نفرق بينهما.

فإذا كان الأمر عندكم علىٰ هذا فما تنقمون علىٰ الملكية، وما معنىٰ الافتراق، وقد رجعتم في الاتحاد إلىٰ مثل قولهم: إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام.

فإن كانت الشريعة بمعنىٰ الأمانة عندكم حقًّا، فالقول ما قال يعقوب، وذلك أنَّا إذا ابتدأنا من الشريعة في ذكر المسيح، ثم نسقنا المعاني نسقًا واحدًا، وانحدرنا فيها إلىٰ آخرها، وجدنا القوم الذين ألقوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله، وهو بكر الخلائق كلها، وهو الذي ولد من مريم، ليس بمصنوعٍ، وهو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، وهو الذي أتقن العوالم، وخلق كل شيءٍ علىٰ يده، وهو الذي نزل لخلاصكم، فتجسد، وحملته مريم،

وولدته، وقتل، وصلب.

فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التي تشهد بصحة قولهم، ويلعن من ألفها.

قال: وإنما أخذت تلك الطائفة ـ يعني الذين وضعوا الأمانة ـ بكلماتٍ ـ وذكروا أنهم وجدوها في الإنجيل ـ مشكلات، تأولت فيها ما وقع بهواها، وتركت ما في الإنجيل من الكلام البين الواضح الذي يشهد بعبودية المسيح، وشهادته بذلك علىٰ نفسه، وشهادة تلاميذه به عليه، فأخذت بالمشكل اليسير، وجعلت له ما أحبت من التأويل، وألغت الواضح الكثير الذي لا يحتاج إلىٰ تأويل.

قال: فأما احتجاجكم بالشمس، وأنها شيءٌ واحدٌ له ثلاثة معانٍ، وتشبيهكم ما يقولونه في الثلاثة الأقانيم بها، فإن ذلك تمويهٌ لا يصح؛ لأن نور الشمس لا يحدّ بحدّ الشمس، وكذلك حرّها لا يحدّ بحدّ الشمس، إذ كان حدّ الشمس جسمًا مستديرًا مضيئًا مسخنًا دائرًا في وسط الأفلاك دورانًا دائمًا، ولا يتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة، ولا يقال: إن نورها أو حرّها جسمٌ مستديرٌ مضيءٌ مسخنٌ دائم الدوران، ولو كان نورها وحرها شمسًا حقًّا من شمسٍ حقٍّ، من جوهر الشمس، كما قالت الشريعة في المسيح: إنه إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، لكان ما قلتم له مثلًا تامًّا، والأمر مخالفٌ لذلك، فلا يشبهه، ولا يقع القياس عليه، والحجة منكم فيه باطلةٌ.

*****

[هل بصلب المسيح بطل الموت والآثام]

قال: ووجدناكم تذكرون: أن المسيح نزل من السماء، فأبطل بنزوله الموت والآثام.

فإن العجب ليطول من هذا القول، وأعجب منه مَنْ قَبِلَهُ، ولم يتفكر فيه، ومن لم يستقبح أن يعتقد ديانةً لله ـ تبارك وتعالىٰ ـ علىٰ مثل هذا القول المحال، البائن عما تشهد به العقول، وتنبئ به المشاهدة، ويدعو الناس إليها، فما هو ببعيدٍ من عقد ما هو أمحل وأبطل منها؛ لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه، فالذين قتلوه إذًا ليسوا خاطئين، ولا مأثومين؛ لأن لا خاطئ بعد مجيئه ولا خطيئةً.

وكذلك أيضًا الذين قتلوا حواريه، وأحرقوا أسفاره غير خاطئين.

وكذلك من نراه من جماعتكم منذ ذلك الدهر إلىٰ هذا الوقت يقتل، ويسرق، ويزني، ويلوط، ويسكر، ويكذب، ويركب كل ما نهي عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين، ولا مأثومين.

فمن جحد ذلك فليرجع إلىٰ التسبيحة التي تقرأ بعقب كل قربان، وهو: «أن يا ربنا الذي غلب بوجعه الموت الطاغي».

وفي الأخرىٰ التي تقال في يوم الجمعة الثانية من «الفصح»: «إن فخرنا بالصليب الذي بطل به سلطان الموت، وصرنا إلىٰ الأمن والنجاة بسببه».

وفي بعض التسابيح: «بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت، وانطفأت فتن الشيطان، ودرست آثارها».

فأيّ خطيئةٍ بطلت؟ وأيّ فتنةٍ للشيطان انطفأت؟ أو أيّ أمرٍ كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم، والآثام تغير عن حاله؟!.

قال: فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كلّ أحدٍ بالمعرفة والبيان، فهو فيما أشكل من الأمور، وفعل بالتأويلات التي تأوّلها أولئك المتأولون أوقع.

وإذا كنتم قد قبلتم هذا المُحال الظاهر الذي لا خفاء به عن الصبيان، فأنتم لما هو أعظم منه من المُحال أقبل، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول حيث يقول المسيح فيه: «ما أكثر من يقول لي يوم القيامة: يا سيدنا! أليس باسمك أخرجنا الشيطان؟ فأقول: اغربوا عني أيها الفجرة الغاوون، فما عرفتكم قط».

فهذا خلاف قول علمائكم ما قالوا، ووضعهم لكم ما وضعوا.

ومثله قوله: «إني جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتي وميسرتي، وقائلٌ لأهل الميسرة: إني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريبًا فلم تأووني، ومحبوسًا فلم تزوروني، ومريضًا فلم تعودوني، فاذهبوا إلىٰ النار المُعَدَّةِ لكم من قَبْلِ تأسيس الدنيا.

وأقول لأهل الميمنة: فعلتم بي هذه الأشياء، فاذهبوا إلىٰ النعيم المُعَدّ لكم من قَبْلِ تأسيس الدنيا».

فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التي ركبوها؟ وهل صار هؤلاء إلىٰ النعيم إلا بأعمالهم الجميلة التي قدموها بتوفيق الله إياهم، فمن قال: إن الخطيئة قد بطلت فقد بهت، وقد خالف قول المسيح، وكان هو من الكاذبين.

*****

[بطلان ألوهية المسيح من الإنجيل]

وقال: ويا أيها القوم الذين هم أولو الألباب والمعرفة حيث تنسبونه إلىٰ الربوبية، وتنحلونه اللاهوتية، وتجعلونه خالق الخلق أجمعين، وإلههم، بماذا ساغ ذلك لكم، وما الحجة فيه عندكم، هل قالت كتب النبوات فيه ذلك؟ أو هل قاله عن نفسه، أو قاله أحد عن تلامذته، والناقلين عنه، الذين هم عماد دينكم وأساسه، ومَن أخذتم الشرائع والسنن عنه، ومَن كَتَبَ الإنجيل وبيّنه؟.

وقد أفصح في كل الإنجيل من كلامه ومخاطبته ووصاياه بما لا يحصىٰ كثرةً بأنه عبدٌ مثلكم، ومربوبٌ معكم، ومرسلٌ من عند ربه وربكم، ومبدي ما أمر به فيكم، وحكىٰ مثل ذلك من أمره حواريوه، وتلامذته، ووصفوه لمن سأل عنه.

وفي كلامهم بأنه رجلٌ جاء من عند الله ﷻ، ونبيٌّ له قوة وفضل.

فتأولتم في ذلك أنه أخرج كلامه علىٰ معنىٰ الناسوت، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إلهٌ، كما أفصح بأنه عبدٌ، ولكنه ما ذكره ولا ادعاه، ولا دعا إليه، ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله، ولا كتب تلامذته، ولا حكي عنهم، ولا أوجبه كلام جبريل الذي أداه إلىٰ مريم، ولا قول يحيىٰ بن زكريا.

قال فإن قلتم: إنكم استدللتم علىٰ ربوبيته بأنه أحيا الموتىٰ، وأبرأ الأكمه والأبرص، ومشىٰ علىٰ الماء، وصعد إلىٰ السماء، وصير الماء خمرًا، وكثّر القليل.

فيجب الآن أن ينظر إلىٰ كلّ من فعل من هذه الأمور فعلًا، فنجعله ربًّا وإلهًا، وإلا فما الفرق؟.

فمن ذلك أن كتاب «سفر الملوك» يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية، وأن حزقيال أحيا بشرًا كثيرًا، ولم يكن أحدٌ ممن ذكرنا بإحيائه الموتىٰ إلهًا.

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت، وهذا موسىٰ طرح العصا فصارت حيةً لها عينان تبصر بهما، وضرب بها الرمل فصار قملًا، لكل واحدةٍ منها عينان تبصر بهما، ولم يكن واحدٌ منهم بذلك إلهًا.

وأما إبراء الأبرص فإن كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن رجلًا من عظماء الروم برص، فرحل من بلده قاصدًا اليسع؛ ليبرئه من برصه، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أيامًا لا يؤذن له، فقيل لليسع: إن ببابك رجلًا يقال له: نعمان، وهو أجلّ عظماء الروم به برص، وقد قصدك لتبرئه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك، فلم يأذن له، وقال لرجلٍ من أصحابه: اخرج إلىٰ هذا الرجل، فقل له ينغمس في الأردن سبع مرات.

فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع، ففعل ذلك، فذهب عنه البرص، ورجع قافلًا إلىٰ بلده، فأتبعه خادمٌ ليسع، فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالًا، فسرّ الرجل بذلك، ودفع إلىٰ الخادم مالًا وجوهرًا، ورجع، فأخفىٰ ذلك وستره، ثم دخل إلىٰ اليسع، فلما مثل بين يديه قال له: تبعت نعمان، وأوهمته عني كذا وكذا، وأخذت منه كذا، وأخفيته في موضع كذا، إذ فعلت الذي فعلت به فليصر برصه عليك وعلىٰ نسلك.

فبرص ذلك الخادم علىٰ المكان.

قال: فهذا اليسع قد أبرأ أبرصًا، وأبرص صحيحًا، وهو أعظم مما فعل

المسيح عليه السلام، فلم يكن في فعله ذلك إلهًا.

قال: وأما قولكم: إنه مشىٰ علىٰ الماء.

فإن كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن إلياس؛ صار إلىٰ الأردن ومعه اليسع تلميذه، فأخذ عمامته فضرب بها الأردن، فَاسْتَيْبَسَ له الماء حتىٰ مشىٰ عليه هو واليسع، ثم صعد إلىٰ السماء علىٰ فرسٍ من نورٍ، واليسع يراه، ودفع عمامته إلىٰ اليسع، فلما رجع اليسع إلىٰ الأردن ضرب بها الماء فَاسْتَيْبَسَ له حتىٰ مشىٰ عليه راجعًا.

ولم يكن واحدٌ منهما بمشيه علىٰ الماء إلهًا، ولا كان إلياس بصعوده إلىٰ السماء إلهًا.

قال: وأما قولكم أنه صير الماء خمرًا.

فهذا كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن اليسع نزل بامرأةٍ إسرائيلية، فأضافته، وأحسنت إليه، فلما أراد الانصراف قال لها: هل لك من حاجةٍ؟ فقالت المرأة: يا نبي الله! إن علىٰ زوجي دينًا قد فدحه، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل.

فقال لها اليسع: اجمعي كل ما عندك من الآنية، واستعيري من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم، ففعلت، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماءً، فقال: اتركيه ليلتك هذه، ومضىٰ من عندها، فأصبحت المرأة وقد صار ذلك الماء كله زيتًا، فباعوه، فقضوا دينهم.

وتحويل الماء زيتًا أبدع من تحويله خمرًا، ولم يكن اليسع بذلك إلهًا.

وأما قولكم: المسيح عليه السلام كثَّر القليل حتىٰ أكل خلقٌ كثيرٌ من أرغفةٍ يسيرة.

فإن كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن إلياس نزل بامرأةٍ أرملةٍ، وكان القحط قد عمّ الناس، وأجدبت البلاد، ومات الخلق ضرًّا وهزلًا، وكان الناس في ضيقٍ، فقال للأرملة: هل عندك طعامٌ؟ فقالت: والله ما عندي إلا كفٌّ من دقيقٍ في قلةٍ أردت أن أخبزه لطفلٍ لي، وقد أيقنّا بالهلاك لما الناس فيه من القحط.

فقال لها: أحضريه، فلا عليك.

فأتته به، فبارك عليه، فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتىٰ فرّج الله عن الناس.

فقد فعل إلياس في ذلك أكثر مما فعل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن إلياس كثّر القليل وأدامه، والمسيح كثّر القليل في وقتٍ واحدٍ، ولم يكن إلياس بفعله هذا إلهًا.

قال: فإن قلتم: إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صُنعٌ في هذه الأفعال، وإن الصنع فيها والقدرة لله عَزَّ وَجَلَّ؛ إذ كان هو الذي أجراها علىٰ أيديهم.

فقد صدقتم، ونقول لكم أيضًا: كذلك المسيح ليس له صُنعٌ فيما ظهر علىٰ يديه من هذه الأعاجيب؛ إذ كان الله هو الذي أظهرها علىٰ يديه، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء، وما الحجة في ذلك.

قال: وإن قلتم: إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله علىٰ أيديهم آية تضرعت إلىٰ الله، ودعته، وأقرت له بالربوبية، وشهدت علىٰ أنفسها بالعبودية.

قيل لكم: وكذلك سبيل المسيح سبيل سائر الأنبياء، قد كان يدعو، ويتضرع، ويعترف بربوبية الله، ويقرّ له بالعبودية، فمن ذلك أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيي رجلًا يقال له العازر، فقال: «يا أبي! أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني، وتستجيب لي، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا».

وقال ـ بزعمكم ـ وهو علىٰ الخشبة: «إلهي إلهي! لمَ تركتني».

وقال: «يا أبي! اغفر لليهود ما يعملون، فإنهم لا يدرون ما يصنعون».

وقال في إنجيل «متّىٰ»: «يا أبي! أحمدك».

وقال: «يا أبي! إن كان بُدٌّ أن يتعداني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، فلتكن مشيئتك».

وقال أيضًا: «أنا أذهب إلىٰ إلهي الذي هو أعظم مني».

وقال: «لا أستطيع أن أصنع شيئًا، ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي».

وقال ـ يعني نفسه ـ: «لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله».

وقال: «إن الله لم يلد ولم يولد، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينم، ولم يره أحدٌ من خلقه، ولا يراه أحدٌ إلا مات».

والمسيح قد أكل وشرب، وولد، ورآه الناس، فما ماتوا من رؤيته، ولا مات أحدٌ منهم، وقد لبث فيهم ثلاثًا وثلاثين سنةً.

قلت: وعامة ما ذكره هذا عن الكتب تعترف به النصارىٰ، ولكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ، فنازعه هنا في قوله: «لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده».

وقال: هذا إنما قاله المسيح للحواريّين.

وذكر أنه لا يعرف عنه لفظ: «لم يولد، ولم يأكل، ولم يشرب».

قال: وقال في إنجيل «يوحنّا»: «إنكم متىٰ رفعتم ابن البشر، فحينئذٍ تعلمون أني أنا هو، وشيءٌ من قبل نفسي لا أفعل، ولكن كلّ شيءٍ كالذي علمني أبي».

وقال في موضعٍ آخر: «من عند الله أرسلت معلمًا».

وقال لأصحابه: «اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يجلّ في مدينته».

وأخبر الإنجيل: «أن امرأة رأت المسيح فقالت: إنك لذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه.

فقال لها المسيح: صدقت، طوبىٰ لك».

وقال لتلامذته: «كما بعثني أبي، كذلك أبعث بكم».

قال: فاعترف بأنه نبيٌّ، وأنه مألوهٌ، ومربوبٌ، و مبعوثٌ.

وقال لتلامذته: «إن مَنْ قَبِلَكُمْ وآواكم فقد قَبِلَنِي، ومن قَبِلَنِي فإنما يَقْبَلُ مَنْ أرسلني، ومَنْ قَبِلَ نبيًّا باسم نبيٍّ، فإنما يفوز بأجر من قبل النبيّ».

فبين ها هنا في غير موضعٍ أنه نبيٌّ مرسلٌ، وأن سبيله مع الله سبيلهم معه.

وقال «متىٰ» التلميذ في إنجيله ــ يستشهد علىٰ المسيح بنبوة أشعيا عن الله ﷻ ــ: «هذا عبدي الذي اصطفيته، وحبيبي الذي ارتاحت إليه نفسي، أنا واضعٌ روحي عليه، ويدعو الأمم إلىٰ الحقّ».

فلن يحتاج إلىٰ حجةٍ أوضح من هذا القول الذي جعلتموه حجة لكم، فقد أوضح الله أمره، وسماه عبدًا، وأعلم أنه يضع عليه روحه، ويؤيده بها، كما أيّد سائر الأنبياء بالروح، فأظهروا الآيات المذكورة عنهم، وهذا القول يوافق ما بشر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها، وقال القول الذي سقناه في صدر كتابنا.

وقال «**يوحنا**» التلميذ في الإنجيل عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن كلامي الذي تسمعون هو كلام من أرسلني».

وقال في موضعٍ آخر: «إن أبي أجلّ، وأعظم مني».

وقال أيضًا: «كما أمرني أبي كذلك أفعل أنا، أنا الكرم، وأبي هو الفلاح».

وقال «يوحنّا»: «كما للأب حياةٌ في جوهره، فكذلك أعطىٰ الابن أن تكون له حياةٌ في قينومه».

قال: فالمعطِي خلاف المعطَىٰ لا محالة، والفاعل خلاف المفعول.

قال: وقال المسيح في إنجيل «يوحنا»: «إني لو كنت أنا الشاهد لنفسي علىٰ صحة دعواي لكانت شهادتي باطلةٌ، لكن غيري يشهد لي، فأنا أشهد لنفسي، ويشهد لي أبي الذي أرسلني».

وقال المسيح لبني إسرائيل: «تريدون قتلي وأنا رجلٌ قلتُ لكم الحق الذي سمعت الله يقوله».

قال: وقال في الرجل الذي أقامه من الموتىٰ: «يا أبي أشكرك علىٰ استجابتك دعائي، وأعترف لك بذلك، وأعلم أنك كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة؛ ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني».

قال: فأيّ تضرعٍ، وإقرار بالرسالة، والمسألة، والطلب للإجابة من الله ﷻ أشدّ من هذا، أو أكثر.

قال: وقال في بعض مخاطبته لليهود، وقد نسبوه إلىٰ الجنون: «أنا لستُ بمجنونٍ، ولكن أكرم أبي، ولا أحبّ مدح نفسي، بل مدح أبي؛ لأني أعرفه، ولو قلت: إني لا أعرفه، لكنت كذابًا مثلكم، بل أعرفه، وأتمسك بأمره».

قال: وقال داود في مزموره المائة وعشرة: «قال الرب: اجلس عن يميني حتىٰ أضع أعداءك موطئًا لرجليك، عصا العظمة تبعث الرب من صهيون، ويبسط علىٰ أعدائك شعبك يا مسيح، يوم الرعب في بهاء القدس من اليوم الذي ولدتك يا صبي، عهد الرب ــ ولا يكذب ــ أنك أنت الكاهن المؤيد، يشبه

مَلَكْلِيزْ دَاقْ».

قال: فهذه مخاطبة ينسبونها إلىٰ اللاهوت، وقد أبان داود في مخاطبته أن لربه الذي ذكره ربًّا هو أعظم منه وأعلىٰ، أعطاه ما حكيناه، ومنحه ذلك، وشهد عليه: إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون، وسماه صبيًّا محقّقًا لقوله الأول: «اليوم ولدتك» ونسقًا علىٰ أول كلامه وهو ربه، ووصف أنه الكاهن المؤيد الذي يشبه مَلَكْلِيزْ دَاقْ.

قلت: قالوا: وهذا الكاهن هو الذي ذكر في التوراة أن الخليل أعطاه القربان، وإذا كان المسيح مشبهًا به ـ مع تسميته كاهنًا ـ كان ذلك من أعظم الأدلة علىٰ أنه مخلوقٌ.

قال: فأما قوله: «من البدء ولدتك» فهو يشبه قول داود [النبي عن] نفسه: «من البدء ذكرتك، وهديت كل أعمالك».

وبعضهم يقول: لفظ النص: «إن الرب يبعث عصاه من صهيون».

قال: وقال شمعون الصفا رئيس الحواريّين في الفصل الثاني من قصصهم: «يا رجال بني إسرائيل! اسمعوا مقالتي، إن يسوع الناصري رجلٌ ظهيرٌ لكم من عند الله بالقوة، والأيدي، والعجائب التي أجراها علىٰ يديه، وأنكم أسلمتموه، وقتلتموه، فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات».

قال: فأيّ شهادةٍ أبين وأوضح من هذا القول، وهو أوثق التلاميذ عندكم، يخبر كما ترون أن المسيح رجلٌ، وأنه من عند الله، وأن الآيات التي ظهرت منه بأمر الله أجراها علىٰ يديه، وأن الذي بعثه من بين الموتىٰ هو الله ﷻ.

قال: وقال في هذا الموضع: «اعلموا أن الله جعل يسوع الذي قتلتموه ربًّا ومسيحًا».

قال: فهذا القول يزيل تأويل من لعله يتأول في الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت؛ لأنه يقول: «إن الله جعله ربًّا ومسيحًا» والمجعول مخلوقٌ مفعولٌ.

قال أبو نصر: وإنما سمىٰ «ناصري»؛ لأن أمه كانت من قريةٍ يقال لها: «ناصرة»[١] في الأردن، وبها سميت النصرانية.

قال: وقد سمّىٰ الله جل ثناؤه يوسف ربًّا.

قال داود في مزمور مئة وخمسة: «وللعبودية بيع يوسف، وشدوا بالكبول رجليه وبالحديد، دخلت نفسه حتىٰ صدقت كلمته قول الربّ: جربه، بعث الملك، فخلاه، وصيره مسلطًا علىٰ شعبه، وربًّا علىٰ بنيه، ومسلطًا علىٰ فتيانه».

وقال «لوقا» في آخر إنجيله: إن المسيح عرض له وللوقا تلميذه جبريلُ[٢] في الطريق، وهما محزونان، فقال لهما ـ وهما لا يعرفانه ـ: ما بالكما محزونين؟ فقالا: كأنك أنت وحدك غريبٌ ببيت المقدس، إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري، فإنه رجلٌ نبيٌّ، قويٌّ في قوله وفعله عند الله، وعند الأمة، أخذوه، وقتلوه» [٣] علىٰ قولهم فيه.

قال: فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها، وعقدتم علىٰ بدعٍ ابتدعها لكم أولوكم، تؤدي إلىٰ الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه.

وقال داود في المزمور الثاني في زبوره مخاطبًا لله، ومثنيًا علىٰ المسيح: «من

---

(١) قرية بينها وبين طبرية ١٣ ميلًا، فيها مولد المسيح، وقيل: ولد في بيت لحم، ثم انتقلت به أمه إلىٰ هذه القرية، وقيل: منها اشتق اسم النصارىٰ. انظر معجم البلدان ٥/ ٢٥١.

(٢) كذا في الأصل! وظاهره أن جبريل عرض للمسيح وتلميذه لوقا، والذي في إنجيل لوقا أن المسيح عرض لاثنين من حوارييه وهما في طريقهما إلىٰ عمواص.

(٣) انظر: إنجيل لوقا (٢٤: ١٥-٢٠).

الرجل الذي ذكرته، والإنسان الذي أمرته، وجعلته دون الملائكة قليلًا، وألبسته المجد والكرامات».

وقال في المزمور الثاني: «قال لي الرب: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك، سلني فأعطيك».

فقوله: «ولدتك» دليلٌ علىٰ أنه حديثٌ غير قديمٍ، وكل حادثٍ فهو مخلوقٌ، ثم أكّد ذلك بقوله: «اليوم» فحد باليوم حدًّا لولادته، أزال به الشكّ في أنه ما كان قبل اليوم، ودل بقوله: «سلني فأعطيك» علىٰ أنه محتاجٌ إلىٰ المسألة، غير مستغنٍ عن العطية.

قال: فهذا ما حضرنا من الآيات في تصحيح خلق المسيح وعبوديته، وبطلان ما يدّعونه من ربوبيته، ومثله كثيرٌ في الإنجيل لا يحصىٰ، فإذا كانت الشهادات منه علىٰ نفسه، ومن الأنبياء عليه، ومن تلاميذه بمثل ما قد بيناه في هذا الكتاب، وإنما اقتصرنا علىٰ الاحتجاج عليكم من كتبكم، فما الحجة فيما تدّعونه له، ومن أي جهةٍ أخذتم ذلك، واخترتم الكلام الشنيع الذي يخرج عن المعقول، وتنكره النفوس، وتنفر منه القلوب، الذي لا يصح بحجةٍ ولا قياسٍ ولا تأويلٍ علىٰ القول الجميل الذي تشهد به العقول، وتسكن إليه النفوس، ويشاكل عظمة الله وجلاله.

قال: وإذا تأملتم كل ما بيناه تأمل إنصافٍ من أنفسكم، وإشفاقٍ عليها، علمتم أنه قولٌ لا يحتمل أن يتأوّل فيه للناسوت شيئًا دون اللاهوت.

*****

[الردود على شبهاتهم]

۞ [الشبهة الأولى]:

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله: «أبي»، و «يا أبي»، و«بعثني أبي».

قلنا: فإن كان الإنجيل أنزل علىٰ هذه الألفاظ لم تبدّل، ولم تغيّر، فإن اللغة قد أجازت أن يسمىٰ الولي ابنًا، وقد سماكم الله جميعًا بنيه، وأنتم لستم في مثل حاله.

ومن ذلك أن الله ﷻ قال لإسرائيل في التوراة: «أنت ابني بكري».

وقال لداود في الزبور: «أنت ابني وحبيبي».

وقال المسيح في الإنجيل للحواريّين: «أريد أن أذهب إلىٰ أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم».

فسمىٰ الحواريّين أبناء الله، وأقرّ بأنّ له إلهًا هو الله، ومن كان له إلهٌ فليس بإلهٍ، كما تقولون.

۞ [الشبهة الثانية]:

فإن زعمتم أن المسيح إنّما استحق الإلهية بأنّ الله سماه ابنًا، فلنلتزم ذلك، ونشهد بالإلهية لكل من سماه ابنًا، وإلا فما الفرق.

قال: فإن قلتم: إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سُمّوا أبناء الله علىٰ جهة الرحمة من الله لهم، والمسيح ابن الله علىٰ الحقيقة. تعالىٰ الله عن ذلك.

قلنا: يجوز لمعارضٍ أن يعارضكم، فيقول لكم: ما تنكرون أن يكون

إسرائيل وداود ابني الله علىٰ الحقيقة، والمسيح ابن رحمة، وما الفرق؟.

[الشبهة الثالثة]:

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن المسيح جاء إلىٰ مقعدٍ، فقال: «قم قم، فقد غفرت لك» فقام الرجل ولم يدعُ ال له في ذلك الوقت.

لنا لكم: هذا «إلياس» أمر السماء أن تمطر فأمطرت، ولم يدعُ الله في ذلك الوقت، وكذلك «اليسع» أمر نعمان الرومي أن ينغمس في الأردن من غير دعاءٍ ولا تضرعٍ.

علىٰ أنَّا قد وجدناه في الإنجيل قد تضرع وسأل مسائل، قد تقدم ذكرها.

وقال في بعض الإنجيل: «يا أبي أشكرك علىٰ استجابتك دعائي، وأعلم أنك في كل وقت تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة؛ ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني».

[الشبهة الرابعة]:

فإن قلتم: إن الغفران من الله ﷻ، وأن المسيح قال لبعض بني إسرائيل: «قم فقد غفرت لك» والله هو الذي يغفر الذنوب.

قلنا: فقد قال الله في السفر الخامس من التوراة لموسىٰ: «أخرج أنت وشعبك الذي أخرجت من مصر، وأنا أجعل معكم ملكًا يغفر ذنوبكم».

فإن زعمتم أن المسيح إلهٌ؛ لأنه غفر ذنوب المقعد، فالملك إذًا إلهٌ؛ لأنه يغفر ذنوب بني إسرائيل، وإلا فما الفرق؟.

۞ [الشبهة الخامسة]:

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سماه ربًّا، فقال: «ابن البشر رب السبت».

قلنا: فهذه التوراة تخبر بأن لوطًا؛ لما رأىٰ الملكين قد أقبلا من البرية لهلاك قومه، قال لهما: «يا ربي ميلا إلىٰ منزل عبدكما».

وقد تقدم لنا احتجاجٌ في هذا الكتاب بذكر من سُمّي في الكتب ربًّا؛ من يوسف وغيره، فإن كان المسيح إلهًا؛ لأنه سُمّي ربًّا، فهؤلاء إذًا آلهةٌ؛ لأنهم سُمّوا بمثل ذلك.

۞ [الشبهة السادسة]:

فإن قلتم: إن الأنبياء قد تنبأت بإلهية المسيح، فقال أشعيا: «العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعىٰ اسمه عمانويل».

وتفسيره: معنا إلهنا.

قلنا: إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس، وإن كان الله ﷻ المنفرد بمعنىٰ الإلهية جل ثناؤه، فقد قال الله في التوراة لموسىٰ عليه السلام: «قد جعلتك لهارون إلهًا، وجعلته لك نبيًّا».

وقال في موضعٍ آخر: «قد جعلتك يا موسىٰ إلهًا لفرعون».

وقال داود في الزبور لمن كانت عنده حكمةٌ: «كلكم آلهة، ومن العلية تدّعون».

۞ [الشبهة السابعة]:

فإن قلتم: إن الله ﷻ جعل موسىٰ إلهًا لهارون علىٰ معنىٰ الرياسة عليه.

قلنا: وكذلك قال أشعيا في المسيح: «إنه إلهٌ لأمته» علىٰ هذا المعنىٰ، وإلا فما الفرق؟.

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: «من رآني فقد رأىٰ أبي، وأنا وأبي واحدٌ».

قلنا: إن قوله: «أنا وأبي واحدٌ» إنما يريد به أن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله، كما يقول رسول الرجل: «أنا ومن أرسلني واحد».

ويقول الوكيل: «أنا ومن وكلني واحدٌ»؛ لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به، ويتكلم بحجته، ويطالب له بحقوقه.

وكذلك قوله: «من رآني فقد رأىٰ أبي» يريد بذلك أن من رأىٰ هذه الأفعال التي أظهرها، فقد رأىٰ أفعال أبي.

[الشبهة الثامنة]:

فإن قلتم: إن المسيح قد قال في الإنجيل: «أنا قبل إبراهيم».

فكيف يكون قبل إبراهيم، وإنما هو من ولده، ولكن لما قال قبل إبراهيم علمنا ما أراد: أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية.

قلنا: هذا سليمان بن داود يقول في حكمته: «أنا قبل الدنيا، وكنت مع الله حيث بدأ الأرض».

فما الفرق بينه وبين من قال: «إن سليمان ابن الله»، وأنه إنما قال: أنا قبل الدنيا بالإلهية.

وقد قال داود أيضًا في الزبور: «ذكرتك يا رب من البدء، وهديت بكل أعمالك».

[الشبهة التاسعة]:

فإن قلتم: إن كلام سليمان بن داود متأولٌ؛ لأنهما من ولد إسرائيل، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا.

قلنا: وكذلك قول المسيح: «أنا قبل الدنيا» متأولٌ؛ لأنه من ولد إبراهيم، ولا يجوز أن يكون قبل إبراهيم، فإن تأولتم تأولنا، وإن تعلقتم بظاهر الخبر في المسيح تعلقنا بظاهر الخبر في سليمان وداود، وإلا فما الفرق؟.

وقد قدمنا هذا الاحتجاج علىٰ تأويلكم، لتعلموا بطلان ما ذهبتم إليه علىٰ أنه تأويلٌ غير واقعٍ بحقّه، وإنما حقّه أن يكون هذا الاسم ـ يعني عمانويل ـ لما وقع علىٰ المسيح، كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن إلهنا معنا، يعني: أن الله معه، ومع شعبه معينًا وناصرًا.

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به، ولو كان المعنىٰ ما ذهبتم إليه لما جاز لأحدٍ أن يتسمىٰ به، كما لم يجز أن يتسمىٰ بالمسيح عليه السلام لأنه مخصوصٌ بمعناه.

[الشبهة العاشرة]:

فإن قلتم: إن تلاميذ المسيح كانوا يعلمون الآيات باسم المسيح.

قلنا لكم: فقد قال الله جل ثناؤه ليحيىٰ بن زكريا: «قد أيدتك بروح القدس، وبقوة إلياس، وهي قوة تفعل الآيات».

فأضاف القوة إلىٰ إلياس.

[الشبهة الحادية عشر]:

فإن زعمتم أن المسيح إلهٌ؛ لأنه فعلت الآيات باسمه، فما الفرق بينكم وبين من قال: «إن إلياس إلهٌ» فإنه فُعلت بقوته الآيات.

[الشبهة الثانية عشر]:

فإن قلتم: إن الخشبة التي صلب عليها المسيح علىٰ زعمكم ألصقت بميتٍ، فعاش. فإن هذا دليلٌ علىٰ أنه إلهٌ.

قلنا لكم: فما الفرق بينكم وبين من قال: «إن اليسع إلهٌ» واحتجّ في ذلك بأن كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن رجلًا مات، فحمله أهله إلىٰ المقبرة، فلما كانوا بين القبور رأوا عدوًا لهم يريد أنفسهم، فطرحوا الميت عن رقابهم، وبادروا إلىٰ المدينة، وكان الموضع الذي ألقوا عليه الميت قبر اليسع، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر اليسع عاش، وأقبل يمشي إلىٰ المدينة.

فإن زعمتم أن المسيح إلهٌ؛ لأن الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميتٍ فعاش، فاليسع إلهٌ؛ لأن تراب قبره لصق بميتٍ فعاش.

[الشبهة الثالثة عشر]:

فإن قلتم: إن المسيح كان من غير فحلٍ.

قلنا لكم: قد كان ذلك، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية، ولا الربوبية؛ لأن القدرة في ذلك للخالق تبارك وتعالىٰ، لا للمخلوق، وعلىٰ أنه يوجدكم؛ لأن حواء خلقت من فحلٍ بلا أنثىٰ، وخلق أنثىٰ من ذكر بلا أنثىٰ أعجب من ذكرٍ من أنثىٰ بغير ذكر، وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من ترابٍ، وخلق بشرٍ من ترابٍ أعجب وأبدع من خلق ذكرٍ من أنثىٰ بلا فحلٍ، فما الفرق؟.

قال: وهذه الأسباب التي ذكرناها كلها هي الأسباب التي تتعلقون بها في نحلتكم المسيح الربوبية، وإضافتكم إليه الإلهية، وقد وصفناها علىٰ حقائقها عندكم، وقبلنا فيها قولكم، وإن كنّا لا نشكّ في أن أهل الكتاب قد حرفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه، وأوجدناكم بطلان ما تنتحلونه، وفساد ما

تتأولونه من الكتب التي في أيديكم: التوراة، والزبور، والأنبياء، والإنجيل، فما الذي يثبت الحجة بعد ذلك لكم.

قال: وقد قال السيد المسيح في الإنجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة: «إن ذلك اليوم، وتلك الساعة لا يعرفه أحدٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن أيضًا، ولكن الأب وحده يعرفه».

قال: فهذا إقرارٌ منه بأنه منقوص العلم، وأن الله تبارك وتعالىٰ أعزّ وأعلم منه، وأنه خلافه وأعلا منه، وقد بَيَّنّ بقوله: «أحد» عمومه بذلك الخلق جميعًا، ثم قال: «ولا الملائكة» وعندهم من علم الله ما ليس عند أهل الأرض، ثم قال: «ولا الابن» وله من القوة ما ليس لغيره.

وشهد قوله هذا شهادةً واضحةً عليه بأنه لا يعلم كل ما يعلمه الله، بل ما علّمه الله إياه، وأطلعه علىٰ معرفته، وجعله له، وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية، وأنه هو الله، ومن جوهر أبيه، تعالىٰ الله الخالق لكل شيءٍ علوًّا كبيرًا، ولو كان إلهًا ـ كما يقولون ـ لعلم ما يعلمه الله من سائر الأشياء، وسرائر الأمور وعلانيتها؛ إذْ كان هذا المعنىٰ ليس من الكلام الذي إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت.

قلت [(١)]: مقصوده بذلك أنه صرّح بأنه لا يعلمه أحدٌ، ثم خصّ في السماء، ثم قال: «ولا الابن يعرفه، وأن الأب وحده يعرفه» فنفىٰ معرفة الابن، وأثبت أن الأب وحده يعرفه، ومراده بالابن المسيح، فعرف أن المسيح لا يعرفه، وأثبت أن الربّ يعرفه دون الابن، ودلّ ذلك علىٰ أن لفظ الابن عند المسيح إنما يراد بها الناسوت وحده؛ إذ كان لا يجوز نفي العلم عن اللاهوت، فإن اللاهوت

---

(١) الكلام من هنا إلىٰ نهاية الفصل لشيخ الإسلام ابن تيمية.

يعلم كل شيءٍ، وقد دلّ ذلك علىٰ أن قوله: «عمّدوا الناس باسم الأب، والابن» المراد به الناسوت وحده، كما أريد بلفظ «الابن» في سائر كلامه، وكلام غيره، لم يرد قطّ أحدٌ منهم بلفظ «الابن» اللاهوت، بل إطلاق «الابن» علىٰ اللاهوت مما ابتدعته النصارىٰ، وحملوا عليها كلام المسيح، فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وحملوا عليها كلام المسيح، وإنّما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم علىٰ معنىٰ لغتهم التي جرت عادتهم بالتكليم بها، لا علىٰ لغةٍ يحدثها من بعدهم، ويحمل كلامهم عليها.

قلت: فإن هذا الذي فعلته النصارىٰ وأشباههم يفتح باب الإلحاد في كتب الله المنزلة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وذلك أن كل من اعتقد معاني برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظٍ تناسبها بنوع مناسبةٍ، وتلك الألفاظ موجودةٌ في كلام الأنبياء عليهم السلام لها معانٍ أخر، ويجعل تلك الألفاظ دالّةً علىٰ معانيه التي رآها، ثم يجعل الألفاظ التي تكلمت بها الأنبياء، وجاءت بها الكتب الإلهية أرادوا بها معانيه هو.

وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد في سائر الكتب الإلهية، كما فعلته النصارىٰ، مثل ما عمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان ـ القائلون بأن هذه الأفلاك قديمةٌ أزليةٌ، لم تزل، ولا تزال، وأن الله لم يتكلم بالتوراة، ولا غيرها من الكتب الإلهية، ولا هو عالمٌ بالجزئيات، لا بموسىٰ بن عمران، ولا بغيره، ولا هو قادرٌ أن يفعل بِمَشِيئَةٍ، ولا يقيم الناس من قبورهم ـ فقالوا: «خلق»، و «أحدث»، و «فعل» و «صنع» ونحو ذلك، يقال علىٰ الإحداث الذاتي، والإحداث الزماني.

فالأول: هو إيجاب العلة لمعلولها المقارن لها في الزمان.

والثاني: إيجاد الشيء بعد أن لم يكن.

ثم قالوا: ونحن نقول: إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه، كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتي، وهو أن ذلك معلولٌ له، لم يزل معه.

فيقال لهم: لم يستعمل أحدٌ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ بل ولا أحدٌ من سائر الأمم ـ لفظ «الخلق» و «الإحداث» إلا فيما كان بعد عدمه، وهو ما كان مسبوقًا بعدمه ووجود غيره، ومعنىٰ هذا اللفظ معلومٌ بالاضطرار في جميع لغات الأمم.

وأيضًا فاللفظ المستعمل في لغة العامة والخاصة لا يجوز أن يكون معناه ما لا يعرفه إلا بعض الناس، وهذا المعنىٰ الذي يدّعونه ـ لو كان حقًّا ـ لم يتصوره إلا بعض الناس، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذي تداوله العامة والخاصة موضوعًا له؛ إذْ كان هذا يبطل مقصود اللغات، ويبطل تعريف الأنبياء للناس، فكيف وهو باطلٌ في صريح المعقول، كما هو باطلٌ في صحيح المنقول، فإنه لم يعرف أن أحدًا قطّ عبر عن القديم الأزلي الذي لم يزل موجودًا، ولا يزال بأنه محدث، أو مخلوق، أو مصنوع، أو مفعول.

فهذا الذي ذكرتموه كذبٌ صريحٌ علىٰ الأنبياء عليهم السلام؛ لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم، والكتب الإلهية ـ كالتوراة والقرآن ـ مصرحةٌ بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ، والقديم الأزلي لا يكون مخلوقًا في ستة أيامٍ، وكذلك الكتب الإلهية ـ كالتوراة والقرآن ـ قد أخبرت بتكليم الله لموسىٰ، وبندائه إياه من الطور من الشجرة، وفي التوراة أنها شجرة العليق، وأخبرت بأن موسىٰ عليه السلام كان يلقي عصاه فتصير حيةً تسعىٰ، ويخبر بأن الله فلق البحر.

فقالت الملاحدة: إن الشيء الثابت يسمىٰ طورًا، فإنه ثابتٌ كالجبل، والقلوب تسمىٰ أودية، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم، والحجة المبتلِعة كلام أهل الباطل هي عصا معنوية، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال الذي فاض منه العلم علىٰ قلب موسىٰ ﷺ، والوادي قلب موسىٰ، والكلام الذي سمعه موسىٰ سمعه من سماء عقله، وتلك الأصوات كانت في نفسه، لا في الخارج، والملائكة التي رآها كانت أشخاصًا نورانية، تمثلت في نفسه، لا في الخارج، والبحر الذي فلقه هو بحر العلم، والعصا كانت حجته، غلب علىٰ السحرة بحجته العلمية، فابتلعت حجته شبههم التي جعلوها حبالًا يتوسلون بها إلىٰ نيل أغراضهم، وعصيًّا يقهرون بها من يجادلونه.

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب علىٰ الكتب الإلهية التي أخبرت بقصة موسىٰ كالتوراة والقرآن، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسىٰ هذا، بل صرحوا بأن موسىٰ سمع نداء الله له، وأنه كلَّمه من الطور ـ طور سينا الذي هو الجبل ـ وقلب عصاه التي كان يهشّ بها علىٰ غنمه ثعبانًا عظيمًا، وفلق له البحر، وأغرق فيه آل فرعون، فغرقوا، وماتوا فيه، وهلكوا، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير.

*****

[تحريف النصارى لكتب الله]

فهكذا النصارىٰ حرفوا كتب الله، وسموا صفة الله القديمة الأزلية التي هي علمه أو حكمته ابنًا، وسمّوها أيضًا كلمةً، وسمّوا صفته القديمة الأزلية التي هي حياته روح القدس، وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد في شيءٍ من كلام الأنبياء، ولا غيرهم، ولا يعرف أن أحدًا قطّ لا من الأنبياء، ولا غيرهم سمّىٰ علم الله القائم به ابنه، بل ولا سمّىٰ علم أحدٍ من العالمين القائم به ابنه، ولكن لفظ «الابن» يعبّر به عمن ولد الولادة المعروفة، ويعبّر به عمن كان هو سببًا في وجوده، كما يقال: «ابن السبيل» لمن ولدته الطريق، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده.

ويقال لبعض الطير: «ابن الماء» لأنه يجيء من جهة الماء.

ويقال: «كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا» فإن الابن ينتسب إلىٰ أبيه ويحبه، ويضاف إليه، أي: كونوا ممن ينتسب إلىٰ الآخرة ويحبها، ويضاف إليها.

وهذا اللفظ موجودٌ في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حقّ الصالحين الذين يحبهم الله ويربيهم، كما ذكروا أن المسيح **قال**: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم».

وفي التوراة أن الله قال ليعقوب: «أنت ابني بكري».

ونحو ذلك مما يراد به ـ إذا كان صحيحًا له ـ معنًىٰ صحيحٌ، وهو المحبة له، والاصطفاء له، والرحمة له، وكان المعنىٰ مفهومًا عند الأنبياء، ومن يخاطبونه، وهو من الألفاظ المتشابهة، فصار كثيرٌ من أتباعهم يريدون به المعنىٰ الباطل.

فإذا كان مراد المسيح عليه السلام بالابن هو الناسوت، وهو لم يسمِّ اللاهوت ابنًا، وقد ذكر أن الابن لا يعلم الساعة، فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم الساعة، وهذا هو الحقّ.

وإن قالوا: مراده بالابن اللاهوت، أو اللاهوت والناسوت.

لزم من ذلك أن اللاهوت، أو اللاهوت والناسوت لا يعلم الساعة.

وهذا باطلٌ وكذبٌ، وهو أيضًا مناقضٌ لقولهم.

فدلّ هذا النص من المسيح ـ مع سائر نصوصه، ونصوص الأنبياء ـ علىٰ أن مسمىٰ الابن هو الناسوت وحده، وأنه لا يعلم ما يعلمه الله، وذلك صريحٌ في أنه مخلوقٌ، ليس بخالقٍ، ولا يجوز أن يكون هذا خطابًا للناسوت المتحد باللاهوت دون اللاهوت، كما يتأوله عليه بعض النصارىٰ؛ لأن كل ما علمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده، لم يستثنِ علم الابن الأزلي عندهم، بل نفىٰ علم ما سوىٰ الأب به، وهذا مناقضٌ لقولهم من كل وجهٍ.

قال الحسن بن أيوب: ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل علىٰ ما كتب في الإنجيل، فقال له: أيها الخير.

فقال: «ليس الخير إلا الله وحده».

قلت: وبعضهم يترجمه: «أيها الصالح، فقال: ليس الصالح إلا الله وحده».

قال: ومثله قوله في الإنجيل: «إني لم آت لأعمل بمشيئتي، لكن بمشيئة من أرسلني».

قال: ولو كانت له مشيئةٌ لاهوتيةٌ ـ كما يقولون ـ لما قال هذا القول، فقد أبطل به ما تدّعونه في ذلك.

قال: ثم أنتم مع ذلك تدّعون أن المسيح كلمة الله، ومن قوة الله، غير بائنةٍ منه، ولا منفصلةٍ عنه، وتشهدون عليه في الإنجيل بقوله: «إنه يصعد إلىٰ السماء، ويجلس عن يمين أبيه، ويدين الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم، ويتولّىٰ الحكم بينهم» وأن الله ﷻ منحه ذلك، إذ كان لا يراه أحدٌ من خلقه في الدنيا ولا في الآخرة.

فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين، والقاعد عن يمين أبيه، وهو شخصٌ قائمٌ بذاته، لا يشك فيه، هو الجسد الذي كان في الأرض المتوحد به الربوبية، فقد فصلتم بين الله تبارك وتعالىٰ وبينه، وبعضتموه باجتماعهما في السماء شخصين متباينين، أحدهما عن يمين صاحبه، وهذا كفرٌ وشركٌ بالله ﷻ.

وإن كان جسدًا خاليًا من الإلهية وهي الكلمة، وقد عادت إلىٰ الله كما بدت منه، فقد زال عنه حكم الربوبية التي تنتحلونه إياها.

أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التي ترجع بزعمكم إلىٰ جوهر واحدٍ وهو اللاهوت، ما هو؟ ومن أين أخذتموه؟ ومن أمركم به؟ وفي أيّ كتابٍ نزل؟ وأيّ نبيٍّ تنبأ به؟ أو أيّ قولٍ للمسيح تدعونه فيه؟ وهل بنيتم أمركم في ذلك إلا علىٰ قول «متّىٰ» التلميذ علىٰ المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم: «اذهبوا، فعمدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس»؟.

قال: وهذا كلامٌ يحتمل معناه ـ إن كان صحيحًا ـ أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلىٰ أن تجتمع لهم بركات الله، وبركة نبيه المسيح، وروح

القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم: «صلاة فلان القديس تكون معك» ومعنىٰ الصلاة الدعاء، و «اسم فلان النبي يعينك علىٰ أمورك».

وكما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩] يقرن طاعته نبيه، وأولي الأمر من المسلمين، أفنقول لذلك إنهم جميعًا آلهة.

قال: وقد يجوز أن يكون له معنًىٰ يدقّ عن الوقوف عليه بغير التأويل، إن لم يكن معناه ما قلناه، أو يكون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب فيه إلىٰ ما هو أعلم به، فَلِمَ حكمتم بأنه ذهب إلىٰ أن هذه الأسماء لما أضافها إلىٰ الله عَجَّلَ صارت آلهة، وجعلتم لها أقانيم، لكل اسمٍ أقنومٌ يخصه بعينه، وهو شخصٌ واحدٌ؟ وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله عَجَّلَ بالتأويل الذي لا يصح؟.

إذا قلتم بثلاثة أقانيم، كل أقنوم بذاته، فلا بدّ من أن تعترفوا ضرورةً بأن كل أقنومٍ منها حيٌّ سميعٌ بصيرٌ عالمٌ حكيمٌ منفردٌ بذاته، كما يقولون في المسيح: إنه جالسٌ عن يمين أبيه.

فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموها مع الله من جهة أن الله حكيمٌ حيٌّ، فحكمته الكلمة وهي المسيح، وروحه روح القدس، وهذه صفةٌ من صفات الله مثلها كثيرٌ؛ لأنه يقال: حكيمٌ عليمٌ سميعٌ بصيرٌ حيٌّ قديرٌ.

وكذلك ربّنا تبارك وتعالىٰ، وإن كانت صفاتنا[1] إياه لا تلحق صفاته، ولا تبلغ كنه مجده، إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه، فنحلتم صفاته ـ التي

---

(١) أي وصفنا إياه.

هي معناه، وليست سواه ــ غيره، وجعلتموه أقانيم، لكل واحدٍ من الحياة، والحكمة، وسائر الصفات، مثل الذي له، وما منها أقنومٌ له صفةٌ إلا ويحتمل علىٰ قياس قولكم أن تكون صفته مثله، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة، وكل صفةٍ إلهٌ، وهي من جوهره، فيجب أن تكون كل صفةٍ لكل واحدٍ من الثلاثة الأقانيم إلهًا مثله؛ إذ كان من جوهره، فيتسع الأمر في ذلك حتىٰ لا يكون له غايةٌ، ولا نهايةٌ.

قال: وإذا قلتم بثلاثة أقانيم هي في السماء من جوهرٍ قديمٍ.

أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة؛ لأن الأقانيم أشخاصٌ يومأ إليها، ويقع الحدّ عليها، وإلا فما الحجة وأنتم تذكرون في بعض احتجاجكم أنها ثلاثةٌ ترجع إلىٰ واحدٍ، غير متبعضةٍ، ولا منفصلةٍ، وتشبّهونها في اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم علىٰ أن المسيح إلهٌ وإنسانٌ متحدين، وأنه يصعد إلىٰ السماء، ويجلس عن يمين أبيه، والجالس عن يمين صاحبه، أليس هو منفصلٌ عنه مفروزًا عنه؟ فكيف يصح علىٰ هذا القول قياسٌ، أو يصح به عقد دينٍ، تقولون مرة: مجتمعٌ، ومرةً: منفصلٌ.

وما شبهتموه به من الشمس فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه، وأنه لا يكون قياسه القياس الذي تعلقتم به.

علىٰ أنا وجدناكم تقولون في معنىٰ التثليث: إن الذي دعاكم إليه ما ذكرتم أن «متّىٰ» التلميذ حكاه في الإنجيل عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال لتلاميذه: «سيروا في البلاد، وعمّدوا الناس باسم الأب، والابن، والروح القدس».

وأنكم فكرتم في هذا القول بعقولكم، فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له محدثًا، فتوهمتموه شيئًا موجودًا، ثم توهمتموه

حيًّا، ثـم ناطقًـا؛ لأن الشـيء ينقسـم لحـيٍّ ولا حـيّ، والحـي ينقسـم لنـاطقٍ، ولا ناطقٍ.

وأنكـم علمـتم بـذلك أنـه شـيءٌ حـيٌّ نـاطقٌ، فـأثبتم لـه حيـاةً ونطقًـا غيـره في الشخص، وهما هو في الجوهرية.

فنقول لكم في ذلك: إذا كان الحيّ له حياةٌ ونطقٌ، فأخبرونا عنه، أتقولون: إنه قادرٌ عزيزٌ، أم عاجزٌ ذليلٌ؟.

فإن قلتم: لا، بل هو قادرٌ عزيزٌ.

قلنا: فأثبتوا له قدرةً وعزةً، كما أثبتم له حياةً وحكمةً.

فإن قلتم: لا يلزمنا ذل؛ لأنه قادرٌ بنفسه، عزيزٌ بنفسه.

قلنا لكم: وكذلك فقولوا: إنه حيٌّ بنفسه، وناطقٌ بنفسه، ولا بدّ لكم مع ذلك من إبطال التثليث، أو إثبات التخميس، وإلا فما الفرق؟ وهيهات من فرقٍ.

وقال الحسن بن أيوب: أيضًا إنّا كلما تأمّلنا معكـم في نسبة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ الإلهية، وعبـادتكم لـه مـع الله علىٰ الجهـة التي تـذهبون إليهـا، وطلبنـا لكـم الحجة في ذلـك مـن كتبكم، ازددنـا بصيرةً في اسـتحالة ذلـك، ووضـعكم لـه مـن القول ما لا يثبت لكم به حجةٌ، ولا يشهد به لكم شيءٌ من كتبكم، ووجـدنا أبـين ما جاء في المسيح وصحة أمره فيما أتىٰ به مـا قـال «متّىٰ» التلميـذ: «إنـه لمـا جـاء يسوع إلـىٰ أرض قيسـارية(١)، سـأل تلاميـذه فقـال: مـاذا يقـول النـاس في أني ابـن البشر؟ فقالوا: منهم من يقول: إنك يوحنا المعمداني.

---

(١) قيسارية: بلد علىٰ ساحل الشام، تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. انظر معجم البلدان ٤/ ٤٢١.

وآخرون يقولون: إنك أرميا، أو أحد الأنبياء.

فقال لهم يسوع: فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا ـ وهو رئيسهم ـ فقال: أنت المسيح ابن الله الحق.

فأجابه المسيح وقال: طوبىٰ لك يا سمعان بن يونان، إنه لم يطلعك علىٰ هذا لحمٌ ولا دمٌ، ولكن أبي الذي السماء».

وحكىٰ «لوقا» في إنجيله هذا الخبر فقال: «إن سمعان أجابه فقال: أنت مسيح الله». ولم يقل ابن الله.

فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه، وأرضاه ما قال، وقوله: «إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله في قلبه».

ولم ندفعكم قطّ عن أنه مسيح الله، ولا عن أنه ـ كما تقولون في لغتكم: إنه ـ ابن الله بالرحمة والصفوة، مع هذا الاختلاف الواقع في ذلك في الإنجيلين، وقد قال مثل ذلك فيكم جميعًا: «إن الله إلهي وإلهكم، وأبي وأبيكم».

فنعمل علىٰ احتجاجكم بأنه ليس مثلكم في معنىٰ النبوة، ونجعله مثل من سمّىٰ في الكتب ابنًا علىٰ جهة الاصطفاء والمحبة، مثل إسرائيل وغيره، بل قد خصّ إسرائيل بأن قال ﷻ: «أنت ابني بكرىٰ».

وهذا كلامٌ له مذهبٌ في اللغة القديمة التي جاءت بها الكتب، وليست بموجبةٍ الإلهية؛ إذ كان قد شاركه في هذا الاسم غيره، فَلِمَ لا جعلتموه كما جعل نفسه؟.

ومما يؤكد المعنىٰ في ذلك، ويزيل تأويل من يتأوله له ما لم يدّعه، ولم يرض به قوله في علم الساعة: «إن ذلك شيءٌ لا يعلمه أحدٌ من الخلق، ولا الملائكة المقربون، ولا الابن ـ يعني نفسه ـ إلا الأب وحده».

ثم قال للرجل الذي أتاه فقال له: أيها العالم الصالح، أيّ الأعمال خيرٌ لي، الذي تكون لي حياةٌ إلىٰ يوم الدين؟ فقال له: لمَ تقول لي: صالحًا.

ليس الصالح إلا الله وحده».

فاعترف لله بأنه واحدٌ لا شريك له، ونفىٰ عن نفسه فلم يجعلها، ولا أحدٌ من الخلق أهلًا لذلك.

وقوله للمرأة التي جاءته فقالت: أنت ذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه؟ فقال لها المسيح: «صدقت، طوبىٰ لك».

ثم قال للشيطان حين اختبره، فسامه أن يلقي نفسه من رأس الهيكل فقال: «أمرنا أن لا نجرب الرب».

ثم سامه أن يسجد له فقال: «أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده، ولا نعبد سواه».

ثم صلاته في غير وقتٍ لله، وآخرها الليلة التي أخذته اليهود فيها.

فإذا كان إلهًا ـ كما زعمتم ـ فَلِمَنْ كان يصلي ويسجد.

ثم قول الجموع الذين كانوا معه حين دخل أورشليم ـ وهي مدينة بيت المقدس ـ علىٰ الأتان لمن كان يسأله عن أمره، لما راجت المدينة به: «هذا هو يسوع الناصري النبي الذي من الناصرة».

ثم قوله في بعض الإنجيل: «أخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يبجلّ في مدينته».

وفي موضعٍ آخر أنه قال: «لا يهان نبيٌّ إلا في مدينته، وفي بيته وأقاربه».

وقوله في بعض خطبه: «إن هذا الجيل السوء يريد آيةً، وأنه لا يعطىٰ إلا آية

يونس، كما كان يونس لأهل نينوىٰ، كذلك يكون ابن البشر لهذا الجيل رجال نينوىٰ، يقومون في الدين مع هذا الجيل، فيخصمونهم؛ لأنهم تابوا علىٰ قول يونس النبي، وإن هاهنا أفضل من يونس».

ثم قول داود في نبوته عليه: «من هذا الرجل الذي ذكرته، وجعلته دون الملائكة قليلًا».

ثم قول تلاميذه فيه ـ ما شرحناه في صدر كتابنا هذا ما تقدم ـ ووصفهم أنه رجلٌ أتىٰ من عند الله بالأيدي والقوة.

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلامذته فركبوا السفين، وقال لهم: «امضوا فإني ألحق بكم» فأتاهم يمشي علىٰ البحر، فلما رأوه في تلك الحال قالوا: ما هذا الحال؟! ويحٌ! ومن الغرق صاحوا، فقال لهم يسوع: «اطمئنوا، ولا تخافوا، أنا هو» فأجابه شمعون الصفا وقال له: «يا رب! إن كنت أنت هو فَأْذَنْ لي آتيك علىٰ الماء» فقال له: «تعالَ» فنزل سمعان إلىٰ الماء ليمشي عليه، فلم يستطع، وجعل يغرق، فصاح وقال: يا رب! أغثني.

فبسط يده يسوع فأخذه، وقال له: «لِمَ تشككت يا قليل الأمانة».

قال: فبان بذلك عجز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفا، ومثله أمر الرجل الذي قال ليسوع خبر ابنته، وما ينالها من الشيطان، وأنه قد قدمها إلىٰ تلاميذه، فلم يستطيعوا أن يخرجوه، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره، فأخرجه هو منها.

وقال في الإنجيل ـ وهو يذكر الأمثال التي ضربها لرؤساء الكهنة ـ: «إنهم لما سمعوها منه علموا أنها في شأنهم، فهموا أن يأخذوه، ثم فرقوا من الجموع؛ لأنهم كانوا ينزلونه مثل النبي».

وقال في الإنجيل: «لما جاءته أم ابني زندا ـ وكانت من تلامذته ـ مع ابنيها، فقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد أن تجلس ابناي، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك في ملكوتك.

فقال: ليس إلىٰ ذلك سبيلٌ؛ لأنه ليس لي أن أعطيه، ولكن من وعد له من أبي».

قال الحسن بن أيوب: فما يكون يا هؤلاء أفصح، وأبين، وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم في كتبكم، ما رضيتم بقوله في نفسه، ولا بقول تلامذته فيه، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه، وتركتم ذلك كله، وأخذتم بآراء قومٍ تأولوا لكم، علىٰ علمكم بأنهم قد اختلفوا أيضًا في الرأي، فقال كل قومٍ في المسيح ما اختاروا، واتبع كلًّا منهم طائفةٌ قالوا بقولهم، ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء في الاقتداء بهم.

فبيّنوا لنا حجتكم في ذلك، وهيهات من حجةٍ، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه.

قال: ومما يشبه ما تقدم قوله لتلاميذه في إنجيل «لوقا»: «فأما أنتم الذين صبرتم معي في بلائي وتجاربي، فإني أعدكم ـ كما وعدني أبي ـ الملكوت، لتأكلوا وتشربوا معي علىٰ مائدتي في ملكوتي».

فبيّن أن الله ﷻ ثناؤه وعده أن يجعله في ملكوت السماء، يأكل ويشرب مع تلاميذه علىٰ مائدته، وهذا ما لا شكّ لكم فيه، وهو مخالفٌ لقولكم فيما يصير إليه، وفي الأكل والشرب والنعيم هناك.

ثم قوله لشمعون ـ حين أتته الجموع فأخذوه ـ: «أم تظن أني لست قادرًا أن

أطلب إلىٰ أبي، فيقيم لي اثني عشر جندًا من ملائكته، أو أكثر، ولكن كيف تتم الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون».

ولم يقل: إني قادرٌ أن أدفعهم عن نفسي، ولا أني آمر الملائكة أن يمنعوا عني، كما يقول من له القدرة والأمر.

قال: ونجدكم تقولون في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنه مولودٌ من أبيه أزلي» ويجب علىٰ المدّعِي القول أن يثبت الحجة فيه، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها، لا سيما في مثل هذا الخطب الجليل الذي لا يقع التلاعب به، ولا تجترئ النفوس علىٰ ركوب الشبهات فيه، والويل الطويل لمن تأوّل في ذلك تأويلًا لا حقيقة له، فإنه يهلك نفسه، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله، إن كان هذا الابن أزليًّا علىٰ ما في شريعة إيمانكم، فليس هذا بمولودٍ، وإن كان مولودًا، فليس بأزلي؛ لأن اسم الأزلية إنما يقع علىٰ من لا أول له ولا آخر، ومعنىٰ المولود أنه حادثٌ مفعولٌ، وكل مفعولٍ فله أول، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة.

قال: ونسألكم أيضًا عن واحدةٍ؛ لمَ سمّيتم الأب أبًا، والابن ابنًا؟.

إنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدم، فالابن أيضًا يستحق هذا الاسم بعينه؛ إذ كان قديمًا مثله، وإن كان الأب عالمًا عزيزًا، فهو أيضًا عالمٌ عزيزٌ، تشهد شريعة الإيمان له بذلك في قولها: إنه خلق الخلائق كلها، وأتقنت علىٰ يده، وأنه نزل لخلاصكم.

ومن قدر علىٰ ذلك لم يكن إلا عالمًا عزيزًا.

فهذه المعاني التي ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة، وفي إبطالها بطلان الشريعة التي تقول: «ولد من أبيه» وإلا فإن كان الأب والابن متكافئين في القدم والقدرة، فبأيّ فضلٍ وسلطانٍ للأب عليه أمره ونهاه، فصار الأب باعثًا والابن

مبعوثًا، والأب متبوعًا مطاعًا والابن تابعًا مطيعًا.

ومما يشهد بصحة قولنا، وبطلان ما تأوله أولوكم في عبودية المسيح: أن «متّىٰ» التلميذ حين بنىٰ كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ به أن قال: «كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم».

فنسبه إلىٰ من كان منه علىٰ الصحة، ولم يقل: إنه ابن الله، ولا إنه إلهٌ من إلهٍ، كما يقولون.

فإن قلتم: إن تسمية يسوع للناسوت الذي قد جعلتموه حجةً بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع، فيما يعترف به للمسيح من العبودية، فقد نسق «متّىٰ» علىٰ اسم يسوع الذي هو عندكم اسمٌ للناسوت المسيح الذي هو جامع الناسوت واللاهوت، فأي حجةٍ في إبطال هذا التأويل أوضح من هذا.

ومما يصحح قولنا ويؤكده قولُ جبريل المَلك لمريم عند مخاطبته إياها: «إنه ابن داود» علىٰ ما ثبت من ذلك في الإنجيل.

قال: ووجدناكم قد ذكرتم في شريعة الإيمان: أن يسوع المسيح بكر الخلائق.

فإن كنتم ذهبتم في ذلك إلىٰ أنه علىٰ نحو ما يسمىٰ أول ولد الرجل وكبيرهم، فجائزٌ، وهو محققٌ لقولنا في عبوديته.

وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أولُ قديمٍ، فلسنا نعرف للبكر معنىٰ في لغةٍ من اللغات إلا للأكبر من الإخوة، والأول من الولد.

وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق، كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما وباكورة الثمار لا تكون إلا ثمرةً، ولأن من المحال أن يقول قائلٌ: بكر ولد آدم ملك من الملائكة.

وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوعٍ، وبكر المخلوقات ليس بمخلوقٍ.

وقد قال الله تعالىٰ في التوراة: «يا ابني بكري» أي إسرائيل.

وقال في موضعٍ آخر: «إنه نظر بنو الله إلىٰ بنات الناس، فشغفوا بهنّ».

فهل يوجب لآل إسرائيل إلهيةً بهذا القول.

قال: وقلتم إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوعٍ.

فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئًا موجودًا، أو غير موجودٍ، فإن كان لم يزل موجودًا، فإن الأب لم يلد شيئًا، وإن كان غير موجودٍ وإنما هو حادثٌ لم يكن فهو مخلوقٌ، كما قلنا.

قال: ومما يبيّن قولنا في خلق المسيح أن هذا الاسم إنما وقع له، لأنه مسح للنبوة والخير، وماسحه الله تبارك وتعالىٰ.

وقد قال داود في زبوره قولًا يشهد علىٰ ذلك بعينه: «من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك».

فأبان داود بهذه الآية معنىٰ المسح بإنجيله، وأن ماسحه الله إلهه، وأنه مصطفًىٰ مكرمٌ بزيادةٍ علىٰ نظرائه.

وقال داود أيضًا في مزمور إحدىٰ وثلاثين يخاطب الله: «من أجل داود عبدك، لا يغلب وجه مسيحك عهد الرب لداود بالحق، ولا يرجع عنه».

يعني: بمسيحه نفسه؛ لأن الله مسحه للنبوة والملك، وقد قال مثل هذا في غير موضعٍ من زبوره، فسمىٰ نفسه مسيح الله.

قال: وإذا نظر في الإنجيل، وكتب بولس، وغيره ممن يحتج به النصارىٰ،

وجد نحوًا من عشرين ألف آيةٍ مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوثٌ مربوبٌ، وأن الله اختصّه بالكرامات، ما خلا آياتٍ يسيرةٍ مشكلاتٍ، قد تأوّلها كل فريقٍ من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم علىٰ هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته.

فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه علىٰ الواضحات الكثيرة التي قد بانت بغير تأويلٍ؛ لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء علىٰ الكل، ويستدل علىٰ ما غاب بما حضرٍ، وعلىٰ ما أشكل بما ظهر، فمن تلك الآيات المشكلات ما ذكرناه في كتابنا هذا، وبينا معناه، والحجة فيه، وأنه ليس كما تأولوه.

ومنها: ما يحكون عن المسيح أنه قال: «أنا بأبي».

و قد فسر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك وكشفه.

قال يوحنا في إنجيله: «إن المسيح تضرع إلىٰ الله في تلاميذه، وقال: يا أيها الرب القدوس! احفظهم باسمك الذي أعطيتني؛ ليكونوا هم أيضًا شيئًا واحدًا، كما أنا شيءٌ واحدٌ، وكما أنك أرسلتني إلىٰ العالم، وكذلك أرسلهم أنا أيضًا».

ثم قال بعد هذا أيضًا: «إني قد منحتهم من المجد الذي أعطيتني ومنحتني؛ ليكونوا أيضًا شيئًا واحدًا، كما أنا شيءٌ واحدٌ، فأنا بهم، وأنت بي».

قال هو: معنىٰ ذلك أنه قال: أنت معي، وأنت لي، كما أنا مع تلاميذي، ولهم.

قلت: أو أراد أنك بي هديت الخلق، وعلمتهم، وأنا أهديهم وأعلمهم.

والباء للسببية، فإن الله برسله هدىٰ عباده وعلمهم، والرسل علموا الغائبين عنهم بالحاضرين الذين بلغوا عنهم.

وقوله: «ليكونوا شيئًا واحدًا» أراد به اتفاق صدقهم، وأمرهم، ومرادهم.

وهذا مفسرٌ، وقد قال: «ليكونوا هم شيئًا واحدًا، كما أنا شيءٌ واحد» فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه.

وهذا يبيّن أن قوله: «كما أنا شيءٌ واحدٌ» أي: أنا موافقك في أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك.

لم يرد بذلك اتحاد ذاته به، كما لمْ يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه.

قال: أو يكون ذهب فيه إلىٰ معنًىٰ دقيقٍ لا يعرف، إلا أنه قد بطل علىٰ كل حالٍ بهذا القول تأويلكم ممازجته ﷺ في اللاهوت بقوله في تلاميذه: «إنه بهم، كما أن أباه به».

لأنه إن تأوّل متأوّل في هذا المعنىٰ ـ أنه ذهب في وصفه أنه بأبيه، وأن أباه به ـ إلىٰ مشاركته في اللاهوت فقد قال في تلامذته مثل هذا القول، فيجب أن يكونوا علىٰ هذا القياس شركاء في المحل، وهذا ما لا يكون، ولا يجترئ علىٰ القول به أحدٌ.

*****

[اختلاف النصارى في المسيح أشد الاختلاف مما يدل على أنهم مختلفون في أصل دينهم]

قال: ومن أعجب العجب أن تكون أمةٌ كتابها، ودعوتها، ومعبودها واحدًا يتمسكون بأمر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتلامذته، وإنجيله، وسنته، وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشدّ الاختلاف:

فمنهم من يقول: إنه عبدٌ.

ومنهم من يقول: إنه إلهٌ.

ومنهم من يقول: إنه ولدٌ.

ومنهم من يقول: إنه أقنومٌ وطبيعةٌ.

ومنهم من يقول: إنه أقنومان وطبيعتان.

وكل منهم يكفر صاحبه، ويقول: إن الحقّ في يده.

كلهم لا يأتي من الكتاب بحجةٍ واضحةٍ يثبت بها دعواه، ولا من قياسه لنفسه، وتأوله بما يصح له عند المناظرة، وإنما يرجع في دينه واعتقاده إلىٰ ما تأوله المتأولون بما يخالف إنجيلهم وكتبهم بالهوىٰ والعناد من بعضهم لبعض، فهم يشركون بالله علىٰ التأويل، ولا شريك له، ويدّعون له ولدًا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم سبحانه أنىٰ يكون له ولد.

قال الحسن بن أيوب: وقد بيّنا الحجج في بطلان كل قول لكم مما عقدتم به شريعة إيمانكم.

ووجدنا قومًا منكم إذا نوظروا في ذلك قالوا: قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها، ويتفرقون علىٰ مقالاتٍ شتَّىٰ هم عليها، وكلٌّ منهم يدّعي أن الصواب في يده.

وهذا أيضًا من سوء الاختيار، وذهاب القلوب عن رشدها، وانصرافها عن سبيل حقها.

فلم يختلف أهل دينٍ من الأديان في عقد معبودهم، ولا شكوا فيه، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل ملل النصرانية فقط.

وسائر من سواهم إنما اختلفوا في فروعٍ من فروع الدين وشرائعه، مثل اختلاف اليهود في أعيادهم، وسننٍ لهم، ومثل اختلاف المسلمين في القدر، فمنهم من قال به ومنهم من دفعه، وفي تفضيل قومٍ من أصحاب محمد علىٰ نظرائهم، بعد اتفاق جماعتهم علىٰ إلههم، ومعبودهم، وخالقهم، وأن الله إله الخلق كلهم، واحدٌ لا شريك له، ولا ولدٌ.

ثم اتفاقهم بعد ذلك علىٰ نبيهم محمدٍ لا يشكون فيه، وعلىٰ القرآن، وأنه كتاب الله المنزل علىٰ محمدٍ المرسل، لا يختلفون فيه.

فإذا صح اتفاقهم علىٰ هذه الأصول كان ما سواها خللًا لا يقع معه كفر، ولا يبطل به دينٌ.

والبلاء العظيم الاختلاف في المعبود، فلو أن قومًا لم يعرفوا لهم إلهًا ولا دينًا، ثم عُرض عليهم دين النصرانية لوجب أن يتوقفوا عنه؛ إذ كان أهله لم يتفقوا علىٰ شيءٍ فيه، ودلّ اختلافهم في مقالاتهم ومباينتها ما في كتبهم علىٰ باطله.

فأما قولنا في باب التوحيد، واعترافنا بوحدانية الله تعالىٰ، ونفينا عنه

الشركاء، والأنداد، والأمثال، والأولاد، فهو قولٌ لا يشكون في صحته، ولا يشكّ فيه أحدٌ من أهل الكتب، وسائر الملل، ولا غيرهم من أهل القول بالدهر، وسائر عبدة الأصنام والأوثان، وكلٌّ منهم يقرّ به، ويرجع إليه، إلا أن منهم من يتابعنا علىٰ تحديد التوحيد، ومنهم من يدخل العلل فيه بأن يقول: ثلاثةٌ ترجع إلىٰ واحدٍ، وصنمًا نعبده إجلالًا لله؛ ليقربنا إلىٰ ربنا وربه، ومدبر للأمور قديمٌ، لا بد أن نعترف به خالقها وباريها.

وكلٌّ منهم مقرٌّ بقولنا، وذاهبٌ إلىٰ مذهبنا علىٰ الاعتراف بالله علىٰ الجهة التي يذهب إليها، وأنه واحدٌ لا شريك له.

فقد صح عقدنا بلا شكّ منكم، ولا من أحدٍ من الأمم فيه، ولا في شيءٍ منه، بل تقودكم الضرورة إلىٰ الإقرار به، والاجتماع معنا عليه.

والحمد لله رب العالمين علىٰ توفيقه، وإياه نسأل أن يتم علينا فضله، ويديم لنا تسديده بقدرته، وأن يحيينا ويميتنا علىٰ الإسلام، غير مشركين، ولا جاحدين، ولا مبدلين، إنه علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، وكل مستصعبٍ عليه يسيرٌ، وهو بمن خافه واتقاه، وطلب ما عنده، ولم يلحد في دينه رؤوفٌ رحيمٌ [(١)]. اهـ.

قلت: هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب، وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارىٰ، وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصحّ من نقل غيره.

وقد ذكر في كتابه من الردّ علىٰ ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية،

---

(١) هذه الرسالة لحسن بن أيوب رحمه الله حققت رسالة ماجستير بعنوان «لماذا أسلمت» وقام بتحقيقها الأستاذ محمود النيجيري، ونشرتها مكتبة النافذة بمصر عام ٢٠٠٦. وقد استفدت منها في تراجم بعض الأعلام، والإحالة الىٰ بعض كتب الأناجيل. وذكر بعض العناوين والشبه.

وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية، ما يبين ذلك.

ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم المنتصرين لدين النصرانية، ونذكر ما ذكروه من حججهم، مثل ابن البطريق، بترك الإسكندرية، فإنه صنّف كتابه الذي سماه «نظم الجوهر» وذكر فيه أخبار النصارىٰ، ومجامعهم، واختلافهم، وسبب إحداثهم ما أحدثوه، مع انتصاره لقول الملكية، والرد علىٰ من خالفهم.

*****

[قول ابن البطريق في تاريخه «نظم الجوهر» عن النصارى ومقالاتهم والرد عليهم]

قال سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية في تاريخه المعروف عند النصارىٰ الذي سماه «نظم الجوهر» وذكر فيه مبدأ الخلق، وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم، وأخبار ملوك الروم، وأصحاب الكراسي برومية وقسطنطينية وغيرهما، ووصف دين النصرانية، وفرق أهلها، وهو ملكيٌّ، ردّ علىٰ سائر طوائف النصارىٰ لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه، وأنه ولد في عهد ملك الروم قيصر المسمىٰ «أغسطس» لثنتين وأربعين سنةً من ملكه.

قال: وملك ستًّا وخمسين سنةً.

قال: وملك بعده ابنه «طيباريوس»(١) قيصر برومية، وللمسيح خمس عشرة سنةً.

وكان لقيصر هذا صديقٌ يقال له: «بلاطس»(٢) من قرية علىٰ شطّ البحر الذي تحت قسطنطينية، ويسمىٰ ذلك البحر «البنطس»، ولذلك يسمىٰ «بلاطس النبطي»، فولاه علىٰ أرض يهوذا.

---

(١) هو طيباريوس قيصر أغسطس، ولد عام ٤٢ق-م ويعتبر الرجل الثاني من أباطرة روما مات عام ٣٧م. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٢) هو بلاطس النبطي ولد في ١٠ قبل الميلاد، ورد في الأناجيل الأربعة المعتمدة من قبل الكنيسة أنه حاكم المسيح، وأصدر حكمًا بصلبه، وكان واليًا علىٰ ولاية أيوديا أو اليهودية، ومكث في ولايته عشر سنين، مليئة بالثورات اليهودية، وكثرة الدماء. انظر موسوعة ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

قال: وفي خمس عشرة سنة من ملك «طيباريوس» قيصر هذا، ظهر يحيىٰ بن زكريا المعمداني، فعمد اليهود في الأردن لغفران الخطايا، فجاء المسيح إلىٰ يحيىٰ بن زكريا، فعمّده يحيىٰ في الأردن، ولسيدنا المسيح ثلاثون سنةً.

وذكر قصة قتل يحيىٰ، وقصة الصلب المعروفة عند النصارىٰ.

إلىٰ أن قال: وكتب «بلاطس» إلىٰ «طيباريوس» الملك بخبر سيدنا المسيح، وما تفعل تلاميذه من العجائب الكثيرة؛ من إبراء المرضىٰ، وإحياء الموتىٰ، فأراد أن يؤمن بسيدنا المسيح، ويظهر دين النصرانية، فلم يتابعه أصحابه علىٰ ذلك، وملك اثنتين وعشرين سنةً وستة أشهر.

وذكر أن في عصره بنيت مدينة «طبرية» مشتقةً من اسمه.

قال: وملك بعده قيصر آخر أربع سنين وثلاثة أشهر، قتل «بلاطس» وولىٰ شخصًا كان شديدًا علىٰ تلاميذ المسيح، وقتل رئيس الشهداء والشمامسة، فرجم بالحجارة حتىٰ مات.

وذكر أنه لقي التلاميذ من اليهود ومن الروم شدّةً شديدةً، وقُتل منهم خلقٌ كثيرةٌ، وأنه مات هذا، وولي بعده قيصرٌ آخر، وفي زمنه وقع جوعٌ ووباءٌ.

وفي زمنه كتب «متىٰ»، وبيّن إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، وفسره من العبرانية إلىٰ الرومية «يوحنا» صاحب الإنجيل.

قال: وفي تسع سنين من ملكه كان «مرقس» صاحب الإنجيل بمدينة الإسكندرية يدعو الناس إلىٰ الإيمان بالمسيح، وأنه أول شخص جعل بطريركًا علىٰ الإسكندرية، وأنه صيّر معه اثني عشر قسّيسًا، وأمرهم إذا مات البطريرك أن يختاروا واحدًا من الاثني عشر قسّيسًا، ويضع الاثنا عشر قسّيسًا أيديهم علىٰ رأسه، ويباركونه، ويصلحونه بطريركًا، ثم يختارون رجلًا فاضلًا قسّيسًا،

ويصيرونه معهم بدل القسيس الذي أصلحوه بتركًا، ليكون اثني عشر أبدًا.

فلم يزل رسمهم بالإسكندرية علىٰ هذا إلىٰ زمن الثلاثمائة وثمانية عشر، فأمرهم بطريرك الإسكندرية الذي كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر أن لا يفعل هذا فيما بعد، ومنع أن يصلح الأقساء البترك، بل يختاروا من أي بلدٍ كان رجلًا فاضلًا، وإذا مات البترك اجتمع الأساقفة، فأصلحوا البترك من أي بلد كان من أولئك الأقسة، أو من غيرهم.

فانقطع الرسم الأول من إصلاح الأقساء البترك، وجعل التيسير لهم في إصلاح البترك بابا، ثم سمىٰ بترك الإسكندرية بابا، ومعناه الجد، ومن «حنانيا»(١) الذي أصلحه مرقس البشير إلىٰ حادي عشر بطركًا بالإسكندرية لم يكن في عمل مصر أسقف، ولم يكن البطاركة قبله أصلحوا أسقفًا، وأن العامة لما سمعت الأساقفة يسمون البطريرك أبًا، قالوا: إذا كنا نحن نسمي الأسقف أبًا، والأسقف يسمىٰ البطريك أبًا، فيجب علينا أن نسمي البطريرك بابا، أي: الجد؛ إذ كان أبًا لأبين، فسمي بطريرك الإسكندرية من وقت هرقل بابا، أي الجد.

قال: وخرج «مرقس» إلىٰ برقة(٢) يدعو الناس إلىٰ الإيمان بالسيد المسيح، ومات «قلوديوس»(٣) قيصر، وملك بعده ابنه «نارون» ثلاث عشرة سنة.

قال: وهو أوّل من أهاج علىٰ النصارىٰ الشرّ والبلاء والعذاب.

---

(١) اسم عبري معناه يهوه تحنن. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٢) هي قرية من قرىٰ نابلس وتعني كلمة برقة التلون، وذكر ياقوت الحموي حوالي ١٠٠ مكان في الجزيرة العربية بهذا الاسم. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٣) إمبراطور روماني ولد عام ١٠ قبل الميلاد، وتوفي عام ٥٤م احتل بريطانيا وزارها سنة ٤١م كان به إعاقة. انظر موسوعة ويكيبيديا.

قال: وفي عصره كتب «بطرس» رئيس الحواريين الإنجيل: إنجيل مرقس عن مرقس بمدينة رومية، ونسبه إلىٰ مرقس.

قال: وفي عصر هذا الملك كتب «لوقا» إنجيله بالرومية إلىٰ رجلٍ شريفٍ من عظماء الروم، يقال له: «فوفيلا»، فكتب له أيضًا «الأبركسس» الذي فيه أخبار التلاميذ.

وقد كان «لوقا» البشير صاحب بولس الرسول يقول في بعض رسائله: إن لوقا الطبيب يقول: «عليكم السلام».

و**قال**: وأخذ «نارون» قيصر لـ «بطرس» فصلبه منكسًا، ثم قتله؛ لأن «بطرس» قال له: إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكسًا؛ لئلا أكون مثل سيدي المسيح، فإنه صلب قائمًا، وضرب عنق «بولس» الرسول بالسيف.

وأقام «بطرس» بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة.

قال: وكان «مرقس» صاحب الإنجيل بالإسكندرية وبرقة، يدعو الناس إلىٰ الإيمان، فأقام سبع سنين، وفي أول سنةٍ من ملك «نارون» قيصر قتل «مرقس» بالإسكندرية، وأحرق جسده بالنار.

وذكر بعده عدة قياصرة، وذكر أن «طيطس» خرب البيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنةً، بعد أن حاصرها، وأصاب أهلها جوعٌ عظيمٌ، وقتل كل من كان فيها من ذكرٍ وأنثىٰ، حتىٰ كانوا يشقون بطون الحبالىٰ، ويضربون بأطفالهم الصخور، وخرب المدينة والهيكل، وأضرم بها النار، وأحصي القتلىٰ علىٰ يديه، فكانوا ثلاثة آلاف ألف.

وذكر عدة قياصرة بعد ذلك، وأنه ولي واحدٌ منهم خمس عشرة سنة، يقال له: «ذوما طيانوس» وكان شديدًا جدًّا علىٰ اليهود، وأنه بلغه أن النصارىٰ

يقولون: إن المسيح ملكهم، وأن ملكه إلىٰ الدهر.

فغضب غضبًا شديدًا، وأمر بقتل النصارىٰ، وأن لا يكون في ملكه نصراني، وكان «يوحنا» صاحب الإنجيل هناك، فسمع بهذا فخاف، وهرب إلىٰ أفسس[١]، ثم إنه أمر بإكرامهم، وترك الاعتراض عليهم.

ثم تولىٰ بعده قيصرٌ آخر سنةً، وبعض أخرىٰ، ثم ملك آخر بعده تسع عشرة سنةً يسمىٰ «طرايانوس[٢]».

قال: وهذا الملك أثار علىٰ النصارىٰ بلاءً عظيمًا، وحزنًا طويلًا، وقتل شهداء كثيرة، وقتل بطريرك إنطاكية برومية، وقتل أسقف بيت المقدس، وصلبه وله مائةً وعشرون سنةً، وأمر أن يستعبد النصارىٰ؛ إذ ليس لهم دينٌ، ولا شريعةٌ.

فلشدة ما استعبد النصارىٰ، وغلظ ما نالهم من القتل رحمتهم الروم، وشهد وزراء الملك عنده أن النصارىٰ لهم شريعةٌ ودينٌ، وأنه لا يحلّ أن يستعبدوا، فكف عنهم الأذية.

قال: وفي عصره كتب «يوحنا» إنجيله بالرومية في جزيرةٍ يقال لها: «تيمرا» من أرض الروم من أرض أثينة، في عصر رجلٍ من عظماء الروم، فيلسوفٌ يقال له: «مومودس».

قال: وفي ذلك العصر رجع اليهود إلىٰ بيت المقدس، فلما كثروا وامتلأت منهم المدينة عزموا علىٰ أن يملكوا منهم ملكًا، فبلغ الخبر «طيباريوس» قيصر، فوجه بقائدٍ من قواده بجيشٍ عظيمٍ إلىٰ بيت المقدس، فقتل من اليهود ما لا

---

(١) أفسس: ويقال: أفسوس، بلد بثغور طرسوس. وقيل: هي طرسوس، يقال: إنه بلد أصحاب الكهف. انظر معجم البلدان (١/ ٢٣١).

(٢) إمبراطور روماني. انظر موسوعة ويكيبيديا.

يحصىٰ كثرةً.

قال: وخرج علىٰ قيصر هذا خارجيٌّ مقاتلٌ ببابل، فخرج إليه بنفسه، فوقعت بينهم حربٌ شديدةٌ، وقتل من الفريقين خلقٌ عظيمٌ، وقتل قيصر في الحرب، وملك بعده «أندريانوس» قيصر عشرين سنةً، فخرج إلىٰ ذلك الخارجي ببابل فهزم، وصار إلىٰ مصر فلقي منه أهل مصر شدةً شديدةً، وأخذ الناس بعبادة الأصنام، وقتل من النصارىٰ خلقًا كثيرًا، وأصاب «إيليا» ابنه علةً في بدنه، فكان ينفذ إلىٰ البلدان يطلب شفاءً لعلته، فوصفوا له بيت المقدس، فلما وافاها رآها خرابًا، ليس فيها أحدٌ إلا كنيسةً للنصارىٰ، فأمر أن تبنىٰ المدينة، وتحصّن بحصنٍ قويٍّ.

فلما سمع اليهود أقبلوا من كل بلدٍ وكل مدينةٍ، فما كان إلا زمانٌ قليلٌ حتىٰ امتلأت منهم المدينة، فلما كثروا ملّكوا عليهم ملكًا، فاتصل الخبر بـ «إيليا بن قيصر إِنْدِرْيَانُوسَ» فوجه إليهم بقائدٍ من قواده مع خلقٍ كثيرٍ، فحاصر المدينة، فمات كل من فيها من الجوع والعطش، ثم فتحها، فقتل من اليهود ما لا يحصىٰ، وهدم الحصن، وخرب المدينة، حتىٰ صيّرها صحراء.

قال: وهذا آخر خراب بيت المقدس، وهرب من اليهود من هرب إلىٰ مصر، وإلىٰ الشام، وإلىٰ الجبال، وإلىٰ الغور، وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن يقتل اليهود، ويستأصلوا، وأن يسكن المدينة اليونانيون، ويبنوا علىٰ باب الهيكل برجًا، ويجعل فوقه ألواحًا، ويكتبوا عليه اسم «إيليا» الملك، وذلك من ثمان سنين من ملكه.

قال: والبرج اليوم علىٰ باب مدينة القدس، وسمي محراب داود.

قال: فسمىٰ بيت المقدس إلىٰ هذا الوقت «إيليا».

فمـن الخـراب الأول الـذي أخربـه «طـيطس» إلـىٰ هـذا الخـراب ثـلاثٌ وخمسون سنةً.

وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين، فنظروا إلىٰ النصارىٰ يأتون إلىٰ تلك المزبلـة التـي فيهـا القـبر والأقرانيـون، فيصـلّون، فمنعـوهم مـن ذلـك، وبنـىٰ اليونـانيون علـىٰ تلـك المزبلـة هـيكلًا علـىٰ اسـم الزهـرة، فلـم يقـدر أحـدٌ مـن النصارىٰ بعد ذلك أن يقرب ذلك الموضع.

قال: ثم مات «إيليا» الملك، وملك بعده «أنطونيوس» قيصر برومية اثنين وعشرين سنةً.

قـال: وفي إحـدىٰ عشـرة سـنةً مـن ملكـه صـير «يهـودا» أسـقفًا علـىٰ بيـت المقدس، فأقام سنتين، ومات.

قـال: فمـن «يعقـوب» أسـقف المقـدس الأول إلـىٰ «يهـودا» أسـقف بيـت المقدس هذا، كانت الأساقفة الذين صيروا علىٰ بيت المقدس مختونين.

وذكر أنه ولي بعد هذا قيصر آخر اسمه «مرقس» تسع عشرة سنةً، وأنـه أثـار علىٰ النصار بلاءً عظيمًا، وحزنًا شديدًا، واستشهد في زمانه شهداء كثيرون.

قال: وكان في أيامه جوعٌ شديدٌ، ووباءٌ عظيمٌ، لم تمطـر السـماء سـنين، وكـاد الملك وجميع أهل مملكته أن يهلكـوا مـن الجـوع، فسـألوا النصـارىٰ أن يبتهلـوا إلىٰ إلههم، فدعوا، فأمطر الله عليهم مطرًا عظيمًا، وارتفع الوباء والقحط.

قال: وكان بأيامه بأرض اليونانيين «مغنوس» الحكيم.

قـال: وفي خمـس سـنين مـن ملكـه صـير «لوليـاثوس» بطريركًـا، وهـو أول بطريرك أصلح الأساقفة في عمل مصر، أقام ثلاثًا وأربعين سنةً، ومات.

قال: وفي ذلك العصر كتب بطريرك الإسكندرية إلىٰ أسقف بيت المقدس، وبطرك إنطاكية، وبطرك رومية، في كتاب فصح النصارىٰ وصومهم، وكيف يستخرج من فصح اليهود، فوضعوا في ذلك كتبًا كثيرةً علىٰ ما هو عليه اليوم.

قال: وذلك أن النصارىٰ كانوا بعد صعود سيدنا المسيح إلىٰ السماء إذا عيّدوا عيد الغطاس[1] من الغد يصومون أربعين يومًا، ويفطرون، كما فعل سيدنا يسوع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن سيدنا المسيح لما اعتمد بالأردن خرج إلىٰ البرية، فأقام بها صائما أربعين يومًا.

وكان النصارىٰ إذا أفصح اليهود عيّدوا هم الفصح، فوضع هؤلاء البطاركة حسابًا للفصح؛ ليصوم النصارىٰ أربعين يومًا، ويكون فطرهم يوم الفصح؛ ليتم فرحهم بذلك.

قلت: فقد أخبر عن المسيح أنه لما صام أربعين يومًا عقب المعمودية ـ وكان يعيّد مع اليهود في عيدهم، لا يعيّد عقب صومه ـ شاركه النصارىٰ في ذلك مدةً، فصاروا يصومون أربعين عقب الغطاس الذي هو نظير المعمودية، ويعيّدون مع اليهود العيد.

ثم إنهم بعد هذا ابتدعوا تغيير الصوم، فلم يصوموا عقب الغطاس، بل نقلوا الصوم إلىٰ وقتٍ يكون عيدهم مع عيد اليهود، فيكون عيدهم مع عيد اليهود، وهو فصح المسيح، ويكون ذلك وقت قيامته من قبره.

قال: ومات «مرقص» الملك، وملك بعده «قمودوس» قيصر برومية اثنتي

---

(١) أحد أعياد النصارىٰ، ويسمىٰ عيد الظهور الإلهي، وعيد العماد، وعيد الدنح. انظر موسوعة ويكيبيديا.

عشرة سنةً، وفي أيامه كان في أرض اليونانيين في مدينة أفرغامس «جالينوس»[(١)] الحكيم، صاحب صناعة الطب، وذكر «جالينوس» في فهرست كتبه أنه ربّىٰ «قمودوس» الملك.

وذكر «جالينوس» في المقالة الأولىٰ من الكتاب المعروف بـ «كتاب أخلاق النفس» أنه كان في عصر «قمودوس» الملك رجلٌ يقال له: «بولس» طلبه «قمودوس» الملك ليقتله، فهرب منه، وكان له غلامان، فقبضهما الملك، فضربهما الملك، وطلب منهما أن يدلّاه علىٰ مولاهما، فلم يفعلا؛ لكرم أنفسهما ونخوتهما، وشدة محاماتهما علىٰ مولاهما، فقتلهما.

أن من الإسكندر إلىٰ بولس خمسمائة سنة، وست عشرة سنة، وذلك في السنة التاسعة من ملك «قمودوس» قيصر، فهذا ما ذكر «جالينوس».

قال: وكان أيضًا في أيام «ديمقراطيس» الحكيم.

قلت: هذه المدة أكثر مما ذكره سعيدٌ هذا، فإنه لم يذكر من المسيح إلىٰ هنا مائتا سنة، بل ذكر إلىٰ الخراب مائة وثلاثة وعشرين سنةً، وقد تقدم ذكره لـ «ديمقراطيس» قبل هذا.

قال: وفي عشر سنين من ملكه ظهرت الفرس فغلبت علىٰ بابل، وأمدوا فارس، وتملك «أزدشير بن ساسان بابل» من أهل أصطخر، وهو أولُ ملكٍ مُلِّكَ علىٰ فارس في المرة الثانية.

قال: ومات «قمودوس» قيصر ملك الروم، وملك بعده قيصرٌ آخر ثلاثة

---

(١) جالينوس: معناه: الساكن، كان علىٰ دين النصرانية، وكان إمام الأطباء، ورئيس الطبيعيين في وقته، مات في مدينة سلطانية، وعاش (٨٨) سنة. انظر: الفهرست (ص٤٠٢)، وأبجد العلوم (٣/ ١١٤).

أشهر، ثم آخر وملك بعده برومية «سويرس» قيصر سبع عشرة سنةً، وذلك في أربع سنين من ملك «أزدشير»[(١)].

وكان هذا الملك شديدًا، قد أثار على النصارى بلاءً عظيمًا، وعذابًا كبيرًا، وقتل كل عالمٍ منهم، وقتل خلقًا كثيرًا، واستشهد في أيامه خلقٌ كثيرٌ من النصارى في كل موضعٍ، ثم قتل كل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى، وهدم الكنائس، وبنى بالإسكندرية هيكلًا، وسماه «هيكل الآلهة».

وملك بعده قيصرٌ وهو «أنطونيوس» الأصلع ستّ سنين، وملك بعده قيصرٌ آخر ثلاث عشرة سنةً، كانت النصارى في أيامه في هدوءٍ وسلامةٍ، وكانت أمه تحبّ النصارى، وفي أيامه سُمي بطرك الإسكندرية «بابا» أي الجد، وملك بعده قيصرٌ آخر ثلاث سنين، وهذا أثار على النصارى بلاءً طويلًا، وحزنًا عظيمًا، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأخذ الناس بعبادة الأصنام، وقتل من الأساقفة خلقًا كثيرًا، وقتل بترك أنطاكية، فلما سمع أسقف بيت المقدس بقتله هرب، وترك الكرسي.

قال: ومات قيصر هذا في السنة الثانية من ملك «بهرام بن هرمز»، وملك بعده قيصرٌ آخر ثلاثة أشهر، ثم بعده آخر أربع سنين، واسمه «غرديانوس»، وفي ثلاث سنين من ملكه مات «بهرام بن هرمز» وملك بعده «بهرام بن بهرام» على الفرس تسع عشرة سنةً.

وفي أيامه ظهر رجلٌ فارسيٌّ يقال له: «ماني»، فأظهر دين المانية، وزعم أنه نبيٌّ، فأخذه «بهرام بن بهرام» ملك الفرس، فشقه نصفين، وأخذ من أصحابه،

---

(١) أحد ملوك الفرس ذو بأس شديد، وله مملكة واسعة، وله قصة غريبة في زواجه ببنت ملك بحر الأردن. انظر الموسوعة الشاملة.

وممن يقول بقوله مائتي رجل، فغرس رؤوسهم في الطين منكسين حتىٰ ماتوا منكسين.

وملك بعد قيصر هذا «فيلبس» قيصرًا برومية سبع سنين، وآمن بالسيد المسيح، ووثب عليه قائدٌ من قواده، فقتله.

ثم ملك بعده قيصر آخر اسمه «داقنوس» ـ وهو «دقيانوس» ـ وذلك من عشر سنين من ملك «بهرام بن بهرام»، فلقي النصارىٰ منه حزنًا طويلًا، وعذابًا شديدًا، وقتل منهم من لا يحصىٰ، واستشهد في أيامه من الشهداء خلقٌ كثيرٌ، وقتل بطرق رومية، ثم خرج إلىٰ مدينة «أفسس»، فبنىٰ في وسطها هيكلًا عظيمًا، وصيّر فيه الأصنام، وأمر أن يسجد للأصنام، ويذبح لها، ومن لم يفعل ذلك قتل، فقتل من النصارىٰ بـ «أفسس» خلقًا عظيمًا، وصلبهم علىٰ الحصن، واتخذ من أولاد عظماء «أفسس» سبعة غلمان من خواصه، وعلىٰ كسوته، وقدمهم علىٰ جميع من عنده، وذكر أسماءهم أسماء أصحاب أهل الكهف.

قال: وهؤلاء السبعة الغلمان لم يسجدوا للأصنام، فأعلموا الملك بخبرهم، فأمر بحبسهم، ثم خرج إلىٰ بعض المواضع، وأطلق سبيلهم إلىٰ حين رجوعه، فلما خرج من المدينة أخذ الغلمان كل ما لهم فتصدقوا به، ثم خرجوا إلىٰ جبلٍ عظيمٍ يقال له: «جاوس» شرقي أفسس، فيه كهفٌ كبيرٌ، فاختفوا في الكهف، فكان واحدٌ منهم في كل يوم يتنكر، ويدخل المدينة، فيسمع ما يقول الناس في شأنهم، ويشتري لهم طعامًا، ويرجع، فيعلمهم.

فقدم «دقيانوس» الملك، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم في جبل «جاوس» في الكهف مختفين، فأمر الملك أن يبنىٰ باب الكهف عليهم ليموتوا، وصب الله عليهم النعاس فناموا كالأموات، وأخذ قائدٌ من قواده صفيحةً من نحاسْ، وكتب فيها خبرهم، وقصتهم مع «دقيانوس» الملك، وصير الصفيحة في

صندوق نحاسٍ، ودفنه داخل الكهف، وبنىٰ الكهف.

ومات الملك «دقيانوس» قيصر، وملك بعده قيصران برومية سنتين، ثم قيصر آخر اسمه «غنيونوس» خمس عشرة سنةً، وملك بعده قيصرٌ آخر سنةً واحدةً، ومات، وذلك من ثلاث سنين من ملك «هرمز».

وفي أول سنةٍ من ملك هذا صير «بولس» بطركًا علىٰ أنطاكية، ويسمىٰ «بولس الشمشاطي».

قال: وهو الذي ابتدع دين «البوليانية»، فسمي التابعون لدينه والقائلون بمقالته «بوليانيين».

قال: وكانت مقالته أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنسانًا، كواحد منّا في جوهره، فإن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلِّصًا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، فحلّت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي «ابن الله».

و**قال**: إن الله جوهرٌ واحدٌ، وأقنومٌ واحدٌ، ولا نؤمن بالكلمة، ولا بروح القدس.

قال: وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفًا في مدينة أنطاكية، ونظروا في مقالة «بولس»، فأوجبوا علىٰ هذا «الشمشاطي» اللعن فلعنوه، ولعنوا من يقول مقالته، وانصرفوا.

قال: وبعده ملك قيصرٌ آخر ستّ سنين، اسمه «أوراغوس» قيصر.

قال: وكان النصارىٰ بالإسكندرية في أيامه يصلّون في المطامير والبيوت فزعًا من الروم، ولم يكن يظهر بترك بالإسكندرية لئلا يقتلوهم، فلما صار «نارون» بطركًا ظهر، ولم يزل يداري الروم حتىٰ بنىٰ بالإسكندرية كنيسة «حنّا»

و «مار مريم».

وملك بعده قيصران، ثم قيصرٌ اسمه «فاروس»، وذلك في تسع سنين من ملك «سابور بن هرمز»، وكان شديدًا علىٰ النصارىٰ، قتل الأخوين: «قزمان» و «دميان» الشهيدين، وملك بعده «دقيطيانوس».

قال: فمن خراب «طيطس» لبيت المقدس إلىٰ ملك «دقيطيانوس» مائتان وستّ سنين، ومن مولد سيدنا المسيح إلىٰ «دقيطيانوس» مائتان وست وسبعون سنةً، ومن «الإسكندر» إلىٰ «دقيطيانوس» خمسمائة وخمس وتسعون سنةً، ومن سبي بابل إلىٰ «دقيطيانوس» ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنةً، ومن «داود» إلىٰ «دقيطيانوس» ألف وتسعمائة وإحدىٰ وأربعون سنةً.

قال: وملك «دقيطيانوس» في إحدىٰ عشرة سنةً من ملك «سابور بن هرمز» ملك الفرس، وملك معه اثنان تملّكا علىٰ الروم إحدىٰ وعشرين سنة، وهؤلاء أثاروا علىٰ النصارىٰ بلاءً عظيمًا، وحزنًا طويلًا، وعذابًا أليمًا، وشدةً شديدةً، تجلّ عن الوصف؛ من القتل، والعذاب، واستباحة الأموال، واستشهدوا ألوفًا من الشهداء، وعذبوا «ماري جرجس»(١) أصناف العذاب، وقتلوه بفلسطين، وقتلوا «ماري مينا»(٢)، و «ماري بقطر»(٣)، (٤) وغيرهما.

---

(١) من القديسين الكبار، ومن الرموز الذين يعتد بهم، ولد عام ٢٧٥، وتوفي عام ٣٠٣، انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٢) ولد هذا القديس في مصر عام ٢٨٥م من أبوين مسيحيين، واستشهد وحرقوه، ويزعمون أن النار لم تؤثر فيه. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٣) من أبطال الكنيسة القبطية ولد في بلدة شو التابعة لمركز محافظة أسيوط. انظر موسوعة ويكيبيديا.

(٤) زاد في بعض النسخ: «وأيتماخوس ومركورس».

قال: وفي عشر سنين من ملكهما صير «بطرس» بطركًا علىٰ الإسكندرية، فأقام عشر سنين وقتل.

وفي عشرين سنة من ملكهما ضرب عنق «بطرس» هذا البطرك بالإسكندرية.

قال: وكان لـ «بطرس» تلميذان، اسم أحدهما: «أشلا»، والآخر: «الْأَكْصَنْدَرُوسُ».

وكان بالإسكندرية رجلٌ يقال له: «أوريوس» يقول: إن الأب وحده الله الفرد، والابن مخلوقٌ مصنوعٌ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن.

قال: وأما «دقيطيانوس» الملك، فكان يطلب النصارىٰ فيقتلهم، فبينما هو يسير في طلبهم إذ بلغ إلىٰ موضعٍ يقال له: «ملطية»، فصبّ الله عليه نقمته، فوقع في علل عظيمةٍ، وأمراضٍ عظيمةٍ حتىٰ ذاب جسمه، وكان الدود يتساقط من بدنه إلىٰ الأرض، وسقط لسانه من حنكه، ومات.

وملك بعده قيصران: أحدهما المشرق والشام وأرض الروم، والآخر رومية ونحوها، وكان أحدهما اسمه «علانيوس»، والآخر «مقصطيوس»، فكانا كالسباع الضارية علىٰ النصارىٰ، وأثارا عليهم البلاء والجلاء، وما لا يصفه واصفٌ، وفعلا بهم ما لم يفعله أحدٌ من الملوك قبلهم.

وملك معهما علىٰ بزنطية وما والاها «قسطس» أبو قسطنطين، وكان رجلًا ديّنًا مبغضًا للأصنام، محبًّا للنصارىٰ، فخرج «قسطس» إلىٰ ناحية الجزيرة و «الرها»، فنزل في قرية من قرىٰ الرها يقال لها: «كفرجاث»، فنظر فيها امرأةً حسنةً جميلةً يقال لها: «هيلانة»، وكانت قد تنصرت علىٰ يدي أسقف الرها، وتعلمت قراءة الكتب.

وولدت «هيلانة» «قسطنطين»، فتربىٰ بالرها، وتعلم حِكَم اليونانيين، وكان غلامًا حسن الوجه، قليل الشر، وديعًا محبًّا للحكمة.

وأما «علانيوس» فكان رجلًا وحشيًّا، شديد البأس، مبغضًا للنصارىٰ جدًّا، كثير القتل لهم، محبًّا للنساء، ولم يترك للنصارىٰ بنتًا بكرًا إلا أخذها وأفسدها، وقتلها، وكذلك أصحابه، وهكذا كانوا يفعلون بالنصارىٰ، وكان النصارىٰ في شدّةٍ شديدةٍ جدًّا معهم.

وبلغه خبر قسطنطين، وأنه غلامٌ هادٍ، قليل الشرّ، كثير العلم والخير، وأخبره الحكماء الذين له، والمنجمون أن قسطنطين سيملك ملكًا عظيمًا، فَهَمَّ بقتله، وعلم قسطنطين بذلك، فهرب من الرها، وذهب إلىٰ مدينة بزنطية، ووصل إلىٰ أبيه «قسطس»، فسلم إليه الملك، وبعد قليلٍ مات «قسطس».

وصبّ الله علىٰ «علانيوس» الملك عللًا عظيمةً حتىٰ تقطع لحمه، وتهرّأ، وبقي مطروحًا، لا يقدر أحدٌ أن يقترب منه، فعجب الناس مما ناله، ورحمه أعداؤه مما حلّ به، فرجع إلىٰ نفسه، وقال: لعل هذا الذي بي مما أقتل النصارىٰ.

فكتب إلىٰ جميع عماله: أن يطلقوا النصارىٰ من الحبوس، وأن يكرموهم، ولا يؤذوهم، ويسألونهم أن يدعوا له في صلاتهم، فصلّىٰ النصارىٰ علىٰ الملك، ودعوا له، فوهب الله له العافية، ورجع إلىٰ أفضل مما كان عليه من الصحة والقوة.

فلما صحّ وقوي رجع إلىٰ أشر مما كان عليه من الردىٰ، وكتب إلىٰ جميع عماله: أن يقتلوا النصارىٰ، ولا يعيش في مملكته نصراني، ولا يسكنوا مدينةً، ولا قريةً له.

فمـن كثـرة القتلىٰ كـانوا يحملـون علىٰ العجـل، ويرمـون بهـم في البحـار والصحارىٰ، وقتل «مـار جـرجس» وأخـاه بمدينـة «قباذوقيـة»، وهمـا مـن أهلهـا، وقتل «بربارة».

وذكر حربًا جرت بينه وبين «سابور» لما تنكر «سابور»، وجاء إليه متنكرًا وعرفه.

قال: وأما «مقسطيوس» فكان شرّيرًا علىٰ أهل رومية، واستعبد كل من كان برومية، وخاصة النصارىٰ، فكان ينهب أموالهم، ويقتل رجالهم، ونساءهم، وصبيانهم.

فلما سمع أهل رومية بملك «قسطنطين»، وأنه مبغضٌ للشر، محبٌ للخير، وأن أهل مملكته معه في هدوءٍ وسلامةٍ، كتب رؤساء رومية إلىٰ «قسطنطين» يسألونه، ويطلبون إليه أن يخلصهم من عبودية «مقسطيوس» عدوّ الله.

فلما قرأ كتبهم اغتمَّ غمًّا شديدًا، وبقي متحيّرًا، ولا يدري كيف يصنع، فبينما هو متفكرٌ إذ ظهر له من نصف النهار في السماء صليبٌ من كواكب تضيء، مكتوبًا حوله: بهذا تغلب.

فقال لأصحابه: رأيتم ما رأيت؟ قالوا: نعم.

فآمن من ذلك الوقت بالنصرانية، وذلك لستٍّ سنين من بعد موت أبيه، فتجهز «قسطنطين» واستعد لمحاربة «مقسطيوس» ملك رومية، وعمل صليبًا كبيرًا من ذهبٍ، وصيّره علىٰ رأس البند، وخرج يريد «مقسطيوس».

فلما سمع «مقسطيوس» أن «قسطنطين» قد وافاه لمحاربته، استعد لحربه، وعقد جسرًا علىٰ النهر الذي قدام رومية، وخرج مع جميع أصحابه يحارب «قسطنطين».

فأعطي «قسطنطين» النصرة عليه، فقتل من أصحاب «مقسطيوس» مقتلةً عظيمةً، وهرب «مقسطيوس»، وغرق هو وأصحابه حتىٰ امتلأ البحر ــ وهو النهر الذي عند رومية ـ غرقىٰ وقتلىٰ.

وخرج أهل رومية إلىٰ «قسطنطين» بالإكليل: الذهب، وكل أنواع اللهو واللعب، فلقوا «قسطنطين»، وفرحوا فرحًا عظيمًا، فلما دخل المدينة أمر أن تدفن أجساد النصارىٰ الشهداء المصاليب، وكل من كان من النصارىٰ هرب أو نفاه «مقسطيوس» يرجع إلىٰ بلده وموضعه، ومن أُخذ له شيءٌ رُدَّ إليه.

وأقام أهل رومية سبعة أيام يعيدون للملك وللصليب ويفرحون.

فلما سمع الخبر «علانيوس» جمع ما قدر عليه، وتجهز لقتال «قسطنطين»، فلما عاينه انهزموا من بين يديه، وأخذهم بالسيف، وقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ومنهم من أُسر، ومنهم من استأمن.

وأفلت «علانيوس» عريانًا، فلم يزل يتقوىٰ موضعًا موضعًا حتىٰ وافىٰ مدينته، فجمع الكهنة والسحرة والعرافين الذين كان يحبهم، ويقبل منهم، فضرب أعناقهم؛ لئلا يقعوا في يد «قسطنطين».

وصبّ الله علىٰ «علانيوس» نارًا في جوفه حتىٰ كانت أحشاؤه تتقطع من الحرّ الذي كان يجده في جوفه، وسقط علىٰ الأرض، وتهرأ لحمه علىٰ عظمه، ومات.

وملك «قسطنطين» الدنيا في هدوءٍ وسلامةٍ، وذلك في إحدىٰ وأربعين سنةً من ملك «سابور بن هرمز» ملك الفرس.

قال: وتنصر «قسطنطين» في مدينةٍ يقال لها: «نيقوميديا»[١]، وذلك في اثنتي عشرة سنةً من ملكه، وأمر ببناء الكنائس في كل بلدٍ، وأن يخرج من بيت المال الخراج مما يعمل به أبنية الكنائس.

قال: وفي خمس سنين من ملكه صير «الأكصندروس» بطريركًا علىٰ الإسكندرية، وهو تلميذ بطركها «بطرس» الذي قُتل، وهو رفيق «أشلا»، فأقام ستّ عشرة سنةً، وفي خمس عشرة سنةً من رياسته كان المجمع بمدينة «نيقية»، الذي رُتِّبَتْ فيه الأمانة الأرثذكسية.

فمنع «الأكصندروس» بترك الإسكندرية «أريوس» من دخول الكنيسة، ولعنه، وقال: إن «أريوس» ملعونٌ؛ لأن «بطرس» البترك قبل أن يستشهد قال لنا: إن الله لعن أريوس، فلا تقبلوه، ولا تدخلوه الكنيسة.

وكان علىٰ مدينة «أسيوط» من عمل مصر أسقفٌ يرىٰ رأي «أريوس»، فلعنه أيضًا.

وكان بالإسكندرية هيكلٌ عظيمٌ، كانت «كلاوبطرة» الملكة بنته علىٰ اسم «زحل»، وكان فيه صنمٌ من نحاسٍ عظيمٍ يسمىٰ «ميكائيل»، وكان أهل الإسكندرية ومصر في اثني عشر يومًا في شهر هتور ـ وهو تشرين الثاني ـ يعيدون لذلك الصنم عيدًا عظيمًا، ويذبحون الذبائح الكثيرة، فلما صار هذا بطركًا علىٰ الإسكندرية، وظهرت النصرانية، أراد أن يكسر الصنم، ويبطل الذبائح، فامتنع عليه أهل الإسكندرية، فاحتال لهم بأن قال: إن هذا صنمٌ لا منفعة فيه، ولا مضرة، فلو صيرتم العيد لميكائيل الملاك، وجعلتم هذه الذبائح له، كان أنفع لكم عند الله، وكان خيرًا لكم من هذا الصنم، فأجابوه إلىٰ ذلك، فكسر الصنم،

(١) مدينة في تركيا تأسست عام ١١/ ٧١٢، قبل الميلاد. انظر موسوعة ويكيبيديا.

وأصلح منه صليبًا، وسمىٰ الهيكل «كنيسة ميكائيل» ـ وهي الكنيسة التي تسمىٰ «قيسارية» احترقت بالنار وقت موافاة الجيوش من المغاربة القرامطة مع المسمىٰ «أبو عبيد الله»، وكان معه أمير من أصحابه يسمىٰ «حباسة» وذلك في خلافة «المعتضد بالله»، وكان عامله علىٰ مصر يومئذٍ مولاه المعروف بـ «تكين الحاجب» رجلٌ تركيٌّ، فنفر إلىٰ المغاربة، وجاءه مددٌ من الشرق، مع الخادم الملقب «مونس الأستاذ»، فهرب منه أبو عبيد الله وحباسة وجنودهما ـ وصير العيد لميكائيل الملك والذبائح.

وإلىٰ اليوم القبط بمصر والإسكندرية يعيدون في هذا اليوم عيد «ميكائيل الملاك»، ويذبحون فيه الذبائح الكثيرة، وكذلك الملكية يعيدون في هذا اليوم عيد «ميكائيل الملاك»، وصار رسمًا إلىٰ اليوم.

قال: فلما منع بترك الإسكندرية «أريوس» من دخول الكنيسة، ولعنه، خرج «أريوس» مستعديًا عليه، ومعه أسقفان، فاستغاثوا إلىٰ «قسطنطين» الملك.

وقال أريوس: إنه تعدىٰ عليّ، وأخرجني من الكنيسة ظلمًا.

وسأل الملك أن يشخص «الأكصندروس» بطرك الإسكندرية؛ ليناظره قدام الملك، فوجه «قسطنطين» برسول إلىٰ الإسكندرية، فأشخص البطرك، وجمع بينه وبين أريوس ليناظره، فقال قسطنطين لأريوس: اشرح مقالتك.

قال أريوس: أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم الله أحدث الابن، فكان كلمةً له، إلا أنه محدثٌ مخلوقٌ، ثم فوض الأمر إلىٰ ذلك الابن المسمىٰ «كلمة»، فكان هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، كما قال في إنجيله إذ يقول: «وهب لي سلطانًا علىٰ السماء والأرض»، فكان هو الخالق لهما بما أعطىٰ من ذلك.

ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء، ومن روح القدس، فصار ذلك مسيحًا واحدًا.

فالمسيح الآن معنيان: كلمةٌ وجسدٌ، إلا أنهما جميعًا مخلوقان.

قال: فأجابه عند ذلك بطرك الإسكندرية، وقال: تخبرنا الآن، أيما أوجب علينا عندك: عبادة من خلقنا، أو عبادة من لم يخلقنا؟.

قال أريوس: بل عبادة من خلقنا.

قال له البطرك: فإن كان خالقنا الابن ـ كما وصفت ـ وكان الابن مخلوقًا، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالقٍ، بل تصير عبادة الأب الخالق للابن كفرًا، وعبادة الابن المخلوق إيمانًا، وذلك من أقبح الأقاويل.

فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البطرك، وشنع عندهم مقالة أريوس، ودار بينهما أيضًا مسائل كثيرةً.

فأمر «قسطنطين» البطرك «الأكصندروس» أن يلعن «أريوس»، وكل من قال بمقالته، فقال له: بل يوجه الملك فيشخص البطاركة والأساقفة حتىٰ يكون لنا مجمعٌ، ونضع فيه قضيةً، ونلعن «أريوس»، ونشرح الدين، ونوضحه للناس.

*****

[عدد مجمع نيقية من البطارقة والأساقفة
واختلافهم في الآراء والأديان]

فبعث «قسطنطين» الملك إلىٰ جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة، فاجتمع في مدينة «نيقية» بعد سنةً وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا، وكانوا مختلفي الآراء مختلفي الأديان.

فمنهم من يقول: المسيح ومريم إلهان من دون الله.

وهم «المريمانية»، ويسمون «المريميين».

ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نارٍ تعلقت من شعلة نارٍ، فلم تنقص الأولىٰ لإيقاد الثانية منها.

وهي مقالة «سبارينون» وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: لم تحبل مريم لتسعة أشهر، وإنما مرّ نورٌ في بطن مريم، كما يمرّ الماء في الميزاب؛ لأن كلمة الله دخلت من أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها.

وهي مقالة «ألبان» وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسانٌ خُلِقَ من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصْطُفِي ليكون مخلصًا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، فحلّت فيه المحبة والمشيئة، فلذلك سمي «ابن الله»، ويقولون: إن الله جوهرٌ واحدٌ، وأقنومٌ واحدٌ، يسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس.

وهـي مقالـة «بـولص الشمشـاطي» بطـرك أنطاكيـة وأشـياعه، وهـم «البوليانيون».

ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة، لم يزل صالحٌ وطالحٌ، وعدلٌ بينهما.

وهي مقالة «مرقيون» وأشياعه.

وزعموا أن «مرقيون» رئيس الحواريّين، وأنكروا «بطرس السليح».

ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح.

وهي مقالة «بولس» الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا.

قال: فلما سمع «قسطنطين» الملك مقالاتهم عجب من ذلك، وأخلىٰ لهم دارًا، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم لينظر من معه الحق فيتبعه.

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا علىٰ دينٍ واحدٍ، ورأيٍ واحدٍ، فناظروا بقية الأساقفة المختلفين، فأفلجوا عليهم حججهم، وأظهروا الدين المستقيم، وكان أيضًا باقي الأساقفة مختلفي الأديان والآراء.

وصنع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا مجلسًا خاصًّا عظيمًا، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه، وسيفه، وقضيبه، فدفعها إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم اليوم علىٰ المملكة، لتصنعوا ما بدا لك، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين.

فباركوا علىٰ الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذُبَّ عنه.

ووضعوا له أربعين كتابًا، فيها السنن والشرائع، وفيها ما يصلح أن يعمل به

الأساقفة، وما يصلح للملك أن يعمل بما فيها.

وكان رئيس المجمع، والمقدم فيه «الأكصندروس» بطريرك الإسكندرية، وبطرك الأنطاكية، وأسقف بيت المقدس، ووجه بطرك رومية من عنده رجلين، فاتفقوا علىٰ نفي «أريوس» وأصحابه، ولعنوهم وكل من قال مقالته، ووضعوا تلك الأمانة، وثبتوا أن الابن مولودٌ من الأب قبل كل الخلائق، وأن الابن من طبيعة الأب غير مخلوقٍ.

واتفقوا علىٰ أن يكون فصح النصارىٰ في يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود، وأن لا يكون فصح اليهود مع فصح النصارىٰ في يومٍ واحدٍ، وثبتوا ما وضعه من تقدم ذكره من حساب الصوم والفصح، وأن يكون فطر النصارىٰ يوم فصحهم يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود؛ لأن النصارىٰ ــ كما قلنا من قبل ـ كانوا إذا عيدوا عيد الحميم ـ وهو عيد الغطاس ـ صاموا من الغدّ أربعين يومًا، ويفطرون، فإذا كان عيد اليهود عيدوا معهم الفصح، فصيروا يوم الفصح للفطر.

ومنعوا أن يكون للأسقف زوجةً، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريّين إلىٰ مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر كان لهم نساءٌ؛ لأنه كان إذا اختير واحدٌ أسقفًا، وكانت له زوجةً تبيت معه ولم تتنحَّ عنه، ما خلا البطاركة، فإنه لم يكن لهم نساءٌ، ولا كانوا أيضًا يصيرون أحدًا بطركًا له زوجةٌ.

قال: وانصرفوا مكرمين محظوظين، وذلك في سبع عشرة سنةً من ملك «قسطنطين».

قال: وسنّ «قسطنطين» الملك ثلاث سننٍ:

أحدها: كسر الأصنام، وقتل كل من يعبدها.

والثانية: أن لا يثبت في الديوان إلا أولاد النصارىٰ، ويكونون أمراء وقوادًا.

والثالثة: أن يقيم الناس جمعة الفصح والجمعة التي بعدها لا يعملون فيها عملًا، ولا يكون فيها حربٌ.

قال: وتقدم «قسطنطين» إلىٰ أسقف بيت المقدس أن يطلب موضع المقبرة والصليب، ويبني الكنائس، ويبدأ ببناء القيامة المقدسة.

فقالت «هيلانة» أم قسطنطين للملك: إني نذرت أن أصير إلىٰ بيت المقدس، فأطلب المواضع المقدسة، فأبنيها.

فدفع الملك إليها أموالًا كثيرةً جزيلةً، وسارت إلىٰ بيت المقدس مع أسقف بيت المقدس، فلما وصلت لم يكن لها حرصٌ ولا همّةٌ إلا طلب الصليب، فجمعت اليهود والسكان في بيت المقدس، واختارت منهم عشرةً، ومن العشرة ثلاثةً، كان واحدٌ منهم يقال له: «يهوذا»، فسألتهم أن يدلّوها علىٰ موضع الصليب، فامتنعوا، وقالوا: ليس عندنا علمٌ منه، ولا خبرةٌ بالموضع.

فأمرت بهم، فطرحتهم في جبّ ليس فيه ماءٌ، فأقاموا سبعة أيام لم يطعموا، ولم يسقوا، فقال أحدهم الذي اسمه «يهوذا» لصاحبيه: إن أباه عرفه بالموضع الذي تطلب هذه المرأة، وإن جدّه عرف أباه.

فصاح الاثنان من الجبّ: أخرجونا حتىٰ نعلم الملكة بحال هذا الرجل.

فأخرجوهم، فأخبروا الملكة بما قال لهما «يهوذا »، فأمرت بضربه بالسياط، فأقرّ أنه يعرف الموضع، فخرج حتىٰ جاء إلىٰ الموضع الذي فيه المقبرة والأقرانيون، وكانت مزبلةً عظيمةً هناك، فصلىٰ، وقال: اللهم إن كان في هذا الموضع المقبرة، فأسألك أن تزلزل المكان، وتخرج منه دخانًا حتّىٰ نؤمن، فزلزل الموضع، وخرج منه دخانٌ، كما سأل، فآمن.

فأمرت «هيلانة» بكنس الموضع من التراب، فظهرت المقبرة والأقرانيون، ووجد ثلاثة صلبان، قالت «هيلانة»: كيف لنا أن نعلم بصليب السيد المسيح، وكان بالقرب منهم عليلٌ شديد العلة، قد يئس منه، فوضع الصليب الأول عليه، والثاني، والثالث، فقام المريض، وليس به شيءٌ يكره.

فعلمت «هيلانة» أنه الصليب الذي لسيدنا المسيح، فجعلته في غلافٍ من ذهب، وحملته معها، وجملته بما تقدر عليه، وأظهرت كل ما كان مدفونًا من آثار سيدنا المسيح، وحملته إلىٰ ابنها «قسطنطين»، وبنت «كنيسة القيامة» في موضع الصليب والأقرانيون، و «كنيسة قسطنطين»، وانصرفت، وأمرت أسقف بيت المقدس أن يبني باقي الكنائس، وذلك في اثنين وعشرين سنةً من ملك «قسطنطين».

قال: فمن ميلاد سيدنا المسيح إلىٰ أن وجد الصليب ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنةً.

وذكر أنه بعد هذا اجتمعوا بمجمع عظيم ببيت المقدس.

وكان معهم رجلٌ قد دسّه بطرك القسطنطينية، وجماعة معه، ليسألوا بطرك الإسكندرية، وكان هذا الرجل لما رجع إلىٰ الملك أظهر أنه مخالفٌ لأريوس، وكان يرىٰ رأيه، ويقول بمقالته، فقام هذا الرجل واسمه «مانيوس» فقال: إن أريوس لم يقل: إن المسيح خلق الأشياء.

ولكن قال: به خلقت الأشياء؛ لأن كلمة الله التي بها خلق السماوات والأرض، وإنما خلق الله الأشياء بكلمته، ولم تخلق الأشياءَ كلمتُه، كما قال سيدنا المسيح في الإنجيل المقدس: «كلٌّ بيده كان، ومن دونه لم يكن شيءٌ» فقال: به كانت الحياة، والحياة نور البشر.

وقال: «في هذا العالم، والعالم به تكون» فأخبر أن الأشياء به تكونت، ولم يخبر أنها كونت له.

قال: فهذه كانت مقالة «أريوس»، ولكن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا تعدوا عليه، وظلموه، وحرموه ظلمًا وعدوانًا.

فردّ عليه بطرك الإسكندرية، وقال: أما «أريوس» فلم يكذب عليه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، ولا ظلموه؛ لأنه إنما قال: إن الابن خالق الأشياء دون الأب.

وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقًا، فقد يجب أن يكون ما خلق منها شيئًا، وفي ذلك تكذيبٌ للمسيح قوله: «الأب يخلق، وأنا أخلق».

وقال: «إن أنا لم أعمل عمل أبي فلا تصدقوني».

وقال: «كما أن الأب يحيي من يشاء ويميته، كذلك الابن يحيي من يشاء ويميته».

فدلّ علىٰ أنه يحيي ويخلق، وفي هذا تكذيبٌ لمن زعم أنه ليس بخالقٍ، وإنما خلقت به، دون أن يكون خالقًا له.

وأما قولك: «إن الأشياء كونت به» فإنما كنّا لا نشكّ أن المسيح حيٌّ فعالٌ وكان قد دلّ بقوله: «إنما أفعل الخلق والحياة» كان قولك: «به كونت الأشياء» إنما هو راجعٌ في المعنىٰ إلىٰ أنه كوّنها، فكانت به مكوّنة، ولو لم يكن ذلك كذلك لتناقض القولان.

قال: وردّ عليه أيضًا فقال: أما قول من قال من أصحاب «أريوس»: «إن الأب يريد الشيء، فيكوّنه الابن، والإرادة للأب، والتكوين للابن» فإن ذلك

يفسد أيضًا إذ كان الابن عنده مخلوقًا، فقد صار حظ المخلوق في الخلق أوفىٰ من حظ الخالق فيه، وذلك أن هذا أراد وفعل، وذاك أراد ولم يفعل، فهذا أوفر حظًّا في فعله من ذاك، ولا بدّ لهذا أن يكون في فعله لما يريد ذلك بمنزلة كل فاعلٍ من الخلق لما يريد الخالق منه، ويكون حكمه كحكمه في الجبر والاختيار، فإن كان مجهولًا فلا شيء له في الفعل، وإن كان مختارًا فجائزٌ أن يطاع، وجائزٌ أن يعصىٰ، وجائزٌ أن يثاب، وجائزٌ أن يعاقب.

وهذا أشنع في القول

قال: وردّ عليه أيضًا وقال: إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوقٍ، فالمخلوق غير الخالق بلا شكّ، فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره، والفاعل بغيره محتاجٌ إلىٰ مُتمّم ليفعل به؛ إذ كان لا يتمّ له الفعل إلا به، والمحتاج إلىٰ غيره منقوصٌ، والخالق يتعالىٰ عن هذا كله.

قال: فلما دحض بطرك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين، وظهر لمن حضر بطلان قولهم، تحيّروا، وخجلوا، فوثبوا علىٰ بطرك الإسكندرية فضربوه حتىٰ كاد أن يقتل، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين، وهرب بطرك الإسكندرية المحتج علىٰ أصحاب «أريوس»، وصار إلىٰ بيت المقدس من غير حضور أحدٍ من الأساقفة،، ثم أصلح دهن الميرون، وقدس الكنائس، ومسحها بدهن الميرون، وسار إلىٰ الملك، فأعلمه بالخبر، فصرفه الملك إلىٰ الإسكندرية.

قال: وبعد قتل «بطرس» بخمس سنين صُير «أشيلا» بطركًا علىٰ الإسكندرية، فأقام ستة أشهر، ومات، وكان «أريوس» قد استعان علىٰ «أشلا» بأصدقائه، فأورىٰ أنه قد رجع عن تلك المقالة، فقبله «أشلا»، وأدخله الكنيسة، وجعله قسيسًا.

قال: وأمر الملك أن لا يسكن يهودي بيت المقدس، ولا يجوز بها، ومن لم يتنصّر يقتل، فتنصر من اليهود خلقٌ كثيرٌ، وظهر دين النصرانية.

فقيل لقسطنطين الملك: إن اليهود يتنصرون من فزع القتل، وهم علىٰ دينهم.

قال الملك: كيف لنا أن نعلم ذلك منهم؟

قال «بولس» البترك: إن الخنزير في التوراة حرامٌ، واليهود لا يأكلون لحم الخنزير، فأمر أن تذبح الخنازير، وتطبخ لحومها، وتطعمهم منها، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيمٌ علىٰ دين اليهودية.

فقال الملك: إذا كان الخنزير في التوراة حرامًا، فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير، ونطعمه للناس؟!.

فقال له «بولس» البترك: إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة، وجاء بناموسٍ آخر، وبتوراةٍ جديدةٍ، وهو الإنجيل، وفي إنجيله المقدس: «إن كل ما يدخل البطن ليس بحرامٍ، ولا ينجس، وإنما يُنجس الإنسان الذي يخرج من فيه».

وقال «بولس الرسول» في رسالته إلىٰ أهل مدينة «فورينيوس» الأولىٰ: «الطعام للبطن آلته لها، والبطن للطعام، وله يلعن».

ومكتوبٌ في «الإبركسس» ـ يعني أخبار الحواريين ـ: أن «بطرس» رئيس الحواريين كان في مدينة «يافا»[1] في منزل رجلٍ دبّاغٍ يقال له: «سيمون»، وأنه

---

(١) مدينة فلسطينية قديمة تقع علىٰ الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن القدس بـ (٥٥) كيلومتر، سكانها خليط من اليهود والعرب والمسيحيين، أسسها الكنعانيون قبل الميلاد، فتحها عمرو بن العاص أيام دخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه =

صعد إلىٰ المنزل ليصلي وقت ستّ ساعات من النهار، فوقع عليه سباتٌ، فنظر إلىٰ السماء قد تفتحت، وإذا إزارٌ قد نزل من السماء حتىٰ بلغ الأرض، وفيه: «كل ذي أربع قوائم علىٰ الأرض من السباع، والذئاب، وغير ذلك من طير السماء» وسمع صوتًا يقول له: يا بطرس، قم فاذبح وكل.

فقال بطرس: يا رب، ما أكلت شيئًا نجسًا قط، ولا وسخًا قط، فجاء صوتٌ ثانٍ: كل ما طهره الله فليس بنجس ـ وفي نسخةٍ أخرىٰ: ما طهره الله فلا تنجسه أنت ـ ثم جاء الصوت بهذا ثلاث مرات، ثم إن الإزار ارتفع إلىٰ السماء، فعجب بطرس وتحيّر فيما بينه وبين نفسه.

فبهذا المنظر، وبما قال سيدنا المسيح في إنجيله المقدس أمر بطرس وبولس أن نأكل كل ذي أربع قوائم من الخنزير وغيره من جميع الحيوان حلالًا لنا.

فأمر الملك أن تذبح الخنازير، وتطبخ لحومها، وتقطع صغارًا صغارًا، وتصير علىٰ أبواب الكنائس في كل مملكته يوم أحد الفصح، وكل من خرج من الكنيسة يلقم لقمةً من لحم الخنزير، فمن لم يأكل منه يقتل، فقتل لأجل ذلك خلقٌ كثيرٌ.

قال سعيد: وكان لقسطنطين ثلاثة أولاد، أكبرهم «قسطنطين بن قسطنطين»، وذلك حين ملك «أزدشير بن سابور بن هرمز» علىٰ الفرس، وملك بعده سابور ابن سابور لخمس سنين من ملك «قسطنطين».

قال: وفي ذلك العصر اجتمع أصحاب «أريوس»، وكل من قال بمقالته إلىٰ الملك «قسطنطين»، فحملوا له دينهم ومقالتهم، وقالوا: إن الثلاثمائة وثمانية

=

القدس. انظر موسوعة ويكيبيديا.

عشر أسقفًا الذين كانوا اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا، وحادوا عن الحق في قولهم: «إن الابن متفقٌ مع الأب في الجوهر» فتأمر أن لا يقال هذا، فإنه خطأٌ، فأراد الملك أن يفعل ذلك.

قال: وفي ذلك العصر ظهر علىٰ «الأقرانيون» ـ وهو الجلجلة ـ نصف النهار صليبٌ من نورٍ من الأرض إلىٰ السماء، يفوق ضوؤه ضوء الشمس، فكان يبلغ إلىٰ «طور زيتا»[(١)]، فرأىٰ ذلك كل من كان في بيت المقدس من كبيرٍ وصغيرٍ.

فكتب أسقف بيت المقدس إلىٰ «قسطنطين بن قسطنطين» بالخبر، وقال: في أيام أبيك السعيد ظهر صليب كواكب من السماء في نصف النهار، وفي أيامك ظهر أيها الملك علىٰ «الأقرانيون» صليبٌ من نورٍ يفوق نوره نور الشمس في نصف النهار، وكتب إليه أن لا يقبل قول أصحاب «أريوس» فإنهم حائدون عن الحق كفار، قد لعنهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، ولعنوا كل من يقول بمقالتهم.

فقبل قوله.

قال: وفي ذلك الوقت غلبت مقالة «أريوس» علىٰ قسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، فسمىٰ التابعون لأريوس والقائلون بمقالته «أريوسيين» مشتقًا من اسمه.

قال: وفي ثاني سنة من ملك «قسطنطين» صُيّر علىٰ أنطاكية بطركٌ أريوسي، ثم بعده آخر أريوسي، ثم بعده آخر مناني، وصُير علىٰ قسطنطينية بترك مناني.

قال: ففي عشر سنين من ملكه صُير علىٰ قسطنطينية بطركٌ، وكان يقول:

---

(١) هو جبل كبير شرقي بيت المقدس، يشرف علىٰ المسجد الأقصىٰ، والطور بمعنىٰ الجبل. انظر موسوعة ويكيبيديا.

روح القدس مخلوقةٌ.

وأقام عشر سنين ومات.

ونقل بعد ذلك بطرك أنطاكية، فصير علىٰ قسطنطينية، وكان منانيًّا.

قال: وأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ومنانيين، فغلبوا علىٰ كنائس مصر، فأخذوها، ووثبوا علىٰ بترك الإسكندرية ليقتلوه، فهرب منهم، واستخفىٰ، وصيروا علىٰ إسكندرية بتركًا منانيًّا.

وفي ذلك الزمان قدم من القسطنطينية إلىٰ الإسكندرية قائدٌ، وكان أريوسيًّا، فنفىٰ الملكي، وأقام بطركًا أريوسيًّا، فلما خرج القائد قتل الملكيون ذلك البترك الأريوسي، وأحرقوه بالنار.

ومات الملك «قسطنطين بن قسطنطين» وله في الملك أربعٌ وعشرون سنةً، وملك بعده «يوليانوس» الملك الكافر علىٰ الروم سنين، وأراد أن يردّ الناس إلىٰ عبادة الأصنام، وقتل من الشهداء خلقًا كثيرًا.

وفي أول سنةٍ من ملكه وثب الأريوسيون ببيت المقدس علىٰ أسقفها الملكي الذي كتب بظهور الصليب ليقتلوه، فهرب منهم، فصيروا أسقفًا أريوسيًّا.

قال: وفي ثاني سنةٍ من ملكه صيّر علىٰ أنطاكية بطركًا علىٰ الأمانة، أقام خمسًا وعشرين سنة، وفي إحدىٰ وعشرين سنةً من رياسته كان المجمع الثاني بقسطنطينية.

قال: وكان في عصره أهل مدينة «نيريار» كلهم صابئون، فوضع أسقف

«نيريار» ميمرًا[١] في ميلاد المسيح، ويقول في ابتدائه الميمر: «السيد ولد مختونًا، فخذوا المسيح من السماء، واستقبلوه علىٰ الأرض».

فلما قرأه عليهم استهزأوا به، وأقبلوا يضحكون منه، فلما كان عيد الحميم وضع ميمرًا في عيد الحميم هتك فيه دين الصابئين، وفضحهم فيه، ومكّن فيه دين النصرانية.

قال: وكان في عصر «يوليانوس» الملك الكافر أول راهب سكن برية مصر، وبنىٰ «الديارات»، وجمع الرهبان.

وكان آخر بالشام وهو أول من سكن برية الأردن، وجمع الرهبان، وبنىٰ «الديارات».

قال: وخرج هذا الملك الكافر لقتال «سابور» ملك الفرس، فلسوء مذهبه، ورداءة دينه، وما أراد أن يأخذ بعبادة الأصنام ظفر به ملك الفرس، فقتله، وقتل من أصحابه مقتلةً عظيمةً.

وذكر أسقف قيسارية، أنه كان جالسًا في محرابه، وحذاؤه لوح فيه صورة «ماري مركورس» الشاهد فنظر إلىٰ اللوح، فلم ير فيه صورة الشاهد، فعجب من ذلك، إذ غابت، فلم يكن إلا ساعةً حتىٰ عادت صورة الشاهد إلىٰ اللوح، وفي طرف الحربة المصورة التي في يد الشاهد شبيهٌ بالدم، فتعجب من ذلك، وبقي متحيرًا حتىٰ بلغه أن الملك الكافر قُتل في الحرب، فعلم أن «ماري مركوس» الشاهد قتله؛ لشدة بغضه الذي كان للنصارىٰ، وما كان عزم عليه من عبادة الأصنام.

وذكر بعد هذا جماعةٌ من البتاركة والأساقفة كان بعضهم أريوسيًّا، وبعضهم

---

(١) بمعنىٰ موعظة، أو خطابًا.

منانيًّا، وبعضهم ملكيًّا.

وذكر فتنًا بينهم، وتعصب كل طائفةٍ لبتركها حتىٰ يقتل بعضهم بعضًا، وينفي بعضهم بعضًا.

وذكر أنه اختلفت آراء النصارىٰ، وكثرت مقالاتهم، وغلبت عليهم مقالة «أريوس»، وأنهم ملكوا عليهم ملكًا اسمه «تذوس» وأن الوزراء والقواد اجتمعوا إليه ذاكرين أن مقالات الناس اختلفت وفسدت، وغلبت عليهم مقالة «أريوس» و «مقدينوس»، فينظر الملك في هذا، ويذبّ عن النصرانية، ويوضح الأمانة المستقيمة.

كتب إلىٰ بطرك إسكندرية، وأنطاكية، ورومية، وأسقف بيت المقدس، فحضروا مع أساقفتهم بقسطنطينية، إلا بطرك رومية فإنه كتب وأنفذ بالأمانة المستقيمة.

فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا، وكان المقدم البطاركة الثلاثة، فدفع الملك إليهم كتاب بطرك رومية، فكان صحيحًا موافقًا، وكان يزعم أن روح القدس إلهٌ، ولكن مخلوقٌ مصنوعٌ.

فقال بطرك الإسكندرية: ليس روح القدس عندي معنىٰ غير حياته، فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوقٌ، فقد قلنا: إن حياته مخلوقةٌ.

وإذا قلنا: إن حياته مخلوقةٌ، فقد زعمنا أنه غير حيّ، وإذا زعمنا أنه غير حيٍّ، فقد كفرنا، ومن كفر وجب عليه اللعن.

فاتفقوا علىٰ لعن «مقدونيوس»، فلعنوه وأشياعه، ولعنوا البطاركة الذين كانوا بعده يقولون بقوله، ولعنوا أسقف لونيه وأشياعه؛ لأنه كان يقول: إن الأب والابن وجهٌ واحدٌ.

ولعنوا «بوليناريوس» وأشياعه؛ لأنه كان يقول: إن جسد سيدنا المسيح بغير فعل.

وثبتوا أن روح القدس خالقةٌ غير مخلوقةٍ، إلهٌ حقٌّ وأن طبيعة الأب والابن جوهرٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ.

وزاد في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا الذين اجتمعوا في مدينة «نيقية»: «وبروح القدس المحيي المميت المنبثق من الأب».

وثبتوا: أن الأب وحده، والابن، وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص في وحدانيةٍ واحدةٍ، وكيانٍ واحدٍ، وثلاثة أقانيم، إلهٌ واحدٌ، جوهرٌ واحدٌ، طبيعةٌ واحدةٌ.

وثبتوا: أن جسد سيدنا المسيح بنفسٍ ناطقةٍ عقليةٍ.

قال: فمن المجمع الأول إلىٰ هذا المجمع الثاني ثمانٍ وخمسون سنةً.

قال: وأطلق بطرك الإسكندرية للبطاركة، والأساقفة، والرهبان أكل اللحم من أجل المنانية؛ ليعرف المناني منهم؛ لأن المنانية لا يرون أكل اللحم، ولا شيئًا من الحيوان البتة.

وكان أكثر أساقفة مصر منانية، فأكل بطاركة مصر[1] وأسقفهم اللحم، وأما بطاركة رومية وقسطنطينية وأساقفتها ورهبانها فلم يأكلوا اللحم، وأكلوا بدل اللحم السمك، وأقاموه مقام اللحم؛ إذ كان حيوانًا.

قال سعيد بن البطريق: لم يطلق أكل اللحم علىٰ أنهم يعتاضون منه

(١) لعل هنا خطًا، إذ كيف يأكل أهل مصر اللحم وهم منانية، ويتركه أهل رومية والقسطنطينية، وهم ليسوا منانية.

بالسمك؛ إذ ليس بذبيحةٍ، ويمنعون أكل اللحم؛ إذ كان قد أخطأ الذين أقاموا السمك مقام اللحم، وسيدنا المسيح فقد أكل اللحم، فوجب ضرورةً أكل اللحم اقتداءً بالسيد المسيح، ولو يومًا واحدًا في السنة؛ ليزيلوا الشكّ من مذهب المنانية.

قال: وفي «الأبركسس» مكتوبًا: ما نظره «بطرس السليح» بيافا من تنزل السبنية، وفيها كل ذي أربع قوائم، ولهذا الحكم كل من لم يأكل اللحم مخالفٌ لشريعة النصرانية، ومضاهٍ لمذهب الصابئة الروم، وهم لا يغتسلون إلىٰ اليوم؛ لأن المنانية لا يرون الغسل بالماء، فلما طال بهم الزمان أقاموه علىٰ هذه السنة.

وقال قوم: إنما تركوا الغسل بالماء لشدة برد بلادهم، وبرد الماء عندهم، وأنه لا يتهيأ لهم بالجملة أن يقربوا الماء في الشتاء لثلجه وبرده، فصار سنةً جاريةً شتاءً وصيفًا.

والمنانية صنفان: السماعون، والصديقون: فالسماعون: يصومون في كل شهرٍ أيامًا معلومةً.

والصديقون: يصومون الدهر كله، ولا يأكلون إلا ما نبت من الأرض.

فلما تنصروا خافوا أن يتركوا أكل اللحم، فيعلم بهم، فجعلوا لأنفسهم صيامًا، فصاموا الميلاد والحواريّين، فلما طال بهم الزمان، وتربوا في هذا الصوم أكلوا اللحم، فتبعتهم في ذلك النساطرة، واليعاقبة، والمارونية[1]، وصارت سنّةً

---

(١) هي طائفة من طوائف النصارىٰ الكاثوليك الشرقيين الذين يقولون أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، وينتسبون إلىٰ القديس مارون، الذي عاش في الجبال والوديان، وتوفي عام ٤١٠م، ويعرفون باسم الموارنة. ومركزهم الآن في لبنان. من أعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

استحسنتها الملكية فتبعوهم، وخاصّةً المقيمون ببلاد الإسلام.

وأما الروم فما تركوا أكل اللحم في أيام صوم الميلاد، وصوم الحواريّين، وتلك الأيام التي يظنّ أنها من جملة الصوم الكبير، فمن أحبّ أن يصوم الميلاد والحواريين والسيدة، ولا يأكل لحمًا، فليس بواجبٍ، وليس لأحدٍ قطع اللحم طول السنة إلا في صوم الأربعين المقدسة فقط، ومن فعل بضد ذلك مخالفٌ راجعٌ إلىٰ أصحاب الآراء المختلفة.

قال: وفي ثمان سنين من ملك «ثذوس» ظهرت الفتية الذين كانوا هربوا من «ذاقيوس» الملك، واختفوا في الكهف.

وذلك أن الرعاة علىٰ طول الزمان كانوا إذا جازوا بذلك الموضع الذي هو الكهف، قلعوا الطوب المبني علىٰ باب الكهف حتىٰ عاد مفتوحًا كالباب.

فلما انتبهت الفتية توهّموا أنهم كانوا نيامًا ليلةً واحدةً، فقالوا لصاحبهم الذي كان يذهب يبتاع لهم الطعام: امضِ، واشترِ لنا طعامًا، واستعلم خبر «ذاقنوس».

فلما خرج إلىٰ باب الكهف نظر إلىٰ البنيان والهدم، ثم مضىٰ حتىٰ بلغ باب المدينة ـ وهي «أفسس» ـ فرأىٰ باب المدينة عليه صليبٌ كبيرٌ منصوبٌ، فأنكر ذلك في نفسه، وقال: أحسب أني نائمٌ.

فأقبل يمسح عينيه وينظر يمينًا وشمالًا، هل يرىٰ من يعرفه، فلم يرَ، فبقي متحيرًا، وقال: لعلّي أخطأت الطريق، ولعل هذه مدينةٌ أخرىٰ.

ثم دخل المدينة، فدفع دراهم مما كان معه عليها صورة «ذاقيوس» الملك، فأنكر عليه، وقالوا: لعله أصاب كنزًا.

ثم قالوا: من أين لك هذه الدراهم، وإلا قتلناك؟ فلم يكلمهم، وصاح

الناس، فاجتمع إليه خلقٌ كثيرٌ، وكلموه فلم يكلمهم، فصاروا به إلىٰ بطريق المدينة، وكلمه فلم يتكلم، فهدده فلم يتكلم، فجاء إلىٰ أسقف المدينة فكلمه وخوفه، وقال: إنك إن لم تكلمني، وتقل لي من أين لك هذه الدراهم، وإلا قتلتك.

وإنما كان يمتنع من الكلام خوفًا من «ذاقيوس» الملك، فقالوا له: إنه قد مات، وملك بعده جماعة ملوك.

فضربوه حتىٰ آلمه الضرب، فخبرهم بحاله علىٰ جليتها.

فقالوا له: إن «دقيانوس» قد مات، وملك بعده ملوكٌ كثيرةٌ، والملك اليوم «ثذوس» الكبير، وقد ظهر دين النصرانية.

ثم سار معهم إلىٰ الكهف، فنظروا إلىٰ أصحابه، والصندوق النحاس الذي في الصحيفة الرصاص، مكتوبٌ فيها قصتهم وخبرهم، فكثر تعجبهم، وكتبوا إلىٰ الملك يعلمونه بخبرهم، فركب وسار إلىٰ مدينة أفسس، فنظر إليهم وكلمهم.

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتًا، فأمر أن يتركوا في الكهف، ولا يخرجوا، ولكن يدفنوا فيه، وتبنىٰ عليهم كنيسة، وتسمىٰ بأسمائهم، ويعيد لها عيدٌ في كل سنةٍ في ذلك اليوم، وانصرف إلىٰ قسطنطينية.

قال: فمن وقت هرب الفتية من «ذاقيوس» إلىٰ الكهف إلىٰ الوقت الذي ظهروا فيه وماتوا، مائةٌ وسبعٌ، أو تسعةٌ وأربعون سنةً.

قلت: هذا مما أخطأ فيه، فإن الله تعالىٰ أخبر أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين، وازدادوا تسعًا.

لكن بعض المفسرين زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله: ﴿ٱللَّهُ

أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ [الكهف:٢٦] وليس كذلك، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب، بل ذكره كلامًا منه تعالىٰ.

قال سعيد: وفي زمنه كانت قصة بترك قسطنطينية «يوحنا» الملقب بـ «فم الذهب»، وتولىٰ بعده ابنه «ثذوس» الصغير اثنين وأربعين سنةً لإحدىٰ عشرة سنةً من ملك «يزدجرد بن بهرام».

وفي زمنه جعل «نسطورس» الذي تنسب إليه مقالة النسطورية بطركًا علىٰ قسطنطينية.

قال: وكان «نسطورس» يقول: إن مريم العذراء ليست بوالدة إلهًا علىٰ الحقيقة، ولذلك كان اثنان:

أحدهما: الذي هو إلهٌ مولودٌ من الأب.

والآخر: الذي هو إنسانٌ مولودٌ من مريم.

وأن هذا الإنسان الذي يقول: إنه مسيحٌ بالمحبة متوحدٌ مع ابن إلهٍ، ويقال له: «إله» و «ابن إله» ليس بالحقيقة، ولكن موهبةً، واتفاق الاسمين والكرامة شبيهًا بأحد الأنبياء.

فبلغ قوله بطرك الإسكندرية، فأنكر ذلك، وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته، ويعرفه فساد ما هو عليه، ويسأله الرجوع إلىٰ الحق، فجرت بينهما رسائل كثيرةٌ، ولم يرجع «نسطورس» عن مقالته.

فكتب إلىٰ بطرك أنطاكية يسأله أن يكتب إلىٰ «نسطورس»، ويعرفه قبح فعله ورأيه، وفساد مقالته، ويسأله الرجوع إلىٰ الحق، فكتب إلىٰ «نسطورس» إن هو لم يرجع اجتمعوا، ولعنوه.

وجرت بينهما رسائل كثيرةٌ، فلم يرجع.

فكتبوا إلىٰ بطرك رومية، وأنطاكية، وبطرك بيت المقدس أن يجتمعوا في مدينة «أفسس» لينظروا في مقالة «نسطورس».

فاجتمع بالمدينة مائتا أسقف، مقدمهم بطرك الإسكندرية، وتأخر بطرك أنطاكية فلم ينتظروه، وبعثوا إلىٰ «نسطورس» فلم يحضر معهم، فنظروا في مقالته، وأوجبوا عليه اللعن، فلعنوه، ونفوه، وثبتوا أن مريم العذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حقٌّ، وإنسان معروف بطبيعتين متوحدةٌ في الأقنوم.

وهذا هو خلاف المحبة؛ لأن «نسطورس» كان يقول: إن التحيد ــ أي الاتحاد ـ اتفاق الوجهين، وأما التحيد ــ أي الاتحاد ــ المستقيم فإنما هو أن يكون أقنومًا واحدًا من طبيعتين.

فلما لعنوا «نسطورس» قدم «يوحنا» بطرك أنطاكية، فلما وجدهم قد لعنوه قبل حضوره غضب، وقال: ظلمتم «نسطورس»، ولعنتموه باطلًا.

وتعصب مع «نسطورس» فجمع الأساقفة الذين قدموا معه، فقطع بطرك إسكندرية، وقطع أسقف أفسس.

فلما رأىٰ أصحاب بطرك إسكندرية قبح فعاله، وقع بينهم شرٌّ عظيمٌ، وخرجوا من أفسس، وصار أصحاب بطرك إسكندرية، والمشرقيون حزبين، فلم يزل «ثذوس» الملك حتىٰ أصلح بينهم.

وكتب المشرقيون صحيفةً، وثبتوا فيها الأمانة الصحيحة، وقالوا فيها: «إن مريم العذراء القديسة ولدت إلهًا: ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعة، ومع الناس في الناسوت» وأقروا بطبيعتين ووجهٍ واحدٍ، وأقنومٍ واحدٍ، ولعنوا «نسطورس»، ووجهوا بالصحيفة إلىٰ بطرك إسكندرية، فقبل الصحيفة،

وأجابهم عنها بموافقتهم علىٰ ذلك.

وقال قومٌ: لما قبل صحيفة المشرقيين بدا له ولم يقبل «طبيعتين ووجهًا واحدًا».

قال سعيد بن البطريق: وهم في ذلك كاذبون؛ لأن كتبه تنطق بذلك.

ثم أرسل نسخة صحيفة المشرقيين إلىٰ جماعة من الأساقفة، يعلمهم أن المشرقيين رجعوا إلىٰ الإيمان، وأنهم غير موافقين لنسطورس.

قال: فمن المجمع الثاني إلىٰ المائة والخمسين أسقفًا المجتمعين بمدينة «قسطنطين»، ولعنوا «مقدونيوس» إلىٰ هذا المجمع المائتين أسقفًا المجتمعين بأفسس علىٰ «نسطورس» إحدىٰ وخمسون سنةً.

قال: ولما نفي «نسطورس» صار إلىٰ مصر، فأقام بضيعةٍ في صعيد مصر يقال لها «أخميم»[١]، ومات ودفن بها.

وكانت مقالته قد اندرست، فأحياها من بعده بزمنٍ طويلٍ مطران نصيبين في عصر «بوسيطيانوس» ملك الروم، و «قباد بن فيروز» ملك الفرس، فبثها بالمشرق، فلذلك كثر النسطورية بالمشرق، وخاصّةً أرض فارس بالعراق، والموصل، ونصيبين، والفرات، والجزيرة.

*****

---

(١) إخميم: بلدٌ قديمٌ علىٰ شاطئ النيل بالصعيد. انظر: معجم البلدان (١/ ١٢٣).

[رد ابن البطريق على فرقة النسطورية]

قال سعيد بن البطريق: رأيت أن أرد علىٰ النسطورية في هذا الموضع، وأُبَيِّنَ بطلان قولهم وفساده؛ لأن النسطورية في عصرنا هذا خالفوا قول نسطور القديم، وزعموا أن نسطور كان يقول: «إن المسيح جوهران وأقنومان، إلهٌ تامٌّ بأقنومه وجوهره، وإنسانٌ تامٌّ بأقنومه وجوهره، وإن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته» لأن الأب عندهم ولد إلهًا، ولم يلد إنسانًا، ومريم ولدت إنسانًا، ولم تلد إلهًا.

فيقال لهم: إن كان الأمر علىٰ ما تقولون فالمسيح مسيحان وابنان، فمسيحٌ إلهٌ وابنُ إله، ومسيحٌ إنسانٌ وابنُ إنسان؛ لأنه لا بد لمريم من أن تكون ولدت المسيح، أو لم تلده.

فإن كانت ولدته فلا بد أن يكون ولادًا روحانيًّا، أو جسمانيًّا.

فإن كان جسمانيًّا فهو غير الذي ولده الأب، وذلك يوجب أن يكون مسيحان.

وإن كان روحانيًّا فالمسيح ابنٌ واحدٌ، أقنومٌ واحدٌ، مسيحٌ واحدٌ.

والدليل علىٰ ذلك صفيحة الحديد التي تتحد بها النار، فإنها سيفٌ واحدٌ تحرف، وتمنع، وتقطع، وتضيء.

ولا يجوز أن يكون من الجهة الحديدية هي المحرقة المضيئة من غير جهة النار؛ إذ كان ما لم يكن فيه نارٌ من الحديد غير محرق.

ولا الجهة النارية هي القاطعة المانعة؛ إذ كان شأن النار الإضاءة والإحراق،

لا القطع.

فقد ثبت بهذا وصحّ ما تعتقده الملكية: من أن المسيح أقنومٌ واحدٌ.

وبان زيف قول النسطورية: إن المسيح أقنومان.

قال سعيد بن البطريق: إن أئمة الضلالة ـ أعني نسطوريوس، وأرطيوس، وديسقورس، وسورس، ويعقوب البرادعي، وأشياعهم ـ الذين أرادوا أن يقيم الزيف والمحال، ولم يرجعوا إلىٰ خشية الله، وزاغوا عن سبيل الحق لسوء رأيهم، فقد تورطوا في بحر الضلالة، وهم جميعًا فيما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلًا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته، ويتورط كل واحدٍ منهم في وجهٍ من وجوه الخلطة، ويتمسك به، فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة، وأبين ذلك؛ لتقف علىٰ فساد قولهم.

إن من عظيم تدبير الله، وكمال عدله، وجليل رحمته أن بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، وهي التي من جوهره ليست مخلوقة، ولكن مولودةً منه قبل كل الدهور، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط، ولا كانت الكلمة بريةً منه قط، ولا من روحه الخالقة، ولا من جوهره، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزال، فالتحمت من مريم العذراء وهي جاريةٌ طاهرةٌ مختارةٌ من نسل داود، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين، وطهرها بروح القدس روحه الجوهرية حتىٰ جعلها أهلًا لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها بمسرة الأب، ومؤازرة روح القدس خلقًا جديدًا من غير نطفةٍ آدميةٍ جرت عليها الخطيئة، ومن غير مجامعةٍ بشريةٍ، ولا انفكاك عذرة تلك الجارية المقدسة، فهو إنسانٌ تامّ بجسده، ونفسه الدموية، وروحه الكلمانية التي من صورة الله في الإنسان وشبهه، فكانت مسكنًا لله في حلوله، واحتجابه للطفها عن جميع ما

لطف من الخلائق كلهم.

واعلم أنه لا يُرىٰ شيءٌ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق، ولا يُرىٰ ما هو لطيفٌ من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق.

وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق، فلذلك كانت أولىٰ خلق الله بحجاب الله، فكانت لها حجابًا، ولمن هو ألطف منها، وكانت النفس الدموية لها حجابًا، والجسد الغليظ حجابًا.

فعلىٰ هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحه العاقلة الكلمانية، وصارت كلمة الله بقوامها قوامًا لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها؛ لأنها لم تخلق، ولم تك شيئًا إلا بقوام من كلمة الله الذي خلقها، وكونها لا من شيءٍ سبق قبل ذلك في بطن مريم، ولا من شيءٍ كان لها من نطفةٍ، ولا من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي، فذلك القوام معدودٌ معروفٌ مع الناس لما ضمّ إليه، وخلقه له التحم به من جوهر الإنسان، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة، واحدٌ في التثليث بجوهر لاهوته، واحدٌ في الناس بجوهر ناسوته، وليس باثنين، ولكن واحدٌ مع الأب والروح وهو إياه، واحدٌ مع الناس جميعًا، بجوهرين مختلفين من جوهر اللاهوت الخالق، وجوهر الناسوت المخلوق بتوحيد القوام الواحد، قوام الكلمة التي هي الابن المولود من الله قبل الْأَدْهَارِ كلها، وهو إياه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب، ولا من روح القدس.

قلت: فهذا كلام سعيد بن البطريق الذي قرر به دين النصارىٰ، وفيه من

الباطل ما يطول وصفه، لكن نذكر من ذلك وجوهًا:(١)

قال سعيد بن البطريق: «وذلك مثل ما أن الشعاع المولود من عين الشمس الذي يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نورًا، وفي بيت من البيوت يكون فيه ضياءٌ بنوره من غير مقارنة لعين الشمس التي تولد منها حقًّا؛ لأنه لم ينقطع من العين ولا من الضوء، فكذلك سكن الله في الناسوت من غير أن يفارقه الأب، فهو مع الناسوت وهو مع الأب وروح القدس حقًّا».

فيقال: هذا التمثيل لو قدر أنه صحيحٌ، فإنما يشبه من بعض الوجوه قول من يقول: إنه بذاته في كل مكانٍ، كشعاع الشمس الذي يظهر في الهواء والأرض.

وأما النصارىٰ فإنهم يخصونه بناسوت المسيح دون سائر النواسيت، ولو مثل بهذا من يقول: «إنه بذاته في كل مكان» لكان باطلًا، فكيف النصارىٰ؟!.

فإن الضوء إنما يكون في الهواء وسطوح الأرض، لا يكون تحت السقوف والغيران وباطن الأرض.

ثم هذا التمثيل باطلٌ من وجوهٍ:(٢)

قال سعيد بن البطريق: ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في قرطاس، فهي في القرطاس كلها حقًّا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت، ولا يفارقها العقل الذي ولدها؛ لأن العقل بالكلمة يعرف؛ لأنها فيه، والكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها وكلها في القرطاس الذي التحمت به، فكذلك كلمة الله كلها في الأب الذي ولدت منه، وكلها في نفسها وفي الروح، وكلها في الناسوت التي حلت فيها والتحمت بها.

---

(١) القائل هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد رد عليه من اثني عشر وجهًا.

(٢) رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من خمسة وجوه.

فيقال: هذا التمثيل حجةٌ عليكمْ، وعلىٰ فساد قولكم، لا حجة لكم، وذلك يظهر بوجوهٍ:(١)

قال سعيد بن البطريق: «وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر الناسوت عن انتقالٍ ولا تغيّر ولا احتيالٍ من واحدٍ من الجوهرين عن كثافة، فلا الإلهي احتال أن يكون إلهًا خالقًا، ولا الناسي احتال عن أن يكون ناسيًّا مخلوقًا.

والاحتيال والتغير إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين، مثل الماء والخمر، أو الماء والعسل، أو السمن والعسل، والذهب والورق، والنحاس والرصاص، وما أشبه ذلك؛ لأن كله ثقيلٌ غليظٌ، وكل ثقل تخالطه ثقلة ـ لا محالة ـ يلزمه التغيّر حتىٰ يصير إلىٰ ما كانت عليه الأثقال، فلا الخمر خمرًا، ولا الماء ماءً بعد اختلاطهما، ولكنهما احتالا جميعًا عن جوهرهما، فصار إلىٰ أمرٍ متغيرٍ ليس هو أحدهما بعينه، ولا أحدهما خالصٌ من الفساد والاحتيال عن حاله.

فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيفٍ وخلقٍ غليظٍ لم يخالط تلك الخلطة تغيّرٌ ولا احتيالٌ، مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحدًا، أحدهما يلتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت ـ أي استحالت ـ عن جوهرها أن تكون نفسًا تعرفها بفعالها، ولا الجسد تغيّر ولا احتال عن حاله وأفعاله.

ومثل ما كان تخالط النار والحديد فيلتحمان جميعًا، فيكونان جمرةً واحدةً، من غير أن تكون النار قد تغيرت إلىٰ أن تكون حديدةً ثقيلةً تشج وتقطع، ولا الحديدة تغيّرت واحتالت إلىٰ أن تكون نارًا تحرق، فكذلك تفعل كل خلطةٍ

(١) رد عليهم شيخ الإسلام من تسعة وجوه.

مؤلفةٍ من شيئين مختلفين، أحدهما روحاني لطيفٌ، والآخر ثقليٌّ غليظٌ، مثل النفس والجسد، والنار والحديد، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين، وكل رطوبةٍ وحمأةٍ فهي لا تتغيّر ولا تحتال عن نورها ونقائها وضوئها، مع مخالطتها كل سوادٍ وسخٍ ونتنٍ ونجسٍ.

قال: والخلطة تكون علىٰ ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: خلطةٌ باختلاطٍ من الطبيعتين الثقيلتين واحتيالهما وفسادهما، مثل خلطة الخمر والماء، والخل والعسل، والذهب والورق، والرصاص والنحاس، فإن في ذلك كله وما أشبهه احتيالًا وفسادًا؛ لأن مزاج الخمر والماء ليس بخمرٍ ولا ماءٍ؛ لاحتيال كل واحدٍ منهما عن طبعه واختلاطهما بفسادهما وتغيرهما عن حالهما.

وكذلك خلطة الخل والعسل قد صارت لا خلًّا ولا عسلًا؛ لاحتيال كل واحدٍ منهما، وخلطة الذهب والورق علىٰ مثل ذلك، صارت علىٰ غير صحةٍ، لا من الذهب ولا من الورق، وخلطة الورق والنحاس علىٰ غير صحةٍ، لا من الورق ولا من النحاس.

فهذا وجهٌ من الوجوه الثلاثة.

والوجه الثاني: خلطة افتراقٍ من الطبيعتين الثقيلتين، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدةٍ من الطبيعتين ثابتةٌ في الأخرىٰ بقوامها ووجهها، مثل الزيت والماء في قنديلٍ واحدٍ، ومثل الكتان والقز في ثوبٍ واحدٍ منسوجٍ بكتانٍ مضلعٍ بقزٍّ، ومثل صنمٍ نحاس رأسه من ذهب، وما أشبه ذلك مما لا ينبغي أن يسمىٰ خلطةٌ مع افتراق الطبيعتين والقوامين، مثل ما لا ينبغي أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطةٌ؛ لأن طبيعة القلة فخارٌ قوامها قلة، وليس بينها وبين الماء

خلطة، بل أشد الفرقة.

وكذلك الماء والزيت لولا أن وعاء القنديل الذي هما فيه ضمهما ما اجتمعا، وكذلك الكتان والقزّ ليس بينهما خلطةٌ، وإن كانا في ثوبٍ واحدٍ، ولا بين الذهب والنحاس ولم يسبكا خلطةٌ، وإن جمعها صنمٌ واحدٌ.

فهاتان الخلطتان لا تكونا أبدًا إلا في أثقالٍ جسمانياتٍ غليظةٍ، فإن التحم بعضهما ببعض ـ مثلما يذاب الذهب والنحاس ويفرغان جميعًا ـ وقعت في وجه خلطة الاحتيال والفساد؛ لأن تلك النقرة ليست بذهبٍ صحيحٍ ولا بنحاسٍ صحيحٍ.

فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضًا مثل طوق يكون من نحاسٍ وذهبٍ وقعت من وجه خلطة الافتراق التي لا يحق لها أن تسمىٰ خلطةً.

وفي هذين الوجهين وقع نسطورس وأشياعه، فلزموا خلطة الاحتيال والفساد، فزعموا أن الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية اختلطا في المسيح الواحد، فهو ذو قوامٍ واحدٍ بطبيعةٍ واحدةٍ مختلطةٍ من طبيعتين مختلفتين: إلهيةٍ وناسيةٍ، فأقروا أنهما قد احتالا، والاحتيال فسادٌ.

وألزموا علىٰ هذا القول الكافر طبيعة الله المصائب والموت، وصيروا المسيح لا إلهًا صحيحًا ولا إنسانًا، مثل الذهب والنحاس.

فنسطورس وأشياعه لزموا خلطة الفرقة والانقطاع، فزعموا أن المسيح الواحد ذو طبيعتين مختلفتين: الإلهية وناسية، وذو قوامين معروفين: إلهي وناسي، فصيروا الفرقة خلطةً كالطوق الملون نصفين، أحدهما ذهب والآخر نحاس، والثوب المبطن ظاهره خزٌّ وباطنه قطن، ليس بينهما خلطةٌ في طبيعةٍ ولا قوامٍ.

وليس لهم علىٰ هذا أن يؤمنوا بمسيحٍ واحدٍ؛ لأن الطوق الملون طوقان، والثوب المبطن ثوبان.

فالمسيح مثل ذلك مسيحان، واحدٌ إلهيٌّ بطبيعته وقوامه، مثل قضيب الذهب في الطوق الملون، ومثل ظهاره الخزّ في الثوب المبطن، والآخر ناسي مثل قضيب النحاس في الطوق، وبطانة القطن في الثوب.

والعجب كل العجب كيف لم يفصّل أهل الخلاف والشقاق بين الصنفين كليهما، ولم يفهموا أن هاتين الخلقتين أنهما خلقتان ذواتا أثقال جسمانيةٍ غليظةٍ، ليس فيهما شيءٌ من الخلق الروحاني اللطيف الخفيف، ولذلك لا تقدر الأثقال الغليظة علىٰ الخروج من هذين الوجهين من وجوه الخلطة؛ لأنهما إن اختلطا خلطةً ملتحمةً ممتزجةً صارت إلىٰ احتيالٍ وفسادٍ، وإن قامت علىٰ حالها لا تلتحم ولا يمتزج بعضها ببعض، فهي علىٰ وجه خلطة الافتراق، ومنقطعة بعضها من بعض، وإن جمعها صنمٌ واحدٌ، أو ثوبٌ واحدٌ، فليس يوجد لشيءٍ من الأثقال الجسمانيةٍ وجه خلطةٍ سوىٰ هذين الوجهين أبدًا، إما فساد، وإما انقطاع، إلا أن تكون الخلطة في اثنين، أحدهما ثقيل جسماني، والآخر لطيف روحاني، فإن ذلك هو:

الوجه الثالث من الخلطة: وهي خلطة الحلول، بلا اختلاطٍ ولا احتيالٍ ولا فسادٍ ولا فرقةٍ ولا انقطاعٍ، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية في الطبيعة الثقيلة السفلية حتىٰ تنتشر في جميعها، وتحل بكلها فلا يبقىٰ موضعٌ من الطبيعة الثقيلة السفلية خِلْوًا من الطبيعة الروحانية، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة، ولا تغييرٍ ولا فسادٍ لإحداهما، مثل خلطة النفس والجسد، ومثل خلطة النار والحديد في قوام جمرةٍ واحدةٍ فهي جمرةٌ واحدةٌ بالقوام من طبيعة نارٍ ملتحمةٍ مخالطةٍ لطبيعة الحديدة، بلا فرقةٍ من انقطاعٍ ولا

تخليط احتيالٍ وفسادٍ.

وقد انتشرت النار في جميع الحديدة ولبستها، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتىٰ أنارت الحديدة وأحرقت، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئًا من السواد، ولا البرودة.

فعلىٰ هذا الوجه من الخلطة دبرت كلمة الله الخالقة خلطتها للطبيعة البشرية، فهو مسيحٌ واحدٌ، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل الْأَدْهَارِ كلها، نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، مولودٌ ليس بمخلوقٍ من سوس أبيه وجوهره وطبيعته، وهو إياه من مريم العذراء المولود منها في آخر الزمان بقوامٍ واحدٍ، قوام ابن الله الوحيد الجامع للطبيعتين كلتيهما: الإلهية التي لم تزل في البدء قبل كل بدء، والناسية التي كونت في آخر الزمان المقوم بالقوام الأزلي، فهو مسيحٌ واحدٌ بقوامٍ واحدٍ أزليٍّ ذو طبيعتين: إلهيةٍ لم تزل، وناسيةٍ خلقها له، والتحم بها من مريم العذراء، فقوامه ذلك قوام الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية جامعًا لهما بلا اختلاطٍ ولا فسادٍ ولا فرقة انقطاع، لم يزل قوام الطبيعة الإلهية، ثم هو قوام الطبيعة الناسية قد خلقها وكونها وقومها بقوامه الذي لم يزل يقيم إلا به، ولم يعرف إلا له».

وهذا الذي قد ذكره هذا البترك سعيد بن البطريق المعظم عند النصارىٰ، المحب لهم، المتعصب لهم في أخبارهم التي بين بها أحوالهم في دينهم معظمًا لدينهم، مع ما في بعض الأخبار من زيادة فيها تحسين لما فعلوه، وكثيرٌ من الناس ينكر ذلك ويكذبه، مثل ما ذكره من ظهور الصليب، ومن مناظرة أريوس وغير ذلك، فإن كثيرًا من الناس يخالفه فيما ذكر، ويذكر أن أمر ظهور الصليب كان بتدليسٍ وتلبيسٍ وحيلةٍ ومكرٍ، ويذكر أن أريوس لم يقل قط: إن المسيح خالقٌ.

ولكن المقصود أنه إذا صدق هذا فيما ذكره، فإنه بَيَّنَ أن عامة الدين الذي عليه النصارىٰ ليس مأخوذًا عن المسيح، بل هو مما ابتدعه طائفةٌ منهم، وخالفهم في ذلك آخرون، وأنه كان بينهم من العداوة والاختلاف في إيمانهم وشرائعهم ما يصدق قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

والنصارىٰ يقرّون بما ذكره هذا البترك أن أول ملك أظهر دين النصارىٰ هو قسطنطين، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، وهو نصف الفترة التي بين المسيح ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم، فإنها كانت ستمائة سنة، أو ستمائة وعشرين.

وإذا كان النصارىٰ مقرّين بأن ما هم عليه من الإيمان صنعه طائفةٌ منهم، مع مخالفة آخرين لهم فيه، ليس منقولًا عن المسيح، وكذلك ما هم عليه من تحليل ما حرمه الله ورسوله، وكذلك قتال من خالف دينه، وقتل من حرم الخنزير، مع أن شريعة الإنجيل تخالف هذا، وكذلك الختان، وكذلك تعظيم الصليب.

وقد ذكروا مستندهم في ذلك أن قسطنطين رأىٰ صورة صليب كواكب، ومعلومٌ أن هذا لا يصلح أن ينبني عليه شريعةٌ، فإن مثل هذا يحصل للمشركين عباد الأصنام والكواكب ما هو أعظم منه، وبمثل هذا بدل دين الرسل وأشرك الناس بربهم وعبدوا الأوثان، فإن الشيطان يخيل هذا وأعظم منه.

وكذلك الإزار الذي رآه من رآه، والصوت الذي سمعه، هل يجوز لعاقلٍ أن يغيّر شرع الله الذي بعثت به رسله بمثل هذا الصوت والخيال الذي يحصل للمشركين عباد الكواكب والأصنام ما هو أعظم منه، مع أن هذا الذي ذكروه

عن بطرس رئيس الحواريين ليس فيه تحليل كل ما حرم، بل قال: «ما طهره الله فلا تنجسه، وما نجسه الله في التوراة فقد نجسه ولم يطهره إلا أن ينسخه المسيح».

والحواريُّ لم يُبِحْ لهم الخنزير وسائر المحرمات، إن كان قوله معصومًا كما يظنون.

والمسيحُ لم يحل كل ما حرمه الله في التوراة، وإنما أحلّ بعض ما حرم عليهم، ولهذا كان هذا من الأوصاف المؤثرة في قتال النصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

وقد ذكر من لعن بعض طوائف النصارىٰ لبعض في مجامعهم السبعة وغير مجامعهم ما يطول وصفه، ويصدق قوله تعالىٰ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [المائدة:١٤].

وحينئذٍ فقول هؤلاء: «من خالفنا لعناه» كلامٌ لا فائدة فيه، فإن كل طائفةٍ منهم لاعنةٌ ملعونةٌ، فليس في لعنتهم لمن خالفهم إحقاق حقٍّ، ولا إبطال باطلٍ، وإنما يحق الحق بالبراهين والآيات التي جاءت بها الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقد تقدم ما ذكره سعيد بن البطريق من أخبارهم أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلىٰ كنيسةٍ مبنيةٍ لصنم من الأصنام يعبده المشركون، فيحتال حتىٰ يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقًا أعظم منه، كملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، كما كان بالإسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنمٌ اسمه «ميكائيل» فجعلها النصارىٰ كنيسة باسم ميكائيل الملك، وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم، ويذبحون له.

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوقٍ إلىٰ الشرك بمخلوق أعلىٰ منه، أولئك كانوا يبنون الهياكل، ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب كالشمس والزهرة، وغير ذلك، فنقلهم المبتدعون من النصارىٰ إلىٰ عبادة بعض الملائكة، أو بعض الأنبياء، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧].

قال الحاكي عنهم: «فقلت لهم: إنهم يقولون لنا: إذا كان اعتقادكم في الباري تعالىٰ أنه واحدٌ، فما حملكم علىٰ أن تقولوا: أب وابن وروح قدس، فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون في الله ثلاثة أشخاص مركبة، أو ثلاثة آلهة، أو ثلاثة أجزاء، وأن له ابنًا، ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ابن المباضعة والتناسل، فتطرقون علىٰ أنفسكم تهمةً أنتم منها بريئون.

قالوا: وهم أيضًا لما كان اعتقادهم في الباري جلت عظمته أنه غير ذي جسم، وغير ذي جوارح وأعضاء، وغير محصورٍ في مكان، فما حملهم علىٰ أن يقولوا: إن له عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساق ووجهه يوليه إلىٰ كل مكان، وجنب، وأنه يأتي في ظُلَلٍ من الغمام.

فيوهمون السامعين أن الله ذو جسمٍ وذو أعضاء وجوارح، وأنه ينتقل من مكانٍ إلىٰ مكانٍ في ظُلَلٍ من الغمام، فيظن من لا يعرف اعتقادهم أنهم يجسمون الباري، حتىٰ إن قومًا منهم اعتقدوا ذلك واتخذوه مذهبًا، ومن لم يتحقق اعتقادهم يتهمهم بما هم بريئون منه.

قال: فقلت لهم إنهم يقولون: إن العلة في قولهم هذا: إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأنه يأتي في ظلل من الغمام فهو أن القرآن نطق به، وأن ذلك غير ظاهر اللفظ، وكل من يحمل ذلك علىٰ ظاهر اللفظ، ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء، وأن ذاته تنتقل فهم يلعنونه ويكفرونه، فإذا كفروا من يعتقد هذا فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن لا يعتقدوه.

قالوا: وكذلك نحن أيضًا النصارىٰ، العلة في قولنا: إن الله ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح قدس أن الإنجيل نطق به، والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة والأجزاء والأبعاض، وغير ذلك مما يقتضي الشرك والتكثير، وبالأب والابن غير أبوة وبنوة نكاح أو تناسل أو جماع أو مباضعة.

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة، أو ثلاثة آلهة متفقة، أو ثلاثة أجسام مؤلفة، أو ثلاثة أجزاء متفرقة، أو ثلاثة أشخاص مركبة، أو أعراض، أو قوىٰ، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه أو بنوة نكاح أو تناسل أو مباضعة أو جماع أو ولادة زوجة، أو من

بعض الأجسام، أو من بعض الملائكة، أو من بعض المخلوقين فنحن نلعنه ونكفره ونجرمه.

وإذا لعنا أو كفرنا من يعتقد ذلك فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعد أن لا نعتقده، وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا: أب وابن وروح قدس؛ لأن ظاهر ذلك يقتضي التكثير والتشبيه، ألزمناهم أيضًا نحن التجسيم والتشبيه لقولهم: إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأن ذاته تنتقل من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، وأنه استوىٰ علىٰ العرش من بعد أن لم يكن عليه، وغير ذلك مما يقتضي ظاهره التجسيم والتشبيه» (١).

قال الحاكي عنهم: «فقلت: فإنهم ينكرون علينا قولنا: إن الله تعالىٰ جوهر.

قالوا: إننا نسمع عن هؤلاء القوم أنهم ذو فضلٍ وأدبٍ ومعرفةٍ، ومن هذا صورته وقد قرأ شيئًا من كتب الفلاسفة والمنطق فما حقهم ينكرون هذا علينا، وذلك أنه ليس في الوجود شيءٌ إلا وهو إما جوهرٌ وإما عرضٌ؛ لأن أي أمرٍ نظرناه وجدناه إما قائمًا بنفسه غير مفتقرٍ في وجوده إلىٰ غيره وهو الجوهر، وإما مفتقرٌ في وجوده إلىٰ غيره لا قوام له بنفسه وهو العرض، ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث، فأشرف هذين القسمين القائم بذاته الغير مفتقر في وجوده إلىٰ غيره وهو الجوهر.

ولما كان الباري تقدست أسماؤه أشرف الموجودات ـ إذ هو سبب سائرها ـ أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر، ولهذا قلنا: إنه جوهرٌ لا كالجواهر المخلوقة، كما نقول: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة، وإلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقر في وجوده إلىٰ غيره، وهذا من القبيح أن يقال علىٰ الله

---

(١) رد عليهم شيخ الإسلام من خمسة عشر وجهًا.

تعالىٰ.

فقلت لهم: إنهم يقولون: إنا إنما نمتنع مِن تَسَمِّيهِ جوهرًا؛ لأن الجوهر ما قبل عرضًا وما شغل الحيز، ولهذا ما يطلق عليه القول بأنه تعالىٰ جوهر.

قالوا: إن الذي يقبل عرضًا ويشغل حيزًا هو الجوهر الكثيف، فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضًا ولا يشغل حيزًا، مثل جوهر النفس، وجوهر العقل، وجوهر الضوء، وما يجري هذا المجرىٰ من الجواهر اللطيفة المخلوقة.

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضًا ولا تشغل حيزًا، فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف، ومركّب اللطائف بالكثائف يقبل عرضًا ويشغل حيزًا، كلا!».

والجواب من وجوه:(١)

ثم قالوا: «إنا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم، وما يأخذون به أنفسهم من الفضل، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان: شريعة عدلٍ، وشريعة فضل؛ لأنه لما كان الباري عدلًا وجوادًا وجب أن يظهر عدله علىٰ خلقه، فأرسل موسىٰ إلىٰ بني إسرائيل، فوضع شريعة العدل وأمرهم بفعلها إلىٰ أن استقرت في نفوسهم، ولما كان الكمال الذي هو الفضل لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال وجب أن يكون هو تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه الذي يضعه؛ لأنه ليس شيءٌ أكمل منه، ولأنه جوادٌ وجب أن يجود بأجل الموجودات، وليس في الموجودات أكمل من كلمته، لذلك وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب أن يتحد بذاتٍ محسوسةٍ يظهر منها قدرته وجوده، ولما لم يكن في المخلوقات أجل من الإنسان اتحد بالطبيعة البشرية من

(١) رد عليهم شيخ الإسلام من سبعة وجوه.

السيدة الطاهرة من مريم البتول المصطفاة علىٰ نساء العالمين، وبعد هذا الكمال ما تبقىٰ شيءٌ يوضع؛ لأن جميع ما يتقدمه وما يأتي مقتضيه، وما يأتي بعد الكمال غير محتاج إليه؛ لأن ليس شيءٌ يأتي بعد الكمال فيكون فاضلًا، بل دون، أو أخذ منه، فهو فاضل لا يحتاج إليه، وفي هذا القول نفع، والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، وهذا مما عرفته من أن القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم في محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما يحتجون به عن أنفسهم، فإن يكن ما ذكروه صحيحًا فلله الحمد، وإن كان خلاف ذلك فمولانا يكتب ذلك فقد جعلوني سفيرًا، والحمد لله رب العالمين».

والجواب علىٰ هذا من وجوه:[1]

*****

---

(١) رد عليهم من اثني عشر وجهًا رحمه الله تعالىٰ.

الفهرس

*****